


تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثانية
العدد الأول

ربيع الأول ١٣٦٩ هـ
يناير ١٩٥٠ م

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
"قرآن كريم"






رسالة الإسلام

مجلّة اسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من
المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتيرالعام
لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدّى لنشرها

مجمع البحوث الاسلامية للآستانة الرضوية المقدّسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية

١٤١١هـ/ ١٩٩١م

الأمور الفنّية والطبع
مؤسسة الطبع والنشر فى الآستانة الرضوية المقدّسة

# بسم الله الرحمن الرحيم

## كلمة التحرير

بسم الله القوى العزيز تفتتح المجلة عامها الثانى ، وإنا لنحمده تعالى ونشكره على سابغ نعمته ، وجزيل فضله ، ونسأله أن يتولانا فيما نستقبل من أمرنا بما تولانا به فيما مضى من هداية وتوفيق وعون ، ونصلى ونسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

لقد وفق الله « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » إلى إصدار هذه المجلة لتكون لسانا ناطقا لدعوة الحق ، وترجمانا صادقا عن قلوب أهل الإيمان ، وبرهانا ساطعا على أنهم أمة واحدة فى العقيدة وما يدينون الله به ، وإن بَدَوْا فى ظاهر الأمر فرقا أو مذاهب تختلف وتتجادل ويتعصب بعضها على بعض .

وقد شعر القارىء العربى ، بل القارىء الإسلامى فى أية لغة من اللغات ، أن هذه المجلة طراز فريد بين رصيفاتها من المجلات الدينية فى غايتها وموضوعها وأسلوبها ومظهرها ومخبرها ، وأن غيرها لا يغنى عنها ، وغاية ما ترجوه صحيفة من الناس أن يشعروا بذلك فيحرصوا على اقتنائها ، ويتابعوا فكرتها ، ويشغلوا أنفسهم بما تشغلهم به ، سواء أوافقوها على ما ترى أم خالفوها فيه أو فى بعضه ، وقد شعرنا بأننا ـ ولله الحمد والمنة ـ قد أرضينا السواد الأعظم من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه ، لا فرق فى ذلك بين طائفة وطائفة فى ربوع آسيا وأفريقا ، وأرباض أوربا وأمريكا ، وحيث سرى فى مشرق من الأرض أو مغرب أو شمال

أو جنوب ، صوت خلفاء « بلال » يجلجل بشعيرة الاسلام . فما من هؤلاء أحد إلا قد أرضاه ، وأثلج صدره ، وأقر عينه ، أن تقوم فى القاهرة المعزية مدينة الأزهر جماعة تدعو إلى الوحدة ، وتبصّر المسلمين بعواقب التفرق ، وتجمعهم على أصول دينهم ، وأمهات عقائدهم ، وتنفى عنهم زيغ الزائغين ، وتحريف المبطلين وغُلْو الغالين ، وقِلَى القالين ، وتردهم إلى حكم الله ورسوله إذا اختلفوا ، وتلك سبيل المؤمنين .

ذلك بأنهم جميعا قد ذاقوا وبال التفرق ، فى شعوبهم وبلادهم وعلومهم وثقافاتهم وسياستهم وثرواتهم وسائر مرافقهم ، وأدركوا أن الحرب التى أعلنت عليهم منذ قرون قد طحنتهم أرْحاؤها ، واغتالتهم أغوالها ، وأنها حرب بهم عليهم ، زُيِّن لهم أن يوقدوها ويكونوا وَقودها ، ثم رأوا الذين أغروا بينهم مجانيها مَكْرا وخَتْلا يقولون إنا منكم ومن خصوماتكم بِراء « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » لذلك نظروا إلى « جماعة التقريب » نظرة من أحاط بهم الحريق إلى جماعة المنقذين ، واستمعوا إلى صوت « رسالة الاسلام » كأنه صلصلة الأجراس ، التى تؤذن بوشك النجاة والخلاص .

وإذا كنت قد قلت : إن هذا هو شعور الأمة الاسلامية كلِّها ، لا فرق بين ناطق بالعربية أو بغيرها من اللُّغى ، فلم يكن ذلك إسرافا فى ذكر الحقيقة ، أو تعلقا بجانب من الأمل أو الخيال ، فإن بحوث هذه المجلة تنقل إلى أهم اللغات التى يتحدث بها المسلمون كالتركية والفارسية والانجليزية والأوردية ، وإن أعدادها تصل بانتظام إلى الأندية العلمية والمكتبات وكل ذى رأى من جماعة أو فرد فى العالم الإسلامى ، وإن الرسالات التى يحملها إليها البريد ، أو تتلقاها عن أصحابها « دار التقريب » شفاها فى زياراتهم أو مقابلاتهم لبعض أعضائها ، لصلات علمية وثيقة بيننا وبين أصحاب الفكر الحر ، والآراء الناضجة ، وأمارات واضحة على حيوية الروح الاسلامى ، وعمق إحساسه بما آل إليه أمره ، وشدة رغبته فى التخلص

من آثار الماضى الذليل الضعيف ، والتمسك بأسباب متينة تهديه إلى مستقبل قوى عزيز فى ظلال الوحدة الدينية ، والأخوة الإسلامية ، تحت راية القرآن الكريم .

ولقد نرى فيما يجيئنا من تلك الرسالات ، أو ينقل إلينا من أخبار المجالس العلمية وأندية الرأى ، خلافا على بعض ما نرى ، أو نقدا لنا يصل أحيانا إلى حد يشبه اللوم ، ولسنا نضيق بشىء من ذلك ذرعا ، ولا نألم له ، ولا يساورنا ضعف أو تردد حين نظهر عليه ، فإنا لنعلم أن الأفكار الصالحة لا بد أن تجد فى أول أمرها مقاومة ، ولعلها أن تشمئز منها بعض القلوب ، ولو كنا نقدر أن فكرتنا ستجد من الناس إجماعا حتى لا يشغب عليها شاغب ، ولا ينعب عليها ناعب ، ولا يمحصها عقل مجرب ، ولا تختلف فيها موازين النقد ، ومقاييس الرأى ، ولا تنوشها بين ذلك سهام وسهام ؛ لكنا عن سنة الله فى الحياة غافلين ، أو لكان زعمنا أن هذه الأمة فى حاجة إلى إصلاح تجنيا عليها ، وسوء ظن بها ، فإنما هى إذن من الصلاح والنضج بحيث لا تحتاج إلى دعوة ، ولا تفتقر إلى إنذار وتبشير ، فنحن نأخذ من رد الفعل الذى تسجله « دار التقريب » لنا أو علينا فى أية صورة من الصور ؛ دليلا على وجوب الجهاد ، ومعاذ الله أن نكون مجاهدين فى غير عدو ، أو منازلين الأوهام حيث لا ميدان .

فليعلم الناس إذن أننا بعرَض استقبال عدو قبل أن نكون بعرَض استقبال صديق ، فإن الداء عصىّ ، والعدوّ قوىّ ، وإن أخطر الأمراض وأحقها بالعلاج ما خُيِّل للمريض أنه السلامة والصحة ، وإن أفتك الأعداء عدوّ مخاتل يأتيك فى ثياب صديق ، فاللهم عونك وتوفيقك وهدايتك ، واللهم صبرا وتثبيتا ونصرا .

* * *

وقد كان من فضل الله على « جماعة التقريب » وأسرة مجلتها « رسالة الإسلام » أن هيأ لها فى هذا العام أمرا مباركا ميمونا إن شاء الله ، إذ أدى شعيرة الحج والزيارة كلٌّ من حضرات أصحاب الفضيلة والسماحة : الشيخ عبد المجيد سليم ،

وكيل الجماعة ، والسيد أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر ، والسيد عبد العليم الصديق العالم الهندي المجاهد ، وكلهم من أعضاء التقريب ، كما أداها مدير إدارة المجلة ، وكاتب هذه السطور عضو الجماعة ، ورئيس تحرير مجلتها .

أما سماحة الأستاذ القمي السكرتير العام لجماعة التقريب ، فقد قام برحلة إلى إيران وبلاد الشرق الأوسط ما زال بها حتى كتابة هذه الفاتحة - في أوائل ربيع الأنور - رده الله إلينا سالما موفقا فيما انتدب له من مصالح الدار والفكرة .

وإن في موسم الحج لمن شهده لعبرا ، فهؤلاء هم المسلمون يقطعون الفيافي والقفار ، ويتركون الأهل والديار ، ويقصدون إلى هذه المناسك - المتفق عليها - من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم ، وإنهم ليطوفون جميعاً حول بيت واحد ، وتجمعهم بين يدي الله ساحة واحدة في وقت واحد ، ويبيتون ليالي في بلدة واحدة مجتمعين لا يعرف أحدهم بجانب أخيه إلا أنه مسلم خاضع لله ، ملتمس رحمة الله ورضوان الله ، فلا السنيّ يومئذ يذكر سنيته ، ولا الشيعي يذكر شيعيته ، ولا يحضرهم خلاف ، ولا يفرق بينهم رأي ، ولا تفسد جماعتهم عصبية ، ولا يذكرون إلا أخوّة الإيمان ، وشريعة القرآن ، ونبوة خير الأنام ، فلو رأيت الشامي والعراقي بجانب المصري ، أو الفارسي بجانب التركي والجاوي ، أو النجدي والحجازي بجانب الهندي : لرأيت لبنات من الأمة الإسلامية تكمن فيها القوة ، وتربطها رابطة الدين على اختلاف الألسنة ، وتنوع الأمزجة والسحن ، وإنما فرقهم وباعد بينهم العدو الذي تقاسمهم ، وحال بينهم وبين إخوانهم ، وصوّر لهم هوّة عميقة من الخلاف تفصل بين شعوبهم وأجناسهم ومذاهبهم ، كأنما هم أرباب نحل ، وأتباع أديان ! فكيف ساغ لهم أن يقتربوا ثم يحتربوا ، وكيف ينسون هذه العروة الوثقى بينهم إذا رجعوا إلى قومهم وقد شرع الله لهم الصلوات في كل يوم خمس مرات ، يهتفون فيها بهتاف واحد ، ويتوجهون فيها شطر هذه القبلة الواحدة حيثما يكونون ؟ أما ورب البيت إن هذا لشيء عجاب .

وأعود بعد ذلك إلى المجلة فأذكر أننا كنا وعدنا قراءنا فى فاتحة العام الأول بأن نأخذ فى الأعوام المقبلة أهبتنا ، ونعـد عدتنا ، لإصـدارها أكثر من أربع مرات فى العام تدريجيا حتى تصل أعدادها إلى عشرة ، وقد تلقينا بعد هذه العـِدَة كتبا ، وأشير علينا بآراء ، فمن القراء من راقته هـذه الخطة وكتب إلينا مبديا رغبته فى الإسراع بتحقيقها ، راجيا أن يكون ذلك سبيلا إلى بث الفكرة الدينية الإصلاحية فى محيط العالم الاسلامى سريعا ، وربط قلوب القراء بعضهم ببعض بأسباب متصلة متقاربة ، فإن بُعد ما بين العـددين قـد يُنسى بعض القارئين فلا تتيسر لهم المتابعة والمواصلة ، ومنهم من عدل فى النهج بعض التعديل ، فأشار بستة أعداد ، فلا أربعة ولا عشرة ، ومنهم من أشار ببقاء المجلة على هذه الأعداد فلا تصدر إلا أربع مرات فى العام ، مزكيا ذلك بأن مجلات المجامع العلمية ، هى أشبه بالكتب الدورية منها بالصحف الأخبارية ، ومن شأن الكتب والمجلات الشبيهة بها أن تعنى بالدراسات الموضوعية ، وأن يمكّن كتابها ومؤلفوها من فترات صالحة للنظر والدرس ، وقد عهدنا كثيرا من الجمعيات العلمية أو الاجتماعية ، وهى تصدر فى العام مرة أو مرتين وأبعد ما تصل إليه أن تكون « رُبْعية » كرسالة الاسلام ، وإن فى ذلك أيضا لتمكينا للقراء — على بعـد المـوَاصل ، واختلاف الألسنة ، وتباين المناهج الفكرية — من التأمل والاستيعاب والرد والمراجعة والترجمة والنشر .

وإننا لنشكر أصدقاءنا وقراءنا على هذه التوجيهات الراشدة . ونغتبط بما تحمله كلها من روح العناية والرضى ، ونعلن أن « رسالة الإسلام » ستبقى هـذا العام إن شاء الله كما كانت فى العام المـاضى « ربعية » تصدر عددا على رأس كل ثلاثة أشهر ، حتى تتركز فى محيط أهل العلم والرأى ، ويتبين أن المصلحة تقضى بغير ذلك دون إعنات ولا إرهاق ، والله المستعان ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المدنى

# تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

---

## سورة البقرة

تمهيد السورة بين غرضيها : طوائف الناس أمام هداية القرآن ـ المؤمنون ، الكافرون ، المنافقون ، لا منزلة بين فريقي الجنة والسعير . أصول الدين عند الله : توحيد الله . الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، الإيمان بالدار الآخرة.

— ٤ —

كان مما ذكرناه ـ ونحن بصدد التعريف بسورة البقرة ـ أن السورة عنيت بأمرين اقتضتهما حالة المسلمين الذين تركزوا بعد هجرتهم الى المدينة جماعة مستقلة ، وصار لهم جوار من أهل الكتاب غير جوارهم فى مكة ، هذان الأمران هما : توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل ، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه ، وفى سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، وهذا هو الغرض الأول الذى استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب ، واستغرق قسما من السورة يبدأ من قوله تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » الى آخر آية البر فى منتصف السورة تقريباً : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » أما الغرض الثانى

فهو التشريع الذى اقتضاه تكوّن المسلمين جماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها ، ويبدأ هذا الغرض من أول قوله تعالى بعد آية البر : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » إلى آخر السورة الذى كان بياناً لعقيدة المؤمنين .

وقد مهدت السورة أمام هذين الغرضين بأمور ثلاثة :

أحدها : بيان طوائف الناس أمام هداية القرآن ، وقد استغرق ذلك عشرين آية من أولها إلى قوله تعالى : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير » .

والثانى : بيان أصول الدين عند الله ، وقد استغرق ذلك تسع آيات من قوله تعالى : « يأيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » إلى قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

الثالث : تذكير بنى الإنسان بقصة الخلق ، وما قام فى شأن آدم من حوار فى الملأ الأعلى ، إذ خلقه الله ، واستخلفه فى الأرض ، وألهمه معرفة خواص الأشياء ، وطبائع الموجودات ، لينتفع بها ، وإذ تبينت عداوة إبليس له ولذريته ، حين عصى أمر الله فى شأنه ، واستكبر عن الخضوع له ، وقد استغرق ذلك عشر آيات من قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » إلى قوله تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بأياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وحسبنا أن نعرض اليوم إلى الأمرين الأولين ، وهما بيان طوائف الناس أمام الهدايه القرآنية ، وبيان أصول الدين عند الله : —

## طوائف الناس أمام هداية القرآن :

بعد أن قرع الله الأسماع ، ونبه القلوب ، بهذه الأحرف المقطعة التى بدأ بها السورة وهى قوله تعالى : « ألف . لام . ميم » أشار إلى القرآن الكريم الذى

أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » أى هذا هو الكتاب الذى تفرد بالسمو من بين الكتب ، وتنزه من جميع نواحيه عن أن يكون محلاً للشك ، أو يدانيه الشك . فهو حق لا ريب فيه ، نزل بالحق من عند الله ، وبين الحق الذى يرضاه الله ، وأخبر بالحق الذى يعلمه الله .

ثم بين بعد ذلك أن الانتفاع بالحق لا يكفى فيه مجرّد أنه حق ، وأنه مبرأ من العيب والشك ، بل لا بد فى الانتفاع به من استعداد ظاهر يُتقبل به ذلك الحق ، ويندفع الناس معه إلى طريق النظر فيه ، وبذلك كان الناس أمام القرآن وما أنزل الله فيه من هداية ، طوائف ثلاثا :

## الطائفة الأولى :

طائفة المتقين ، وهم الذين حافظوا على فطرهم التى خلقهم الله عليها ، فاتقوا مايفسدها ، ويحول بينها وبين إشراق الحق ، فلم تعبث مظاهر المادة باستعدادهم لإدراك ماغاب عن أبصارهم وحواسّهم من الحق الثابت ، فى نشأة العالم ، وإبداعه ، وتدبيره ، ولا بما يجب عليهم من وصل قلوبهم وأرواحهم بالله الذى خلقهم ، وأنعم عليهم ، بالمحافظة على وسائل المراقبة ، واستشعار العظمة الدائمة على الوجه الذى ينمى الصلة بين العبد وربه ، ولا بما ينبغى من معونة الانسان لأخيه الانسان والجود بقسط من المال فى سبيل تخفيف أعباء الحياة عنه : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وكما لم تعبث مظاهر المادة باستعدادهم لهذا الإدراك ؛ لم تمنعهم العصبية الفاسدة لما ورثوا أو عرفوا من قبل ، أن يتقبلوا الحق الذى يصدق ما عندهم وإن بزغت شمسه من غير سمائهم : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

من سلمت فطرته من هاتين العلتين : تسلط المادة والعصبية الفاسدة هم المتقون ، وهم الذين ينتفعون بالكتاب ، وهم الذين يهتدون به ، ويصلون الى أقصى

درجات الفـلاح والفوز فى الدنيا والآخرة ، وفيهم يقول الله عز وجل فى هـذه السورة : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ويقول فى غيرها : « كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » . « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليـك من ربك هو الحق » . « إن الذين أوتوا العـلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سجـدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » . « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . « وإنه لتذكرة للمتقين » .

وهكذا يبين الله فى كثير من آيات القرآن خلال الطائفة التى تنتفع بالقرآن ، وتنتظر الخير والفلاح بهدى القرآن .

الطائفة الثـانية :

أما الذين فسدت فطرتهم بموروثاتهم الفاسدة ، وأوهامهم الضالة ، وعصبيتهم الغاشمة ، وطُمس استعدادهم لإدراك الحق بالمـادة المظلمة ، فلم يعرفوه ، ولم يؤمنوا به ، وطغوا وبغوا ، وعاندوا ولجوا فى العناد ، وأخـذوا يحاربون الله ورسـوله والمتقين فى السر والعلن « وقالوا قلوبنا فى أكنّـة ممـا تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » فالقرآن عليهم عمىً وأولئك هم الـكافرون ، وفيهم يقول الله عز وجل فى سورة البقرة : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » ويقول فى غيرها : « وإنا لنعـلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الـكافرين » . « ولا يزيد الظالمين إلا تبارا » . « لقـد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنـا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحـون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . « سأصرف عن آياتى الذين يتـكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشـد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنـا وكانوا عنها غافلين » . « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

وهكذا يبين الله فى كثير من آيات القرآن أوصاف هذه الطائفة التى لا ينتظر منها الإيمان بالقرآن، ولا يرجى لها أن تنتفع بشىء من هدى القرآن ، وقد جرت سنة القرآن فى التعبير عن هذه الطائفة بالكافرين ، والفاسقين ، والخاسرين ، والضالين ، والمجرمين ، وقد كانت هذه الأوصاف التى اكتسبوها لأنفسهم بمحض اختيارهم ، وبحكم اندفاعهم فى أهواء البيئات الفاسدة ، وقصر عقولهم على مُحَسَّاتهم أساساً لهذا المصير الذى صورته تلك الآيات ، وصورت فيه انسداد مسالك الفهم والادراك بالختم على القلوب ، وبالأكنة فيها القلوب ، وبالأغلال فى الأعناق ، وبالإقماح ، وبالسد من بين أيديهم ومن خلفهم ، وغير ذلك من كل مايصور انزلاقهم وبعدهم عن الحق ، واضطرابهم الذى جنوه على أنفسهم . وما أدق وما أروع تعبيره عنهم بقوله : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

هاتان طائفتان : طائفة المتقين الذين سلمت قلوبهم من مفسدات الإدراك والعلم والنظر ، وطائفة الكافرين الذين سدّت عليهم منافذ الخير وسبل الهداية ، وأعلنوا الكفر والعناد .

وهاتان الطائفتان كثيراً ما تحدث القرآن عنهما فى مكيه ومدنيه ، فإن الدعوة لم تخل مرحلة من مراحلها عن مؤمن بها ، مصدق لها ، وعن كافر بها ، جاحد لآياتها .

* * *

ويرى بعض الناظرين فى القرآن أن الله يتحدث فى هذه الآيات عن الطرفين الكاملين من الفريقين ، فهو حين يصف المؤمنين بهذه الأوصاف يريد أرباب الايمان الكامل الذين لم يلبسوا إيمانهم بشىء ما من المخالفات والعصيان ، كما أنه حين يتحدث عن الكافرين يريد الذين فسدت فطرتهم تماما فلم يعرفوا الخير فى صورة ما من صوره ، وأن هذا لا ينافى أن من المؤمنين فريقاً لم تكمل فيه تلك الصفات ، وهم يتراوحون فى درجات الايمان المتفاوتة ، وهؤلاء ليسوا من الذين يقول الله فيهم : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » فإن ذلك خاص بالكاملين .

والذى أراه أن القرآن لم يجعل الاتصاف بهذه الأوصاف عنواناً على العصمة من الذنوب أو المخالفة فى لون ما من ألوانها ، والحَكَم فى هذا هو الآيات الواردة فى سورة آل عمران وهى قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ؛ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

فقد جعل مما تتناوله كلمة (المتقين) « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » فسوَّى بين هؤلاء وبين من كملت فيهم أوصاف الايمان من جهتين : من جهة اندراجهما معاً فى المتقين ، ومن جهة الجزاء المعد لهم « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » .

نعم بقى فريق ثالث ، هو الذى يزعم لنفسه أنه مصدق بالله وباليوم الآخر ، وهو يفعل الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا يذكر الله فيستغفر لذنبه ، بل يستمر طول حياته غافلا عن ربه غير ذاكر لعظمته ، اللهم إلا تلك الكلمة التى يجريها على لسانه ، ليعلن بها تصديقه وإيمانه دون أن يكون لهذا الايمان وذلك التصديق ما يدل على انطباعه فى النفس ، وتمكنه من القلب ، وهذا فى رأينا ليس من فريق المتقين المؤمنين ، وليست هناك منزلة بين الذين سعدوا والذين شقوا ، وفريق الجنة والسعير .

الطائفة الثالثة :

وقد رأينا القرآن الكريم يتحدث فى المدنى خاصة عن طائفة ثالثة أطلق عليها اسم « المنافقين » ، وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين ، ولكنهم ظهروا بين المسلمين كالمسلمين : قالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، وظنوا أنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين .

ولم تظهر هذه الطائفة إلا فى المدينة حيث تكوّن المسلمون، وقويت شوكتهم، وأخافوا غيرهم، فضعفت طائفة عن المجاهرة بالكفر والعناد فكتموه فى نفوسهم. وفى هؤلاء تقول السورة «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون».

هؤلاء هم المنافقون الذين أعد الله لهم ما شاء من عذاب مقيم، وجعلهم فى الدرك الأسفل من النار. يزعمون أنهم مصدر الخير والصلاح، وهم مبعث الشر والفساد: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون».

اتخذوا لأنفسهم وجهين يقابلون هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه، «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء»، «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون».

وما ابتلى المسلمون فى أى زمان ومكان بشر من هذه الطائفة: تدبّر المكائد، وتروّج الأكاذيب، وتزعزع المؤمنين، وتفسد روابط المحبين، وتنفث سموم الشر والفتن، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم، والتحذير منهم حتى لا نكاد نجد سورة من سور القرآن المدنية تخلو من ذكرهم، ولفْت الأنظار إلى أوصافهم، وقد نزلت فيهم سورة كاملة سميت باسمهم.

ساقت سورة البقرة فى هذا المقام ثلاث عشرة آية بينت بها حقيقتهم وخواصهم وخطتهم فى الحياة، وضربت لحيرتهم واضطرابهم بين ما يظهرون من إيمان، ويبطنون من كفر، مثلين واضحين فى تصوير حالهم، وسوء عاقبتهم: «مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون». أو كمثل قوم نزل بهم صيِّب «مطر» من السماء «فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير»

هذا وذاك مثلان للمنافقين : ظهر لهم الحق فالتوت عنه قلوبهم ، وبزغ عليهم نور الهداية فغشيتهم ظلمة الشهوات والأهواء .

هذه الطوائف الثلاث هي صنوف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن ، بيّنها الله لنبيه وهو شأن لا بد من معرفته لكل داع إلى الحق . لا بد أن يعرف المعانى التى تُقابَل بها دعوته فيتخذ لها أهبته ، ويعامل كل طائفة بما يناسب نزعتها فيطمئن إلى المتقين الذين سلمت قلوبهم ، ويريح نفسه من الذين أعلنوا خصومة الحق ، ويحترس من المنافقين فلا يولىٰ وجهه شطرهم ، ولا يغتر بظواهرهم ، ولا ينخدع بأكاذيبهم ، وبذلك تستقيم دعوته ، ويستقر سلطانه ، وتصل أمته إلى أقصى درجات الخير والفلاح .

أصول الدين عند الله :

وجهت السورة بعد هذا نداء عاما إلى الطوائف كلها بوصف الانسانية العام « يأيها الناس » الذى جُعل عنواناً فى الخلق والتقدير على العقل والنظر والتدبر ، رجاء التخلص مما يفسد عليهم إنسانيتهم التى تقضى باعتناق الحق والعمل بمقتضاه ، والتمتع بلذته والاهتداء بهديه ونوره .

أجملت فى هذا النداء دعوة القرآن التى هى عناصر الحق وأصول الدين عند الله وهى:

(١) التوجه إلى الله وحده بالعبادة .

(٢) الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) الايمان بدار البعث والجزاء .

كان القوم مع اعترافهم بأن الله هو الذى خلق الأرض والسموات ، وأنه هو الذى خلقهم وربّاهم يتجهون فى العبادة والتقديس إلى غير الله يتقربون إليهم ، ويستعينون بهم ، وكانوا إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ؛ فأمروا بعبادة الله وحده ، وأرشدهم فى سبيل ذلك إلى أن الله ربهم هو الذى خلقهم ، وخلق من كان قبلهم من الآباء والأجداد ، وأن نسبة آبائهم وأجدادهم إليه سبحانه كنسبتهم إليه : فهو رب الكل ، وخالق الكل ، والمنعم على الكل .

فليس الحق بالنسبة للجميع إلا ما أمر الله به ، وليس ماسواه إلا الباطل، وإن درج عليه الآباء والأجداد « اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ».

ثم بعد أن أرشدهم إلى دلائل التوحيد القائمة بأنفسهم ، أرشدهم إلى الدلائل المحيطة بهم فى أرضه وسمائه ، والتى أنعم عليهم فيها بوسائل الحياة ومواد الرزق ، فجعل لهم الأرض فراشا ، صالحة للسكنى والسعى والإنبات ، وجعل لهم السماء بناء تشرق عليهم شمسه ، وتضيئهم كواكبه ، وبذلك صاروا بين نعمتى الأرض والسماء يتمتعون بما تنزل السماء عليهم من ماء ، وبما تخرج الأرض لهم من طيبات وأرزاق كل ذلك فى نظام محكم ، وصنع دقيق لا خلل فيه ولا اعوجاج « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » وإذ قد تبينتم الدلائل ، وعرفتم مصدر تربيتكم والإنعام عليكم ، وأنه لا شأن لغير الله فى الخلق والإنعام ، فلتتجهوا إليه وحده بالعبادة والتقديس ، واحذروا كما هو قضية العقل والانسانية البريئة أن تشركوا به شيئا « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

* * *

وكان القوم ينكرون على محمد صلى الله عليه وسلم رسالته ، وينكرون عليه أن القرآن وحى من عند الله ، فحاكمتهم هذه الآيات إلى أنفسهم ، وتلطفت معهم أولا فى المحاكمة : طلبت منهم إن كانوا فى ريب من أن الله أنزل القرآن على عبده وكانوا صادقين فى أنه من عند محمد — ومحمد بشر مثلهم نشأ فى جوّهم ، وفيما بينهم — أن يأتوا من عند أنفسهم بحديث مثل هذا القرآن ، يجمع إلى البلاغة التى خرت لها الجباه ، وإلى الإخبار بالغيوب النفسية والكونية والماضية والمستقبلة قوانين الأخلاق ، ونظم الاجتماع ، وسنن الكون ، وأصول التشريع التى لا ينقضها علم ، ولا تنبو عنها حياة ، طالبتهم بهذا ، وطالبتهم أن يستعينوا فيه بما لهم من شهداء وأعوان وأنصار « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

ثم انتقلت بهم من الملاطفة إلى التحدّى والتحذير « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين » .

سجلت عليهم العجز الدائم المستمر عن الإتيان بمثل القرآن لأنه هو سبحانه الذى أنزل القرآن ، وهو الذى خلقهم ومنحهم القُدَر التى لا تقدر بطبيعتها على الاتيان بمثل هذا القرآن الذى هو من صنعه وتفصيله ، ولا ريب أن تسجيل العجز الدائم فى وقت المعارضة والإنكار هو من أقوى الدلائل على الوثوق بالحق من جانب صاحب الدعوة ، وليس بعد هذا النوع من التحدى سوى الاذعان بأن القرآن وحى من عند الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن إنكار شىء من ذلك لا يكون إلاّ عن محض العناد ، وبدافع الاستكبار .

وفى هذا السياق تحذرهم الآيات — إن استمروا على الكفر — نارا وقودها الناس والحجارة أعدها الله لمن أعرضوا عن الحق وكفروا بآياته ، وتبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار . وبذلك أقامت الآيات الحجة عليهم من أنفسهم ومن الآفاق فى لزوم توحيد الله بالعبادة ، وفى لزوم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى لزوم الايمان بدار البعث والجزاء .

وهذه الثلاثة هى أصول الدين عند الله بعث بها كل نبى ، وطلبها فى كل كتاب وأرسل محمدا يجددها فى القلوب ، ويحييها فى النفوس فيحيا الناس بها فى الدنيا حياة طيبة ، وينعمون بها فى الآخرة بلذة خالدة .

ثم قفت السورة على هذه الأصول بلفت الأنظار إلى بعض نواحى الأدلة الكونية الدالة على حقية هذه الدعوة ، واستبعاد أن يكفر إنسان ذو عقل بها بعد تبينها فى الأنفس والآفاق « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

* * *

هذا عرض موجز للنواحى التمهيدية التى جاءت فى أوائل سورة البقرة بين يدى غرضيها الرئيسيين . وإلى اللقاء فى العدد المقبل إن شاء الله ؟

# شعب من الشرق يضرب مثلا

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمـــد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر والمعاهد الدينية

---

إن للشعوب الإسلامية لعبرة عظمى من هذا المثل الذى ضربه شعب شقيق مسلم ، هو شعب « إندونيسيا » المجاهد ، فقد أصر هذا الشعب على نيل حقوقه كاملة غير منقوصة ، وعلى أن يتمتع بمركز يليق به فى هذا العالم الذى لا يعرف المتخلفين ، ولا يرحم المستضعفين ، ولا يستمع إلى شكاوى العاجزين .

ولـكنه لم يجعل هذا الغرض أملا يداعب رءوس أبنائه ، أو دعاء يتوجه به إلى الله فى علاه ، راغبا إليه أن يغير سنته فينصره وهو لم يغير ما بقلبه ، وإنما أخذ لهذا الغرض أهبته ، وأعـــد له عدته ، وكان أهم شىء فى ذلك أمران : التضحية وإنـكار الذات .

فأما التضحية فقد جعلتهم أمة مجاهدة باسلة تخيف أعداءها ، وترهب المغتصبين لحقوقها ، وقد سرت حمياها فى جميع أفراد الشعب ، من أكبر رجل فيه ، إلى أصغر طفل ، فـكان يبلغنا أن كبار الأغنياء يخرجون من أموالهم وأملاكهم ، ويتركون متاجرهم ومزارعهم ، ليعطوا المجاهدين أموالا وأنفسا وسواعـد قوية ، وأن النساء كن يتبارين فى رفض الزينة والتحلى ليوفرن أثمـان البنادق والقنابل اليـدوية الصغيرة لفتيان أحيائهن ، وليلقين عليهم دروسا فى البسالة ، ويبعثن فى قلوبهم الإقدام والشجاعة ، وأن الأطفال كانوا يتسللون إلى معسكرات الأعداء فى الظلام حيث الجنود الحاشدة ، والمنايا الراصـدة ، فيلقون عليها لفافات « الغاز والبنزين »

المشتعلة فلا تلبث النيران أن تعلوا كأنما تريد أن تصافح بألسنتها الحمراء أطراف السماء، ووقودها الخيام والجند والعتاد، وعندئذ يصيح الأطفال من بعيد صيحات النصر والظفر كأنهم يتلهون برؤية الصواريخ فى يوم عيد.

ولم يبق فى مرافق الشعب إبان معركة الخلاص أحد، فلا وزير ولا رئيس ولا مدير ولا شرطى ولا خفير، وكانت المياه ربما انقطعت عن الجيوش أياما حتى يظمأ الجند، وكان تيار الكهربا لا يكاد يسرى فى الأسلاك ليلة كاملة دون أن يدركه الخلل والفساد فيسود الظلام.

وهكذا جعلوا الغاصبين يقضون فى ضيافتهم الكريهة ليالى سوداء رهيبة إذا أصبحوا فيها فلا يدرون هل يمسون، وإذا أمسوا فلا يدرون هل يصبحون! وعلمت هولاندا أنها ستصلى من هذه الحرب نيرانا حامية لا طاقة لهم بها، وكانوا يحسبون أنهم صائدون فإذا هم المصيدون! أما هيئة الأمم ومجلس الأمن فقد رأت أمة صابرة مثابرة، مؤمنة بحقها قوية فى نضالها، فما لبثت أن أصاخت للحق، واعترفت به لأصحابه ولو كره الغاصبون.

وأما إنكار الذات فيكفى أن نعلم أن أحد رجال الجمهورية، وأصحاب الحكم والسلطان فيها، قد أخذ من بيت الحكم إلى غياهب السجن، وألقى به زيادة فى التنكيل والإرهاب مع شرذمة من أفراد الشعب، فكان قرير العين بهم، يساعدهم ويعمل معهم، وأن أحدهم طُلب ذات ليلة لينفَّذ فيه حكم الجلد الذى أصدرته هيئة عسكرية لمخالفة عدُّوها عليه، فتقدم رجلان كلٌّ منهما يدعى أنه صاحب الاسم المطلوب، وكان أحدهما هو المحكوم عليه، والآخر هو ذلك الرئيس الكبير، فلم يدر رسل العذاب أيهما المطلوب، وعادوا يطلبون ممن أرسلوهم إيضاحا وتبيانا.

وإن ذلك ليذكرنا بالحادث المشابه له فى تاريخ المسلمين الأولين، حيث طُلب عبد الحميد الكاتب للقتل فلبى النداء رجلان، هما عبد الحميد، وصديقه الوفى عبد الله بن المقفع، كلاهما يقول: أنا عبد الحميد.

* * *

وإنى لأذكر «الثورة المصرية» فتعرونى لذكراها هزة من الفخر يعقبها الألم

الممض ، فقد ضرب المصريون يومئذ مثلا عالياً للدنيا فى التضحية والبسالة وإنكار النفس ، واستطاعوا أن يلووا عنق الإمبراطورية البريطانية ، وهى فى عنفوان بطشها ، وإبان غضبها .

لقد لفتت مصر يومئذ بذلك أنظار العالم كله شرقيه وغربيه ، ورجّت الشرق من بطاحه ورِعانه ، كما يقول أمير الشعراء شوقى ، وأطلقت لسان غاندى بطل التضحية والزهد بكلمته المشهورة : « لقد تعلمت الوطنية من الثورة المصرية ! » .

إن المصريين يومئذ كانوا أمة واحدة متماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، لا يفكر أحد منهم إلا فى قضية وطنه ، ولا يعادى أحد منهم إلا أعداء بلاده ، وكان المحتل يعانى كل لحظة أزمة من الأزمات ، وكانت الشوارع فى العواصم والقرى مسارح وميادين لحرب عنيفة تتلق فيها الصدور والرءوس والأجسام نيران البنادق والمسدسات ، والمدافع الرشاشة ، تختلط أصواتها بنداء : يحيا الوطن ، نحن فداء الوطن !

وما لبثت بريطانيا القوية المنتصرة أن اعترفت بحق مصر فى الاستقلال ، ونزلت على مطالب أهلها الأقوياء المتحدين . ولكن ما لبثنا نحن أيضاً ـ بعد أن خطونا فى سبيل الإصلاح والحكم الصالح خطوة أو خطوتين ـ أن دب بيننا دبيب النزاع ، وتحركت فينا كوامن الخلاف ، وذكر كل منا نفسه ، ونسى وطنه ، وكفى الله المستعمرين شر النضال .

فإذا كنت أهنىء شقيقتنا الباسلة « إندونيسيا » بما أفاء الله عليها من نصر وعزة وسيادة ، فإنى أرجو أن يكون لنا ولسائر الشعوب الإسلامية من جهادها واتحادها عبرة ، وأن يكون لها من تطاول العهد على كثير من أمم الشرق بسبب خلافاتها موعظة حسنة ، وأسأل الله أن يثبت خطانا جميعاً ، وأن يوفقنا إلى إعادة مجد الإسلام وعزة الإسلام ؟

# قانون التوازن بين الشرق والغرب
## أين هو وكيف يكون؟

لحضرة صاحب المعـــالى

السيد محمـــد رضا الشبيبى

رئيس المجمع العلمى بالعراق

---

إن فقدان التوازن بين الشرق والغرب فى مختلف شئون الحيـاة من الأمور البديهية التى لا تحتمل الجدال ، فالغرب الآن فى أوج قوته ، والشرق فى حضيض استخذائه ، ولا مطمع لأكثر الشرقيين فى مجاراة الغربيين من حيث مظاهر رقيهم المادى ، وهـو رقى منشؤه تفوقهم فى الصناعات الآلية ، وفى الفنون العمليـة ، فالغربيون الآن يسيطرون على الشرق ، وهم يقيمون فعلا كل العقبات والحواجز التى من شأنها عرقلة نهوضه وتقدمه فى شتى نواحى الحياة ، فنحن الآن مغمورون بطوفان الصناعة الغربية .

وها هو ذا الخطر محدق بما بقى من كيان الحضارات الشرقية من جراء اتصالها بمظاهر الحضارة الغربية .

لقد كانت العزلة فيما مضى سياجا احتفظت فيه حضارات الشرق ، والحضارة الإسلامية خاصة من بينها ، بمميزاتها وخصائصها الروحية ، وأما الآن فلا سبيل إلى العزلة ، بل لا بد من الاتصال شئنا أم أبينا ، أى سواء أكان هذا الاتصال إجبارياً أم اختيارياً ، فإن فنون النقل الآلية ألغت المسافات ، وجعلت من القارات المتباعدة قارة واحدة .

وقد خامر اليأس نفوس كثير من أعلام الشرق فى مجاراة القوم ، فإن الغربيين يتحدثون الآن بغزو الأفلاك ، ويعدون عدتهم للرحلة إلى الأقمار والكواكب السيارة .

ومن رأينا أنه لا محل لهذا اليأس مهما أعصوصبت الأمور ، فإن لنا ـ معشر الشرقيين ـ حضارة جامعة من حقنا أن نعتز بها فى كل حين .

لقد قطع الغربيون حقاً أشواطاً بعيدة فى مضمار الحضارة المادية ، وظهر تفوقهم على الشرق منذ أوائل القرن الماضى إلى اليوم ، وهو تفوق مادىّ خارق ، ترك كثيرا من الشرقيين مشدوهين ، وقد تظهر لنا هذه الحضارة الحديثة بأنها قادرة على قهر الشرق . ومحو كل مقاومة تقف فى طريقها أو تقوم فيه ، ولكن هذا التفوق المادى نفسه هو الذى جر الغربيين أو ساقهم إلى الضعف والانحلال ، وجعل الحضارة الغربية مهددة بالزوال ، كما رأينا ذلك فى الفترة الواقعة بين الحربين الكونيتين الأولى والثانية ، ذلك بأن النواحى الروحية والخلقية لم يكن لها حظ فيه ، فطغت المادية على كل شىء ، وسيطرت المطامع من ناحيه ، والشهوات من ناحية ، حتى بدت آثار ذلك واضحة فى كثير من الشعوب الغربية .

وليس هذا فحسب ، بل نحن نرى الآن كثيرا من أمم الشرق تتحفز ، وتريد جهدها أن تستفيد من هذه العبر البالغة ، وتتجه بشئونها العامة إلى الإصلاح ، وتأخذ بالأساليب الحديثة فى تركيز حياتها على أسس سليمة قوية تجعلها فى مصاف الأمم العظيمة .

إن مصير هذه الحضارة الغربية المادية البحتة معلق فى كفة القدر الآن ، وهو مصير يقلق بال كثير من المفكرين ، وقادة الرأى فى العالم الغربى ، ولذلك يبدو لنا أحيانا أنهم معنيون بالاهتداء إلى مخرج ما ، ينجو بهم وبحضارتهم من الدمار ، ويرى بعضهم أن فى اتحاد دول الغرب ، وفى إبرام ما يبرمونه من عهود ومواثيق سياسية واقتصادية مخرجا من هذا الخطر ، ولكن يتراءى لنا أن الاتفاق

بعيد بين الدول الغربية على توطيد دعائم الطمأنينة والسلام فى العالم ، وذلك بسبب شقاقها واختلافها فى آرائها وفلسفاتها السياسية والاجتماعية .

وهناك من يرى أنه لا مخرج للعالم من هذه المحنة ، إلا بقيام حضارة إنسانية جديدة لا شرقية ولا غربية ، حضارة نبيلة تجمع بين مميزات الحضارة الشرقية الإسلامية ؛ فتعنى كل العناية بتعزيز شأن المعنويات والحقائق الروحية ، وبين مميزات هذه الحضارة الغربية ، فى التنظيم واستخدام هذه الفنون العملية من رياضية وطبيعية فى شئون الحياة .

إن شعوب الشرق تميل إلى الأخذ بالمساواة فى الحقوق بين البشر أفرادا وجماعات قدر الإمكان، طبقا لرسالة الدين الإسلامى وتعاليمه السامية ، والرجاء معقود أن يؤدى الإسلام والعالم الإسلامى نفسه رسالته فى هذه المحنة العصيبة ، وأن يوفق المسلمون بعد وعيهم وإدراكهم الحق لمركزهم ولمكانة الدين الإسلامى بين الأديان ، وللحضارة الإسلامية بين الحضارات ، إلى حل الأزمات والمشكلات التى يعانيها العالم اليوم ، سواء أكانت أزمات روحية أم مادية ، ولعل الشريعة الإسلامية أول شريعة دعت إلى إنشاء سلطة عالمية ، وإلى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وإلى التعاون والإخاء .

إن هذه فرصة ذهبية للمسلمين ، عليهم أن ينتهزوها بلباقة ، وألا يتركوها تفر من أيديهم وهم إليها ينظرون ، وعليها يتحسرون ، بل إنها لفرصة ذهبية للعالم كله ، حيث محصته المتاعب والأهوال التى قاساها ، وهيأته لقبول مبادىء لم يكن من قبل متهيأ لها ، وعلى المسلمين أمام ربهم وضميرهم الإنسانى مسئولية الدعوة والبيان والإقناع بهذه المبادىء .

ومتى أحسن العالم فهم روح الهداية الإسلامية على الوجه الذى بيناه فى هذه الكلمة ، تيسر حصول التوازن بين الشرق والغرب ، وقضى على اختلال قانون الموازنة كما نشاهده اليوم ، وعاش العالم فى ظلال وارفة من الأمن والطمأنينة والسعادة والحياة الكريمة ؟

# النظام المالى فى الإسلام

## لصاحب العزة الكاتب الكبير الدكتور أحمد امين بك

---

النظام المالى فى كل أمة أساس عظيم لحياتها الاجتماعية ، فإن رأيت أمة متقدمة فى المدنية والحضارة ، وفى العلوم والفنون ، وفى المخترعات ووسائل النقل والمواصلات ، وعلو مستوى المعيشة بين أفرادها ، فاعلم أن ذلك ناتج من حسن نظامها المالى ؛ وإن رأيت الفقر المدقع منتشراً بين جمهورها ، وهى منحطة فى زراعتها وعلومها وفنونها ، فاعلم أن ذلك يرجع أولا إلى سوء نظامها الاقتصادى ولذلك قوّمت المدنية الغربية الأمور الاقتصادية تقويماً كبيرا ، بل جعلتها أساساً يؤثّر فى نظامها السياسى ، ونظامها الاجتماعى ، ووُجِد المتخصصون فى المسائل الاقتصادية ، والتعمق فى بحثها ، وإفرادها بعلم يسمى علم الاقتصاد ، له الشأن الأول بين العلوم .

ومن أجل هذا كان من رأى كثير من المصلحين فى الشرق ، أن يوجهوا عنايتهم إلى حالته الاقتصادية ، وأن يقدموا ذلك على الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، فلو أصلحت ، أصلحت الحياة الاجتماعية والسياسية ، ودليلهم على ذلك أن الشرق متأخر فى زراعته ، فليست مبنية على العلم بل هى مبنية على التقاليد القديمة والأوضاع الموروثة ، وإذا سلط العلم على الزراعة أمكن أن ينتج الشرق فى زراعته أضعاف ما ينتج الآن ، وكذلك الشأن فى معادنه المدفونة فى أرضه وصناعته البدائية وما إلى ذلك ، فالشرق غنى ولكن لا يجد الرأس

المفكر والهمة الحازمة والشركات المموّلة واليد العاملة ، ولو أنه أتيح له كل ذلك لكثرت أمواله وزاد غناه ، فنشأ عن ذلك محو الفقر المدقع ، وارتفع مستوى المعيشة ، حتى بين الطبقات الفقيرة ، ثم نتج عن ذلك انتشار العلم وانتشار وسائل المدنية ، ورقى الصناعة ، بل لنشأ عن ذلك أيضا إصلاح السياسية . فالرأى العام الفقير الجاهل ليس له من القوة ما للرأى العام الغنى المثقف . وفى قولهم هذا كثير من الصحة فإنى أعتقد أن الأعداء الثلاثة وهى : الفقر والجهل والمرض تزول كلها بزوال الفقر ، والفقر يزول بتنظيم الحياة الاقتصادية .

* * *

والأرض التى خلقها الله تكفلت بتقديم الضروريات لجميع أبنائها إذا عقلوا ، وقد كان الإنسان الأول مكفى الحاجة قليل الجهد فى الحصول على ضروريات حياته ، فهو يعتمد على ما يجده من أثمار الأشجار أو من الصيد ، ويلبس مما ينتجه الحيوان ، ويسكن الكهوف ، ولا يحس أى إحساس بأزمة مالية ، ولكن شاء الله أن يخلق الإنسان طموحا الى تحسين حاله ، راغبا بطبيعته فى الحياة الاجتماعية ، مضطرا إلى القرار ما أمكن بحكم تربية أولاده الذين يتطلبون فى تربيتهم زمنا أطول مما تقتضيه تربية الحيوان الى غير ذلك ، فزرع الأرض واستقر ، وكلما تقدم الزمن زادت مطالب حياته ، وتأنق فى مسكنه وملبسه ومأكله ، وكان بحكم الطبيعه أن تفاوت الناس فى القدرة على الكسب ، فذكى وغبى ، وماهر وأخرق ، وبعيد النظر وسفيه ، وفيلسوف ومغفل ، الى غير ذلك ، فكان من ذلك اختلاف الثروات ، ومن يعيش عيشة سعيدة ، ومن يعيش عيشة شقية ، ومن يجد فوق حاجته ، ومن لا يجد حاجته ، وكلما تقدمت المدنية زادت هذه الأمور تعقيدا ، وفُكر فى الحلول لها ، ووضعت المقترحات والنظم الاقتصادية لحلها وتنظيمها .

وكان أكبر العقبات الفروق الكبيرة فى الثروة ، واستبداد الغنى بالفقير ، والقادر بالعاجز ، وصاحب رأس المال بالعامل ، وعلى هذه الحلول والمذاهب

الاقتصادية انقسمت الأمم الأوروبية الى رأسمالية وشيوعية وفاشية ، ولكن مع الأسف ليس حلٌ منها أراح الناس ولا حلَّ المشاكل ، وأسباب فشلها كثيرة ، منها : أن النظام الاقتصادى نُظر إليه كأنه مستقل بنفسه ، كأن الإنسان حيوان اقتصادى فقط ليس له خلق ولا عقل ولا روح ، فالذين يكتبون فى الاقتصاد يوجهون كل هممهم إلى المسائل الاقتصادية مجردة عن النظرات الأخلاقية والإنسانية ، ويحاولون حل مسائلهم من هذه الزاوية وحدها ، فمثلهم مثل المهندس الذى يضع كل همه فى إصلاح الحائط المائل من غير أن يلتفت أى التفات الى بناء البيت كله ، أو كالطبيب الذى يداوى المعدة من غير أن ينظر الى علاقة المعدة بالجسم كله ، فالإنسان منتج ومستهلك من حيث الاقتصاد ، ولكن له بجانب ذلك ناحية خلقية ، وناحية اجتماعية ، وناحية روحية ، وكلها تنتج الإنسان كإنسان ، فالنظر إليه من ناحية واحدة نظر لايجدى ، من أجل هذا كان سلوك الناس الخلقى ضربة مميتة للحياة الاقتصادية ، فالأغنياء الذين تكدست عندهم الثروة لم ينظروا إلا الىأنفسهم ، فتوسعوا فى وسائل الملاذ ، وبحثوا كل يوم عن مصدر جديد للذة وتفننوا كل التفنن فى أثاث البيت ومطعمه وأدوات زينته تفنناً عز عن الوصف من غير التفاتة الى إخوانهم الفقراء الذين لا يجدون ضرورات العيش ، فنشأ عن ذلك الصراعُ الشديد بين طبقات الفقراء وطبقات الأغنياء وكراهية كل لكل .

وقد حاولت الشيوعية أن تنظم هذه العلاقة وتقرب هذه المسافة ، فنجحت فى هذا ، ولكن وقعت فى الخطأ الذى وقع فيه غيرها من المذاهب الاقتصادية ، فتصورت الإنسان كأن ليس له دين ولا عواطف ولا حرية ولا شخصية ، وإنما هو حيوان لايسبح الا فىالدائرة المالية ، وفيها عيب آخر وهو أن استبداد أصحاب رءوس الأموال المتعددين تركز فى النظام الشيوعى فى يد الحكومة وأعوانها فأصبحت هى الوحيدة صاحبة رأس المال ، وكان لها من التحكم فى الأفراد وسلب حريتهم ما لم يستطعه أصحاب رءوس المال المتعددون ، اذ كان فى تعدد الرأسماليين منفذ للعمال ، اذ ينتقلون من صاحب رأس مال قاس الى أقل منه قسوة

وهم أنفسهم يتبارون فى التودد للعمال استجلابا للانضمام اليهم والعمل معهم، وليس ذلك موجوداً فى الشيوعية .

* * *

نظام الإسلام المالى قد بنى على أسس أخرى من أهمها ربط الحياة الاقتصادية بالحياة الخلقية ، بالحياة الاجتماعية ، بالحياة الدينية ، فلم ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد حيوان اقتصادى ، بل شرّع فى الأمور المالية بحيث يمتزج الاقتصاد بالقانون بالأخلاق ، فإذا كان الربا من الناحية الاقتصادية مباحاً كالبيع إذا كان الربا فى حدود معتدلة ، فإن الأخلاق لا ترضى عنه من حيث سوء العلاقة بين معطى المال بالربا وآخذه ، ولذلك حرمه الإسلام غير ناظر إلى الناحية الاقتصادية وحدها . ثم هو وضع التعاليم الأخلاقية التى تكرّه الإنسان فى اختزان الذهب والفضة من غير أن يعين إخوانه الفقراء من الناس كأن يقول : إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

وقد حارب الأسلام مشكلة المشاكل وهى الإفراط فى الغنى ، والإفراط فى الفقر بوسائل شتى منها ما ذكرنا من تحبيب الناس بعضهم فى بعض ، وعطف الغنى على الفقير ، والنظر إلى الجانب الخلق بجانب النظر إلى الجانب المالى ووردت فى ذلك الآيات الكثيرة والأحاديث الكثيرة التى تشعر الإنسان بأخيه الإنسان وتحببه إليه ، وتحننه عليه .

ومن ذلك أيضا أنه حرّم الإفراط فى الملاذ وطلب الاعتدال فيها ، ناظراً الى أن الغنى اذا لم يفرط فى مَلاذه ولم يجد منافذ للإنفاق الكثير فى شهواته ، ولم يجد المال نافعاً فى الانغماس فى نعيمه ، تحوّل بالضرورة الى النظر الى الفقراء ومساعدتهم ومعونتهم . فمثلا حرَّمَ على الرجال لبس الحرير والتحلى بالذهب ، وكره الأناقة فى المساكن والملابس ، وحبب الى المؤمنين التخشن حتى لا يفقدوا رجولتهم ، وحرم الخمر والميسر والزنا ، وكلها من قبيل الإفراط فى اللذات حتى لا يستتبع ذلك الجشع فى طلب المال والحرص على اكتنازه

ثم فرض الزكاة ويعجبنى تسمية الإسلام الزكاة بهذا الاسم ، فهو اسم خير من كلمة الضريبة ونحوها من كلمات لأنها ترمز الى أن اخراج الزكاة تطهير للمال الباقى ، فكأن المال المكنوز نجس لا تطهره الا الزكاة . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وهذا القدر من الزكاة وهو ٢ر٥ ٪. قد يكون قدراً ضئيلا ولكنه هو القدر القانونى ، وبجانب ذلك ، القدرُ الكبير الأخلاق ، وهو الذى سُمِّىَ الإحسان ، وهذا لا حد له ، وإنما هو موكول الى ضمير الشخص وخلقه وعطفه وميوله الدينية والخلقية التى يحاول الإسلام أن يغرسها وينميها باستمرار .

ومن ذلك أيضاً نظام الإرث ، فكثير من النظم الأوروبية حصرت الإرث فى الابن الكبير أو نحو ذلك ، فكانت الثروة بمجموعة تنتقل من شخص الى شخص وهى بعينها لا ينقص منها شىء ، أما نظام الإسلام فوزعها وجعل لكل من الأولاد ذكوراً وإناثاً نصيبا منها ، وكذلك للأب والأم والزوج والزوجة ، الى غير ذلك ، فكان هذا عاملا كبيراً فى انقسام الثروة وتوزيعها على عدد كبير من الناس ، وتقريباً للمسافات البعيدة بين الغنى المفرط والفقر المفرط .

* * *

فلو تصورنا مجتمعاً سادت فيه هذه التعاليم ، وخضع فيه النظام الاقتصادى للسلوك الأخلاقى ، وحُرِّم فيه على الأغنياء أن يسرفوا فى الملاذ والملاهى ، وفُرض عليهم جزء قانونى من المال يصرف فى وجوه البر والأخذ بيد الفقير ، الى مال لا حدَّ له يصرفه الغنى لمساعدة الفقير يسمى إحسانا ، الى توزيع الثروة توزيعاً كبيراً بين أفراد متعددين ، لكان مجتمعاً قد تبرأ من حقد الفقراء على الأغنياء ، وعسف الأغنياء بالفقراء ، ولكان مجتمعاً تتقارب طبقاته ، فلا فقير مدقع ولا غنى جشع ، ولكان مجتمعاً قد حلَّ أهم المشاكل التى عجز الاقتصاد وحده عن أن يحلها ، ولكن مع الأسف ، مبادىء سليمة لم تجد من يطبقها ، وآراء قويمة أهملت وسار المسلمون أنفسهم على ضدها .

الحق أن الإسلام خير من أهله ؟

# القرآن والمفسرون

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

---

قال الله تعالى : ( واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما ) .

يقول المفسرون فى معنى قوله تعالى : ( واللاتى يأتين الفاحشة ... الخ ) إن المراد بالفاحشة فاحشة الزنا ، وإن عقوبتهن على الزنا كانت هى الحبس فى البيوت الى أحد الأمرين الموت أو السبيل الآخر ، ثم نسخ ذلك بالحد ، ويجوّزون فى الآية معنى آخر تكون به غير منسوخة ، وهو أن الزانيات بعد إيقاع الحد عليهن يُحبسن فى البيوت احتفاظاً بهن ومنهن ، ويبقى ذلك حتى أحد الأمرين المذكورين فى الآية .

وفسروا قوله تعالى : ( واللذان يأتيانها منكم الخ ) بأن المراد بالفاحشة أيضا فاحشة الزنا ، فمعنى اللذان الزانية والزانى ، وسُلك فيه سبيل التغليب ، ويقولون إن العقوبة كانت هى الإيذاء ، ويجوزون فى تلك الآية أيضاً وجهاً آخر تكون به الآية غير منسوخة ، وهو أن هذا الخطاب إنما هو للشهود الذين عثروا عليهما وأن موقفهم من الزانية والزانى أن يوبخوهما ويهددوهما بالرفع الى الحاكم وأنهما إن تابا أعرضوا عنهما وتركوهما .

بذلك تعلم أن المفسرين يحملون الآيتين على الزنا سواء أكانتا منسوختين أم باقيتين على التأويل الثانى فى كل منهما ، وتراهم حين يفرغون من تفسير الآية على هذا الوجه يسوقون فيهما بصيغة التمريض والتضعيف وجهاً آخر فيجعلون الآية الأولى فى السحاق ، والثانية فى اللواط ، مما يشعرك بأن هذا الوجه فى الآيتين غير ملتفت إليه .

هذا ونحن إذا نظرنا فى الآيتين وأمعنا النظر فى معناهما مستحضرين أن للقرآن بلاغة بلغت حد الإعجاز ، مستحضرين أنه تنزيل الحكيم العليم وأنه الكتاب الذى لم يُفرَّط فيه من شيء ، وأنه عُنى أول ما عنى بسلامة المجتمع من كل عيب وصيانته عن كل ما يمسه فى خلقه خصوصا ما يمس رجولة الرجال وأنوثة الإناث حتى يبقى لكل فرد فى المجتمع شرفه الذى يتقدم به فى الحياة جريئا على قيامه بواجبه ليقوى البناء ويصان عن التهدم .

إنا إذا نظرنا فى الآيتين على ذلك الوجه وجدنا ما فسروا به غير واضح وغير وجيه .

أما أولا : فإن فاحشة الزنا معروف أنها متولدة بين الجنسين ولذلك ترى القرآن حين ذكرها عبر عن الرجل بالزانى وعن المرأة بالزانية وجمعهما فى قرن واحد فقال ( الزانية والزانى ) فتراه قد عبر عنهما بوصفيهما من تلك الجريمة ، ولم يقل النساء فى جملة وحدها ، والرجال فى جملة وحدها . أما فى هاتين الآيتين فقد قال فى الأولى واللاتى وفى الثانية واللذان ، وأفرد كلا بعبارة تخصه ، فجعل الفاحشة فى الأولى من النساء الصرف وفى الثانية من الرجال الصرف ، وفاحشة الزنا لا تكون منهن إلا مع الرجال ولا يمكن أن يقال فى الأولى إن فى ذلك تغليبا فليس ذلك موطن التغليب .

ولذلك لم يحاول أحد من المفسرين أن يحملها على التغليب وفى ذلك ما يشير فى وضوح إلى أن الفاحشة فى الأولى ليست إلا ما يكون بين النساء الصرف وفى الثانية ليست إلا ما يكون بين الرجال الصرف .

وأما ثانيا : فإنه قد غاير بين العقوبتين ، العقوبة التى رتبها على الفاحشة التى كانت من « اللاتى » وهن النساء الصرف ، والعقوبة التى رتبها على الفاحشة التى كانت من « اللذان » وهما الرجلان وقد وضع الآيتين إحداهما بجانب الأخرى مما هو واضح فى تغاير الجريمتين ماهية ومصدرا ، ومما هو واضح فى أنهما جريمتان غير جريمة الزنا ، فإن جريمة الزنا قد ذكرت فى القرآن غير مرة فلم يعبر عنها إلا باسمها ، يقول الله ( لا تقربوا الزنا ) ( الزانية والزانى ) وذكر لها عقوبة غير هاتين العقوبتين .

أما فى هاتين الآيتين فإنه لم يذكر تلك الجريمة بل عبر عن الجريمتين بلفظ عام يشملهما وغيرهما ، وهو لفظ الفاحشة ايذانا بزيادة هاتين الفاحشتين فى القبح عن فاحشة الزنا ، وايذانا بأنهما فاحشتان يجب أن يصان اللسان عن أن يمر به ذكرهما .

وأما ثالثا : فإن الآية الأولى اذا كان الأمر كما يقولون ، وأن المذكور فيها عقوبة الزانيات وأن الآية الثانية جارية على باب التغليب ، يكون قد ذكر فى الآية الثانية عقوبة للزانيات غير ما ذكر فى الأولى ، وكان يجب ألا تذكر الآية الأولى مادامت قد أريد بها الزانية والزانى . وأما دفع ذلك بأن الآية الأولى قد نسخت الآيه الثانية فذلك دفع غير صحيح ، اذ أن الناسخ والمنسوخ - على فرض ثبوت النسخ فى القرآن - ليس بالمستساغ أن يذكرا مقترنين هكذا . وتعجب فوق ذلك من أن الناسخ قد ذكر أولا والمنسوخ قد ذكر ثانيا ، ففوق اقترانهما قد جعلوا المنسوخ ثانيا والناسخ أولا . والى هذا وذاك يقولون إن الناسخ أيضا منسوخ بآية ( الزانية والزانى ) وهكذا ترى اضطرابا للمفسرين واضحا ليس له من سبب ، إلا أنهم حملوا الفاحشة فى الآيتين على فاحشة الزنا .

وقصارى القول إنك كلما أمعنت النظر وأنت بعقيدة أن القرآن فى طبقة من البلاغة معجزة ؛ رأيت أن حمل هاتين الآيتين على الزنا مما يبعد بهما عما يجب للقرآن من بلاغة معجزة .

وأما رابعاً : فإن الإقدام على القول بالنسخ فى القرآن ، لمجرد شبهة قويت أو ضعفت ، إقدام على ما يتنافى مع ما يجب أن يتوفر للقرآن باعتباره قانون السماء الخالد لصلاح المجتمع وسعادة الأمم ، وباعتباره متعبدا بتلاوته مما يوجب أن يكون باقى الدلالة على معانيه .

وإذن فليس من الواضح أن تحمل الآيتان على المعنى الذى حملهما عليه المفسرون ، لما تبين من أن هذا الحمل لايتفق وبلاغة القرآن ، وكونه الكتاب الخالد ، والقانون الدائم .

* * *

أما المعنى الذى ينبغى أن تحملا عليه ، فهو ذلك الذى زعموه ضعيفا ، وساقوه تحت صيغة التمريض ، وهو : « أن الآية الأولى فى جريمة النساء الصرف ، والثانية فى جريمة الذكور الصرف » .

وذلك لوجوه :

أما أولا : فلما مر من وجوه الرد للمعنى الذى اعتمده المفسرون .

وأما ثانيا : فإن الآيتين إنما يتم تناسبهما مع ما قبلهما من آيات الميراث بحملهما على جريمة النساء الصرف والذكور الصرف ( السحاق واللواط ) ولا يتم بحملهما على الزنا ، إذ أن آيات الميراث السابقة على هاتين الآيتين قد طمأنت الناس على ما يتركون من أموال وراءهم بعد موتهم ، طمأنتهم بأن ما يتركونه سيئول الى أبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وإخوانهم ، وأنه لا أبوة ولا بنوة ولا أمومة ولا أخوة إلا عن طريق اجتماع الجنسين ، أما هاتان الفاحشتان فهما مضيعة للرجال والنساء ، ليس معهما أبوة ولا بنوة ولا أمومة ولا أخوة ، ليس معهما هذا إن لم يكن لسقوط الرجال والنساء بتلك الجريمة عن أن يقبل الرجال الزواج بالسحاقات وأن يَقبل النساء الزواج باللواطين ؛ فمن طريق أن المرأة قد تستغنى بذلك عن الزواج كما يستغنى الرجل بذلك عن الزواج ، وإنه لواضح أن من أشد الموانع وأبرزها لاقتران رجل بامرأة أو امرأة برجل أن

يعلم الرجل عن المرأة تلك الجريمة أو تعلم المرأة عن الرجل تلك الجريمة، وقد يقال وكذلك جريمة الزنا من الذاهبات بالأبوة والبنوة، ففى الآيتين بالحمل عليها تناسب مع ماقبلهما . إلا أن هذا مردود باحتمال انتاج قد يكون بعده استلحاق، فهناك

احتمال وان أحاط به الضعف غير أنه لم يكن بتًّا قاطعاً للوارثين بوصف بنوة وأخوة وأمومة وأبوة، كما فى الجريمتين : السحاق واللواط .

وأما ثالثاً : فإن القرآن بهذا يكون قد استوفى جميع الجرائم الفتاكة بالمجتمع وعيداً وتنفيراً عنها وتحذيراً منها ، فانه إذا كان القرآن قد تحدث عن فاحشة الزنا فى غير موضع فانه لا يترك هاتين الجريمتين دون توعد عليهما وتسوىء لعاقبتهما مع أنهما أسفل دركا وأنزل بالانسانية عن مستوى الإنسانية .

وقد حدثنا القرآن عما أنزله من العقوبة ببعض الأمم التى اقترفت إحدى هاتين الجريمتين ، وأنها كانت عقوبة مؤذنة بسقوطهم عن مستوى الانسانية الى وهدة الحيوانية المجردة عنها ، إذ كانت حذفاً بالأحجار حيث لا يستطيعون لها ردا ، ولا يحاولون منها هربا ، مما يؤذن بشناعتها وأنها أفظع من الزنا شأنا ، فان الزنا حالة لها من المباح المشروع ما يشبهها ، أما هاتان الجريمتان فإنهما خروج عن الفطرة ، وحَيَدان عن الطبيعة فهما أولى أن يطهر المجتمع منهما ، وأن يتوعد القرآن عليهما وعلى العموم فإن حمل الآيتين على هذا المعنى ، يكونان به أقوى أسلوبا وأرصن نظما ، وأوفق بعظمة القرآن وأنه الكتاب الذى لم يفرط فيه من شيء ، وأنه تنزيل الرحمن الرحيم ، وأنه الكتاب الذى فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون .

نسأل الله هدايته لأقوم طريق وأوضح سبيل إنه سميع عليم ؟

# الشخصية المحمدية

## تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

## الحكمة

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجـــدى بك

مدير مجلة الأزهر

---

الحكمة فى اللغة العربية تعنى العلم والحلم والعدل والنبوة ، ومن معانيها ما يمنع من الجهل ، ومنها أيضاً كل كلام يوافق الحق ، ومنها وضع الشىء فى موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وقد توسع فيها المشتغلون باللغة فأطلقوها على الفلسفة تعريباً لهذه الكلمة اليونانية ، وقد جاء ذكرها فى القرآن العظيم عشرات من المرات موافقة لكلمة الكتاب أو العلم أو النبوة ، فقال تعالى موجهاً الكلام الى نساء النبى صلى الله عليه وسلم : « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » وقال فى بيان مهمة النبي : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

وجاءت كلمة الحكمة فى الكتاب الكريم مستقلة ، من ذلك قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وقد أشعرنا الكتاب الكريم بأن هذه الحكمة نور عقلى شائع بين جميع الأمم قديما وحديثا ، قال تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » وقال تعالى : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة » فالحكمة على هذا الاعتبار أرفع درجة من الفلسفة ، لأنها المولدة لها ، والحاكمة عليها ، وإنما تمتاز الفلسفة عنها بمظهرها العلمى ، وقالبها الفنى ، وقبولها للنظام الأسلوبى الذى يتأتى معه انتسابها للأفراد والجماعات ، وإمكان جعلها موضوع دراسة منظمة .

قد وصفنا الحكمة بأنها نور عقلى ، مريدين بذلك أنها متولدة من النور العقلى الذى خص الخالق به النوع البشرى ، وجعله هادياً له يأخذ بيده فى ظلمات الحياة الأرضية ، ويدله على ماهو بحاجة إليه من المحاولات الفكرية والجسدية ، ليستطيع أن يعيش فى بيئة ألقى به فيها عارياً وبغير عتاد ، وقد هداه هذا النور العقلى المستمد من النور الإلهى الى جميع مرافق حياته ، ودله على سبيلى الخير والشر ، والنافع والضار ، وعلى مابه قوامه ومصلحته وارتقاؤه ، وما فيه هلاكه وتعسه وارتكاسه ، والمتأمل فى الإنسان لأول عهده بهذا العالم يعجب كيف استطاع أن يرتقى عن تلك السذاجة الحيوانيـة التى نشأ عليها ، ويبلغ الى الدرجة التى هو فيها اليوم من الارتقاء العقلى والخلق ، ومما هُدى اليـه من الصناعات والفنون ، وما كشفه من مساتير الكون ومكنونات العلوم ؛ ولا يجد مناصاً للخروج من هذه الحيرة إلا بالتسليم بمهمة الرسل الذين كان يرسلهم الخالق اليه بين حين وآخر يفتحون أمامه طرق التأمل فى قوى الكون ، والنظر الى ما حوله من وسائل الطبيعة ، وحمله على توجيه قواه الأدبيه إلى ما يرفعه عن حضيض الحيوانية ، ويدفع به للنظر فيما بين يديه وما حوله من ظواهر الوجود وإمكان الاستفادة منها لحياته الشخصية والاجتماعية ، وإلى ما يجب أن يستشعره من الواجبات الذاتية والعمومية ؛ فتشبع جو الحياة الإنسانية على هذا النحو بالحكم النيرة ، والأصول القيمة ، وذاع العلم بها حتى أصبحت من المقررات الأوليـة لدى الناس أجمعين ، إلا أهل الشذوذ

الأدبى من الذين اتخذوا لأنفسهم من الفلسفة التشاؤمية خطة خاصة من التفكير المعاكس ، عُرفوا به بين الناس ، وهم قلة لا يعتد بها حتى قد لا تصادف منهم فى كل مليون من الناس واحدا .

هذا النور الساطع من الحقائق الحكمية ، المنتشر فى جو العقلية البشرية ، هو الحكمة التى يتردد ذكرها على ألسنة العلماء والفلاسفة من أقدم العصور ، وجاء ذكرها فى الكتاب الكريم ، وهى بهذا الاعتبار تخالف الفلسفة خلافا جوهريا ، لأن هذه هى المذهب الذى يتخذه المشتغلون بفهم حقائق الوجود ، وسيلة لإدراك تلك الحقائق ، وكيفية انطباقها وتطبيقها على الموجودات ، وعلى سيرة الإنسان ومحاولاته ، لبلوغ أُلمثل العليا فى سلوكه وفى أعماله ، ومن أجل ذلك تعددت وجهات نظر الفلاسفة ، وتخالفت ثمرات جهودهم الى حدود بعيدة ، ومن هذه الناحية خالفت الفلسفة العلم أيضا ، فالعلم هو مجموع المعارف التى حصل عليها الإنسان بالنظر والاستقراء والتحليل والتركيب ، فهو مجموعة محققة من العلم بالكون والكونيات ذات حدود مقررة ، فأين الفلسفة من هذه الاستقرار ، وهى لتصديها لفهم الوجود ، وإدراك العلل الأولية التى تبنيه وتهدمه ، وفى اللانهاية المحيطة بالعالم ، وتعيين علاقاتنا بها جريا وراء بناء مذهب عقلى يربط ما يقع تحت حسّنا من الكائنات المختلفة ، ويعين لكل منها مكانه ومهمته من المجموعة العامة بحيث توافق الحقيقة ولا تشذ عنها ، قلنا أين الفلسفة من هذا الاستقرار ، وقد انقسم القائمون بها الى مذاهب وشيع ، إلا الفلسفة الحسية فانها بعد قبولها ما لا يثبت ثبوتا علمياً من الأصول قد فنيت فى العلم ، وزالت عنها صبغة الفلسفة .

ولكن الحكمة لا تنتهى قط إلى مثل هذه النهاية ، لأنها لا تحاول فهم الوجود فهماً علمياً ، بل هى تكتفى بتحديد علاقتنا به تحديداً يقره العقل العلمى ، والناموس الأدبى ، وتجعل دائرة عملها محصورة فى دائرة شئوننا الحيوية ، وسيرتنا الاجتماعية وهذه مجالات يمكن الوصول منها إلى المثل العليا التى ترقى بالإنسانية إلى أبعد

ما يمكن أن تصل إليه علمياً وعملياً ، وأرفع ما يتأتى أن تسمو إليه جسدياً وروحياً ، وهى التى يعنيها العلماء بكلمة الحكمة ، ويشرفها الخالق بالتنويه بها فى كتبه السماوية .

وقد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم بسمو فطرته حقيقة ما قصده الخالق منها على الوجه الأكمل ، وفهم مدلولها فهماً أداه إلى الدعوة إليها ، والتنويه بها تنويها يشف عن سمو تقديره لها ، ومبلغ ما تستفيده الإنسانية منها ؛ فقال : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » الضالة من الإبل ما انقطعت عن صاحبها بمضيعة فهو يتطلبها جهده ، لأنها مطيته التى لا يستطيع قطع طريقه بدونها ، شبه الله الحكمة فى ضرورتها للإنسان يقطع بها طريقه إلى حضرته العلية ، بالضالة ، وهذا تشبيه بديع يؤذن بأن الحكمة من ضروريات المؤمن بحيث قد يهلك بدونها ، كما قد يهلك سالك الفلوات بدون ناقته التى يقطعها بها ، وما أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذا التعبير البديع إلا ما أمده الله به من سمو الإدراك ، وبعد مدى النظر فى الحقائق ، وفهمه لمهمة الإنسان فى هذه الحياة الدنيا .

وقد زاد هذا التحضيض لالتقاط الحكمة أنىّ كانت ، بوجه من التعبير يدعو إلى غاية الاهتمام بالحكمة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » فقد يكون قائلها سفيهاً أو زنديقاً أو وثنياً أو ملحداً ، فيتأثم المسلم أن يأخذها عنه ، فتدارك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ، وحض على المبادرة إلى التقاط الحكمة ، بصرف النظر عن الإنسان الذى صدرت منه ، ولو كان مثالا للخسة ، ومباءة للدنس ، وفى رواية أخرى : « خذ الحكمة ولو من مشرك » وهذا نهاية ما يمكن أن يبلغه التحضيض على تصيد الحكمة من كل مظانها ، ولا يعقل أن يبلغ الداعى إليها هذا الحد من التعبير إلا إذا كان على أصل أصيل من فهم الحقائق ، وطريق الوصول إليها ؟

# حقوق الإنسان

لحضرة صاحب الفضيلة

## الاستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى بك

عضو جماعة كبار العلماء

والإمام الخاص للحضرة الملكية

---

كان بودى أن أتابع الكتابة فيما أسلفت الكتابة عليه فى أعداد سلفت من مجلة رسالة الإسلام ، ولكن أمراً عدَّه الناس حدثاً جديداً ، أو أمراً ذا باله ثنانى إلى الوقوف قليلا عند ذلك الموضوع الجديد فى نظار العالم ، والقديم جداً جداً فى نظارنا ، ذلك هو ما أسموه : « حقوق الإنسان ».

وقد هبت دور العلم ومؤسسات الثقافة فى العالم لتهيىء الناس لاستماع ذلك النبأ الخطير ، والترحيب بذلك المولود الجديد ، ولم تكن مصر بمنجاة عن التهليل لذلك الحدث الجليل ، فقد نشرت إحدى صحف الصباح اليوم ٧ / ١٢ / ١٩٤٩ ما يأتى : « طلبت الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف الى حضرات نظار المدارس تمكين تلاميذ الفرق الكبرى من سماع الإذاعة المدرسية فى الاحتفال بالذكرى الأولى لإعلان حقوق الإنسان ، وذلك فى الساعة ١٢ ظهرا يوم السبت ١٠/١٢/١٩٤٩ » ثم قالت : « وتدرس هيئة الأمم المتحدة بالاتفاق مع اليونسكو بيان مشروع إعلان حقوق الطفل توطئة للاعتراف بأن الجنس واللون والسلالة والدين لا ينبغى أن تكون حائلا بين أى طفل من أطفال العالم ، وتمتعه بما يتمتع به الأطفال الآخرون من العلم والمعرفة . الخ ».

هذا هو المولود الجديد ، مولود القرن العشرين الذى اشرأبت له الأعناق ، واستشرفت له الأعين بعد أن جاءها على ظمأ ليروى الغلة ، وعلى فاقة ليمدها بالغنى

والثروة ، وهذا هو النبأ العظيم الذى سنهيء له آذان الشيب والشباب فى شتى بقاع الأرض ، ومن بينها مصر ، ليُدوِّى فيها إيذانا بأن العالم قد جاءه خير جديد اعترف به للانسان بحقوقه ، وسيعترف للطفل بحقوقه قريباً وميزته — حسبما ذكرت الجريدة آنفة الذكر — إنه لم يكن وليد تفكير فرد ، وإنما هو وليد اعتراف اثنتين وخمسين من الأمم فى الأرض صغيرها وكبيرها ، قويها وضعيفها ، وإقرارهم بأن الإنسان أصبحت له حقوق وأصبح له كيان وأصبح له ما شئت من مقومات ومهيئات .

هذا هو قصارى أمرهم، وذلك هو منتهى العلم من شأنهم، أما نحن ، وأما المنصفون من غيرنا ، وأما التاريخ ، فكلهم شهود عدل على أن حقوق الانسان لم تكن من الجدة علينا بحيث نستبشر بمولدها ، ونقيم الاحتفالات للذكرى الأولى لإعلانها ، ونحرق البخور، ونهيء الأثير ليحمل على موجاته تلك البشارات، وهاتيك الاعلانات.

نعم نحن نعرف والتاريخ يصدق على أن حقوق الإنسان لم يكن بدء إعلانها فى ليك سكسس ، ولا فى فلشنج ميدوز ، ولا فى باريس ، ولا فى الأطلنطى ، وإنما قررت فى بقعة بسيطة من بقاع الأرض اختارها الله لتكون موطن إشعاع جديد ، ومهبط شعلة ستضيء العالم بعد أن غشى عليه ما غشى من ظلمات كادت تودى به ، ورفع الله بذلك عنه إصرا وأغلالا كانت عليه ، ولم تعترف بها خمسون أو مائة من الأمم فى القرن العشرين ، وإنما أقرها واعترف بها لأربعة عشر قرنا دين كان خاتمة الأديان ، على يد نبي كان خاتم الأنبياء ، ببلاغ عن الله عز وجل لم يكن منشئا لما جاء به (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع مايوحى إلى من ربى ) ولم يتقوله على ربه ( ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ) كما نطقت به نصوص الآيات الكريمة ، وقد سوت بين العالم أبيضه وأسوده وأحمره وأصفره ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ( يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) .

وقبل أن ندخل فى تفصيل وجهة النظر الإسلامية فى حقوق الإنسان وكيف أعلنها ، وكيف فصلها وبينها ، وكيف طبق المسلمون من الخلفاء وأولى الأمر نصوص ما جاء به ذلك الدين من لدن أشرق نوره حتى اليوم ، قبل ذلك نحب أن نذكر إجمالا تلك الحقوق التى أعلنوها باسم حقوق الانسان ، كما نص عليه مشروع الميثاق ، وإليك ترجمة أهم فقرات المشروع (١) :

(١) الناس متساوون فى الحقوق والاعتبار ـ وهم بما أودعه الله فيهم من عقل وضمير ـ ملزمون بأن يعامل بعضهم بعضا على أساس روح من الأخوة .

(٢) كل شخص له الحق فى التمتع بالحقوق التى نص عليها الميثاق من غير تفرقة بجنس أو لغة أو دين أو رأى سياسى أو غيره .

(٣) لكل إنسان الحق فى الحياة والحرية والأمن .

(٤) لا يسترق إنسان ولا يعذب ولا يعامل بقسوة ولا إذلال .

(٥) لكل إنسان الحق فى أن يعترف به شخصاً أمام القانون فى كل مكان .

ثم ذكر المشروع فقرات لم نر داعياً لترجمتها لأنها ـ فى نظرنا ـ حقوق مترتبة على ما أسلفنا من حقوق فى الفقرات السابقة .

وذكر بعدها فقرات تتعلق بمساواة المرأة للرجل وحرية كل منهما فى الزواج وذكر حق الإنسان فى التملك وحماية الملكية ، وحرية الفكر والعقيدة ، وأن يظهر عقيدته علناً ويمارس طقوسها ، ويعبر عن آرائه وأفكاره ، ويكون له الحق فى الاشتراك فى حكم بلده ، وله وافر الحرية فى العمل ، وله حق الأجر ، ولكل واحد حق التعليم والتربية ، ويجب أن يوجه التعليم نحو رعاية حقوق الجماعة الإنسانية ، وتقوية روابطها ، لا إثارة العداوات الجنسية والدينية . الخ ما ذكر هناك .

هذا ملخص مجمل لما جاء فى مشروع إعلان حقوق الإنسان يعنينا منها الفقرات التى افتتح بها المشروع وهو فى جملته يدور على أساس مهم ، هو اعتبار الانسان

(١) ص ٥٧٤ وما بعدها من كتاب
Year Book of The United Nations (1947-1948)

كائنا حيا حرا له حقوقه ، وعليه واجباته وله كيانه ومقوماته ، وهو على أساس ذلك الاعتبار يتمتع بكل الحقوق التى يجب أن يتمتع بها كل إنسان حر مفكر عاقل اجتماعى عضو فى الجماعة البشرية العامة التى تعتبر الكون كله وحدة واحدة مهما تباين الجنس واختلف العنصر وتباعد اللون وافترق الدين .

والبحث كله فى نظرى يجب أن يدور على هذا الأساس ؛ ويتجه التفكير فيه على هذا الاعتبار . أما أن الاسلام دين يفرض المساواة بين الأجناس البشرية ومساواة الانسان لأخيه الانسان دون أى اعتبار آخر ، فذلك أمر مفروغ منه ـ فى نظرنا ـ عند كل من عرف شيئا عن الاسلام ، وشدا طرفا من تعاليمه ، وإن كان هناك بعض فروق بين المسلم وغيره فذلك لاعتبارات لا تعدو الاعتبارات التى تقوم على أساس الجنسية فى العصر الحديث ، فوحدة المسلمين تقوم على أساس ذلك كما أن وحدة المواطنين فى العصر الحديث تقوم على أساس موطنى ، وطبعا نحن لا يعنينا المفاضلة بين الاعتبارين وأيهما أولى بالاعتبار والتقديس ، ولكن مع هذه الفروق قدس الاسلام مال غير المسلم ودمه وعرضه ، وحماه من كل طغيان وعدوان . اقرأ قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . قال المفسرون فى سبب نزولها : إن ثابت بن قيس حين قال لرجل لم يفسح له عند النبى صلى الله عليه وسلم : يابن فلانة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : من الذاكر ابن فلانة ؟ فقام ثابت فقال : أنا يارسول الله ، فقال : انظر فى وجوه القوم فنظر، فقال : مارأيتَ ياثابت؟ قال : رأيت أسود وأبيض وأحمر . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى . وعن مقاتل : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا حتى أذن على ظهر الكعبة فقال عتاب بن أسيد : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب مؤذنا ، فنزلت . وأخرج أبو داود فى مراسيله ، والبيهقى فى سننه عن الزهرى قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟ فنزلت . وكان أبو هند حجام رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأخرج البيهقي عن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يشيم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدى الرجال فخطبهم فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: الحمـــد لله الذى أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها يأيها الناس: الناس رجلان بَرٌّ تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله — الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير». ثم قال: أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد. لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر، على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فليبلغ الشاهد الغائب» إلى غير ذلك من أحاديث لا نريد الإطالة بذكرها. وقد نهى الله عز وجل العصبية وحذر منها إذ يقول فى حق فرعون «إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم» فالإسلام قد جاء منذ أربعة عشر قرنا ليقرر للعالم حقوق الإنسان، وقد كان البشر أجناسا متفرقين يتعادون فى الأنساب والألوان واللغات والأوطان والأديان والمذاهب والمشارب والشعوب والقبائل والحكومات والسياسات، ينازع كل فريق منهم مخالفه فى شىء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه فى البعض الآخر، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية الجامعة وفرضها عليهم «يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» فى معنى قررته الآيات والأحاديث، وقرره الرسول عليه السلام فى مؤتمر عام فى حجة الوداع كما رواه الطبرانى فى المعجم الكبير، وسوى بين الناس جميعا لا فرق بين إنسان وإنسان بشىء لا قبل له بدفعه ولا شأن له فى تحصيله كلون جـــلده، أو جنسه، أو لغته، وما فرق بينهم إلا بعوامل هم

مسئولون عن وقوعها وإيجادها كالعمل الصالح والفضيلة وما إليها ، فالمسلم بإسلامه يستوى مع أخيه فى شتى بقاع الأرض فى كل الحقوق ، ويحمل مثله كل الواجبات ، ويشترك فى نظام الحكم والانتخاب وما يتفرع عنه من حقوق هى وليدة الكيان الإنسانى ، وغير المسلم يشترك فى وحدة الدولة أو الجنسية السياسية للدولة ، فجميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة كحماية أهلها ، والدفاع عنهم ، وحرمة أموالهم وأنفسهم ، والتاريخ شاهد بأن كثيرا من غير المسلمين قد ولوا مناصب ذات سلطان فى الدولة لم يمنعهم دينهم من شىء ، وقد تمتعوا فى ظل الرسول عليه السلام والخلفاء من بعده بعطف سابغ ، ومجاملة لم يعهد مثلها فى تاريخ ، ولا نريد أن نمل القارىء بالإفاضة فيها ، ولم نسمع بعشر معشارها فى البلد الذى أعلن على أرضه وتحت سمائه حقوق الإنسان ، بل افترق فيه أبيضهم وأسودهم ، وتناحر الفريقان ، واقتتل الطرفان ، وحرم هذا من كل حق يتمتع به أبسط مخلوق حتى فى الدخول لمكان ، أو الاشراف فى بنيان ، مما حدثت عنه الأخبار ، وتضافرت على ذكره الروايات من رسمية وغير رسمية ، وكما اختلفوا للجنس اختلفوا للدين ، هناك وفى غيره من الأماكن والدول .

هذا هو أبسط حق للإنسان وهو المساواة ، عرفه الإسلام وقرره لكل إنسان باعتباره كائناً حياً لم يحرم منه طائفة إلا فى بعض الأشياء لبعض الاعتبارات التى تمس الفكرة التى قامت على أساسها وحدة الدولة الإسلامية ، كما تقوم الوحدة اليوم على أساس الجنسية ، ويحرم على أساسها طائفة من لا يحلونها ، ولا يعد ذلك عيباً فى الفكرة ، ولا نقصاً فى الدولة .

وحسبنا اليوم هذا القدر فى الكلام على الأصل الأول من حقوق الإنسان ، ولعل لنا عودة قريبة إن شاء الله للكلام على تفاصيل ما بقى من حقوق الإنسان التى ستعلن جديدة على الناس فى القرن العشرين ، وليست بجديدة على الإسلام والمسلمين ، فعندهم من أربعة عشر قرناً خبرها ، وعندهم علمها ونبؤها (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ) ؟

# وحدة المسلمين

## لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ على الخفيف

### أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول(*)

---

لقد ألف الإسلام حين ظهر بين قلوب من اتبعوه واتخذوه ديناً لهم ، فجعل منهم جماعة متآلفة يعاون بعضهم بعضا وينصره ويؤازره ، حتى كان لهم من ذلك يوم ظهروا بمكة وهم قلة مستضعفة ، منعة حفظتهم من شرور أعدائهم وقوة أظهرتهم وردت عنهم كيد خصمائهم ، ولولا ذلك لقضى عليهم فى مهدهم وانتهى أمرهم فى أول عهدهم .

ثم بدا ذلك التآلف بينهم بعد هجرتهم إلى المدينة المنورة أجلى مظهراً وأوسع مجالا وأبعد أثراً ، وأشد قوة ، بما عقد بين المهاجرين والأنصار من الأخوة والولاء والمعاونة فى السراء والضراء والمشاركة فى الأموال والمناصرة فى القتال ، والتعاون على النهوض والظهور والعمل لنشر دعوة الإسلام ، والوصول إلى ذلك الغرض السامى الذى دعاهم إليه دينهم الجديد ، وهداهم إلى صراطه رسولهم الصادق الأمين .

وطبيعى أن يؤلف الإسلام بين أتباعه فيجعل منهم أمة قوية متحدة متماسكة إذا ما تمكن من قلوبهم واستولى على مشاعرهم وسيطر على أفكارهم ، وذلك بسبب مايدعوهم اليه من وحدة الفكرة وسمو الغرض ، والسعى إلى تحقيق الغاية المنشودة التى لأجلها جاء ولتحقيقها شرع ، وما لهذا الدين من الأثر البالغ فى العواطف والمشاعر والأفكار .

---

(*) فضيلة الأستاذ الشيخ على الخفيف أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب .

إن أية فكرة تبدو فيعتنقها من يستصوبها لا تلبث أن تصير جامعة بين أنصارها تربطهم برباطها ، وتجمعهم بجامعتها فيعرفون بها ، ويتعاونون فى سبيل نصرتها والدفاع عنها ، والدعوة إليها ، فما بالك برابطة ينشئها دين قيم يدعو إلى الإيمان بإله واحد ، والتوجه إلى وجهة واحدة ، والسعى إلى تحقيق غرض سام واحد ، يتطلب تحقيقه تعاون من يبتغيه ، ومؤازرة بعضهم بعضا ، ووقوفهم أمام معارضيهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

دعا الإسلام إلى الوحدة لأنها طبيعته وركنه الذى تقوم عليه دعوته الدينية العامة الموجهة الى الناس أجمعين . ولقد استجاب لها المسلمون فى أول عهدهم فأكسبتهم قوة وعزة وغلبة عزت بها الدعوة الدينية فانتشرت وانتصرت وصدت من عارضها ، فتفتحت أمامها الطرق ، واتسع لها الأفق ، وعمت بلاد من كان يعارضها ويدفعها ويقف فى طريقها بما كان له من قوة ومال وجاه ورجال .

عنى الإسلام كثيرا بتقوية تلك الوحدة ، وإحكام تلك الرابطة حتى جعلها أخوة بين المسلمين تنمحى فيها الفوارق ، وتختفى فيها الطبقات ، ويتساوى فيها جميع الأفراد فى منازلهم وحقوقهم وواجباتهم ، كما يتساوى الأخوة فى ذلك من الأسرة الواحدة .

أراد الإسلام أن يجعل لهذه الوحدة وتلك الرابطة ما لرابطة الأخوة من القوة والمكانة والحرص على صيانتها ، والبعد بها عن أن تتعرض لمعاول الهدم والتفريق وأسباب الخصومة والنزاع ، فنزل قوله تعالى فى سورة الحجرات : « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله » بيانا لمنزلة هذه الرابطة وإيجاباً لصيانتها بالإصلاح بين أفرادها إذا ما اشتجر بينهم خلاف ، أو عصفت فيهم ريح فرقة ، وليس أدل على مكانتها من أن يعدها الله نعمة يمتن بها عليهم ، ويدعوهم إلى الحرص عليها ، ويحذرهم من الفرقة بعد اعتصامهم بها ، إذ يقول فى سورة آل عمران : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وإذ يقول فيها أيضاً

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

لم يكتف الرسول فى بيان حقيقة تلك الرابطة وما تستلزمه من حقوق وواجبات بما جاء به الكتاب العزيز من إجمال ، بل فصل فيها القول فأشار إلى أنها مساواة فى الحقوق ، ومساواة فى المنزلة لا تعرف فيها السيطرة ولا سيادة الطبقات ، فقال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره وكونوا عباد الله إخوانا » وقال : « لا يبع أحدكم على بيع أخيه ولا يخطب على خطبته حتى يذر » وكان عليه الصلاة والسلام لا يكاد يذكر حقاً لمسلم على مسلم أو يوصى مسلماً بمسلم إلا جعل ذلك أثراً من آثار أخوتهما التى أضفاها الإسلام عليهما .

تلك روح تظهر أن وحدة المسلمين وتآخيهم نتيجة حتمية لاعتناق هذا الدين على وجهه الصحيح ، وأن تلك الوحدة لا تتم إلا بزوال الفوارق بينهم من ناحية الوطن والجنس والسلطان ، فلا يكون للمسلمين إلا وطن واحد هى الأرض التى تقلهم وتضمهم مهما اتسعت أنحاؤها ، وتعددت جهاتها ، وتباعدت أقطارها ، ثم لا يكون لهم نسب ينتسبون إليه سوى الإسلام ، ولا جنسية تجمعهم إلا جنسية الإيمان ، ولا سلطان يحكمهم سوى القرآن تقوم عليهم بسلطانه حكومة تنفذ فيهم أحكامه ، وترفع فيهم أعلامه ، وتهذبهم بأخلاقه ، وتهديهم بإرشاده ، وتزكيهم بتعاليمه ، وتربيهم على مبادئه .

إن رابطة الوطن على ما لها من القوة والسلطان الآن يجب أن تقوم على أن الوطن وطن واحد بالنسبة إلى جميع المسلمين ، فالإسلام لا يفرق بين أوطانه ، ولا يجعل لكل جماعة من جماعاته وطناً تختص به وتتعصب له وتدفع عنه دون غيره ، فليس للوطن فى واقع الأمر حدود إلا ما يجعله أهله حداً له وغاية ينتهى إليها ، فكثيراً ما تضيق الأوطان وتتسع تبعاً لرغبات ساكنيها ونتيجة لبسط سلطانهم وانقباضه ، والوطن كما يصح ألا يجاوز السكن يصح أن يتسع حتى يعم القرية أو المدينة ، كما يصح أن يتجاوز ذلك إلى بعض المزارع والقرى المجاورة ،

وأن يمتد إلى أكثر من ذلك امتداداً لاينتهى إلا إلى الحدود التى يصطلح عليها لهذا كانت فكرة الإسلام فى الوطن وفى تحديده بالحدود التى ينتهى عندها سلطان الإسلام فكرة مستقيمة لا يجافيها الواقع ولا المنطق ، فبها يتسع ، وفى سعته قوته ومنعته وعظمته ووفرة ثروته ، وقدرته على دفع العدوان ، ورد الأطماع ، ومحق الطغيان ، وما عهدنا بما فعلته روسيا فى الحرب الأخيرة ببعيد ، فقد كانت سعة وطنها أول عامل فى انتصارها فى هذه الحرب ، كما كانت سبب انتصارها يوم غزاها نابليون منذ قرن أو يزيد ، وبها تقوى الجامعة وتشتد الرابطة لقيامها عندئذ على عدة روابط تعاضد هذه الرابطة مثل رابطة الدين ورابطة الثقافة ورابطة الشريعة ورابطة الحكومة والسلطان ، وإذا انحصر الوطن وضاق ففى ذلك ضعفه وضآلته وسبب توجه الأطماع إليه والسيطرة عليه .

على أن فكرة الجامعة الوطنية فى ذاتها لا تصلح فى جميع الأحوال لتكوين أمة متحدة متآلفة ، فقد كان العرب قبل الإسلام يستوطنون موطناً واحدا هو جزيرة العرب التى حبتها الطبيعة بحدود وفواصل طبيعية تفصلها عن غيرها من البلاد ، ثم لم يؤلف بينهم هذا الوطن ، بل كانوا على الرغم من تجاورهم ووحدة جنسيتهم قبائل متعادية متباغضة ، تكثر بينهم المنازعات والمناحرات حتى أصبحوا فريسة للحروب والترات والفتن ، وكذلك كانت يثرب بلدا واحدا عجز عن أن يجعل من أهله وسكانه ـ الأوس والخزرج واليهود ـ جماعة مؤتلفة متحابة ، بل ظلوا حياتهم متباغضين متخاذلين متقاتلين ، حتى كانت لهم فى العرب أيام حروب معروفة أشهرها يوم بغاث ، ثم ما زال ذلك أمرهم حتى وحدهم الإسلام ، فجعل منهم جماعة متحابة متآخية كان لها السيطرة على جميع بلاد العرب .

ولكن الذى أتاح لهذه الفكرة الوطنية ، تلك القوة هو ماصادفته من ظروف جعلتها تحتل المكان الأول فى الوجود والاجتماع والسياسة ، ومن هذه الظروف حادث الثورة الفرنسية ، وما تقرر فيه من الحقوق الوطنية ، والأمانى القومية ، من حرية الأوطان واستقلالها ، وأن الملوك والأمراء وجدوا فيها مأربهم فى تحقيق

ما جبلوا عليه من حب التسلط والقهر ، فاتخذت وسيلة لتسلط حكومة على أخرى أو لاستبقاء قطر فى نطاق قطر آخر لما تتمتع به هذه الفكرة من قبولها للانبساط والانكماش تبعاً لبسط السلطان وانكماشه .

ومن هذا يظهر أنه كما اتخذت وسيلة إلى الجمع والتوحيد والقومية اتخذت كذلك فى بعض الأحوال سبيلا إلى الطغيان والتسلط وضم بقاع إلى بقاع حتى أصبحت تلك الفكرة تابعة فى بقائها ووجودها للغرض والهوى لا للأرض وأوضاعها ، وكان من أثر ذلك أن آل الأمر فى بعض الجهات إلى تجزئة جماعة من الناس تربطها صلات اللغة والجنس والدين إلى دول متفرقات تعددت بتعدد مواطنها التى تحددت بحدود الهوى والغرض ، كما فى كثير من البلاد الاسلامية وعلى كل حال فقد صار لهذه الفكرة مظهر خلاب خادع بما ظفرت به من تأييد أنصارها وناشريها تأييدا تم لها به الانتشار والانتقال من الغرب والشرق وقضائها على غيرها من روابط اللغة والدين والجنس ، وساعد على ذلك أن وجد فيها كثير من أمراء المسلمين طلبتهم فى الاعتزال والاستقلال والتملك ، فآمنوا بها واتخذوها مطية للوصول إلى أغراضهم وساعدهم على ذلك ما أصاب المسلمين فى دينهم من ضعف وما أنتابهم من جهل ، وما شملهم من فقر وبطالة ، فازداد بذلك تفرقهم وأصبحوا فى كل قطر شيعا وفرقا كل فرقة لها غرضها وعملها ومصلحة موطنها ، اتفقت مع غيرها أم اختلفت ، ولم يجنوا من ذلك إلا الخلاف والتناحر والضعف والالتجاء إلى الأجنبى ثم الانضواء تحت لوائه أو سلطانه . وكذلك رابطة الجنس فإنها على ما لها من الشأن البادى اليوم فى بعض الأمم كالأمم العربية والسلافية ، وما يرى من إجتماعهم فى بلاد البلقان ضد اليونان ، فإنها أخذت تضمحل وتضعف وتختفى وراء رابطة الوطن ، وذلك بسبب ما حدث من تفرق الأجناس واختلاطها واستيطانها أماكن مختلفة مع اجناس أخرى ، حتى صار الوطن الواحد يضم شتيتا من عده أجناس اضطرت على مرور الزمن إلى تناسى جنسيتها واندماجها فى جنسية أخرى لا تعرف لها نسبا إلا الانتساب إلى الوطن ، وبذلك حلت رابطة الوطن

محل رابطة الجنس ، وأصبحت رابطة الجنس وليس لها كبير غناء على الرغم من بقائها والاعتداد بها فى العرف والعادة باعتبارها أثرا تقليديا موروثا . والنتيجة أنك لا تكاد ترى الآن على وجه الأرض إلا أمما هم مزيج من أجناس شتى ولست ترى جنسا قد أفلح فى ضم جميع أفراده إلى وحدة قومية واحدة ، وكل الذى تراه أن هناك أجناسا لا تتميز بغير الموطن ، فالتركى من كان يستوطن بلاد الترك وإن كان من أصل يونانى ، والعربى من كان يستوطن بلاد العرب وإن كان من أصل تركى ، وهكذا ، وعلى ذلك أصبحت رابطة الجنس غير صالحة لأن تكوّن أمة متماسكة متحدة إلا باعتبار موطنها ، وقد ظهر أن ليس للموطن الآن كبير غناء أو أثر فى ذلك . أما رابطة الحكومة والسلطان ، فليس لها فى الواقع من أساس ، إذا كان قيامها على الغلبة والقهر وهى عند ذلك رابطة بغيضة لا تفيد قوة ولا تنتج اتحادا ولا تلد أمة . أما إذا كان أساسها الارتباط بالدين أو بالجنس أو بالوطن فليست عندئذ برابطة وإنما الرابطة ما تقوم عليه ، إننا لا ننكر أنه قد ينجم عن الخضوع لحكومة ثابتة النظام موطدة الأركان مدة طويلة من الزمان مهما كان نوع حكمها دستوريا أو استبداديا أن تتولد فى رعاياها حاسة قومية ظاهرة ، وأن يؤلف بينهم شعور عام بوحدة مصالحهم وبحاجتهم إلى تآلفهم ، ولكن ذلك لن يقضى على ما يكون بينهم من أسباب التفرق والاختلاف مما يجعلهم شيعا واحزابا وذلك كاختلافهم فى الدين واللغة ، ودليلا على ذلك حال الهند وما انتهى إليه أمرها من التفرق والانقسام ، وحال الصين وما انتابها من الحروب والثورات .

لهذا كان الاسلام لا يعرف للمسلمين إلا حكومة واحدة تقيم فيهم حدود الله وأحكامه حتى يبتعد بذلك عن منافسات الملوك ومنازعاتهم وما تنتهى إليه غالبا من قيام الحروب بينهم ، وحتى يكون ذلك وسيلة تتوحد بها مشاعرهم وأفكارهم وأغراضهم وتربيتهم ، فيكونون جسدا واحدا إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . وتلك هى الوحدة الإسلامية التى يدعو إليها الإسلام ويجعلها فوق كل رابطة ، ومرد كل صلة إذ يقول الله تعالى فى سورة براءة : « يأيها

الذين آمنو لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » .

ألا ترى كيف جعل حب الله ورسوله والإقبال على الجهاد فى سبيله - وتلك مظاهر الوحدة الاسلامية - فوق كل حب ، يُترك من أجله حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة مما تجمعهم رابطة النسب أو الجنس ، ويترك لأجلها كذلك حب المساكن الذى هو مظهر رابطة الوطن ، وحب الأموال والتجارة الذى هو مظهر الرابطة الاقتصادية ، وحب المادة والمال .

ولو أن المسلمين آمنوا بهذه الآية الإيمان الذى يظهر أثره فى نفوسهم وأعمالهم وآمنوا كذلك بما نزل فى التفرق بسبب اختلاف الدين مثل قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ما فرّقتْ بينهم المذاهب الدينية ولا الأهواء السياسية ، ولا العصبيات الجنسية ، ولا تباعد الأمكنة ، ولا اختلاف الأقطار ، ولكنهم إذ تركوا دينهم تفرقوا شيعاً وتجزءوا أمماً ، فزالت قوتهم ، وذهبت ريحهم ، واستولى عليهم غيرهم ولن يصلح أمرهم إلا برجوعهم إلى كتابهم واستمساكهم بوحدتهم ، ففيها وجودهم واسترداد قوتهم وعزتهم . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ؟

فقه وأدب :

# حماية الحيوان في شريعة القرآن (١)

## لحضرة الكاتب الأستاذ توفيق الفكيكي المحامي ببغداد

رحمة الحيوان : في الكتاب ، في السنة ، في سيرة الصحابة ، في نظر الفقهاء وأهل الحديث ، في مجلة الأحكام ، في نظام الحسبة ، أخذ الثأر لحق جوار الحيوان في الجاهلية والإسلام ، حمامة زياد بن سلمى - الأعجم - رد على الدكتور أحمد أمين ومقلديه ، حماية الحيوان من الفطرة العربية ، ودليل على الرحمة الإسلامية .

من أبرز الصفات التي اتصفت بها شريعة الاسلام الغراء ، صفة الرحمة ، فلا تخلو سورة من سور القرآن الكريم من ذكر الرحمة والبشارة الرحماء بحسن المآب ، كما كانت الرحمة من أعظم صفات الكمال المحمدي حيث وصف الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم بها بقوله سبحانه : ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ) وهذه النعوت الشريفة من أهم السجايا الخلقية التي تحلى بها أشرف خلقه ، قد ارتكزت على أساس الرحمة وقوة الوجدان العامر بالرأفة والرقة ، فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم رحمة للخلق أجمعين (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) وقد شملت هذه الرحمة كل من يمشي من حيوان على وجه الأرض ، وكل طائر طار في الجو وسبح في الماء .

(١) سيعرف القارىء الكريم الباعث على تحرير هذا المقال في خاتمته .

ومعنى الرحمة على ما جاء فى كتاب « مفردات القرآن » للعلامة النحرير الراغب الأصفهانى ، هو رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، وعلى هذا قول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ذاكراً ربه إنه لما خلق الرَّحِمَ قال لها : ( أنا الرحمن وأنت الرَّحِمَ ، شققت اسمك من اسمى ، فمن وصلك وصلته ، ومن قطعك بتته ) فالرحمة منطوية على معنين : الرقة والاحسان ، فركز تعالى فى طبائع الخلق الرقة وتفرد بالإحسان ، كما أن لفظ الرحم من الرحمة فمعناه الموجود فى الناس من المعنى الموجود لله تعالى ، فتناسب معنيا هماتنا سب لفظيهما ، وقوله تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ) تنبيه إلى أنها فى الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة مختصة بالمؤمنين .

لقد صدع الكتاب العزيز بحماية الحيوان وعدم ظلمه ومعاملته بالرفق والرأفة والرحمة ، من ذلك قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » قال مجاهد رضى الله عنه أى انها أصناف مصنفة تعرف باسمائها و « أمثالكم » بمعنى أشباهكم فى إبداع الله إياها وخلقه لها ، كما أبدع وأحسن صوركم ، وقيل إنما مثلت الأمم من غير الناس بالناس فى الحاجة إلى مدبر يدبرهم فى أغذيتهم وأكلهم ولباسهم ونومهم ويقظتهم وهدايتهم إلى مراشدهم ، كما هدى الآدميين فى أحوالهم ومصالحم ، وأنهم يموتون ويحشرون كما تموتون وتحشرون . فأصناف العجماوات فى الدواب والطيور أشباهكم فى الطبائع والغرائز ، وبين سبحانه وتعالى بهذه الآية سر الرحمة بأنه لا يجوز للعباد أن يتعدوا فى ظلم البهائم من أنواع الحيوانات مطلقا ، فإن الله خالقها والمنتصف لها (١) .

وقال أحد الأفاضل المعاصرين (٢) : فما من حيوان ذى كبدٍ رطبة إلا وفى الاحسان إليه والرحمة به أجر ، ورطوبة الكبد كناية عن الحياة ، إذ مظهر الحياة رطوبة الأكباد . وقد توسع بعضهم فى معنى الرحمة وعموم حكمها لكل حيوان

(١) عن تفسير مجمع البيان للطبرى من علماء الإمامية .

(٢) هو فضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى أحد كبار علماء الأزهر .

فقال حتى هـذه الفواسق المؤذية مع الأمر بقتلها ، ينبغى ألا تقتل بالعطش وألا تقتل صـبراً ، بل ينبغى إحسان قتلها ، فلو أمـكن الجمع بين إروائها وقتلها كان فى إروائها ثواب كما يقتل من يستحق القتل من الآدميين بعـد إروائه إن كان ظمآن ، وكما تسقى الشاة قبل ذبحها عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الاحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » وقـد نهى عن المثلة فى القتل ، ويتجلى لك الوعيـد بأشد مظاهره فى قوله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض (١) . فهـذه هى الدعوة القرآنية المباركة الداعية إلى الرفق والرحمة بأصناف البهائم وجميع أنواع الحيوان التى تحس بمرارة الألم الأليم ، وتشعر بلذة الراحة والنعيم .

## فى السنـة :

لقد مدح سبحانه وتعالى رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » وكان الرفق من شمائله العالية ، وفضيلة من فضائل رسالته السامية ، وهو من أكبر مظاهر خلقه العظيم « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » لهذا نراه صلى الله عليه وسلم قد حبب للمسلمين الرفق لأنه روح التربية المحمدية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان فيما خلق الله شىء أحسن منه » .

وعن أبى جعفر الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لـكل شىء قفل وقفل الإيمـان الرفق » وعنه أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « من كان رفيقاً فى أمره نال ما يريده من الناس » وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله أهـــل بيت أدخل عليهم الرفق » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير

(١) خشاش الأرض هوامها وحيواناتها الصغيرة ،

الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة » وعن جرير رضي‌الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول صلى الله عليه وسلم : « إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ولا نزع من شىء إلا شانه » وقد ورد فى الأثر « إن الله رحيم وإنما يرحم من عباده الرحماء » وقال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان ، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وأمعنت السنة النبوية الكريمة فى الايصاء بالحيوان والرفق المتناهى بالبهائم والرحمة العظيمة بالعجماوات ومن سيرته الشريفة فى ذلك :

(١) مر صلى‌الله عليه وآله وسلم على قوم وقوف على ظهور دوابهم ورواحلهم يتنازعون الأحاديث . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوها كراسىّ لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فربّ مركوب خير من راكبه » فنهى صلى الله عليه وسلم أن يجعل الحيوان المتصرف ، بمنزلة الجماد الثابت ، والشىء النابت .

(٢) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجتكم » (١) .

(٣) وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه (٢) قال : كان أحبُّ ما استتر به رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم لحاجته هدف أوحائش نخل(٣) فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله صلى‌الله عليه وسلم فمسح ذفراه (٤) فسكت فقال : من ربّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢) أخرجه أبو داود (٣) حائش النخل أو الشجر : ما اجتمع منه (٤) ذفرى البعير : الموضع الذى يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران ، وهما ذفريان .

هذا الجمل ؟ فقال فتى من الأنصار : هو لى يا رسول الله . فقال : « افلا تتق الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ؟ فإنه شكا إلىّ أنك تجيعه وتدئبه » (١) .

(٤) ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرية نمل قد أحرقت ، فقال : من أحرق هذه ؟ فقال من معه : نحن ، قال : ( إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار ) (٢) .

(٥) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ركبت بعيراً فيه صعوبة فجعلت أردده ، فقال صلى الله عليه وسلم : ( عليكِ بالرفق ) .

(٦) وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فدخل رجل فأخرج بَيْض حُمَّرة - وهى ضرب من الطيور أحمر اللون - فجاءت الحمرة ترف على رأس الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أيكم فجع هذه ؟ فقال رجل : أنا يارسول الله أخذت بيضها - وفى رواية الحاكم - أخذت فرخها ، فقال صلى الله عليه وسلم : رده ، رده ، رحمة لها ) (٣) .

(٧) وفى سنن أبى داود من حديث عامر قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل رجل عليه كساء ، وفى يده شيء قد لف عليه طرف كسائه فقال : يارسول الله إنى لما رأيتك ، أقبلتُ فررت بغيضة شجر ، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر ، فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى ، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى ، فكشفت لها عنهن ، فوقعت عليهن فلففتها معهن ، وهاهن فيه معى ، فقال صلى الله عليه وسلم : ضعهن عنك فوضعتهن ، وأبت أمهن إلا لزومهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أتعجبون لرحمة أم الفراخ فراخها ؟ قالوا : نعم ! يا رسول الله ، قال : فوالذى بعثنى نبياً لله أرحم بعباده من أم هؤلاء الأفراخ بفراخها . ارجع بهن حتى حتى تضعهن من حيث أخذتهن ، فرجع بهن وأمهن ترفرف عليهن .

(٨) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) تدئبه : تتعبه بكثرة استعماله . (٢) أخرجه أبو داود .
(٣) عن كتاب الحيوان للدميرى .

بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : « فى كل كبدٍ رطبة أجر » .

من سيرة الصحابة :

وقد اقتدى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرته النبيلة فى الرفق بالحيوانات وحمايتها من الظلم والعنف ، فمن وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إلى عامله على الصدقات : ( فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها فله ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفز عنها ، ولا تسومن صاحبها فيها .. ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً ، وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مجحف ، ولا ملغب ولا متعب . فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وفصيلها ، ولا يَمْصُر(١) لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوباً ، وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرفه على اللاغب ، وليستأن بالنَّقِب والظالع(٢) ، وليوردها ماتمر به من الغُدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض الى جوادِّ الطرق ، وليروّحها فى الساعات ، وليمهلها عند النِّطاف (٣) والأعشاب . . . الخ (٤) .

ومن وصية ابى بكر رضى الله عنه إلى يزيد بن أبى سفيان : « إنى موصيك بخصال : لاتغدر ، ولا تمثل ، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً . ولا تعقرن

---

(١) المصر : حلب ما فى الضرع جميعه . (٢) الظالع : الذى ظلع أى غمز فى مشيه والنقب ذو النقب ، وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه . (٣) النطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى ، والنطف : الدلو ، وليلة نطوف يجىء فيها المطر حتى الصباح ، والناطف : السائل من المائعات . (٤) أعتقد لو كان الدكتور أحمد أمين بك قد اطلع على هذه الوصية الثمينة دون سواها من تعاليم الإسلام لما قال بأن حمايه الحيوان فكرة مانوية عند تعليقه على أبيات زياد الأعجم .

شاة ولا بعيراً ، إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نحلا ، ولا تخربن عامراً ، ولا تغُل ولا تجبُن (١) » .

وأخرج ابن الجوزى عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب جمالا ويقول : حملت جملك ما لا يطيق .

وجاء فى كتاب الأم للامام الشافعى رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب قدم مكة فدخل دار الندوة يوم الجمعة وأراد أن يستقرب منها الرواح إلى المسجد فألقى رداءه على واقف فى البيت فوقع عليه طير من هذا الحمام فأطاره ، فانتهزته حيّة فقتلته ، فلما صلى الجمعة دخل عليه نافع بن عبد الحرث وعثمان بن عفان ، فقال لهما عمر : أحكما علىّ فى شىء صنعته اليوم : إنى دخلت هذه الدار وأردت أن أستقرب منها الرواح إلى المسجد ، فألقيت ردائى على هذا الواقف ، فوقع عليه طير من هذا الحمام ، فخشيت أن يلطخه بسلحه ، فأطرته عنه ، فوقع على هذا الواقف الآخر ، فانتهزته حيّة فقتلته ، فوجدت فى نفسى بأنى أطرته من منزلة كان فيها آمنا إلى موقعة كان فيها حتفه ، فقال نافع لعثمان كيف : ترى فى عنز ثنية عفراء نحكم بها على أمير المؤمنين ؟ قال لها عمر : أرى ذلك فأمر بها وذبحها .

## فى أحكام الفقهاء وأهل الحديث :

ذهب فقهاء الأمة عليهم الرحمة إلى أبعد حدود النظر فيما يتعلق بالرفق بالحيوان مما لم نجده فى الشرائع السماوية الأخرى ولا فى الشرائع الوضعية غربية كانت أو شرقية ، فقد قرروا قواعد مهمة ، وفرعوا مسائل دقيقة لا يحصرها العد ، لم تصل بعد إليها أذهان فقهاء القانون فى العصر الحاضر ، ولم تخطر على بال مؤسسى جمعيات حماية الحيوان من أبناء المدنية الحديثة فى زمن الذرة ، وإليك بعض تلك المسائل :

(١) « لا تغل » من الغلول وهو الخيانة عامة ، وخص بعضهم به الخيانة فى الفىء والمغنم . ومنه « وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » وجبن له من المال جبنة ــ بوزن كتب ــ : قطع له منه قطعة .

(١) يجب النفقة للبهائم المملوكة سواء أكانت مأكولة اللحم أم لا ، فإن امتنع صاحبها أجبره الحاكم على بيعها ، ولو كان لها ولد ولم يفضل عنه من لبنها لم يجز أخذ شيء من لبنها ، ولو أجدبت الأرض وجب علف البهائم ، ولو امتنع مالكها أجبر على بيعها (١) .

(٢) لو أخذ أحد طعام إنسان فى برية أو مكان لا يقــدر فيه على طعام أو شراب فهلكت دابته ضمن (؟) ، ولو اقتنى أحد سنورا فأكل فراخ الناس ضمن ما يتلفه (٢) .

(٣) وذكر فى ( باب كراء الإبل والدواب ) من كتاب الأم للشافعى رضى الله عنه ما يأتى :

ينبغى للسلطان أن يوكل رجلا من أهل الرفقة بأن يعلف الدابة ويحسب ذلك على رب الدابة والابل ، وإن ضاق ذلك فلم يوجد أحد غير الراكب ، يؤمر الراكب بالعلف ويستوفى قيمته من صاحبها .

وفى بيض النعامة يصيبه المحرم ، قال عطاء رحمه الله : إن أصبت بيض نعامة وأنت لاتدرى ، غرمتها تعظم بذلك حرمات الله تعالى . (قال الشافعى) : وبهذا نقول لأن بيضة من الصيد جزء منه لأنها تكون صيدا ، ولا أعلم فى هـذا مخالفاً ، لأن هذا اتلاف قياساً على قتل الخطأ .

(٤) وقال أبو حنيفـة رحمه الله : لو ضرب الراعى شاة ففقأ عينها أو كسر رجلها ضمن ، وعند أبى يوسف ومحمد : لو ساق الأجير المشترك الأغنام بأن صعد الجبل أو مكاناً مرتفعاً فتردى منها فعطب يضمن لامكان التحرز ، وكذا لو ساقها فعطبت منهـا شاة بسياقه بأن استعجل عليهـا فعثرت فانكسرت رجلها أو اندق عنقها فعليـه الضمان بالاتفاق ، وكذا الحكم فى ( البقار ) لو ساق البقر فتناطحت فقتل بعضها بعضا ، أو وطىء بعضها بعضا فى سَوقه ، أو استعجلها فى السَّوق فنفرت بقرة منها فكسرت رجلها ، أو ساقها فى المـاء لتشرب فغرقت ، ضمن .

---

(١و٢) عن التحرير للعلامة الحلى أحد علماء الامامية فى القرن السابع الهجرى

(٥) إذا ركب الدابة وقد لبس من الثياب أكثر مما كان عليه حين استأجرها يضمن بقدر ما زاد من لباسه ، ومن اكترى حمارا بسرج فنزع عنه السرج وأسرجه بسرج زائد فى الوزن فحينئذ يضمن عند أبى حنيفة ، وكذا إذا كبح الدابة بلجامها أو ضربها فعطبت ، ضمن عنده أيضاً .

(٦) لو فقأ أحد عينى الطير أو الكلب أو السنور يضمن لما انتقص من قيمته كالشاة والجمل ، وعن أبى يوسف يضمن النقصان فى جميع البهائم .

(٧) البعير السكران إذا قصد إنساناً فقتله المصول عليه دفعاً لشره يضمن قيمته ، وكذا الحكم فى نتف ريش الطائر فيغرم بقدر ما نقص منه (١) ويفديه (٢) إذا مات من نتف الريش ، أو يصير طيرانه ممتنعا .

هذا وقد بلغ الامامَ أحمدَ بن حنبل رضى الله عنه أن رجلا وراء النهر يروى أحاديث ثلاثة ، فرحل الإمام أحمد إليه فلما ورد عليه وجده يطعم كلباً فسلم عليه أحمد فرد عليه السلام ، ثم اشتغل باطعام الكلب ولم يقبل على الإمام ، فوجد الإمام فى نفسه شيئا ، إذ أقبل الرجل على الكلب ولم يلتفت إليه ، فلما فرغ الرجل من إطعامه الكلب ، التفت إلى الامام وقال : لعلك وجدت فى نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك ، قال : نعم ! فقال : حدثنى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلن يلج الجنة » ثم قال الرجل : أرضنا هذه ليست بها كلاب ، وقد قصدنى هذا الكلب فخفت أن أقطع رجاءه ! فقال الامام أحمد يكفينى هذا الحديث .

وجاء فى طبقات ابن السبكى رحمه الله أن الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه لما نام يوم الجمعة جاء الهر فنام على كمه ، فاستيقظ وقت الصلاة فقطع كمه ولم يزعجه فلما فرغ من صلاته وذهب الهر ، أعاد كمه إلى موضعه .

---

(١) من أراد التفصيل فليراجع باب الضمان من كتب الفقه فيرى العجب العجاب من رحمة الإسلام بالحيوان . (٢) إذا كان محرما فى الحج .

هـذا وقد نصت المـادة ( ١٢٩٥ ) من مجلة الأحكام ــ القانون المـــدنى العراقى ــ على أن شرط الصيد أن يكون ممتنعاً عن الإنسان بقدرته على الفرار برجليه أو جناحيه ، فإن صار إلى حال لا يقدر معها على الفرار والخلاص كغزال مثلا وقع فى بئر ، فيكون قد خرج عن حال الصيدية .

في نظـام الحسبة :

كان من عمل المحتسب النظر على أرباب البهائم للمحافظة عليها فمن جملة واجباته أن يأخذ أرباب البهائم بعلوفتها إذا قصروا ، وألا يستعملوها فيما لا تطيق ، وكذلك ينظر فى الضوال ، فإن قصَّر واجدها فيها ؛ يعده مسئولا عنها ويكون ضامنا للضالة ، ومن ذلك : إذا قدم البيطار إلى معالجة الدواب بغير خبرة فيسبب هلاك الدابة أو عطبها يلزمه أرش ما نقص من قيمتها من طريق الشرع ، ويعزره المحتسب من طريق السياسة . ويقول القرشى فى كتابه ( الحسبة فى الاسلام ) : وينبغى للبيطار ان يعتبر حافر الفرس والدابة قبل تقليمه ، فإن كان أحنف أو مائلا نسف فى الجنب الآخر قدراً يحصل به الاعتدال ، وإن كانت يد الدابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صغاراً والمقدمة كباراً . وإن كانت يدها بالضد من ذلك صغر المقدمة وكبر المؤخرة ، فلا يبالغ فى نسف الحافر فتعمش الدابة ، ولا ترخى المسامير فيتحرك النعل ويدخل تحته الحصى والرمل وترهص الدابة ، ولا يشد الحافر بقوة فتزمن الدابة .

وفى الأحكام السلطانية لأبى يعلى الحنبلى : يمنع من خصاء البهائم ويؤدب عليه ، وقال الامام أحمد فى رواية حرب : وقد سئل عن خصاء الدواب والغنم للسمن وغير ذلك فكرهه ، إلا أن يخاف عضاضه .

أخذ الثأر لحق جوار الحيوان فى الجاهلية والاسلام :

كان العرب قبل الاسلام قد قدست الحيوان وعبدته ، ومن آثار ذلك عندهم أنهم يجتنبون قتله ظناً منهم أنهم لو قتلوه لجوزوا به ، وكان كليب قد عرف واشتهر فى الجاهلية بحامى الصيد ، وكان يقول صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى فلا يصيد أحدا منه شيئا ، حتى ضرب به المثل فى العز فقيل ( أعز من كليب وائل ) وليس

على الأرض بكرى أو تغلبي اجار رجلا أو بعيرا إلا بإذنه ، ولا يحمى حمى إلا بأمره ، وكان إذا حمى حمى لا يقرب ، وقصة الناقة ( سراب ) ، بينه وبين ابن عمه جساس مشهورة فى تاريخ الأدب العربى ، وخلاصتها أن كليبا كان يخرج ويدور فى حماه فإذا هـو بحمَّرة على بيض لها ، فلما نظرت إليه صرصرت وخفقت بجناحيها فقال : أمنَ روُعك ، أنت وبيضك فى ذمتى ، ثم قال :

يا لك من حمـرة فى معمرى خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى

ثم خرج بعد ذلك يطوف فإذا هو بأثر بعير لا يعرفه قد وطىء البيض فشدخه فرمى كليب فصيل ناقة البسوس لقاء شدخ بيض الحمرة ، فقتله وكان ذلك سبب حرب البسوس بين أبناء الأعمام ، وفى ذلك يقول جساس (١) :

إنما جارى لعمرى فاعلموا أدنى عيالى
وأرى للجار حقاً كيمينى من شمالى
وأرى ناقة جارى فاعلموا مثل جمالى
إن للجار علينا دفع ضيم بالعوالى
فأقلى اللوم مهلا دون عرض الجار مالى
سأؤدى حق جارى ويدى رهن مقالى
أو أرى الموت فيبقى لؤمه عند رجالى

وقد اشتهر فى الجاهلية كثير من رجالات العرب وساداتهم بحماية الحيوان ، حتى كان ثور بن شحمة ، وهو أحد أشرافهم يسمى : « بمجير الطير » فكان الطير لا يثار ولا يصاد بأرضه لجواره له (٢) ، ولما جاء الاسلام أقر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذه العادة العربية الحسنة ، وهى من الأخلاق الحميدة الرفيعة ، وحث عليه السلام على التمسك بأهدابها ، ومن أبلغ ما يؤثر من الزجر عن إيذاء

(١) الأغانى ج : ٤ ص ١٤٠ — ١٥٠ و ج ٥ ص ١٦٠ — ١٨٠

(٢) عن كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب .

الجار قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أنت رميت كلب جارك فقد آذيته » فتأدب المسلمون بهذا الأدب السامى ، وجروا على سنته .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه (١) » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسِن شاة » (٢) .

حمامة زياد الأعجم :

| | |
|---|---|
| تغنَّىْ أنتَ فى ذمى وعهدى | وذمة والدى إن لم تطارى |
| وبيتَك أصلحيه ولا تخافى | على صِغَرٍ مزغَّبة صغار (٣) |
| فانك كلما غنيت صوتاً | ذكرت أحبتى وذكرت دارى |
| فإمّا يقتلوك طلبت ثأرا | له نبأ لأنك فى جوارى |

وكان الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك قد علق على هذه الأبيات فى كتابه فجر الاسلام بما يأتى :

« . . . وذكروا أن حبيب بن المهلب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته فاستعدى زياد عليه المهلب فحكم له بدية جارته . أفلست ترى معى أن هذا الشعور على هذا النحو جديد لم أعرفه للعرب من قبل ؟ ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان ثم استدرك فى الحاشية فقال : « لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لأنه فى جواره ، إذ يظهر أن هذا كان عند العرب فى الجاهلية ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى حيث يستعدى الوالى بطلب الدية » .

---

(١) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

(٢) الفرسن : خف البعير ، وقد استعير للشاة فسمى ظلفها به .

(٣) الصغرة ـ بكسر الصاد ـ : أصغر الأولاد يقال : هو صغرة أبويه أو صغرة أولاد أبويه ، والجمع صغر ـ بكسر أوله وفتح ثانيه . وزغب الفرخ ـ بتشديد الغين على صيغة الماضى ـ : نبت زغبه أى ريشه فهو زغب كحذر ، ومزغب .

وقد قلدَتْ رأيه هذا أديبة عراقية(١) ورجحت قوله باتهام الشاعر زياد بالمانوية حتى عدته من جراء ذلك من جملة شعراء الشعوبية أما تاريخ حياة هذا الشاعر وسيرته وجهاده فى سبيل الاسلام وخدمة العروبة تحت لواء القائد عثمان بن أبى العاص وموسى الأشعرى فى فتح ( اصطخر ) وغيرها فى بلاد فارس فتدحض حجة المتهمين له بالمانوية والشعوبية ، وهو القائل فى ـ أمير بن أحمد اليشكرى ـ لما استخلف على جيش سجستان حين اضطرب أمر عثمان بن أبى العاص فيها .

لو لا أميرٌ هلكت يشكر ويشكر هَلْكَى على كل حال(٢)

وقد عده ابن سلام فى الطبقة السادسة من شعراء الإسلام ، ومما يفند هذه المزاعم فى حقه أيضا قصته مع كعب الاشقرى شاعر الأزد عند هجوه (عبد القيس) قبيلة ـ زياد ـ بقصيدته التى مطلعها :

إنى وإن كنت فرع الأزد قد علموا أخزى إذا قيل عبد القيس أخوالى

فلما بلغ زياداً غضب وقال : يا عجباً للعبد ابن العبد ابن الحيتان والسرطان يقول هذا فى عبد القيس وهو يعلم موضعى فيهم ، والله لأدعنه غرضاً لكل لسان ثم قال :

هل تسمع الأزد ما يقال لها فى ساحة الدار أم بها صمم
اختتن القوم بعد ما هرموا واستعربوا ضلة وهم عجم

فشكاه كعب إلى المهلب وأنشده هذين البيتين فقال له المهلب . أنت أسمعتنا هذا وأطلقت لسانه فينا وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد ، فاكفف عن ذكره ، ثم دعا بزياد فعاتبه فقال . أيها الأمير . اسمع ما قال فىّ وفى قومى ، فإن كنتُ ظلمته فانتصر ، وإلا فالحجة عليه ، ولا حجة على امرىء انتصر لنفسه وحسبه وعشيرته .

وله شعر كثير فى الدفاع عن شرف عشيرته عبد القيس وأحسابها التى يعتز

(١) هى السيدة عاتكة بنت عدنان العسكرى .
(٢) معجم الأدباء ج : ١١ صحيفة : ١٦٨ .

بالانتساب إليها ، ويفخر بوضعه منها ، ولا مجال لذكره هنا . وقال صاحب الأغانى فى ترجمته هو زياد بن سليمان (١) مولى عبد القيس أحد بنى عامر بن الحرث ثم أحد بنى مالك بن عامر . وعن محمد بن العباس اليزيدى كان ينزل اصطخر فغلبت عليه العجمة على لسانه فقيل له الأعجم .

ولو كان على الحال الذى اتهمه به الأستاذ أحمد أمين بك ومقلدوه لاشتهر به بين أبناء عصره ، بل بالعكس كانت مواقفه منهم تدلنا على خلاف ذلك . كما رأينا فى هجوه كعبا الاشقرى بقوله . ( واستعربوا ضلة وهم عجم ) وكما فى حكاية الأغانى من تهيب الفرزدق ذلك الشاعر الفحل هجاءَ عبد القيس لمقام زياد فيهم ، وقد بعث إليه الفرزدق : لا أهجو قوماً أنت منهم أبدا . فلو كان الفرزدق ، وهو سيد شعراء عصره ، يرى فيه ما يراه أدباء عصرنا ، من أحاسيس المانوية والنزعات الشعوبية ، لما سكت عنه وتركه أبداً بعد أن هجاه ذلك الهجاء القاسى ، بل لحطم عظامه ودقها دقا ، وفضح ما نويته ، وندد بشعوبيته بغير واحدة من فرائده وخرائده الحسان ، وتركه غرضا لكل لسان .

هذا وإذا رجعنا إلى أبيات زياد فى (حمامته) نجد أن تجسيم المعنى فيها والذى لم يعرفه الأستاذ أحمد أمين بك للعرب من قبل ، قد أخذه زياد من معانى شعر جساس الذى قاله فى ـ سراب ـ ناقة سعد الجرمى الذى نزل بجوار البسوس خالة جساس بن مرة ، بل إن المعانى قد تجسدت فى أبيات جساس وكليب بصورة لم تخطر على بال الشاعر زياد الأعجم ، ولم يتصورها خياله ، وتدركه شاعريته بالرغم من تفاوت العصر وتبدل ألوان الحياة ، وتغير أساليب العيش التى لها الأثر الفعال فى مشاعر الشعراء وأخيلتهم وانفعالاتهم ، كما لا يخفى على أدباء عصرنا الألباء .

ثم لا ندرى ما هو نوع الاختراع والإبداع الشعرى فى تجسيم المعنى فى أبيات زياد ، الذى أبهر الدكتور أحمد أمين بك ؟ أما قول زياد .

---

(١) وفى معجم الأدباء : هو زياد بن سلمى بن عبد القيس أبو أمامة العبدى المعروف بزياد الأعجم .

فإما يقتلوك طلبت ثأراً له نبأ لأنك فى جوارى

فإنه لم يتضمن إلا علة الجوار لطلب ثأر حمامته لا أقل ولا أكثر ، بينما نرى فى شعر جساس أكثر من علة لأخذ ثأر (سراب) وهو فوق ذلك لم تحدثه نفسه بأخذ الدنانير عوض ثأره مهما بلغت كما فعل زياد ، وأنه لم ير كفئا لدم الناقة - سراب - إلا مهجة ابن عمه « كليب » حامى حمى تغلب ، وسيد ربيعة كلها ، حتى طحنت الحرب جماجم لها ميم بكر وتغلب ، وقد استعرت نيرانها بين ابناء الأعمام أربعين سنة ، فكان - دم كليب - مثلا من الأمثال .

فهل يا ترى كان كليب وجساس وثور بن شحمة مجير الطير فى الجاهلية على مذهب المانوية لحمايتهم الحيوان ؟ وهل كانت تعاليم الاسلام العالية فى رحمة البهائم وبيض الطيور ، وكذلك وصايا الصحابة الكرام ، وأحكام فقهاء الشريعة وأهل الحديث من هذه الأمة ، ونظام الحسبة فى الاسلام بشأن الرفق بالعجماوات ، كل ذلك مستمدا من المانوية الكاذبة ؟ كما وصفها المتنبي الحكيم .

وكم لظلام الليل عندى من يدٍ تخبّر أن المانوية تكذب

أليس من الأرجح والأفضل ، القول بأن زياداً الأعجم ذلك الشاعر الإسلامى العربى المجاهد فى سبيل الله ، كان قد استمد خياله الشعرى فى أبياته من التقاليد العربية الأصيلة ، وتعاليم الشريعة المحمدية السمحة ، من قبل أن تشيع الفاحشة المانوية فى الوسط الإسلامى بأجيال . وما اتهام شعر زياد بالمسحة المانوية من قبل الأديب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك ومقلديه ، إلا كاتهام الجاحظ للأصمعى بالمانوية ، حين اختلفا فى مسألة ( القدر ) .

وبعد فإن ما بسطناه من الكلام المفصل يكفى للبرهان على أن حماية الحيوان كانت من الفطرة العربية السليمة ، ومصداق الرحمة الإسلامية قبل أن تعرف المانوية الملحدة فى ديار العرب والمسلمين ، وفى هذا مقنع لرائد الحق والإنصاف ؟

# هل تعبدنا الشرع بالهدى
## في حال يترك فيها للفساد

لحضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد جواد مغنيه

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

---

نحن نعرف فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء دلتنا عليه أبحاثه القيمة التي يتمثل فيها علمه الذي لا ينضب له معين ، وفهمه لأصول الإسلام وفروع الدين ، واجتهاده الذي ينتقل بالقارىء خطوة خطوة من سر إلى سر من أسرار التشريع المختلفة الألوان والتي لا يحصيها عد ولا بيان .

يعبر عن ذلك كله بأسلوب حديث سليم ، وقد يستدعيه بعض الموضوعات إلى الإفاضة والتطويل بالنقل والرد نقضا وحلاً ، فيظن القارى أنه فى غنى عن ذاك .

وعلى أى الأحوال فقد فتحت أبحاثه الدينية أبوابا لقادة الدين والرجوع بهم إلى الدرس والتفكير ، فله منهم الشكر ومن الله الاجر .

نشرت رسالة الاسلام الغراء فى العدد ٤ م / ١ لفضيلته جوابا عن استفتاء وجه إلى علماء الأزهر عن جواز استبدال النقد بالهدى فى الحج ، وقد أوحى إلىّ جواب فضيلته بفكرة حول الموضوع .

وهى : هل الشارع المعصوم عن العبث تعبد حجاج بيته الحرام بالذبح وإراقة الدماء فى حالات خاصة مع فرض أن الذبيحة فى تلك الحالات لا بد أن تُطمَر فى الأرض أو تترك للتعفن ، وأن الحاج يذبح بقصد التقرب إلى الله وامتثال أمره

المتعلق بإراقة الدم ، وأنه عازم عزما أكيدا قبل الذبح وحينه على طمر ذبيحته أو إحراقها كما يجرى ذلك فى الحج كل عام ، فيذبح الحاج ويدفع نقودا لمن يقبل الهدى ويدفنه ؟

حول هذه المسألة فحسب يدور كلامى فى هذا المقام .

أما لو أمكن بالتقديم أو التأخير شرعا عن تلك الحالات الخاصة ، أو أمكن تجفيف اللحم ، أو استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظه وادخاره فى غلاف يدرأ عنه الفساد ؛ فلا ينبغى لأحد الشك والتوقف فى الجواز لوضوحه وبداهته ، حيث يتحقق بذلك امتثال التكليف والفائدة المطلوبة ، وبالجملة إن ماتتكلم عنه هو الانحصار وعدم وجود أية مندوحة عن الطمر أو الإحراق .

لايسوغ لإنسان أن يأتى بعمل ما ، قاصدا به القرب من الله سبحانه ، بقصد أنه تعالى طلب الفعل منه وتعبده به ، مالم يعلم بإحدى الطرق المشروعة أنه مأمور به من قبل الله سبحانه ، وإلا كان من التشريع المحرم شرعا وعقلا . وبعبارة ثانية إن العبادة من الأمور التوقيفية ويشترط فى صحتها قصد امتثال أمره تعالى المتعلق بالفعل المتقرب به إليه . فاذا لم يكن أمر فلا عبادة ولا تعبد .

وتثبت أوامر الله وأحكامه بالكتاب أو السنة قولا أو فعلا أو تقريرا أو بالاجماع ، أما الكتاب فليس فى آية من آياته نص صريح على جواز أو وجوب إراقة الدماء فى الحج المستلزمة ترك اللحوم للفساد ، ولم يرد فى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أو فعل ذلك أو أقر أحداً عليه ، فسياق القرآن والأحاديث واحد من وجوب الهدى فى مكان وزمان معينين .

ومن المقرر أن الشارع لم يتخذ لبيان أحكامه سبيلا غير السبيل التى سلكها الناس فى التفهيم والتفهم ، فقد جرت عادته فى التخاطب على طريقتهم لأنه واحد منهم ، فتى أراد تفهيم المكلفين حكما من الأحكام خاطبهم بلفظ ظاهر عندهم بما يريده من المعانى ، وهذا الظهور الذى لا ينحصر سببه بالوضع ومعانى الحقيقة فقد يكون

ناشئا عن القرائن المقالية أو الحالية ، وقد يكون سببه كثرة استعمال اللفظ فى بعض أفراد الكلى الذى وضع له أولا كالدابة فانها لكل ما دب من الحيوان ثم غلب على ما يركب ويحمّل .

وظهور الكلام فى معناه هو الطريق الصحيح لمعرفة مرادات المتكلمين ، والحجة لهم وعليهم ، فاذا قال السيد ـ مثلا ـ لخادمه اشتر لنا لحما ولم يبين نوع اللحم فعاد الخادم من دون لحم لأنه لم يجد لحم ضأن فلا يحق للسيد لومه وتوبيخه لأنه لم يأته بدجاجة أو إوزة ، كما لا يحق للخادم أن يشترى دجاجة أو إوزة ، محتجا بأن الدجاجة لحم ، فغير الضأن يحتاج إلى زيادة فى البيان ، وحيث لم يبين فقد أراد السيد الضأن خاصة ، لأنه المفهوم من الكلام دون سواه ، والمفهوم من وجوب الهدى أنه الذى تعورف بين الناس إمكان الأكل والإطعام منه ، فلسان الدليل الذى دل على وجوبه كلسان قولك : ضح ، فإن الناس تفهم من هذا الخطاب وجوب الأضحية حيث يمكن الأكل والإطعام ، أما التعبد بإراقة الدماء على كل حال فبعيد عن الأذهان تحتاج إرادته إلى زيادة فى البيان ، ولهذا يتساءل الناس مستغربين ! هل أراد الشارع الهدى فى حال ضياع لحمه وطمره فى بطن الأرض ؟ والحقيقة أن الشارع لم يرد ذلك ولو أراد لبين فى قول أو فعل أو تقرير بل إن قوله تعالى : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » هو تفسير لمطلوبه ، وأنه أراد الهدى حيث يمكن الانتفاع به ، فيجرى مجرى قول السيد لخادمه موضحا اشتر لحم غنم ، ومجرد صدق اسم الهدى على الحالة المفروضة لا يثبت حكم الشرع ، لأن الاستعمال أعم من الظهور الكاشف عن المراد ، والعام لا يثبت به الخاص ، ولو أصر إنسان على أن وجوب الهدى فى الآيات والروايات يشمل صورة عدم الانتفاع باللحم للزم أن يقول أن الهدى مع عدم الانتفاع مجزىء ، يحصل به امتثال التكليف الشرعى حتى مع وجود المندوحة وإمكان الانتفاع ، ولا قائل بذاك من الأولين والآخرين .

ولا شىء مما قدمته بين يدى القارىء ، يشعر بالاجتهاد الذى يفتح باب الشر والفساد ، وإنما هو تفسير للنص ، تقتضيه الصناعة السليمة ، وأصول المخاطبات .

أما الإجماع فقد أوجب العلماء الهدى كما أوجبته الآيات والروايات من دون تعرض لحكم الذبائح التى يترك لحمها للفساد ، وسكوتهم لا يدل على الترخيص ولا على المنع ، على أن المنقول من الإجماع على لسان فقيه من الفقهاء ليس بحجة ، والمحصل الذى يحصله من استقراء فتاوى الفقهاء واحدا فواحدا . هذا النحو من الإجماع أحيط بقيود جعلته نادر الوجود ، وبعد تمامه وتوفر الطارق لوجوده ذكر له الأصوليون شرطا يسقطه عن الاعتبار فى — الغالب — وهو أنه لو علم مستند الإجماع والأصل الذى اعتمد عليه المجمعون ، يكون مستندهم هو الدليل الوحيد فينظر مستقلا ويعمل بما يقتضيه ، ونحن نعلم أن الفقهاء اعتمدوا فى وجوب الهدى على ما جاء فى الكتاب والسنة ، وقد علمت عدم دلالتها على جواز الذبح بقصد امتثال الأمر إذا كان الذبح علة تامة وسببا كافيا لتعفن اللحوم وفسادها .

أما جواز استبدال النقد بالهدى — فى هذه الحال — أو يكون حكمها حكم فاقد الهدى ، فليس ذلك من غرضنا فى هذا المقام .

وإننى أختتم كلامى بما افتتحته به من الشكر لفضيلة العلامة الشيخ محمود شلتوت ، والإكبار لعلمه الجم الذى يبعث النشاط ويحمل على الدرس والتفكير .

والله سبحانه المسئول أن يديمه داعيا للدين ، ونصيرا للإسلام .

## رسالة الإسلام :

يبدو أنه لا خلاف بين الأستاذين الجليلين ، أو أن الخلاف بينهما على غير الحكم الفقهى ، من أنه : هل الحاصل فعلا هو تكدس اللحوم وعدم استطاعة الاستفادة منها وضرورة طمرها أو إحراقها أو تركها للتعفن ؟ .

بيان ذلك أن الكلام يرجع إلى أمور :

(١) يرى فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت : أن إراقة الدم نوع من القربة مقصود عينا فى بعض الحالات ، لا يغنى عنه التصدق الذى هو نوع آخر من القرب ،

وإذن فلا يجوز التفكير فى استبدال النقد بالهدى أو الأضاحى التى طلبها الشارع بذاتها إقامة للتصدق بثمنها مقامها .

ويرى فضيلته أيضا أن ما يبررون به جواز الاستبدال من تكدس اللحوم وتعفنها ، أو إحراقها وطمرها ، إنما نشأ — إن صح — من شيئين :

ا — عدم التنظيم ، وهذا يمكن تلافيه بإحدى الوسائل الحديثة فى حفظ اللحوم وتجفيفها .

ب — عدم الإلمام بأحكام الشرع ، الذى لم يطلب الذبح من كل حاج ، ولا جعله فى خصوص منى ، ولا فى اليوم الأول من أيام النحر ، ولا فرضه عينا فى جميع الحالات . ولو فهم الناس أحكام الشرع لما حدث تكدس ولا تعفن أو طمر .

أما فضيلة الشيخ محمد جواد فيُبعِد المسألة عن الأحوال العادية ، ويفرضها فى حالة بعينها هى انحصار الأمر فى الطمر أو الإحراق وعدم وجود مندوحة أخرى . ويقول : « أما لو أمكن بالتقديم أو التأخير شرعا عن تلك الحالات الخاصة ، أو أمكن تجفيف اللحم أو استخدام إحــدى الوسائل الحديثة لحفظه وادخاره فى غلاف يدرأ عنه الفساد فلا ينبغى لأحد الشك والتوقف فى الجواز - يريد فى وجوب الذبح عينا - لوضوحه وبداهته . حيث يتحقق بذلك امتثال التكليف والفائدة المطلوبة ؛ وبالجملة إن ما نتكلم عنه هو الانحصار وعدم وجود أية مندوحة عن الطمر أو الإحراق » .

وإذن ففضيلته متفق مع فضيلة الأستاذ الشيخ شلتوت فيما وراء هذه الصورة الفرضيـــة .

(٢) فى هذه الحالة الفرضية لا يقرر فضيلة الشيخ محمد جواد أن الأمر ينتهى إلى جواز الاستبدال لأنه يقول ما نصه : « أما جواز استبدال النقد بالهدى فى هذه الحال ، أو يكون حكمها حكم فاقد الهدى ، فليس ذلك من غرضنا فى هذا المقـام » ويشير الأستاذ بذلك إلى أنه لا سبيل إلى القول بالاستبدال فى هذه الحـال لأن

الاستبدال إنما يكون بنص من الشارع ولا نص ، فأقصى ما يقال فى هذه الحالة هو سقوط الهدى عن المكلف دون بدل ، لأن الشارع إذا أمر بأمر ولم يمكن للمكلف تحصيله ، لم يجز له أن ينتقل إلا إلى أمر قد شرع بدلا منه ، فإن لم يكن له بدل سقط ، وإذن فلا قائل من الشيخين بالاستبدال فى أية صورة من الصور وكلاهما لم يبحث ما يترتب على صورة الانحصار المفروضة .

(٣) أثار فضيلة الشيخ محمد جواد موضوعا يرجع إلى أنه : هل يدخل فى مفهوم كلمة الهدى إمكان الأكل منه بطريق اللزوم العرفى حتى يقال إن الهدى المطلوب هو الهدى المتعارف بين الناس إمكانُ الأكل والإطعام منه ؟ وأجاب بنعم ، ورتب على ذلك أن الشارع حين قال أهد أوضح ، كأنه قال أهد أوضح فى الحال التى يمكن فيها الانتفاع بالأضحية أو الهدى .

والحقيقة أن الهدى هو ما يذبح للتقرب امتثالا لأمر الله . وكونه بحيث يمكن الأكل منه أو الاطعام قد يكون شرطا فى الإجزاء ، مثله كمثل اشتراط ذبحه ذبحا موافقا للذكاة الشرعية مثلا ، وهذا الإمكان ثابت فى نفسه وإن لم يوجد من يأكل أو يُطعَم ، وليس اللازم نفس الأكل والإطعام ، لكن قد يقال : إذا ترتب على فعل قربة من القرب ضررٌ ، فهل يترجح جانب الفعل أو جانب الترك ؟ وهذا ـ إذا سلم الشيخان بتطبيقه فى موضوعنا ـ لا يكون منظورا فيه إلى تحقق مفهوم الهدى أو عدم تحققه ، ولكن إلى الموازنة بين ما يترتب على الامتثال بالفعل والامتثال بالترك ، ثم يرجع الكلام حينئذ إلى سقوط الهدى عن المكلف أو استبدال النقد به ، وهذا ما تركه الشيخان كما قلنا .

هذا وإنا لنشكر فضيلة الأستاذ محمد جواد على أسلوبه الراقى فى الجدل والنقاش ؛ والباب بعد مفتوح على الرحب لكل من صاحبى الفضيلة ، ولكل باحث .

# أشعار من القلوب

## لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز محمد عيسى

مدير المجلة

---

أُتى الحجاجُ بن يوسف الثقفى ، بجماعة من أصحاب قَطَرِىّ بن الفُجاءة ، والحرب يومئذ بين الخوارج وبنى أمية مستعرة الأوار ، حامية الوطيس ، فقتلهم جميعاً إلا رجلا واحدا ، كانت له يدٌ على الحجاج ، فمنَّ عليه من بينهم ، فلما صار الرجل بعد فكاكه إلى قطرى ، قال له : عاود قتال عدو الله الحجاج ، فأبى الرجل وقال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تُقِر بأنها مولاته !
ما ذا أقول إذا وقفت أمامه فى الصف واحتجّت له فَعَلاته
وتحدّث الأقوام أن صنائعا غُرست لدىّ فحنظلت نخلاته ؟

أبيات ثلاثة ما أنشدتها يوماً منذ سمعتها إلا أحسست لها روعة ، وأخذتنى لها نشوة ، ودخلت إلى قلبى كأنها ترد عليه لأول مرة .

هذا رجل خارجى ، وإذا قلت رجل خارجى ، فقد ذكرت تاريخ البسالة والإقدام ، وقوة العقيدة والإيمان ، والبلاغة التى تزخر بها كتب العربية ، وتجرى على ألسنة الرواة مُثُلها وأحاديثها ، وطرفها وأعاجيبها ، وكلنا يعرف تاريخ الخوارج ، وأنهم على ما فيهم من انحراف عن الجادة ، وتنكب لسبيل الحق ، قوم مؤمنون بما يرون إيمانا عميقا ، لا يخالجه شك ، ولا يضعفه وهن ، ولا يفسده تردد ، وما ظنك بقوم يرون جميع المؤمنين قد صاروا كفارا ما عداهم ،

وأن قتالهم فريضة واجبة ، حتى لا يبقى على ظهر الأرض منهم أحد ، أو يعترفوا على أنفسهم بالكفر ثم يعودوا إلى الإيمان ، ولكن هذا الرجل مع عقيدته تلك ، ومع خطورة شأن الحجاج فى قتالهم وحربهم ، يلتزم جانب الوفاء ، ويعتصم فى شأن الحجاج ـ الذى أحسن إليه ، وبادله معروفا بمعروف ـ بهذا الخلق الكريم ، ويحسن الدفاع عن رأيه ، والتعبير عن حجته بهذا الشعر القوى النابع من قلبه ، الممثل لفطرته الصافية الصادقة ، فتراه ينقل السامع إلى صورة مجسمة ، يقف فيها هو شاهراً سيفه على الحجاج بهذه اليد التى كان فى استطاعته ـ لو شاء ـ أن يبترها ويبتر من الوجود صاحبها ، ولكنه وهبها السلامة ، ومنّ عليها وعلى صاحبها بالحياة ، فكانت له بذلك مولاة ، وكان لها سيدا مالكا ، ثم ينقل سامعه كرّة أخرى إلى صورة أخرى يتخيلها الضمير الحى ، والخلق الكريم : صورة امرىء قد طُوق عنقه بجميل ، فيأتى إلى صانع هذا الجميل ، ويجزيه عن إحسانه سوءا ، وعن مروءته وعرفانه غدرا ونُكرا ، فيقف إزاءه فى الصف قد تسربل بالخزى ، وتجلل بالعار ، ولجلج الكلام فى فيه ، فلا يستطيع خطابا ، ولا يحير جوابا ، بينما قِرنه قد وقف رافع الرأس ، شامخ الأنف ، فى هالة من المروءة والنبل ، تحتج له فَعَلاته ، وتذود عنه مكارمه ، ثم ينقل سامعه أخيرا إلى هذه الصورة الثالثة ، صورة الأقوام وقد قامت مجالسهم وانفضت ، واجتمعت جموعهم وتفرقت ، على حديث هذا الغادر الناكث ، الذى غُرست لديه نخلات المعروف ، فصيرها معدنه الخبيث حنظلا نكدا .

لا شك أن الشاعر بلغ بأبياته الثلاثة أقصى ما يبلغه مصور ماهر ، أو مثّال قدير فى هذا المجال ، وأنه إن لم يكن أرضى قائده قطرياً وأحسن الاعتذار إليه ، فقد أرضى الوفاء ، وكرم وجه الخلق ، ودل على معدن فى نفسه كريم ، والتمس لنكوصه ــ إذا سمى هذا نكوصا ــ عذرا مقبولا مستساغا فى شرعة الإنصاف .

ولقد كان هؤلاء الخوارج آية فى البيان ، ومفخرة من مفاخر البلاغة العربية ، ذلك بأنهم يقولون من قلوبهم ، ويعبرون عن دخائل نفوسهم ، ويصورون المعانى

التى تختلج بها صدورهم ، فهم مدفوعون إلى ما يقولون بدوافع ذاتية نفسية غير متكلفة ، لا يصدرون فيها عن رغبة ولا رهبة ، ولا يقدرون لها مواقعها عند الناس من رضى أو سخط ، والقائل إذا كان بهذه المثابة كان مثله كمثل الطائر الغِرّيد يشدو على فننه ، لأنه أراد أن يشدو ، لا ليطرب السامعين ، ولذلك تجد شعرهم يمتاز بالصدق ، كما يمتاز بالقوة ، ويحسب عند النقاد وجهابذة الأدب من شعر الفطرة لا من شعر الصنعة ، وتراه يدور أبدا مع خلال الشرف وصفات النبل حيثما دارت .

استمع إلى قطرى هذا وهو يقول مخاطبا نفسه :

أقول لها وقد طارت شَعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع

فهو لم يزعم كما زعم أهل الفخر بالشجاعة والقوة : أنه لا يعرف الروع ، ولا يعرف الروع إلى نفسه سبيلا ، وإنما اعترف ـ على الفطرة ـ بأن نفسه عند ما رأت الأبطال وتقارعهم بالسيوف فى حومة الوغى ، طارت شعاعا ، وهذه عادة بشرية ينصت إلى دواعيها الجبان الفَروقة فيستطار لبُّه ، فلا يلبث أن يولى الأقران دبره فرارا وهلعا ، ويقاومها الشجاع الثبت فيصبر على لظاها ، وينهى النفس عن هواها ، ثم يذكر لنا قضية الإيمان الذى ملأ نفسه ، وأسعفه فى حجاجها : إيمان المؤمن بأن عمره محدود ، لا زيادة فيه ، إيمان العاقل الذى يعلم أن نيل الخلود غير مستطاع ، وأن الصبر فى مجال الموت خير درع لمن أراد الادراع .

وقطرى هذا هو الذى يقول أيضا لمبارز له :

ألا أيها الباغى البراز تقربن ... أساقك بالموت الذّعافَ المقشّبا
فما فى تساقى الموت فى الحرب سبة ... على شاربيه ، فاسقنى منه واشربا

الذعاف : السم الذى يقتل من ساعته . يقال موت ذعاف ، بالذال المعجمة ، والمقشّب المخلوط من قولهم : قشب الطعام بالسم خلطه به . وتقدير الكلام : أساقك الذعاف المقشب بالموت ، فهو يدعوه إلى كأس خطيرة فيها سم ذريع سريع قد قشب بالموت ومزج به مزجا . ثم هو ينصفه من نفسه كما يود أن ينتصف لها ويقول له : تعال نتساق هذه الكأس ، فإما أرحت وإما استرحت ، وحسبك بسقيين هذا شرابهما ، ولعمرى ما أوحى بهذا الشعر إلا جنان ثابت ، وإيمان يملأ القلب ويعمر النفس .

وإن شئت أن تطلب مزيداً من مثل هذا الشعر ، فاسمع ما يقوله عمران ابن حطّان رأس القَعَد من الصُّفْريّة ، وخطيبهم وشاعرهم ، لما قتل أبو بلال مرداس بن أُدية :

لقد زاد الحياة إلىّ بغضا ... وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى ... وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى ... كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى ... لها والله رب البيت قال

فهو ينبئنا عن ذات نفسه بأمور لا تزوير فيها : هو مبغض للحياة ، كاره للعيش — وتلك سنة الله فى الثائرين الخارجين ، يتبرمون بالأوضاع ، ويتميزون غيظا على الحكام وأصحاب السلطان ، ويرون آفاق الدنيا كلها ظلاما فى ظلام — وقد زادت الحياة إليه بغضا ، وازدادت الثورة والخروج إلى قلبه حباً بقتل أبى بلال ، فأصبح شغوفاً بالحرب تواقا إليها ، متطلعاً للموت تحت ذرا العوالى ، حذرا أن يموت على فراشه كما يموت الجبناء والضعفاء ، متمنياً حتفاً كحتف صاحبه يستريح به من هذه الدنيا التى اشتد بغضه لها ، وتحرر — دون أكثر الناس — من سلطانها وأسرها .

واسمع ما يقوله أيضاً فى هذا القتيل :

يا عين بكّى لمرداس ومصرعه ... يا رب مرداسٍ اجعلنى كمرداس

تركتني هائماً أبكي لمرزِئتي في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ما الناس بعد يا مرداس بالناس

فما أروع قوله « يا عـين بَكِّي » فإن لها فى ذوق الأدب والفن لشأنا لا يبلغه أن يقول: ابكي، ولا أحب أن أفسد هذا التعبير الناطق بمحاولة إظهار مرجع القوة فيه، فلا أقول إنه أمر للعين بالبكاء والتبكية، بكاء منها، وتبكية لسواها، ولا أقول أمر بالبكاء على صيغة التفعيل لإفادة التكثير، ولكن أترك هذا اللفظ الرائع فى جرسه ومعناه ووضعه وصدق تمثيله لما يشعر به صاحبه من لوعة تكاد ترديه، ثم ما أروع دعاءه « يا رب مرداس اجعلني كمرداس » فلو أن خطيباً جعل يرثى هذا القتيل، ويسرد على الناس مآثره وصدق بلائه، ويبشع لهم جريمة قتله، ومصيبة ظلمه، لما بلغ من نفوس سامعيه ما تبلغه هذه الجملة الدعائية القوية ذات المعانى الكُثْر فى الإشادة بمرداس، والرغبة فى التمثل بمرداس، والإنذار لأعداء مرداس! ثم ما أروع ما يبثه صاحبه من حزن عليه، وهيام وشتات بعده، ووحشة جعلته وحيدا نافرا، لا يسامر أنيسا، ولا يجالس جليسا، وينظر إلى الناس فاذا هم فى عينه غير الناس.

فأى عين لا تدمع وأى فؤاد لا يتقطع؟

وإنك لواجد هذه القوة، وشاعر مثل تلك اللوعة، كلما التمست شعراً نبع من قلب قائله، وأملته عليه العقيدة، وصور به شعوراً حقيقياً غير مفتعل، وما كان ذلك مقصوراً على هؤلاء الخوارج. فاسمع إلى الشريف الرضى فى بعض ما بكى به آل الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

شغل العيون عن الدبار بكاؤها لبكاء فاطمة على أولادها
من عصبة ضاعت دماء محمد وبنيه بين يزيدها وزيادها
يا غـيرة الله اغضبي لنبيه وتزحزحي بالبيض من أغمادها!

فهو قول رجل محب مكلوم الفؤاد تكاد تشم رائحة كبده المحترقة، حين تنشد هذا الشعر: إنه يذكر فاطمة، وما أدراك ماهيه، فاطمة بنت محمد، التى كانت

قرة عينه ، وشفاء نفسه ، وموضع حبه وإعزازه ، فاطمة أم الابناء وأصل الذرية الطاهرة ، والعترة الشريفة ، فاطمة زوج الإمام ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك البطل الصنديد الذى فدى النبي بنفسه ، وضحى فى سبيل الدين والعقيدة بكل ما فى الدنيا من متاع ، فاطمة زوج هذا ، وبنت ذاك ، هى التى تبكى ! وعلى من تبكى ؟ على أولادها !

بهذا يعتذر الشاعر عن العيون التى لم تر ديار الأهل والاحباب ، لأنها مشغولة بالدموع بكاءً على هذا البكاء ، ثم هو يذكر عصابة الظلم التى ضاعت على يديها « دماء محمد وبنيه » — وما أروعه من تعبير عاطفى يخلع القلوب — بين يزيد وزياد ، فيلخص فى هذه الجملة أو فى هذا البيت ، تاريخ جهاد وجلاد ، وظلم وعدوان ، وتقتيل وإهدار للدماء ، يقوم ذلك كله على أيدى الرءوس والأذناب من خلفاء بنى أمية وعمالهم ! ثم يأتى الشاعر بعد أن أثار فى النفوس هذه الذكريات الهائلة ، لحرك بها الأشجان ، وأهاج الأضغان ، بدعوته المثيرة الخطيرة : « ياغيرة الله اغضبى لنبيه » ، ولا يريد هذه الغضبة رجزا من السماء يسقط ، ولكنه يريدها سيوفا بيضا تتزحزح من أغمادها ! فمن ذا الذى يسمع هذا الشعر ولا يحس نار الفجيعة ، وأى سيف يبقى فى قرابه ، وقد استثاره هذا الباكى الحزين ، واستثار له غيرة الله وغضبة الله لنبيه وأبناء نبيه ؟

واسمع إلى فاطمة بنت الأحجم إذ ترثى أباها فتقول :

| | |
|---|---|
| قد كنتَ لى جبلا ألوذ بظله | فتركتنى أضحى بأجرد ضاحى |
| قد كنتُ ذات حمية ما عشت لى | أمشى البَراز وكنت أنت جناحى |
| فاليوم أخضع للذليل وأتقى | منه وأدفع ظالمى بالراح |
| وأغض من بصرى وأعلم أنه | قد بان حد فوارسى ورماحى |

وإنها لصورة واضحة رائعة تصورها هذه المرأة الباكية الحزينة ، وترسم بها حياتها الذليلة الحائرة الخائفة الضعيفة بعد أبيها ، وقد كان ملجأ لها ، فأصبحت غرضا لسهام الأيام ، وكانت به ذات حمية وأنفة وعزة ، تبرز فى الفضاء آمنة مطمئنة

لا ترهب أحدا ، فاذا هى من بعده خاضعة ذليلة حتى للأذلاء ، لا تجد ما تدفع به عن نفسها إلا راحة يدها ، ولعمرى إن هذه لصورة للوعةٍ حرّى .

والنساء بارعات فى تصوير أحزانهن ، والتعبير عن ثُكلهن ، فاذا رثين أبكين القلوب قبل العيون ، والفرق بين أشعارهن وأشعار الرجال فى الرثاء هو فرق ما بين العاطفتين . عاطفة التى تنظر إلى سعادتها وعزها بل حياتها ووجودها ، وعاطفة الذى ينظر إلى صديق أو أخ كان يستعين به على الحياة ، أو يبتغى به فخرا ومجدا ، ومكاثرة وذكرا .

وإن شئت فوازن بين شعر مهلهل فى رثاء كليب على جودته وصدق تصويره لعاطفة قائله ، وشعر جليلة بنت مرة فى هذا الشأن نفسه .

فن قول مهلهل :

نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم ... ما لاحت الشمس فى أعلى مجاريها !

وهو فى هذه الأبيات غاضب تلمع بين ثنايا شعره صفحات السيوف ، وظبا الأسنة ، ويسيل رثاؤه تهديدا وإنذاراً وتخويفا ، ويتمنى لو كانت السماء قد وقعت على الأرض ، أو كانت الأرض قد انجابت بمن تحت السماء ، ويدعو على من يصالح بين الفريقين أو يضع حدا للخصومة بينهما ، تلك الخصومة التى يجب أن تبقى ماطلعت الشمس ، وأن يتوقع فيها الأعداء ما ليس لهم به طاقة من الشر والهلاك .

ومن قوله أيضاً :

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستب بعدك يا كليب المجلس !
وتكلموا فى أمر كل عظيمة ... لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا
وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحا ... وذراع باكية عليها بُرنُس
تبكى عليك ولستُ لائم حرة ... تأسَى عليك بعبرة وتَنَفس

وهو فى هذا الشعر متهكم بالمجالس بعد كليب ، ساخر ممن يوقدون النار على

عادة العرب كرما واستدعاء للضعيف ، منكر على الناس أن يخوضوا فى أمر العظائم وقد مات ربها وحلالها ، ثم يعرج بعد ذلك تعريجا خفيفا على الباكين والباكيات حزنا عليه وتأسفا .

فهذا رثاؤه أو بعض رثائه ، وهو رثاء جيد يمثل حرقته ، ويصور مقدار إحساسه بالفاجعة ، وينبيء عن ثورة كامنة فى قلب قائله توشك أن يكون لها ضرام ، ولكن استمع إلى قول جليلة وهى تصور حيرتها بين مقتول هو زوجها وقاتل هو أخوها ، وما ينتظرها بين هذين الرزءين :

| | |
|---|---|
| يا قتيلا قوّض الدهر به | سقف بيتىَّ جميعا من علِ |
| هدم البيت الذى استحدثته | وانثنى فى هدم بيتى الأول |
| ورمانى قتله من كثَب | رمية المصمى به المستأصل |
| يا نسائى دونكن اليوم قد | خصنى الدهر برزء معضل |
| خصنى قتل كليب بلظى | من ورائى ولظى مستقبل |
| ليس من يبكى ليومين كمن | إنما يبكى ليوم ينجلى |
| يشتفى المدرك بالثأر وفى | دَرَكى ثأرىَ ثكل المثكل |
| ليته كان دمى فاحتلبوا | بدلا منه دما من أكحلى |
| إننى قاتلة مقتولة | فلعل الله أن يرتاح لى ! |

وهذا شعر غنى ببيانه ونصاعته عن أن يبين أو يفسر ، وليس يحتاج فى تجلية معانيه ، وتحديد مبانيه ، الا إلى إنشاد منشد ، واستماع مستمع ، وذاك ـ لعمرى ـ هو الشعر ؟

# عناصر وجود الأمة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

---

لكل أمة من الأمم دعائم خاصة يقوم عليها وجودها ، وتمتاز بها شخصيتها عن غيرها ، وتأخذ بها مكانتها ، وتتحد منزلتها ، من الرفعة أو الضعة بين جميع الأمم ، وليست الأمة الإسلامية بدعا من الأمم . باعتبارها مجرد أمة اجتماعية ، فيجب أن تكون لها مميزاتها وعناصر وجودها الخاصة بها ، كما أنها بوصفها الدينى يجب أن تتميز عناصر وجودها ومميزاتها عن سواها من الأمم غير الإسلامية .

والباحثون فى مسائل الاجتماع الاسلامى يرون بوضوح ـ منذ ظهر الإسلام ـ أمة إسلامية متميزة تماما عن غيرها بعناصر لا تشاركها فيها أمة بشرية ، ونحن نلخصها فى كلمات ، ثم نتحدث عنها تباعا بإذن الله ، والله يهدينا إلى الرشد ، ومنه نستمد التوفيق .

* * *

أول ما يجده الباحث من مقومات الأمة الاسلامية : عنصر التوحيد والوحدة ، ثم عنصر المساواة والأخوة الدينية ، ثم المسئولية المشتركة عن رعاية المجتمع ، وحفظ الدين وحماية الدعوة إليه .

## ١ — التوحيد والوحدة :

كان مبدأ التوحيد ثورة حطمت الشرك الدينى الذى ألزم الناس بعبادة غير الله ، كما حطم الشرك الاجتماعى الذى جعل من بنى الإنسان سادة ودهماء ، وبذلك صحح التوحيد الوضع الدينى والاجتماعى ، وجعل العبادة والسيادة لله الخالق وحده ،

فالله خالق الجميع ، ونسبة الجميع إليه واحدة ، فمن حقه أن يُعبد وحده ، ومن حقه أن يكون السيد المطلق لجميع عبيده الذين خلقهم ، وليس لغير الله - من شعب أو فرد - سياد على خلق الله « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

وعبادة الخالق ، والعبودية له وحده ، والاقرار بسيادته على خلقه ، أمور فطرية ركزها فى نفسية الإنسان يوم خلقه ، لذلك كان التسليم بها ميسورا لكل من صفت نفسه فاتجهت إلى الإسلام ، بل يكاد يكون هذا المبدأ السوىّ هو الذى قاد الأفراد والشعوب إلى الدخول فى دين الله أفواجا ، نجد ذلك واضحا جليا لا غموض فيه . فى جميع معاهدات الصلح والأمان التى عقدها المسلمون منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، مع الذين عاهدوهم من العرب ، وأهل فارس ، وأهل الشام ، وأهل المغرب الإسلامى ، وأهل الأندلس ، هذه المعاهدات التى تقرر : أن من أسلم فلا سبيل عليه ، وأنه أصبح لبنة فى بناء الاسلام له ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، غير مظلوم ولا ذليل ، وهذا المبدأ هو الذى جعل آلافاً من الفرس والروم يسارعون إلى الاسلام ، من أمثال القائد الرومانى العظيم « جورج بن تيودور » الذى يسميه العرب « جرجه » فقد سأل خالد بن الوليد فى ميدان معركة اليرموك فيما سأله : أخبرنى عما تدعونى إليه ؟ قال : إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله . قال : فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر « يعنى الإسلام » ؟ قال خالد : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا . شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا ! قال هل لمن دخل فيكم اليوم ياخالد مثل ما لكم من الأجر ؟ قال : وأفضل .

وعندما استنجد كسرى يزدجرد الثالث بملك الصين ضد المسلمين ، سأل الملك الصينى عن كنه الدعوة الإسلامية ، فلما عرف حقيقتها كتب إلى يزدجرد يقول : إن هؤلاء القوم الذين وصف لى رسولك لو يحاولون الجبال لأزالوها ، ولا يزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم ، أو يحرموا حلالهم ، فسالمهم . وعندما فرض عمر العطاء للمسلمين سوى بين الجميع : العرب وغير العرب .

ولما علم عمر بن عبد العزيز بأن بعض عماله فى فارس يضع الجزية على الذين يدخلون فى الإسلام ، حرصا على موارد الخزينة أن تنضب ، كتب إليه : تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعثه جابيا (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة : يا معشر قريش : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهليه ، وتعظمها بالآباء . الناس لآدم وآدم من تراب ، « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وإذن ، فالتوحيد يجمع من يعترف به فى رابطة واحدة . يستوى كل أفرادها فيها فى جميع الحقوق والالتزامات ، هى رابطة العبودية لرب العالمين ، والتسليم بسيادته وحده على الجميع ، ثم جاءت الرسالة عامة للجميع لتأكيد سيادة الله على عباده ، وتأكيد أن نسبتهم إلى الله واحدة ؛ « وما أرسلناك إلا كافة للناس » ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وكانت هذه الرحمة للعالمين ، تخليصهم من الشرك الدينى والاجتماعى ، وتحرير البشرية من العبودية لغير الله سبحانه وتعالى ؛ وبذلك ألغيت جميع الفروق الاجتماعية بين جميع الأجناس ، والألوان ، والأفراد ، فلا شعوبية ، ولا قبلية ، ولا طَبَقية .

وجاء القرآن يؤكد أن المسلمين جميعا تتكافأ حقوقهم والتزاماتهم ، وتكاليفهم ودماؤهم ، وجعل منهم وحدة كاملة متناسقة متجانسة ، فوجه خطابه إلى جماعة المسلمين . فى كافة التكاليف الايجابية والسلبية ، فإنْ خاطب « الناس » . فى أمر من الأمور العامة ، قصد الإنسانية كلها ، وخص جماعة المؤمنين ، وإن خاطب « الذين آمنوا » . فإنه يعنى المسلمين فى ثوب وحدتهم الجامعة ، لا ينظر إلى جنس ولا إلى لون ، وإن تحدث عن نسبة المسلمين إلى غيرهم من الأمم . قال :

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٣١ طبع السلفية .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله . . . » فبنى النسبة على الإيمان بالله ومقتضياته ، لا على عنصرية من جنس أو دم .

وعلى هذا الأساس جاء خطاب القرآن الكريم للأمة فى جميع التكاليف ، سواء منها ماهو فردى يُطلب أداؤه من كل فرد فى الأمة . إذا توفرت فيه شروطه ، « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . « وافعلوا الخير » . « أوفوا بالعقود » وما كان جماعيا . يطلب من الأمة باعتبارها « شخصية معنوية مسئولة » أن تحققه ، وتعمل على تركيزه ، كتنفيذ الأحكام الشرعية ، وتوخى العدل فى الحكم والإشراف على الحاكمين وتوجيههم ، والقيام بالمحافظة على الدين ، وكيان الأمة . وحماية الدعوة إلى الله ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ، « إعدلوا هو أقرب للتقوى » « وتعاونوا على البر والتقوى » ، « وجاهدوا فى الله حق جهاده » ، « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » ، « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . وغير ذلك من التكاليف الجماعية التى كلفت بها مجموعة المسلمين « الأمة الأسلامية » .

ولا شك أن القرآن يعنى من كلمة « أمة » هذا المعنى الجامع لكل من دخل فى الاسلام أو وصف به ، ولا يعنى مطلق جماعة من المسلمين . من غير قصد العموم والشمول ، بحيث يسمح بتعدد الوحدات وتمايزها فى الشخصية ، انظر إلى قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاعبدون » . والمفهوم من هذا من غير التواء ، أن المسلمين أمة واحدة ، كما أن ربهم واحد ، ووصف الأمة « بواحدة » يؤكد لنا أن وحدة هذه الأمة قوية متماسكة ، لها شخصيتها العامة المسئولة ، ومقصده من الأمة — بلا مراء — هو الأمة الإسلامية على عمومها . لا الأمة العربية ، أو الفارسية ، أو المصرية ، أو الباكستانية ، فأن هذه شعوب تتكون منها الأمة الإسلامية ، وهى بمنزلة الأفراد الذين يتألف منهم كل شعب

من هذه الشعوب ، وكما أن أبناء الشعب الواحد إخوة فى وطنهم « المحلى » ونسبتهم إلى دينهم واحدة ، فكذلك الشعوب إخوة فى « الوطن الإسلامى » ونسبة جميعها إلى الدين واحدة ، ومن الجلى أنّ تفرق الأفراد يلغى وجود الشعب أو الجماعة ، فكذلك تفرق الشعوب الاسلامية يلغى وجود « الأمة الإسلامية » « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

قد يقول قائل : إن الأمة الاسلامية ، لا يمكن إلغاء وجودها . إذ أنها تتألف من كل مسلم فى أرض الله . أياً كان لونه وجنسه ، وأفراد المسلمين تمتلىء بهم شعاب الأرض والحمد لله ! فنقول : إن القرآن يعنى من الأمة الاسلامية : أمة مكلفة بتنفيذ أحكام الشرع ، وإقامة الحدود ، وتحقيق العدالة بين جميع أفرادها أمة مسئولة عن صالحها العام بوصفها أمة ، وحفظ كيانها وكرامتها ، بوصفها مناط التكليف فى كل ما هو عام ؛ ومن المسلم به أن أمارة وجود المكلف . قيامه بما كلف به ، فالفرد المسلم مثلا : إذا انسلخ من واجباته ، ولم يؤد تكاليفه ، أصبح وصفه « بالفرد المسلم » غير قائم ؛ وإن كان موجودا يأكل ويشرب ، ويسعى فى الأرض ، فكذلك « الأمة الإسلامية » إذا لم تقم بتكاليفها ، وكل ما هى عنه مسئولة ، فوصفها « بالامة الاسلامية » لا وجود له . وإن كانت شعوبها وأفرادها تملأ الدنيا كلها ؛ جماعات كغثاء السيل ، تتداعى عليها الأمم ، كما تتداعى الاكله على قصعتها ، وإنما تكون الامة « إسلامية » يوم تقوم بتكاليفها ، وتؤدى رسالتها لتثبت بذلك وجودها « وإسلاميتها » .

ولعلى لا أجانب الصواب إذا قلت : إن جميع ما يعانيه المسلمون اليوم فى كل مكان ، من ظلم وهوان ، وذل وحرمان ، إنما يرجع إلى فقدهم « شخصيتهم المعنوية هذه » بتفرقهم فى الارض ، وخلعهم ثوب الوحدة الاسلامية الجامعة ، مما عطل تكاليف الامة العامة ، التى نيط بها عزة المسلمين ، وبقاء صولتهم ، وحكّمتهم قرونا طويلة فى السياسة الدولية .

وليت شعرى على من تقع مسئولية هذا الانحلال والتفكك والتفرق ؟ على أولى الامر المعنيين فى قوله تعالى : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » على قادة الرأى والفكر فى بلاد المسلمين ، من العلماء وذوى الرأى والخبرة والقدرة على توجيه الناس ، على هؤلاء الذين سمحوا — فيما مضى — لذوى الاهواء أن يفرقوا جمع المسلمين ، ويمزقوا وحدتهم ، تحت ستار « المذهبية أو الوطنية » عليهم تبعة ما يعانيه المسلمون اليوم من ضروب البلاء .

وعلى هؤلاء القادة ـ فى عصرنا هذا ـ جمع شتات المسلمين تحت راية القرآن ، والعمل على إعادة بناء الوحدة الإسلامية من جديد ، بناءً يرجع إلى المسلمين (اليوم) وصفهم بأنهم (أمة إسلامية) لها كيانها ومميزاتها وشخصيتها المكلفة المسئولة ، وطريق ذلك ـ فى نظرى ـ هو إشعار المسلم بأنه أخ المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، وان منزلته من أخيه كمنزلة اللبنة من اللبنه فى ( جدار واحد ) تشد إحداهما الأخرى فيثبت الجدار ويقوى ، ومنزلة الشعوب الإسلامية بعضها من بعض كمنزلة ( الجُدُر ) فى البناء الواحد يشد بعضها بعضا ، فيتركز البناء ويشمخ ، ولا سبيل إلى قيام البناء وعظمته ما لم تتعاون دعائمه جميعها ، فى القيام بمهامها ، على ذلك النسق الرائع ، الذى رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « مثل المسلمين فى تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » هذا الجسد هو الأمة ، وأعضاء الجسد : هم المسلمون ، شعوبهم وأفرادهم ، وهذه هى ( الأمة الإسلامية ) .

يا قادة الرأى والفكر ، وذوى الاتباع فى بلاد المسلمين ، أنتم أولو الأمر المسئولون عن أمتكم وعزتها أمام الله وضمائركم ، وعليكم تبعة الحفاظ على الدين ووحدته ، والأمةِ وشخصيتها ، والنظرُ فيما يحقق للأمة سعادتها وسيادتها وعزتها ( ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ) وليست هذه المسئولية قاصرة على زمانكم ، بل أنتم مسئولون عن الأجيال المقبلة ، فانظروا . هل تورثونها تركة مثقلة بالتفرق

والتحزب والمغارم، كما ورثنا مثل ذلك عن أهل الأجيال الماضية ؟ وإذن لحوسبتم حسابا عسيرا، وكنتم قوما بورا، وسخطت عليكم الأجيال المقبلة، وقست أحكامها على تدينكم !! أم ستؤدون رسالتكم فتضعون - على الأقل - منهج إعادة وحدة الأمة ؟ وإذن فليهنكم نعيم مقيم عند الله، وعند الناس ذكر حسن ! وعساكم تفهمون مدى مسئوليتكم عن المسلمين فى المستقبل بمثل ما فهم عمر بن الخطاب مسئوليته ! ، فقد طلب إليه الزبير بن العوام وبلال أن يقسم أرض الفتوح على الفاتحين، فقال لهم : إذن أترك مَن بعدكم من المسلمين لا شيء لهم ! ثم قرأ قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم » والسلام على من اتبع الهدى وقال إننى من المسلمين ؟

# زخرفة الأخشاب
## فى الفن المصرى الإسلامى

لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور جمال محرز

المدرس بمعهد الآثار بكلية الآداب

---

ورث الغزاة المسلمون فيما ورثوه عن أهل البلاد التى أخضعوها لسلطانهم ، تقاليدهم الفنية ، وأساليبهم الصناعية ، إذ اتخذوا الفنانين من أهل هذه البلاد أساتذة لهم ، يتلقون عنهم قواعد الفن ، ويتدربون على أيديهم على الاساليب الصناعية ، لأنهم جاءوا إلى هذه البلاد وهم فارغو الأيدى من التقاليد الفنية خاوو الوفاض من الأساليب الصناعية الناضجة .

ولهذا ظهرت العناصر الزخرفية التى نعرفها عن فنون تلك البلاد قبل خضوعها للحكم الإسلامى فى منتجاتها الفنية بعد الفتح الإسلامى ، واستمر ظهور تلك العناصر ردحا من الزمن إلى أن تمكن المسلمون من تكوين فن إسلامى خاص بهم ، وهو وإن كان فى مجموعه — من حيث العناصر والأساليب — مستمدا من الفنون السابقة للإسلام ، فى الأقطار التى خضعت للسلمين ، إلا أنه اكتسب صفات خاصة ، أصبحت ذاتية له .

وتسمى هذه الفترة السابقة على تكوين الفن الإسلامى - والتى تسود فى منتجاتها العناصر الزخرفية ، للأقطار المفتوحة قبل الفتح الإسلامى - بفترة الانتقال . وهى تلك الفترة التى نجد الفنان فيها حائرا بين تقاليده التى ورثها عن آبائه وأجداده وبين الاساليب أو الافكار والاتجاهات الجديدة التى جاءت مع الغزاة الفاتحين ،

أيهما يتبع ، ولهذا نجد المنتجات الفنية فى هـــذه الفترة تجمع بين التقاليد الفنية القديمة والأساليب الجديدة .

وفترة الانتقال هذه فيما يتعلق بزخرفة الأخشاب فى مصر قد استمرت من الفتح الإسلامى حتى العصر الطولونى . ونشاهد فى القطع الخشبية التى وصلت إلينا من هذه الفترة ، استمرار الأساليب الصناعية والعناصر الزخرفية ، التى ورثها المسلمون عن الفن القبطى . فنجدهم يستعملون فى زخرفة الأخشاب الحفر والتطعيم ويزخرفون الأخشاب بالعناصر الحيوانية والنباتية مثل الطيور والأسماك والعنب بعناقيده وأوراقه والرسوم الهندسية مثل الدوائر المتداخلة والعقود المتشابكة والمستطيلات الصغيرة المفرغة والموضوعات الزخرفية المجنحة الساسانية الأصل .



لوح من الخشب من فترة الانتقال ( بدار الآثار العربية )

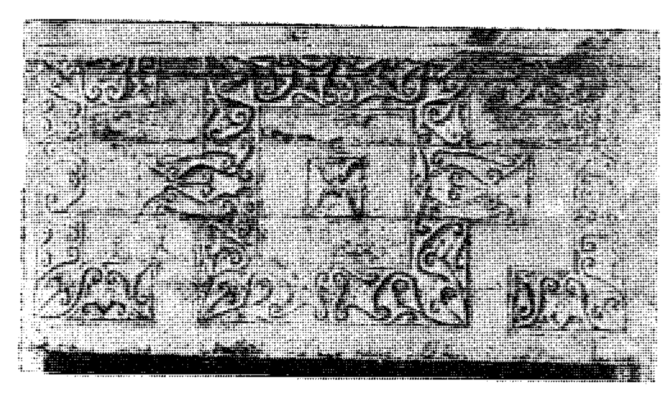
غير أن العناصر الحيوانية والآدمية ، كانت فى الغالب محلا للاعتراض والاحتجاج من المسلمين وبخاصة رجال الدين منهم ، لأن الدين الاسلامى يكره التصوير ، ولأن كثيرا من هذه الرسوم كانت له صفة دينية ، إما صفة واضحة مثل رسوم المسيح ورجال الكنيسة ، وإما صفة رمزية ، مثل العنب والسمك والحمام ، ولهذا يندر ظهور مثل هذه العناصر . ولا نجد أثرا للرسوم الآدمية فى فترة الانتقال فى حين أننا نجد الرسوم النباتية والحيوانية ، ولكن أغلب ما ظهر منها خضع للتهذيب والتحوير ، أى البعد به عن أصوله الطبيعية . ويجب أن نقول إن أوامر الدين الإسلامى بخصوص التصوير ، لم تتبع فى مختلف العصور وفى كل الأقطار ، كما سنرى فيما بعد .

وهذا التهذيب أو التحوير هو الاتجاه الذى سار فيه المسلمون ، وإن كانت حركة التهذيب والبعد بالعناصر عن أصولها الطبيعية قد ظهرت فى الشرق فى أوائل

العصر المسيحى نتيجة تأثير جاء من الهضبة الإيرانية ، غير أن هذه الحركة كانت بطيئة السير ، ولم يكن هناك من البواعث ما يدعو الى السير فيها بجد ، وهذا على عكس ماحدث بعد ظهور الإسلام ، إذ كان للدين الإسلامى أثره الواضح فى التعجيل بالوصول بها إلى أقصى درجات التحوير والتهذيب .

ولما كانت هذه الفكره الجديدة غير مصحوبة بتقاليد فنية تساعد الفنانين على تحقيقها بالتجائهم إلى هذه التقاليد الجديدة بدلا من اعتمادهم على تقاليدهم الموروثة ، فقد طالت فترة الانتقال ولم تختلف زخرفة بعض القطع الخشبية التى وصلت إلينا من هذه الفترة عن مثيلاتها فى العصر القبطى ، ولولا ظهور الخط الكوفى على بعض هذه القطع لما تردد أحد فى نسبتها الى الفن القبطى ، والواقع أن ظهور الخط الكوفى على القطع الخشبية كان من الصفات البارزة والعوامل الأساسية التى ساعدتنا على نسبة هذه القطع إلى فترة الانتقال .

وبقيام الدولة الطولونية يحدث تطور واضح فى الأساليب الفنية وتغير ظاهر فى العناصر الزخرفية ، ونكاد لا نرى أثرا للعناصر التى كانت سائدة فى فترة الانتقال ، والحق أن الفنانين المصريين سواء أكانوا مسلمين أم قبطا ، قد استبدلوا بعناصرهم الزخرفية ، العناصر الجديدة المكونة من رسوم تخطيطية ، وأشكال حلزونية ، وأقراص صغيرة ، وأشكال تشبه علامة الاستفهام أو الكلى أو حرف (و) فى الحروف اللاتينية ، وبعض الأوراق النباتية ، وبعض الحيوانات المحورة عن الطبيعة ، كل أولئك العناصر ، استخدم فى إظهارها طريقة فى الحفر جديدة ، ألا وهى طريقة الحفر المائل غائرا أو غير غائر .



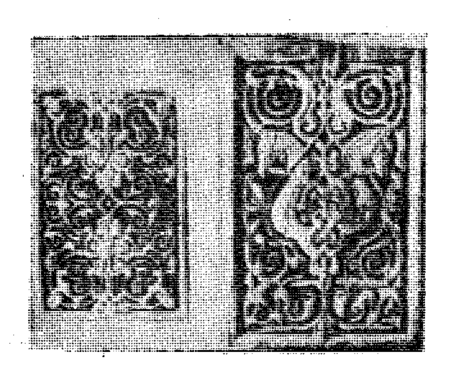
تحليل العتب الفوقانى لأحد أبواب جامع ابن طولون ( عن الأستاذ كريزويل )

وهذا الأسلوب الجديد صورة من أسلوب سامرا ، حيث نشأ وترعرع أحمد ابن طولون ، وشاهد ما كانت عليه سامرا من عظمة وأبهة وازدهار فنى ، ومما يدعو إلى التساؤل عـــدم وجود مقدمات أو ممهدات أو فترة انتقال بمعنى آخر ، لهذا الأسلوب الجديد فيما وصل إلينا من تحف خشبية ، ولعلنا نستطيع تفسير ذلك إذا ما عرفنا أن الفن الإسلامى فن ملكى ، يعتمد على تعضيد الحكام من السلاطين والأمراء ، وهذا يقتضى بالطبع أن تحوز المنتجات الفنية إعجاب هؤلاء الحكام ، وهو ما دعا الى اقتباس الأسلوب الجديد الذى ساعد على انتشاره الصناع والفنانون ، الذين جاءوا من سامرا إلى مصر بمجىء أحمد بن طولون إليها ، ونستطيع أن نقول أن مصر شهدت فى عهد الدولة الطولونية ، أول مرحلة فى تكوين فن إسلامى بها ، إلا أنها لم تشمل كل الميادين الفنية .

ولم يحدث انقلاب فنى فى الأساليب أو العناصر بمجىء الفاطميين ، إذ استمرت الأساليب الطولونية مستخدمة ، وبخاصة فى أوائل العصر الفاطمى مع تغير طفيف ، وهو صغر مساحة العناصر الزخرفية فى العصر الفاطمى عن العصر الطولونى ، وتغير أسلوب الحفر إذ أصبح هنا عموديا بعد أن كان مائلا ، ولعل الذى ساعد على استمرار الأسلوب الطولونى هو معرفة الفاطميين لهذا الأسلوب العباسى الأصل أثناء وجودهم فى شمال أفريقية قبل مجيئهم إلى مصر .

وتدلنا التحف الخشبية التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى على براعة المصريين فى زخرفة الأخشاب بطريقة الحفر ، وقد وصلت منتجاتهم إلى درجة كبيرة من الاتقان والتوفيق من حيث استخدام الرسوم الحيوانية كعناصر زخرفية ، وتظهر هنا رسوم الأشخاص والحيوانات والطيور ، وقد تمثل بعض هذه الرسوم مناظر من الحياة العامة كالرقص والصيد ، ورسوم القديسين ورجال الدين ، كما هو موجود فى بعض الكنائس القبطية ، ونجد بجانب هذه العناصر الحيوانية الرسوم النباتية ، والأشكال الحلزونية مرسومة فى دقة واتقان ، وقرب من الطبيعة ، وقد تحفر

الرسوم على مستويين مختلفين ، وهو أسلوب يدل ولا شك على براعة الفنان ومهارته .

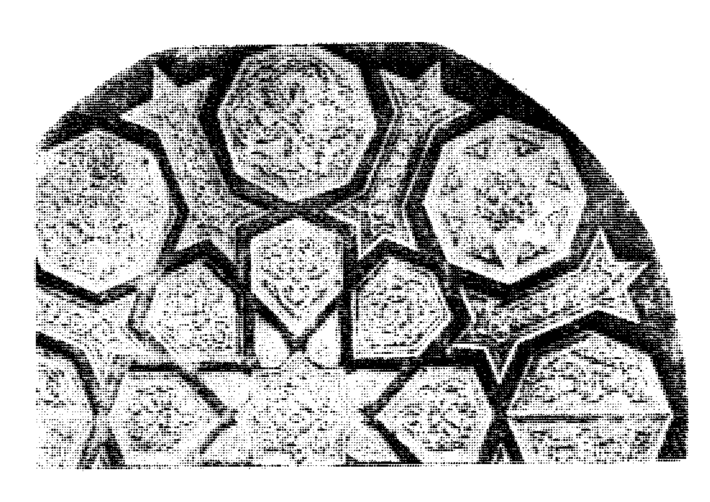


حشوتان خشبيتان من العصر الفاطمى ( بدار الآثار العربية )

ويظهر فى أواخر العصر الفاطمى ميل إلى استخدام الأشكال الهندسية فى زخرفة الأخشاب ، فنجد المربعات والمعينات والمستطيلات والأشكال النجمية ، وكان سبيل الوصول إلى هذه الأشكال ، هو استخدام حشوات صغيرة من الخشب يجمع بعضها بجانب بعض ، للوصول إلى الشكل المطلوب ، وهذه الحشوات الصغيرة مزخرفة فى أغلب الحالات برسوم خطوط متشابكة دقيقة مع رسم وريقات العنب وحباته ، ، وساعد استخدام هذه الحشوات الصغيرة على تجنب التشقق الذى يصيب الأخشاب الكبيرة المساحة .

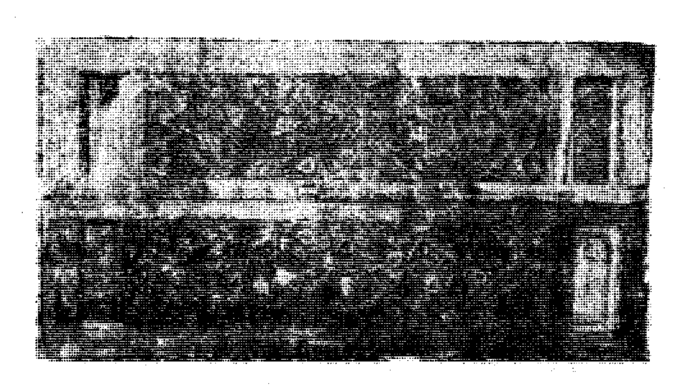
ويزداد هذا الميل نحو الأشكال الهندسية ويبلغ درجة عظيمة من الاتقان فى العصر الأيوبى والمملوكى ، فتتداخل هذه الأشكال بعضها فى بعض ، أو يوضع بعضها فوق بعض ، أو توضع فى تراكيب مختلفة ، كل ذلك دون تأثير فى القيمة الفنية للحشوات التى تكوّن هذه الأشكال ، ولا نجد موضوعا رئيسياً من هذه الأشكال يلفت النظر إليه بوضوحه وظهوره ، بل أن العين تستطيع أن تكون عدة أشكال هندسية مختلفة من الزخرفة الواحدة ، قد لا يكون الفنان قصد إظهارها ، بل إنه أراد إظهار نوع معين منها ، ولكن تقاطع الخطوط

وتداخلها وتوازيها، قد سمح بتكوين كل هذه الأشكال المتنوعة، التي يستطيع الناظر إلى التحفة أن يكونها لنفسه .



حشوات خشبية أصلها من منبر جامع ابن طولون من عصر لاجين ٦٩١ (١٢٩٦)

ومن العناصر المشهورة عن العصر المملوكى الأطباق النجمية ، ويتكون الطبق من حشوات صغيرة مجمعة بعضها إلى بعض بشكل خاص ، ينتج عنه هذا الطبق المكون من عدة أطراف ، وتدلنا زخارف هذه الحشوات على منتهى الإبداع والاتقان ، ومدى البراعة التي وصل إليها الفنانون المصريون ، فى رسم وحفر الأفرع والأوراق النباتية ، التي تزين هذه الحشوات الصغيرة .



باب من العصر المملوكى به تطعيم ( دار الآثار العربية )

وتنتشر فى العصر المملوكى زخرفة الأخشاب بالتطعيم ، وذلك بأن تحفر الرسوم فى الخشب ويملأ الفراغ الناتج عن الحفر بالمادة المطعمة ، كالعاج أو العظم أو الخشب النفيس ، كما نجد الترصيع ، وهو أن يغطى سطح القطعة الخشبية بالفسيفساء من العاج أو العظم أو الخشب النفيس أيضاً ، ولقد وصلت إلينا قطع خشبية مطعمة من فترة الانتقال ، والملاحظ أن هذه الطريقة لم يظهر لها أثر فى العصر الفاطمى ولعل الصناع فضلوا عليها طريقة الحفر .

وثمة أسلوب آخر ذاع استعماله فى العصر المملوكى ، وكثر استخدامه فى المنازل ، ألا وهو الخشب المخروط ، وكانت العيون تضيق وتتسع وتملأ بالقطع الخشبية الأخرى ، لتكوين الزخارف المراد إظهارها ، ومن بين هذه الزخارف المشكيات والمنابر . ومن أحسن الأمثلة لهذه الصناعة المشرفيات ، وهى التى تغطى الفتحات الموجودة بالجدران ، والمطلة على الشوارع ، وكانت تستخدم أيضا لتبريد مياه الشرب مما دعا إلى تسميتها بالمشربية ، كما كانت تغطى فتحات المقاعد المطلة على القاعات الكبرى بالمنازل حيث تقام حفلات الاستقبال واللهو والطرب .

وإن اقتباس هذا النوع من الصناعة لتغطية الفتحات سواء المطل منها على الخارج أو الداخل ليفى بالغرض المقصود من تحجب النساء وتمكينهن فى الوقت نفسه من التطلع إلى خارج المنزل والمشاركة فى الحفلات التى تقام بداخله ، دون أن يتمكن أحد من رؤيتهن .

ومن الأساليب التى استخدمت فى زخرفة الأخشاب التلوين ، وقد تلون الزخارف المحفورة مثل ماحدث فى العصر الطولونى والفاطمى وقد ترسم الزخارف بالألوان مثلما نشاهد فى أسقف مبانى العصر المملوكى .

ويجب ألا ننسى الكتابة الخطية ، فقد لعبت دوراً هاماً فى الزخرفة ، وساعد على ذلك صلاحية الخط العربى لهذا الغرض ، ولم يقتصر الامر على نوع واحد من أنواع الخط ولكنه شمل الخط الكوفى البسيط فى العصر الطولونى ، والخط الكوفى المزهر فى العصر الفاطمى والخط النسخى فى العصر المملوكى ؟

# مِنْ ذَخَائِرِ الفِكْرِ الإِسْلامِيّ

من أهم الأغراض التى تعنى بها جماعة التقريب إحياء آثار الخالدين ، وفى التراث الفكرى للمسلمين ذخائر ثمينة مزوية ، وأعلاق كريمة مطوية ، لو أبرزت للناس لكان لها أثر بعيد فى العلم والتوجيه ، وتحت هذا العنوان ننشر بعض ذلك.

[ المحرر ]

---

## المصلحة فى الشريعة الإسلامية

بحث أصولى كتبه نجم الدين الطوفى المتوفى سنة ٧١٦ يرى فيه تقديم المصلحة على النص فى المعاملات

---

اعلم أن أدلة الشرع تسعة عشر بابا بالاستقراء ، لا يوجد بين العلماء غيرها ، أولها الكتاب ، وثانيها السنة ، وثالثها إجماع الأمة ، ورابعها إجماع أهل المدينة , وخامسها القياس ، وسادسها قول الصحابى ، وسابعها المصلحة المرسلة ، وثامنها الاستصحاب ، وتاسعها البراءة الأصلية ، وعاشرها العادات ، الحادى عشر الاستقراء ، الثانى عشر سد الذرائع ، الثالث عشر الاستدلال ، الرابع عشر الاستحسان ، الخامس عشر الأخذ بالأخف ، السادس عشر العصمة ، السابع عشر إجماع أهل الكوفة ، الثامن عشر إجماع العترة عند الشيعة ، التاسع عشر إجماع الخلفاء الأربعة ، وبعضها متفق عليه ، وبعضها مختلف فيه ، ومعرفة حدودها ورسومها والكشف عن حقائقها وتفاصيل أحكامها مذكور فى أصول الفقه .

ثم إن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » يقتضى رعاية المصالح إثباتاً ونفياً والمفاسد نفياً إذ الضرر هو المفسدة ، فإذا نفاها الشرع لزم إثبات النفع الذى هو المصلحة لأنهما نقيضان لا واسطة بينهما ، وهذه الأدلة

التسعة عشر أقواها النص والإجماع ، ثم هما إما أن يوافقا رعاية المصلحة أو يخالفاها ، فإن وافقاها فبها ونعمت ولا تنازع ، إذ قد اتفقت الأدلة الثلاثة على الحكم ، وهى : النص ، والإجماع ، ورعاية المصلحة ، المستفادة من قوله عليه الصلاة والسلام «لا ضر ولا ضرار» وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما ، لا بطريق الافتئات عليهما والتعطيل لهما ، كما تقدم السنة على القرآن بطريق البيان ، وتقرير ذلك أن النص والإجماع إما أن لا يقتضيا ضرراً ولا مفسدة بالكلية ، أو يقتضيا ذلك ، فإن لم يقتضيا شيئا من ذلك فهما موقوفان لرعاية المصلحة ، وإن اقتضيا ضررا ، فإما أن يكون مجموع مدلولهما ضررا ولا بد أن يكون من قبيل ما استثنى من قوله عليه السلام « لا ضر ولا ضرار » جمعاً بين الأدلة ، ولعلك تقول إن رعاية المصلحة المستفادة من قوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » لا تقوى على معارضة الإجماع لتقضى عليه بطريق التخصيص والبيان لأن الإجماع دليل قاطع ، وليس كذلك رعاية المصلحة ، لأن الحديث الذى دل عليها واستفيدت منه ليس قاطعا فهو أولى ، فنقول لك إن رعاية المصلحة أقوى من الإجماع ، ويلزم من ذلك أنها من أدلة الشرع لأن الأقوى من الأقوى ، أقوى ويظهر ذلك من الكلام فى المصلحة والإجماع .

أما المصلحة فالنظر : فى لفظها ، وحدّها ، وبيان اهتمام الشرع بها ، وأنها مبرهنة ، أما لفظها فهو مفْعَلة من الصلاح ، وهو كون الشىء على هيئة كاملة بحسب ما يراد ذلك الشىء له كالقلم يكون على هيئة المصلحة للكتابة ، والسيف على هيئة المصلحة للضرب .

وأما حدّها بحسب العرف فهى السبب المؤدى إلى الصلاح والنفع كالتجارة المؤدية إلى الربح ، وبحسب الشرع هى السبب المؤدى إلى مقصود الشارع عبادة أو عادة ، ثم هى تنقسم إلى ما يقصده الشارع لحقه كالعبادات ، وإلى ما لا يقصده الشارع لحقه كالعادات .

وأما بيان اهتمام الشرع بها فمن جهة الإجمال والتفصيل ، أما الإجمال فقوله

عز وجل : ( يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ) الآيتين ودلالتهما من وجوه :

أحدها قوله عز وجل « قد جاءتكم موعظة » حيث إنه توعدهم وفيه أكبر صالحهم إذ فى الوعظ كفهم عن الأذى ، وإرشادهم إلى الهدى : الثانى : وصف القرآن أنه « شفاء لما فى الصدور » يعنى من شك ونحوه وهو مصلحة عظيمة : الثالث : وصفه بالهُدَى ؛ الرابع : وصفه بالرحمة ، وفى الهدى والرحمة غاية المصلحة : الخامس : إسناد ذلك إلى فعل الله عز وجل ورحمته ، ولا يصدر عنهما إلا مصلحة عظيمة ؛ السادس : الفرح بذلك لقوله عز وجل : « فبذلك فليفرحوا » وهو فى معنى التهنئة لهم بذلك ، والفرح والتهنئة إنما يكونان لمصلحة عظيمة ؛ السابع قوله عز وجل : « هو خير مما يجمعون » والذى يجمعونه هو من مصالحهم . فالقرآن ونفعه أصلح من مصالحهم ، والأصلح من المصلحة غاية المصلحة .

فهذه سبعة أوجه من هذه الآية تدل على أن الشرع راعى مصلحة المكلفين واهتم بها ، ولو استقرأت النصوص لوجدت على ذلك أدلة كثيرة .

فإن قيل لم لا يجوز أن يكون من جملة ما راعاه من مصالحهم نصب النص والإجماع دليلا لهم على معرفة الأحكام ؟ قلنا هو كذلك ، ونحن نقول به فى العبادات ، وحيث وافق المصلحة فى غير العبادات ، وإنما ترجح رعاية المصالح فى المعاملات ونحوها ، لأن رعايتها فى ذلك هو قطب مقصود الشرع منها ، بخلاف العبادات فإنها حق الشرع ، ولا يعرف كيفية إيقاعها إلا من جهته نصاً وإجماعا .

وأما التفصيل ففيه أبحاث :

البحث الأول : فى أن أفعال الله عز وجل معللة أم لا ؟ حجة المثبت أن فعلا لا علة له عبث ، والله عز وجل منزه عن العبث ، ولأن القرآن مملوء من تعليل الأفعال نحو « لتعلموا عدد السنين والحساب » ونحوه ، وحجة النافى أن كل من فعل فعلا لعلة فهو مستكمل بتلك العلة ما لم يكن له قبلها فيكون ناقصاً بذاته كاملا بغيره ، والنقص على الله عز وجل محال ، وأجيب عنه بمنع الكلية ، فلا يلزم

ما ذكروه إلا فى حق المخلوقين ، والتحقيق أن أفعال الله عز وجل معللة بحكم غائية تعود بنفع المكلفين وكمالهم ، لا بنفع الله عز وجل لاستغنائه بذاته عما سواه .

البحث الثانى : أن رعاية المصالح تفضُّلٌ من الله عز وجل على خلقه عند أهل السنة ، وواجبة عليه عند المعتزلة ، حجةُ الاولين أن الله عز وجل متصرف فى خلقه بالملك ، ولا يجب له عليه شيء ، ولان الإيجاب يستدعى موجباً أعلى ، ولا أعلى من الله عز وجل يوجب عليه ، حجة الآخرين أن الله عز وجل كلف خلقه بالعبادة فوجب أن يراعى مصالحهم ، إزالة لعللهم فى التكليف ، وإلا لكان ذلك تكليفاً بما لا يطاق أو شبيها به ، وأجيب عنه بأن هذا مبنى على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل عند الجمهور .

والحق أن رعاية المصالح واجبة من الله عز وجل ، حيث التزم التفضل بها لا واجبة عليه كما فى آية « إنما التوبة على الله » فإن قبولها واجب منه لا عليه ، وكذلك الرحمة فى قوله عز وجل « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ونحو ذلك .

البحث الثالث : فى أن الشرع حيث راعى مصالح الخلق ، هل راعاها مطلقا ، أو راعى أكملها فى بعض وأسفلها فى بعض ؟ أو أنه راعى منها فى الكل ما يصلحهم وينتظم به حالهم ؟ الأقسام كلها ممكنة .

البحث الرابع : فى أدلة رعاية المصلحة على التفصيل ، وهى من الكتاب ، والسنة والإجماع ، والنظر ، ولنذكر من كل منها يسيراً على جهة ضرب المثال ، إذ استقصاء ذلك بعيد المنال .

أما الكتاب فنحو قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة . والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . وهو كثير ، ورعاية مصلحة الناس فى نفوسهم وأموالهم وأعراضهم مما ذكرناه ظاهر ، وبالجملة فما من آية من كتاب الله عز وجل ، إلا وهى تشتمل على مصلحة أو مصالح كما تبينتها فى غير هذا الموضع .

وأما السنة فنحو قوله عليه الصلاة والسلام : (لا يبع بعضكم على بيع بعض ، ولا يبع

خاضر لباد ، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ) وهذا ونحوه فى السنة كثير ، لأنها بيان الكتاب ، وقد بينا اشتمال كل آية منه على مصلحة ، والبيان على وفق المبين .

وأما الإجماع فقد أجمع العلماء إلا من لايعتد به من جامدى الظاهرية على تعليل الأحكام بالمصالح المرسلة ، وفى الحقيقة الجميع قائلون بها ، حتى المخالفون فى كون الإجماع حجة قالوا بالمصالح ، ومن ثم علل وجوب الشفعة برعاية حق الجار وجواز السلم والإجارة بمصلحة الناس مع مخالفتهما للقياس ، إذ هما معاوضة على معدوم وسائر أبواب الفقه ومسائله فيما يتعلق بحقوق الخلق لعلل المصالح .

وأما النظر فلا شك عند كل ذى عقل صحيح ، أن الله عز وجل راعى مصلحة خلقه عموما وخصوصا ، أما عموما ففى مبدئهم ومعاشهم ، أما المبدأ فحيث أوجدهم بعد العدم على الهيأة التى ينالون بها مصالحهم فى حياتهم ، ويجمع ذلك قوله عز وجل « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك » وقوله عز وجل : « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » وأما المعاش فحيث هيأ لهم أسباب ما يعيشون به ويتمتعون به من خلق السموات والأرض وما بينهما وجميع ذلك فى قوله عز وجل : « ألم نجعل الأرض مهادا ، إلى قوله : إن يوم الفصل كان ميقاتا » وفى قوله عز وجل : « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا » إلى قوله عز وجل « متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وأما خصوصا فرعاية مصلحة العباد السعداء حيث هداهم السبيل ، ووفقهم لنيل الثواب الجزيل ، فى خير مقيل .

وعند التحقيق إنما راعى مصلحة العباد عموماً ، حيث دعا الجميع إلى الإيمان الموجب لمصلحة العباد ، لكن بعضهم فرط بعدم الاجابة بدليل قوله عز وجل : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، تحرير هذا المقام ، أن الدعاء كان عموماً والتوفيق المكمل للمصلحة ، المصحح لوجودها ، كان خصوصا ، بدليل قوله عز وجل : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » فدعا عامّا ، وهدى ووفق خاصاً .

إذا عرف هذا فمن المحال أن يراعى الله عز وجل مصلحة خلقه فى مبداهم ومعادهم ومعاشهم، ثم يهمل مصلحتهم فى الأحكام الشرعية، إذ هى أهم فكانت بالمراعاة أولى، ولأنها أيضا من مصلحة معاشهم، لأنها صيانة أموالهم ودمائهم وأعراضهم، ولا معاش لهم بدونها، فوجب القول بأنه راعاها لهم. وإذا ثبت رعايته إياها، لم يجز إهمالها بوجه من الوجوه. فإن وافقها النص والإجماع وغيرهما من أدلة الشرع فلا كلام. وإن خالفها دليل شرعى، وُفق بينه وبينها بما ذكرناه، من تخصيصه وتقديمها بطريق البيان.

وأما أن رعاية المصلحة مبرهنة، فقد دل عليه ما ذكرناه من اهتمام الشرع بها وأدلته.

« ثم قال الطوفى بعد بيانه الإجماع وأدلته ومعارضتها »:

ومما يدل على تقديم رعاية المصلحة على النصوص والإجماع على الوجه الذى ذكرنا وجوه.

أحدها: أن منكرى الإجماع قالوا برعاية المصالح، فهى إذاً محل وفاق والإجماع محل الخلاف، والتمسك بما اتفقوا عليه أولى من التمسك بما اختلفوا فته.

الوجه الثانى: إن النصوص مختلفة متعارضة، فهى سبب الخلاف فى الأحكام المذموم شرعا، ورعاية المصلحة أمر متفق فى نفسه لا يختلف فيه، فهو سبب الاتفاق المطلوب شرعا، فكان اتباعه أولى، وقد قال الله عز وجل: « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وقوله عليه الصلاة والسلام: « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم »، وقال عز وجل فى مدح الاجتماع: « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ». وقال عليه الصلاة والسلام: « وكونوا عباد الله إخواناً ».

الثالث: قد ثبت فى السنة معارضة النصوص بالمصالح ونحوها فى قضايا، منها: معارضة ابن مسعود النص والإجماع، بمصلحة الاحتياط للعبادة كما سبق، ومنها قوله عليه السلام حين فرغ من الأحزاب: « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » فصلى أحدهم قبلها وقالوا لم يرد منا ذلك وهو شبيه بما ذكرنا

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة : « لولا قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد ابراهيم » وهو يدل على أن بناءها على قواعد ابراهيم هو الواجب فى حكمها ، فتركه لمصلحة الناس .

ومنها أنه عليه السلام لما أمرهم بجعل الحج عمرة ، قالوا كيف وقدسمينا الحج ؟ وتوقفوا ، وهو معارضة للنص بالعادة ، وهو شبيه بما نحن فيه .

وكذلك يوم الحديبية ، لما أمرهم بالتحلل توقفوا ، تمسكا بالعادة فى أن أحدا لايحل قبل قضاء المناسك ، حتى غضب صلى الله عليه وسلم وقال : « مالى آمر بالشىء فلا يفعل » .

ومنها ما روى أبو يعلى الموصلى فى مسنده ، أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر ينادى : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » فوجده عمر فرده وقال : إذاً يتكلوا ، وكذلك رد عمر أبا هريرة عن مثل ذلك فى حديث صحيح ، وهو معارضة لنص الشرع بالمصلحة ، فكذلك من قدم رعاية مصالح المكلفين على باقى أدلة الشرع ، يقصد بذلك إصلاح شأنهم ، وانتظام حالهم ، وتحصيل ما تفضل الله به عليهم من الصلاح ، وجمع الأحكام من التفرق وائتلافها عن الاختلاف ، فوجب أن يكون جائزا إن لم يكن متعينا ، فقد ظهر بما قررناه ، أن دليل رعاية المصالح ، أقوى من دليل الإجماع ، فليقدم عليه وعلى غيره من أدلة الشرع ، عند التعارض بطريق البيان .

فإن قيل حاصل ما ذهبتم إليه تعطيل أدلة الشرع بقياس مجرد ، وهو كقياس إبليس ، فاسد الوضع والاعتبار ، قلنا : وَهَمٌ واشتباه ، من نائم بعد الانتباه ، وإنما هو تقديم دليل شرعى على أقوى منه ، وهو دليل الإجماع على وجوب العمل بالراجح كما قدمتم أنتم الإجماع على النص ، والنص على الظاهر ، وقياس إبليس وهو قوله : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » لم يقم عليه ما قام على رعاية المصالح من البراهين ، وليس هذا من باب فساد الوضع ، بل من باب تقديم رعاية المصالح كما ذكرنا .

فان قيل الشرع أعلم بمصالح الناس وقد أودعها أدلة الشرع وجعلها أعلاما عليها يعرف بها ، فترْكُ أدلته لغيرها مراغمة ومعاندة له ، قلنا : أما كون الشرع أعلم بمصالح المكلفين فنعم ، وأما كون ما ذكرناه من رعاية المصالح تركا لأدلة الشرع بغيرها فممنوع ، بل إنما تترك أدلته بدليل شرعى راجح عليها ، مستند إلى قوله عليه الصلاة والسلام « لاضر ولاضرار » كما قلتم فى تقديم الاجماع على غيره من الأدلة ، ثم إن الله عز وجل ، جعل لنا طريقا إلى معرفة مصالحنا عادة ، فلا نتركه لأمر مبهم ، يحتمل أن يكون طريقا إلى المصلحة ، ويحتمل أن لا يكون .

فان قيل خلاف الأمة فى مسائل الأحكام رحمة وسعة ، فلا يحويه حصر بحكم فى جهة واحدة ، لئلا يضيق عليهم مجال الاتساع ، قلنا : هذا الكلام ليس منصوصا عليه من جهة الشرع حتى يمتثل ، ولو كان لكان مصلحة الوفاق أرجح من مصلحة الخلاف فتقدم ، ثم ما ذكرتموه من مصلحه الخلاف بالتوسعة على المكلفين معارض بمفسدة تعرض منه ، وهو أن الآراء إذا اختلفت وتعددت اتبع بعض الناس رخص المذاهب ، فأفضى إلى الانحلال والفجور ، وأيضا فان بعض أهل الذمة ربما أراد الإسلام فتمنعه كثرة الخلاف وتعدد الآراء ، لأن الخلاف منفور عنه بالطبع ، ولهذا قال عز وجل : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » أى يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، لا يختلف إلا بما فيه من المتشابهات ، وهى ترجع إلى المحكمات بطريقها ، ولو اعتمدت رعاية المصالح المستفادة من قوله عليه الصلاة والسلام « لاضر ولاضرار » على ما تقرر لاتحد طريق الحكم وانتفى الخلاف .

فان قيل هذه الطريقة التى سلكتها ، إما أن تكون خطأ فلا يلتفت إليها ، أو صوابا فإما أن ينحصر الصواب فيها ، أولا ، فان انحصر ، لزم أن الأمة من أول الإسلام إلى حين ظهور هذه الطريقة على خطأ ، إذ لم يقل بها أحد منهم ، وإن لم ينحصر فهى طريقة جائزة من الطرق ، ولكن طريق الأئمة التى اتفقت الأمة على اتباعها أولى بالمتابعة لقوله عليه الصلاة والسلام « اتبعوا السواد الأعظم فان من شذ شذ فى النار » .

فالجواب أنها ليست خطأ لما ذكرنا عليها من البرهان ، ولا الصواب منحصر

فيها قطعاً، بل ظناً واجتهادا ، وذلك يوجب المصير إليها ، إذ الظن فى الفرعيات كالقطع فى غيرها . وما يلزم على هذا من خطأ الأمة فيما قبله ، لازم على رأى كل ذى قول ، أو طريقة انفرد بها ، غير مسبوق إليها ، والسواد الأعظم الواجب إتباعه هو الحجة والدليل الواضح ، وإلا لزم أن يتبع العلماء العامة إذا خالفوهم لأن العامة أكثر ، وهو السواد الأعظم .

واعلم أن هذه الطريقة هى التى قررناها مستفيدين لها من الحديث المذكور ، ليست هى القول بالمصالح المرسلة على ما ذهب إليه مالك ، بل هى أبلغ من ذلك ، وهى التعويل على النصوص والإجماع فى العبادات ، والمقدرات ، وعلى اعتبار المصالح فى المعاملات ، وباقى الاحكام .

وتقرير ذلك أن الكلام فى أحكام الشرع ، إما أن يقع فى العبادات والمقدرات ونحوها ، أو فى المعاملات والعادات وشبهها ، فإن وقع فى الأول ، اعتبر فيه النص والإجماع ونحوهما من الأدلة .

غير أن الدليل على الحكم إما أن يتحد ، أو يتعدد ، فإن اتحد مثل إن كان فيه آية ، أو حديث ، أو قياس ، أو غير ذلك ، ثبت به . وإن تعدد لدليل مثل إن كان آية وحديثا واستصحابا ونحوه ، فإن اتفقت الأدلة على إثبات أو نفى ثبت بها . وإن تعارضت فيه ، فإما تعارضا يقبل الجمع أولا يقبله ، فإن قبل الجمع جمع بينهما ، لأن الأصل فى أدلة الشرع الإعمال لا الالغاء ، غير أن الجمع بينهما يجب أن يكون بطريق قريب واضح ، لا يلزم منه التلاعب ببعض الأدلة ، وإن لم يقبل الجمع فالاجماع مقدم على ما عداه من الأدلة التسعة عشر ، والنص مقدم على ما سوى الاجماع ، ثم إن النص منحصر فى الكتاب والسنة ، ثم لا يخلو إما أن ينفرد بالحكم أحدهما أو يجتمعا فيه ، فان انفرد به أحدهما فإما الكتاب أو السنة ، فإن انفرد به الكتاب ، فإما أن يتحد الدليل أو يتعدد ، فإن اتحد بأن كان فى الحكم آية واحدة عمل بها ، إن كانت نصاً أو ظاهرا فيه ، وإن كانت مجملة ، فإن كان أحد احتماليها أو احتمالاتها أشبه بالأدب مع الشرع ، عمل به وكان ذلك كالبيان .

وإن استوى احتمالاها فى الأدب مع الشرع جاز الأمران، والمختار أن يتعبد بكل منهما مرة .

وإن لم يظهر وجه الأدب وقف الأمر على البيان .

وإن تعدد لدليل من الكتاب فان كان فى الحكم منه آيتان أو أكثر ، فان اتفق مقتضاهن فكالآية الواحدة ، وإن اختلف ، فان قبل الجمع جمع بينهن بتخصيص أو تقييد أو نحوه ، وإن لم يقبل الجمع ، فان علم نسخ بعضها بعينه فبها ، وإلا فالمنسوخ منهما مبهم فليستدل عليه بموافقة السنة غيره ، إذ السنة بيان الكتاب ، وهى إنما تبين ماثبت حكمه لا مانسخ ، وإن انفردت السنة بالحكم فإن كان فيه حديث واحد فان صح عمل به كالآية الواحدة ، وإن لم يصح لم يعتمد عليه ، وأُخذَ الحكم من الكتاب إن وجد ، وإلا فمن الاجتهاد إن ساغ ، مثل أن يعمل بما هو أشبه بالأدب مع الشرع وتظعيم حقه وإن لم يسغ فيه الاجتهاد ، وقف على البيان .

وإن كان فيه أكثر من حديث ، فإن صح جميعها ، فإما أن تتساوى فى الصحة أو تتفاوت ، فإن تساوت فى الصحة ، فان اتفق مقتضاها ، فكالحديث الواحد ، وإن وإن اختلفت ، فان قبلت الجمع ، جمع بينها ، وإلا فبعضها منسوخ ، فان تعين ، وإلا استدل عليه بموافقة الكتاب أو الإجماع غيره ، أو بغير ذلك من الأدلة .

وإن لم تصح جميعها ، فان كان الصحيح منها واحداً ، فكما لم يكن فى الحكم إلا حديث واحد ، فإن كان الصحيح أكثر من واحد ، فان اتفقت عمل بها ، وإن اختلفت ، جمع بينها إن أمكن الجمع ، وإلا فبعضها منسوخ كما سبق فيما إذا كان جميع الأحاديث صحيحاً .

وإن تفاوتت فى الصحة ، فان كان بعضها أصح من بعض ، فان اتفق مقتضاها فلا إشكال ، كالحديث الواحد ، وإن تعارضت ، فان قبلت الجمع جمع بينها ، وإن لم تقبله قدم الأصح فالأصح .

ثم إن اتحد الأصح عمل به ، وإن تعدد فان اتفق فكالحديث الواحد ، وإن تعارض ، جمع بينه إن قبل الجمع ، وإلا فبعضه منسوخ معين أو مبهم ، يستدل عليه بما سبق ، وإن اجتمع فى الحكم كتاب وسنة ، فان اتفقا عمل بهما ، وأحدهما بيان

للآخر أو مؤكد له ، وإن اختلفا ، فان أمكن الجمع بينهما جمع ، وإن لم يمكن فان اتجه نسخ أحدهما بالآخر نسخ به ، وإن لم يتجه فهو محل نظر وتفصيل ، والأشبه تقديم الكتاب ، لأنه الأصل الاعظم ولا يترك بفرعه .

هذا تفصيل القول فى أحكام العبادات .

أما المعاملات ونحوها فالمتبع فيها مصلحة الناس كما تقرر .

فالمصلحة وباقى أدلة الشرع إما أن يتفقا أو يختلفا ، فان اتفقا فبها ونعمت ، كما اتفق النص والإجماع والمصلحة ، على إثبات الاحكام الخمسة الكلية الضرورية ، وهى : قتل القاتل ، والمرتد ، وقطع السارق ، وحد القاذف ، والشارب ، ونحو ذلك من الأحكام التى وافقت فيها أدلة الشرع المصلحة ، وإن اختلفا ، فان أمكن الجمع بينهما بوجه ما جمع ، مثل أن يحمل بعض الأدلة على بعض الأحكام والاحوال ، دون بعض على وجه لا يخل بالمصلحة ، ولا يفضى إلى التلاعب بالأدلة أو بعضها ، وإن تعذر الجمع بينهما قدمت المصلحة على غيرها لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » وهو خاص فى نفى الضرر المستلزم لرعاية المصلحة فيجب تقديمه ، ولأن المصلحة هى المقصودة من سياسة المكلفين بإثبات الأحكام وباقى الادلة كالوسائل ، والمقاصد واجبة التقديم على الوسائل .

ثم إن المصالح والمفاسد قد تتعارض فيحتاج إلى ضابط يدفع محذور تعارضها فنقول : كل حكم نفرضه ، فإما أن تتمحض مصلحته ، فإن اتحدت ، بأن كان فيه مصلحة واحدة حصلت . وإن تعددت بأن كان فيها مصلحتان ومصالح ، فإن أمكن تحصيل جميعها حصل ، وإن لم يمكن حصل الممكن ، فإن تعذر تحصيل مازاد على المصلحة الواحدة ، فان تفاوتت المصالح فى الاهتمام بها ، حصل الاهم منها وإن تساوت فى ذلك ، حصلت واحدة منها بالاختيار ، إلا أن يقع هنا تهمة فبالقرعة . وإن تمحضت مفسدته ، فإن اتحدت دفعت ، وإن تعددت فإن أمكن درء جميعها درئت ، وإن تعددت درىء منها الممكن ، فان تعذر درء ما زاد على مصلحة واحدة ، فإن تفاوتت فى عظم المفسدة دُفع أعظمها ، وإن تساوت فى ذلك فبالاختيار أو القرعة أن اتجهت التهمة .

وإن اجتمع فيه الأمران ، المصلحة والمفسدة ، فإن أمكن تحصيل المصلحة ودفع المفسدة تعين ، وإن تعذر فعل الأهم من تحصيل أو دفع ، إن تفاوتا فى الأهمية وإن تساويا فبالاختيار أو القرعه ، إن اتجهت التهمة .

وإن تعارض مصلحتان أو مفسدتان ، أو مصلحة ومفسدة ، وترجح كل واحد من الطرفين ، من وجه دون وجه ، أعتبرنا أرجح الوجهين تحصيلا أو دفعا فإن استويا فى ذلك عدنا إلى الاختيار أو القرعة .

فهذا ضابط مستفاد من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » يتوصل به إلى أرجح الأحكام غالبا ، وينتفى به الخلاف بكثرة الطرق والاقوال .

مع أن فى اختلاف الفقهاء فائدة عرضت خارجة عن المقصود ، وهى معرفة الحقائق التى تتعلق بالأحكام وأعراضها ونظائرها ، والفروق بينها ، وهى شبيهة بفائدة الحساب من جزالة الرأى .

وإنما اعتبرنا المصلحة فى المعاملات ونحوها دون العبادات وشبهها ، لأن العبادات حق للشرع، خاص به ، ولا يمكن معرفة حقه كمّا وكيفا ، وزماناً ومكاناً إلا من جهته ، فيأتى به العبد على ما رسم له ، ولأن غلام أحدنا لا يعد مطيعاً خادما له ، إلا إذا امتثل مارسم له سيده ، وفعل مايعلم أنه يرضيه ، فكذلك هنا ، ولهذا لمّا تعبدت الفلاسفة بعقولهم ، ورفضوا الشرائع ، أسخطوا الله عز وجل وضلوا وأضلوا ، وهذا بخلاف حقوق المكلفين ، فإن أحكامها سياسية شرعية وضعت لمصالحهم ، وكانت هى المعتبرة وعلى تحصيلها المعول .

ولا يقال أن الشرع أعلم بمصالحهم ، فلتؤخذ من أدلته ؛ لأنا نقول : قد قررنا أن المصلحة من أدلة الشرع ، وهى أقواها وأخصها ، فلنقدمها فى تحصيل المصالح .

ثم هذا إنما يقال فى العبادات التى تخفى مصالحها عن مجارى العقول والعادات ، أما مصلحة سياسة المكلفين فى حقوقهم ، فهى معلومة لهم بحكم العادة والعقل ، فإذا رأينا دليل الشرع متقاعدا عن إفادتها ، علمنا أنا أُحلنا فى تحصيلها على رعايتها ، كما أن النصوص لما كانت لا تفى بالأحكام ، علمنا أنا أحلنا بتمامها على القياس ، وهو إلحاق المسكوت عنه بالمنصوص عليه بجامع بينهما ، والله عز وجل أعلم بالصواب .

# صوت التقريب

« دار التقريب » بمثابة جهاز إرسال واستقبال بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، عنها يصدر « صوت التقريب » وإليها يرجع ، وعلى هذه الصفحات من « رسالة الاسلام » فى كل عدد تسجيل الصدى (*) .

## ١ — من العراق :

كتب الينا حضرة صاحب الفضيلة العالم الجليل الحاج شيخ عبد الحسين رشتى معلقا على مانشرناه فى العددين الثالث والرابع من السنة الأولى يقول ماخلاصته : إنه قرأ ما كتبناه جوابا عن المسائل الثلاث التى كانت فى طى سؤاله عن كيفية التقريب بين طوائف يكون الخلاف فى أصولهم ، فلم يجد فيه شيئا عن بيان طريق الائتلاف والتقريب ، وكان المهم بيانه ، كما أن السؤال كان عنه .

ثم أتى بمقدمة لبيان أن الخلاف بين فرق المسلمين إنما هو خلاف فى الأصول ، ذكر فيها أمرين : الأول ـ أنا لو نظرنا إلى معنى الإسلام وحقيقته علمنا أنه إما عبارة عن الاقرار باللسان والعمل بالجوارح والحركات ـ إقرار وعمل ـ وإما عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان ـ علم وإقرار وعمل ـ كما يظهر من الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وآله فى بيان معنى الإسلام والإيمان ، وكل فرق الإسلام مشترك فى هذا الأمر .

(*) « دار التقريب » هى المركز العام للجماعة ، ومقر سكرتيريتها ومكتبتها الكبرى

الثانى : أنا لو نظرنا إلى فرق الإسلام وطوائفه علمنا بوجود خلافات وآراء أساسية ، بها تمتاز كل فرقة عن فرقة وطائفة عن طائفة ، وهذا الخلاف متى وجد وكيف ظهر ليس هنا محل بيانه ، والخلافات الموجودة بين المسلمين لا تخلو عن أحد ثلاثة .

الأول : فى الأصول .

الثانى : فى الفروع .

الثالث : الناشىء عن أقلام مستأجرة ونزعات قوميةجاهلية ، ومن بعض الكتبة المباهتين لفرق الاسلام وطوائفه إيقاداً للفتنة وتفريقا بين المسلمين وابتغاء لعرض الدنيا ، وربما كان من الأجانب الذين يهمهم أن تبتل عوامل الائتلاف وأسباب المودة يكتبون من تلقاء أنفسهم أشياء ثم ينسبونها إلى أصول طائفة أو فروع طائفة حتى تتكون بينهم العداوة والبغضاء ليسودوا عليهم فى ديارهم وأوطانهم خذلهم الله .

ثم قال : وهذا الخلاف فى الحقيقة يرجع إلى الخلاف فى الاولين ، ولا يمكن لأحد ولا جمعية إصلاحه لأسباب لا تخفى على البصير .

وأما الخلاف الذى فى الفروع فلا ضرر منه ولا ضير ، لأنه ناشىء عن طرق الاستنباط من الأدلة المقررة فى أصول الفقه ، وهو يكون بين أفراد كل طائفة من ذوى رأيها .

ويظهر من جماعة التقريب أنها لا تريد المساس بالفقه الاسلامى ، ولا إدماج مذاهبه بعضها فى بعض كما هو الحق ، وليس لأحد القول به ، بل لا يمكن ولن يمكن الذهاب إليه ، لأن باب الفهم والاستنباط من الأدلة المقررة فى محله مفتوح لكل مجتهد من كل فرقة وطائفة .

فبقى الخلاف فى الأول — الخلاف فى الأصول — وبه أمتازت كل فرقة عن الأخرى ، وكل طائفة عن أختها . وإن الخبر المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، يشير إلى الخلاف فى الأصول .

فبان أن الخلاف والاختلاف الواقع بين المسلمين من جهة تفرقتهم فى الأصول لا غير ، فيجب على رجالات الإصلاح التفكر فى الإصلاح بينهم من هذه الناحية .

ثم أعاد ذكر المسائل التى أجبنا عنها وعلق على ذلك بقوله :

هل فى هذه الأسئلة نسبة أهل السنة بأجمعهم إلى القول بالتجسيم ، أو القول بزيادة الصفات على الذات ، أو القول بأن الظلم سائغ عنه ، حتى يستدل فضيلته بأقوال بعض العلماء فى نفيها (١) بل قلنا بالايجاب الجزئى بوجود القائلين لها ، كما هو الواقع ولا يمكن لأحد إنكاره ، والسلب الجزئى لا ينافى الإيجاب الجزئى .

وهل فيها نسبة أحدى الفرق إلى الكفر ، والزندقة أو الازراء بأحدى الفرق أو بأن الخلاف يترتب عليه الإيمان أو الكفر ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

هب أنا سلمنا كل ما كان فى صوت التقريب من الجواب ، وهل به يتم التقريب بين الطوائف التى يكون الخلاف فى أصولهم ؟ وهل الفوز بهذا الغرض الأسمى يحصل بسرد هذه الألفاظ الفصيحة والأقوال البليغة ؟ وهل الائتلاف بين الفرق يحصل بأمثال هذه المقالات والخطب ؟ كلا .

ثم قال : وأما إعجابه من عدنا هذه المسائل من الأصول فقد ظهر فى الأمر الأول أن أمثال هذه المسائل تعد من الأصول ، واستدل على ذلك بعبارة ساقها للعلامة التفتازانى فى شرحه على متن العقائد النسفية جاء فيها : « اعلم أن الأحكام الشرعية منها مايتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها مايتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية ، والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام ، لما أنها لا تستفاد إلا من جهة الشرع ، ولا يسبق الفهم عند إطلاق الأحكام إلا إليها ، وبالثانية علم التوحيد والصفات لما أن ذلك أشهر مباحثه ، وأشرف مقاصده » الخ .

---

(١) كان فى وسعنا إثبات القائل به من كتب علماء العصر .

**رسالة الإسلام** : نرجو أن يتنبه الأستاذ الجليل إلى ما يأتى :

(١) كلمة « الأصول » فى كلامه وفى كلامنا ، ليست بمعنى واحد ، فنحن نريد بها قواعد الدين الأساسية التى يترتب عليها الكفر والإيمان ، كما هو واضح مما كتبناه - ونحيله فى ذلك على صوت التقريب فى العددين الثالث والرابع تحت عنوان : « بيان لابد منه » و « فى العراق » فإنه يظهر لنا أن الأستاذ لم يعن بقراءته كما ينبغى - أما فضيلته فيريد بها المباحث الكلامية أيا كانت سواء أكانت أساسية فى الإيمان والكفر أم لا .

(٢) نحن لم نردّ على « الإيجاب الجزئى » بسلب جزئى ، فقد قلنا : « إن المسألة الأولى ، وهى كون الله تعال ليس جسما ولا جسمانيا أمر متفق عليه بين جميع الطوائف الإسلامية الحاضرة » فان سلم الاستاذ هذا ، لم تكن هذه المسألة من الخلافات التى يعدها عقبة فى سبيل التقريب ، وإلا فليفصح عمن يعنيهم من طوائف المسلمين الحاضرة التى تدين بالتجسيم ، أما فى المسألتين الاخريين فقد وجهنا رأى كل فريق ، وأخرجنا المسألة عن أن تكون من الاصول بالمعنى الذى أوضحناه مرارا .

(٣) أغراض التقريب ووسائل تحقيقها موضحة ببيان الجماعة وقانونها الاساسى وما نشرناه مرارا فى هذا الشأن على صفحات هذه المجلة ، ولا ينبغى أن يتهاون أحد بقيمة الكتابة والإقناع والدعوة ، بين الوسائل التى تتوسل بها جماعة التقريب فإن الامر أمر إقناع ومحاجة وبيان ، لا أمر إخضاع بقوة أو نحوها ، وإذا تربى فى الأمة الإسلامية جيل مؤمن بما نقول ، وبما نبدىء فيه ونعيد ، كان القرب يومئذ - لا التقريب - حقيقة واقعة ، وللأستاذ منا ، بعد هذا ، خالص التحية ؟

## ب — من ايران :

وكتب إلينا حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد الكرمى نزيل قم — حوزتها العلمية — كتابا جاء فيه :

من الآمال الصالحة التى يزويها دماغ المسلم الحر والمؤمن الصريح أن تتكون رابطة ثقافية منصفة ، تدعو إلى الوحدة الحقة ، والانضواء تحت راية الإيمان والإسلام ، وذلك ما تدعيه جماعة التقريب لأنفسها . ولكن هل يمكن لَمُّ هذه الفرق المتشعبة ، الرامية - كما يزعم كل منها - إلى الإسلام « أولا » ؟ وهل تستطيع جماعة دار التقريب بخاص أنفسها لم هذا الشعث بعد إمكانه « ثانياً » ؟ وهل تقوم هذه الوسائل التى اتخذها الجماعة فى سبيل مرامهم بواجبات ما يلزم فى هذه الوحدة « ثالثاً » ؟ فهذه ثلاث نقاط يجب أن يشرحها البحث .

فأما مسألة إمكان هذا التوحيد بصورة دقيقة جدا بحيث يستطاع ملاشاة كل فارق بين هذه الفرق بالبرهان القاطع والدليل - أولاً - وإخماد ثائرة العصبيات من التدخل فى العقائد — ثانياً — وجمع العقول والقلوب على نقطة واحدة ، لا اختلاف فيها ولا خلاف — ثالثاً — فذلك من المستحيلات العادية حتما ، والمنازع فى هذه المرحلة مكابر بلا شبهة .

نعم إمكان توحيد الأصوات المتباينة فى دعاية كل منها لخاصة نفسه ، إلى صوت واحد يدعو إلى الإسلام والإيمان بكتابه وسنته الصحيحة ، ونظمه المتلقاة من صاحب الدعوة على يد أجياله ، وسلسله رجاله الثقاة ، فذلك له حظ من الصحة والقبول ، ولكن يحتاج إلى قطع عقبات ليست بقليلة المؤنة من كل شىء .

وأما مسألة جماعة دار التقريب واستطاعتهم بخاص أنفسهم إلى رتق هذا الفتق ، فمن غير ذم لهم ، ولا انتقاد لأقل رجل فيهم - يشهد الله - لا يستطيعون النهوض بهذا العبء ، مالم يستدعوا رءوس الفرق المهمة ، وأهل الحل والعقد والعلم والعمل منهم ، إلى مشاطرتهم فى هذا الموضوع الرهيب ، والتوسل إلى حضورهم

فى هـذا المقام بكل وسيلة تستطاع ، فإن لأصواتهم أثرا عميقا فى قلوب أتباعهم ، لا تستطيع جماعة التقريب بمحض رسالتها هذه ـ وإن كانت قيمة ـ أن تبلغه .

وأما مسألة الوسائل التى اتخذوها لمثل مشروعهم هذا ، ففيها مواقع للنظر .

أما أولا : فيجب أن تـكون مجلتها ذات وضع خاص ، يلائم روح دعوتها ، فـلا يبحث فيها عن الموضوعات التى لا تتصل بمهمتها .

وأما ثانيا : فمن اللازم على أعضاء دار التقريب أن يعنونوا الفوارق بين المذاهب ، ويبحثوا عنها صحة وبطلانا ، ويبينوا هل يليق أن تـكون حاجزا بين قبيل وقبيل من المسلمين أو لا ؟ مع مراعاة كمال الأدب ـ كما هو ديدنهم .

وأما ثالثاً : فيجب على هيئتها التحريرية القضاء تأييداً وتفنيدا تحت كل مقال تنشره فى المذاهب حتى يستبين الحق لطالبه .

ومن الطريف جدا أنا نرى كثيرا من الناس يحبذون طريقة التقريب وسعى جماعته ويتظاهرون بالوقوف فى مصاف أهله ، ولـكن من دون أن يتزحزحوا عن عقائدهم ومشاربهم وعصبياتهم قدر أصبع .

وأما رابعاً : فقد بلغنى أن سنة هذه المجلة أربعة أشهر وهذه المدة قليلة جـدا فى حق دار التقريب فانها فى حاجة ماسة إلى نشر منوياتها عاجلا ، وعلى اتصال ، حتى ينتبه من صرعه سكر الغفلة ، ويهتدى بتعاليمها القيمة من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

هذه رسالتى ، أقدمها الى رسالة الاسلام ، مع كمال الإخلاص لها ، ولدعوتها ، ولرجالها الأحرار ، راجيا إمعان النظر فيها والقضاء بالانصاف ؟

**رسالة الاسلام :** نشكر الاستاذ الفاضل على غيرته ، ولا شك أن المرتقى صعب ، ولـكنه يسير لو تآلفت القلوب ، وخلصت النيات ، أما ماعسى أن يكون من نقص يراه الاستاذ فى بعض وسائلنا ، فلله الكمال وحده ، والتدرج كفيل بالإحسان لمن اجتهد ، ولعل الاستاذ يجد فى كلمة التحرير بهذا العدد ما يرضيه ، والله المستعان ؟

# فهـــرس


| | | |
|---|---|---|
| كلمة التحرير | لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير | ٣ |
| تفسير القرآن الكريم | لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت | ٨ |
| شعب من الشرق يضرب مثلا | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز | ١٨ |
| قانون التوازن بين الشرق والغرب | لحضرة صاحب المعالى السيد محمد رضا الشبيبى | ٢١ |
| النظام المالى فى الإسلام | لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك | ٢٤ |
| القرآن والمفسرون | لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حامد محيسن | ٢٩ |
| الشخصية المحمدية | لحضرة صاحب العزة الأستاذ فريد وجدى بك | ٣٤ |
| حقوق الإنسان | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى | ٣٨ |
| وحدة المسلمين | لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على الخفيف | ٤٤ |
| حماية الحيوان فى شريعة القرآن | لحضرة الكاتب الأستاذ توفيق الفكيكى | ٥١ |
| هل تعبدنا الشرع بالهدى | لحضرة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد جواد مغنيه | ٦٦ |
| أشعار من القلوب | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز محمد عيسى | ٧٢ |
| عناصر وجود الأمة الاسلامية | لحضرة صاحب الفضيلة الدكتور محمود فياض | ٨٠ |
| زخرفة الأخشاب فى الفن المصرى الإسلامى | لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور جمال محرز | ٨٧ |
| المصلحة فى الشريعة الإسلامية | من بحوث العلامة نجم الدين الطوفى | ٩٤ |
| صوت التقريب | | ١٠٦ |
| (أ) من العراق | | ٢٠٦ |
| (ب) من إيران | | ١١٠ |



رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٢



مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثانية
العدد الثاني

جمادى الآخرة ١٣٦٩ هـ
أبريل ١٩٥٠ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم

## كلمة التحرير

تسلمت « المدنية الغربية » زمام العالم فى القرنين الأخيرين ، فجرت به فى مضمار التقدم العلمى والفنى والصناعى ، حتى انتهت إلى هذه الحضارة المادية الآلية التى أخذت فيها الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها .

ولكنها تنكبت سبيل الحياة السعيدة التى يجب أن يشعر فى ظلالها كل فرد وكل شعب بأنه آمن مطمئن متمتع بكافة حقوقه ، وظلت تعبث بكل معنى شريف وتحارب كل خلق كريم ، وتهزأ بما أبقت المدنيات التى ورثتها من تقاليد ومُثُل ، حتى جرَّت العالم إلى حافةِ هاويةٍ سحيقة يوشك أهله أن يتردَّوْا فيها ، وأن يأتى الأرضَ أمرُ الله ليلا أو نهاراً فتصبح حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس .

ويرى كثير من المفكرين فى الشرق والغرب أن نجاة العالم ، وصلاح أمره ، واستقامة أحواله ؛ كل ذلك رهن بأن يقوم فيه نظام ينبنى على أسس من الشرق والغرب ، فيأخذ عن الغرب علومه وأفانينه المادية والعملية ، ويأخذ عن الشرق الإيمان والروح والمثل المعنوية .

ولا شك أن هذه فكرة جذابة ، قوية التأثير ، صالحة للرواج فى الشرق والغرب ، ولذلك نرى الكتاب ودعاة الاصلاح فى عصرنا الحاضر معنيين بها ، يفيضون فى بيان جدواها وآثارها ، ولكنها ـ لو أنعمنا النظر ـ فكرة تحتاج إلى شىء من التقويم ، وإذا ساغ أن ينادى بها المنادون من أهل الغرب ، فلا ينبغى أن ينخدع بها أهل الشرق .

ذلك بأن الغربيين يحسبون الاسلام كغيره من الأديان التى لا تعنى إلا بالروح والخلق والمعنويات ، وأن الشرق متمسك به على هذا الفهم ، صادفٌ عن المشاركة

فى المـادة ، وملابسة شئون الحياة العملية ، وأن الغرب هو مصدر القوة والنشاط والعمل المـادى والفنون العلمية والصناعية من دون الشرق .

يزعم الغربيون ذلك ، ويوحون به إلى أوليائهم وواضعى لبانهم ، وهم فى ذلك فريقان : فريق جاهل بالإسـلام ، لا يعرف من أمره إلا أنه دين من الأديان السائدة فى الأمم المتأخرة الضعيفة الجاهلة ، فهو يحكم عليه بما يرى من أحوال أهله ، وفريق ماكر خبيث يعرف حقيقة الإسـلام ويتجاهلها ويصد عنها ، لتبقى للغرب السيادة ، وللشرق الذلة والمهانة .

فاذا جهل الغربيون أمر الإسلام أو تجاهلوه ، فليس ذلك بدعا ، إنما البِدْع والنُّكْر أن يدخل ذلك على المسلمين ، وأن يستطيع خبثاء الاستعمار لىّ العقول والقلوب إليه .

إن الذين ينادون من بيننـا بنظام للعالم شرقى غربى ، هم أيضاً فريقان : فريق حسن النية ، وقعت لديه الفكرة موقع القبول ، وغره ظاهرها ، وما تلوّح به من ميل الى الإسلام ، فلم يفتش عن باطنها ، ولم يلتفت إلى خبيثها ، وفريق مأخوذ بالغرب ، متشبه بأهله ، يزعم كما يزعمون أن دين الله ناقص يحتاج إلى أن يكمل ، وأن الشرائع إنمـا هى صوم وصلاة وعبادة ليس وراءها ما تصلح عليـه شئون هـذه الدنيا من علم وعمل .

ولعمرى إن من يسلك شريعة القرآن فى هذا السلك لجاهل او جاحـد ، فإن هذه الشريعة نظام كامل يرعى شأن الدين والدنيا جميعا ، ويحث على العلم والسعى والتزود للحياة بزادها ، كما يحث على الفضيلة والخلق الكريم ، وهو لذلك يكفل للبشر الصلاح والقرار والسعادة ، ويهديهم إلى التى هى أقوم ، ويضمن لهم الحياة الطيبة الكريمة ، دون احتياج إلى الاستظهار بأى نظام من الشرق أو الغرب .

فليدرك المسلمون ذلك ، وليعلموا أنه لا صلاح للعالم إلا بالاسلام فى عقيدته وشريعته ، وليبشروا بذلك أقوياء صرحاء غـــير مترددين ولا متخاذلين ، فلعل الله أن يغير ما بالناس ، ويريد أهلَ الأرض برحمة منه ورشاد ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المدنى

# تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

---

# سورة البقرة

لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

— ٥ —

تقع هذه الآية الكريمة من سورة البقرة فى مكان هو واسطة عقد ينتظم هدَفَيْها ، تصور لنا حبّات أحد جانبيه توجيه الدعوة إلى بنى اسرائيل فى سياق يبدأ من قوله تعالى : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » ثم تأخذ فى تذكيرهم بنعم الله على أسلافهم فتذكرهم بالإنجاء من

آل فرعون ، وبتفريق البحر بهم ، وبميقات موسى لاستلام التوراة ، ثم بعفو الله عنهم بعد أن نكثوا عهد موسى واتخذوا العجل من بعده ، ثم بتظليل الغمام عليهم وإكرامهم بإنزال المن والسلوى ، وبتلبية موسى فى استسقائه ربه لهم ، وبتمكينهم مما طلبوا من أنواع الأطعمة ، إلى آخر تلك النعم التى قصتها السورة علينا من هذا الجانب ، ثم تذكرهم بلون آخر يرجع إلى ما ارتكبه أسلافهم من أنواع العناد والمكابرة ، وألوان الشبه التى كانوا يضعونها عقبات للحيلولة بين الناس وبين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتذكرهم باعتدائهم فى يوم السبت ، وعقاب الله لهم على هذا الاعتداء ، وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة التى أمروا بذبحها كشفا لجريمة القتل التى وقعت فيما بينهم وجهل فاعلها ، ثم بتحريفهم كلام الله من بعد ما عقلوه ، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلا ، وبزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، وباعتدائهم على الأنبياء بالتقتيل والتكذيب بعد أن أخذ الله عليهم العهود والمواثيق ، وبإعراضهم عن الإيمان بمحمد بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وببيان خطئهم فى زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وهكذا إلى أن بينت موقفهم من ابراهيم وأنهم بعيدون عن الحق الذى دعا إليه ابراهيم ، ووصى به بنيه ، كما وصى به يعقوب من بعده : « يا بَنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

ثم جاءت هذه الآية الكريمة إثر بيان الحق فى موقفهم من الرسول فى مسألة القبلة ، واهتمامهم بشأن التوجه إلى ناحية دون ناحية ، واعتبارهم أن ذلك عنوان الحق ، وآية التدين ، وأساس الإيمان والإخلاص فى عبادة الله ، وذلك حيث تقول السورة : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ويتلخص شأن هذه المسألة فى أن المسلمين كانوا يتجهون أولا فى صلاتهم إلى بيت المقدس ، ثم أمرهم الله بالتوجه الى الكعبة لحكم وشئون يوحى بها قوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على

عقبيه » وقوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

اتجه المسلمون إلى الكعبة كما أمرهم الله ، وكان ذلك مثارا لثورة فكرية جدلية فى أحضان النبوة ، وفى أوائل عهدهم بالمدينة ، وشغلت بذلك جميع الطوائف من مسلمين وأهل كتاب حتى كادوا ينصرفون بها عن إدراك الحق الذى يريده الله ، وعن طريق البر الواضح الذى رسمه الله ، والذى يجب أن تنصرف إليه الأنظار وتتوجه إليه القلوب

جاءت هذه الآية تنبه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى أن ثورة هؤلاء فى هذا الشأن ليست ثورة طلاب الحق ، وإنما هى ثورة العناد والمكابرة ، وتلبس معاذير الإعراض والنفور « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ، ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » .

جاءت تلك الآيات التى تلوناها تكشف لمحمد وأصحابه عن نوايا هؤلاء ، والدوافع النفسية التى دعتهم إلى هذا الموقف من مسألة القبلة ، كما جاءت آية البر تعين لجميع الطوائف أن موقف المتحدثين فى هذا الشأن ليس مما يتفق مع حقيقة البر الذى يجب أن تمتلىء بها القلوب الصافية ، وأن قول من قال : لو كان محمد على حق لما اتجه يوما إلى بيت المقدس ويوما إلى المسجد الحرام ، وقول من قال : قد رجع محمد إلى قبلة العرب وسيرجع إلى دينهم ؛ كلاهما بعيد عن الجادة لم يقصد به إلا تلبيس الحق بالباطل ، وإطفاء ذلك النور الذى جاء به محمد ، وأخذت القلوب تتفتح له ، والعيون ترنو إليه .

هذا هو أحد الجانبين اللذين تصورهما سورة البقرة ، فيما قبل هذه الآية : آية البر وتصور لنا جنبات الجانب الآخر بعد هذه الآية ما يجب على المؤمنين

أن يتخذوه أساسا فى البر بأنفسهم وأمتهم ومجتمعهم ، فى جناياتهم وعباداتهم ، وفى علاقتهم بمن يخالفهم فى الدين ، وفى نظام الأسرة بينهم ، وفيما يوجبه عليهم تضامنهم الاجتماعى ، وفيما يطهر مجتمعهم من مساوىء الطغيان المالى ، وفيما يجب أن يتخذوه من وسائل الاستيثاق فى الحقوق المدنية ، ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » إلى قبيل آخر السورة ، فتذكر القصاص والعفو عن القصاص ، وتذكر الوصية ، وتذكر الصوم ، والاعتكاف ، وتحذر من أكل أموال الناس بالباطل ، وتذكر الأهلة ، وأنها هى التى يعتمد عليها فى المواقيت الدينية للناس ، كالصيام والحج وعدة النساء ومدة الإيلاء ، وتذكر بواعث القتال والغاية التى ينتهى عندها القتال ، وتذكر الحج والعمرة ، وتذكر الخمر والميسر ، واليتامى وإصلاحهم ، وحكم مصاهرة المشركين أو الإصهار إليهم ، وتذكر حكم المحيض ، ووجوب توقى أذاه ، وتذكر الأيمان والإيلاء من النساء ، وتذكر الطلاق والعدة ، والخلع ، والرضاع ، وتذكر الإنفاق فى سبيل الله ، وتضرب لجزائه الأمثال فى المضاعفة ، وتذكر أدبه ، وتحذر من الرياء فيه ، وتضرب له الأمثال ، وتذكر الربا وخطأ الناس فى إلحاقه بالبيع ، وتتوعد عليه بالمحق ، وتعلن حرب الله على من اتخذه أساسا له فى الحياة ، وتختم ذلك بقوله تعالى : « وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون » ثم تذكر كتابة الديون ، وإملاءها والإشهاد عليها ، وتبين حكمة ذلك بما يرجع إلى تحقيق العدل بين الناس وحفظ الحقوق ، كما تذكر الرهن إذا لم تتيسر الكتابة ، ثم تحذر كتمان الشهادة « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » ، ثم تختم السورةُ ببيان الدعوة المحمدية بقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » مع بيان سنة الله فى تكليف عباده وفى مؤاخذتهم « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » وبذلك يلتق — كما قلنا سابقا — آخر السورة مع أولها .

هذه حبّات جانبي العقد الذى ينتظم موضوعات سورة البقرة والتى جاءت آية

البر واسطة لها ، نسردها على هـــذا النحو بين يدى تفسيرنا لهذه الآية الكريمة ، التى اخترناها لهذا العدد من « رسالة الاسلام » .

وقد سلكنا بهذا الصنيع سبيلا غير التى ألفها الناس فى التفسير ، لنضع بين يدى القارىء الموضوعات التى عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية ، والموضوعات التى عرضت لها فيما بعدها ، فى سلك واحد يجمع بين حبات كل جانب ، ويعطى للناظر إليه صورة كاملة لجميع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة ، وتعينه على الرجوع بكل مسألة فيها إلى نوعها وغرضها التى ترتبط فيه مع زميلاتها .

ولعل القراء يلمسون من هذا الصنيع أيضا ، ذلك المعنى الذى يوحى به اهتمام السورة فى الجانب الأول من جانبيها اللذين تحدثنا عنهما بتتبع أنباء بنى اسرائيل القديمة ، وتقصيها على هذا النحو العجيب ، المؤذن بأن هذا الكتاب صادر من الله العليم الحكيم الذى يعلم غيب السموات والأرض ، فهـــو ينبئهم بتفاصيل تاريخهم ، ودقائق أحوالهم ، ويصور لهم ذات صدورهم ، بما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويشعرون معه بأن هـذا الكتاب حق ، وأن هـذا النبى حق ، كما يوحى اهتمام السورة فى جانبها الآخر بعظمة هذا الدين ، وكونه منهاجا واضحا ، وصراطا مستقيما يهدى للتى هى أقوم ، ويرسم للناس طريق السعادة ، ويهيىء للأمة حياة هانئة مستقرة ، ونظاما قويا يعيشون فى ظلاله آمنين مطمئنين .

وإذ تمهد لنا ذلك ، فلنأخذ فى تفسير الآية الكريمة فنقول :

وردت كلمة « البر » فى مواضع متعددة من القرآن الكريم : منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى : « وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى » . وقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » « وتناجَوْا بالبر والتقوى » وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه «هو البَرُّ الرحيم» ووصف الملائكة بأنهم «كرام بررة» ووصف العباد المتقين بأنهم أبرار ، والفاسقين بأنهم فجار « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم» وجعل كتاب الأبرار فى مقابلة كتاب الفجار ، هذا فى « سجّين» وذاك فى «عليين» .

ومن هذا يتبين أن « البر » بالنسبة للعبد هو جماع الخير الذى يشمل المعانى النفسية ، والأخلاق الحسنة ، وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها العبد إلى ربه ، وأما بالنسبة إلى الله فهو الثواب والرضا والمحبة الإلهية .

وقد كان العرب يفهمون معنى البر على هذا الوجه ، ويدركون أن كل عمل صالح ، أو نية طيبة ، أو خلق مرضى ، شعبة من شعب البر ، غير أنهم كانوا يخطئون التطبيق أحيانا ، إما لاشتباه فى شىء ، هل هو من البر أو من الإثم ؟ كما اشتبه السائل الذى جاء يسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم ، فقال له : « استفت قلبك . البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

قد يسأل إنسان فقيها من الفقهاء عما يخرجه من زكاة أمواله ، أو عما صدر منه من تطليق زوجته ، أو عما قضى له به قاض من مال خصمه ، أو عما افتدت به زوجته من مال الخلع وقد ضارّها وأساء إليها وألجأها إلى هذا الافتداء ، يسأل عن هذا ونحوه فيسمع من المفتى أن شرط الزكاة أن يحول الحول والمال ملكه ، فاذا وهبه ولو لحظة لأحد من الناس ثم استرده ، لم يتم شرط الحول ، فلا تجب الزكاة ، وأن هذا الطلاق قد صدر على امرأة لم يعقد عليها ولى شرعى ، فلم تثبت زوجيتها حتى يقع عليها الطلاق ، وأن القاضى قد حكم فللمحكوم له أن يستحل المال ، وأن مال الخلع حق مشروع للزوج لا جناح عليه أن يتمتع به ، وهنا يقع السائل بين وحى الضمير ، وفتوى المفتى : بين الحقيقة يمسها من نفسه ، وبين الظاهر الذى حكم له بمقتضاه ، فالرسول يرشده إلى ترجيح حكم الضمير والوجدان وإن أفتاه المفتون .

وقد يخطئون التطبيق لهوى فى النفس ، وتمسك بالتقاليد والعصبيات ، كالمشركين الذين كانوا يرون إتيان البيوت من ظهورها حال الإحرام بالحج برا يرضى الله ، ونسكا يتقرب به إليه ، أو كهؤلاء الذين أفاضوا فى حديث القبلة عند الأمر بالتحول إلى الكعبة حتى شغلهم عن كل ما سواه من المعانى الفاضلة ،

والأعمال الصالحة ، وقد قال الله للأولين : « وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقال للآخرين « : ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » . أى ان الاتجاه فى العبادة إلى الجهات ليس إلا رمزاً للاتجاه القلبي إلى الله تعالى ، وليس ركنا أساسيا فى العبادة فيتبع فيه الأمر .

وهذه الآية هى أجمع الآيات فى تحديد معنى البر من النواحى الواقعية ، فهى ترشد إلى أن البر لا يرتبط بشىء من المظاهر والصور والأشكال ، وإنما يرتبط بالحقائق ولب الأمور وروح التكاليف ، وترشد إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير : بر فى العقيدة ، وبر فى العمل ، وبر فى الخلق .

فالبر فى العقيدة بينته الآية فى قوله تعالى: « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » أمور خمسة : الإيمان بالله فى ربوبيته ، فى عبادته ، فى وحدانيته ، فى اعتقاد أنه هو وحده النافع الضار ، الرافع الخافض ، المعز المذل ، القابض الباسط ، القاهر فوق عباده ، الذى لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا تتجه القلوب إلا إليه ، هذا الإيمان المطلق بالإله وعظمة الإله هو الذى يرفع النفوس الى مكانة التكريم والسمو التى أرادها الله للإنسان ، هو الذى يصون المرء عن الذلة والاستكانة لشىء ما ، هو الذى يعصمه عن التورط والزلل ، هو الذى يجعل من نفسه عليه رقيبا لا يغيب ولا يخادع ولا يجهل ، هو نبراس الهداية فى جميع نواحى الحياة .

والإيمان باليوم الآخر ، يوم الجزاء على الأعمال ، يوم المحاسبة على ما فى القلوب والضمائر ، يوم النعيم الدائم أو الشقاء الدائم ؛ هو معنى يغرس فى النفوس محبة الخير والحرص على إسداء المعروف ، وكراهة الشر ، وتجنب الأذى والإفساد فى الأرض ، وقد عنى القرآن عناية عظمى بتقرير الإيمان باليوم الآخر ، وناقش فيه وأقام عليه الحجج والبراهين ، وضرب له الأمثال وأقسم عليه ، وسفه أحلام المنكرين له ، المتعجبين من وقوعه بعد تمزق الجسم كل ممزق ، وصيرورته عظاما

ورفاتا » وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟! قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون : متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا ، يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » .

الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر هما الإيمان بالمبدأ والمعاد ، والإيمان بهما على الوجه الحق - وهما من الغيب المطلق - لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه مستقلا ، ولا أن يعرف بنفسه مستلزماته من الواجبات والأحكام التشريعية ، فان العقل البشرى ذو استعداد محدود ، ويحيط به مع ذلك الهوى والشهوة ، فلا بد أن يُهْدَى من مصدر لا يحد علمه ، ولا ترقى إليه الأهواء والنزعات ؛ هو الله الذى لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو الحكيم الخبير .

إذن لابد من واسطة بين هذا المصدر وبين الخلق ، هى طريق المعرفة لواجب الإيمان بالله واليوم الآخر : هذه الواسطة تتكون من ثلاثة عناصر : عنصر فى الطرف الأعلى ، له بحسب تكوينه وخَلْقه استعداد يمكنه من التلقى عن الله مباشرة ، وهم الملائكة ، والإيمان بهم أصل الايمان بالوحى فيلزم من إنكارهم إنكار الوحى وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدارالآخرة ؛ وعنصر فى الطرف القريب من الناس هو منهم بمقتضى بشريته ، وله صلة بالملأ الأعلى بمقتضى روحانيته وهم الأنبياء ، يتصلون بالملائكة الذين هم سفراء الله أو سفرته كما عبر القرآن ، فيتلقون عنهم ما أمر الله به ، ويتصلون بالخلق فيبلغونهم ما أمروا به من أحكام وتشريعات ؛ والعنصر الثالث هو نفس الرسالة والوحى ، وقد عبر عنهما فى الآية بالكتاب ، والتعبير بالكتاب دون الكتب إشارة إلى وحدة الدين عند الله ، وأن الايمان بكتاب ما من الكتب السماوية إيمان بالكل .

هذه هى العناصر الثلاثة للسفارة الالهية : طرفان ووسط ، لابد من الايمان بها ولا يتحقق البر مع إنكار شىء منها ، كالايمان بالله واليوم الآخر ، وبهذا تمت الأمور الخمسة التى هى البر فى العقيدة « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » .

أما البر فى العمل ؛ فله شعب كثيرة ترجع كلها مهما تنوعت إلى بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله ، وهناءة خلق الله ، والعمل هو مدد العقيدة ، وفى نفس الوقت هو ثمرتها يحفظها وينميها ويدل عليها ، وقد ذكرت الآية بذل النفس فى أعظم مظهر من مظاهر بذل النفس ، ذلك هو إقامة الصلاة . الصلاة هى عماد الدين الصلاة هى الفارق بين المؤمن وغـير المؤمن ، الصلاة هى مناجاة العبد لربه ، الصلاة هى الناهية عن الفحشاء والمنكر ، الصلاة هى العاصمة من الهلع والجزع ؛ يقف المرء بين يدى ربه ، وقد خلع نفسه من كل شىء فى دنياه ، فلا مال ولا جاه ولا ولد ولا طعام ولا شراب ولا كلام ، ولكن تسليم لله ، أوله : « الله أكبر » هو الذى تخضع له الرقاب ، وتطمئن إليه القلوب ، وتبذل فى سبيل مرضاته المهج والنفوس ، فهى عهد بين العبد وربه على بذل النفس والتضحية بها فى كل موطن بحيث لا يفقده فى موضع يطلبه ، ولا يراه حيث ينهاه ، أما الصلاة التى تجردت من هذه الروح ، وخلت إلا من الحركات والكلمات ، فليست هى عنوان البذل والتضحية ، وليست هى من البر فى شىء ، بل إنها وبال على صاحبها ومردودة عليه « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » وليس السهو فى الصلاة هو نسيانها ، وإنما هو الغفلة عما توحى به من المعانى الفاضلة وأعمال البر والتقوى .

وذكرت الآية بعد ذلك بذل المال فى صورتين ، إحـداهما قوله تعالى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » والأخرى قوله تعالى : « وآتى الزكاة » ويجب أن يفهم هنا بمقتضى هذا الوضع القرآنى الكريم أن الزكاة شىء ، وأن إيتاء المال على حبه هؤلاء الأصناف شىء آخر لا يندرج فى الزكاة ولا تغنى عنه الزكاة .

فهؤلاء الأغنياء والقادرون الذين يكتفون بالزكاة ، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين ، ودفع ضرورة المضطرين ، والقيام بمصالح المسلمين ؛ ليسوا على البر الذى يريده الله من عباده .

وهذا أصل عظيم فى تنظيم الحياة الاجتماعية يباح به للحاكم أن يشرع ألوانا من الضرائب العادلة وراء الزكاة إذا لم تف الزكاة بحاجة الأفراد والمجتمع .

وفى الآية مما ينبغى أن نلتفت إليه أمور :

أولا : جاء التعبير بقوله : « وآتى المـال على حبه » أى على حب المال أو على حب الله ، كما فى الرأيين المعروفين ، والمال إذا أنفق على حبه ومع الحاجة إليـه كان فيه معنى الإيثار ، وكان لذلك أظهر فى معنى التضحية والبر ، ولذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( أفضل الصدقة أن تَـصَـدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان ) وكذلك إذا أنفق على حب الله وابتغاء مرضاته ، لا طلبا لسمعة ولا رئاء الناس ، ومما يرشح المعنى الأول وروده فى آية أخرى هى قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وما ورد فى وصف الأنصار « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ثانياً : وردت الآية بذكر أصناف الذين ينفق عليهم المال على حبه ، وليس القصد إلى الاستيعاب والحصر ، ولكنها أمثلة خصت بالذكر لبروز حاجتها إلى المال ، وحاجة المجتمع إلى سد عوزها .

ثالثاً : ابن السبيل يشمل المسافرين لطلب العلم ، والراحلين للكشف عما ينفع الناس ، والوفود التى يناط بها تبليغ الأحكام ونشر الدين وتوثيق عرى المحبة والإخاء بين المسلمين ، ونحو ذلك .

رابعاً : قوله وفى الرقاب : معناه تخليص الرقاب من الرق ، وإذا كان الرق قد زال فان فى معناه تخليص الأسرى من الأسر ، وتخليص المدينين العاجزين من ذل الدين ورقه .

هذا وقد عنى القرآن الكريم بالفقراء والمساكين ، وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوره تخلو من الحث على الانفاق عليهم والبذل فى سبيلهم ،

وفى هذا تقليم لأظافر الشر ، واقتلاع لبـذور الفساد التى دلت تواريخ الأمم على أنها شر ما يعمل فى هدم الأمم وأنظمتها وأخلاقها .

وبذلك تم الـكلام فى بر العمل .

أما البر فى الخلق فقد ذكرته الآية فى مبدأين : مبدأ القيام بالواجب . وقـد عبرت عنه الآية بقولها : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » ومبدأ مقاومة الطوارىء والتغلب على عقبات الحياة ، وقد عبرت عنه الآية بقولها : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » والعهد لفظ شامل يجمع ألوانا من الارتباطات والالتزامات لا غنى للناس عنها ، ولا استقامة للحياة بدونها ، وهى على كثرتها ترجع إلى عهـد بين العبد وربه ، أو عهد بين الانسان والانسان ، أو عهـد بين الدولة والدولة ، وعهود الله مع عباده كثيرة . منها العام ، ومنها الخاص : « ألم أعهد اليـكم يا بنى آدم ألا تعبـدوا الشيطان » « وإذ أخـذ الله ميثاق النبيين لمـا آتيتكم من كـتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلـكم اصْرِى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معـكم من الشاهـدين » . وحظ الناس اليوم من هذا العهد ، هو ترابط المصلحين وتـكافلهم على مبـدأ الخـــير والإصلاح ، وألا يهدم بعضهم بعضا ، ولا يضرب بعضهم فى نحور بعض ، وأن يؤيد اللاحق منهم السابق ، ويمهد السابق منهم اللاحق ، وليس من الوفاء لهـذا العهد أن يكون كل مصلحٍ أمةً فى نفسه ، وحزبا برأسه ، فإن ذلك مفسدة للرأى ، ومضيعة للخير ، وتخذيل عن الهدى والرشاد .

أما عهود العباد بعضهم مع بعض فهى تتمثل فيما يحـــدث بينهم من عقود والتزامات مالية أو غـير مالية ، وكـذلك فيما يحدث بين الأمة والأمة فى تحـديد الحقوق والالتزامات ، وكلها يجب الوفاء بها ما لم تـكن فى معصية الله بتضييع حق أو إلحاق أذى بالفرد أو الأمة ، وقد عنى القرآن بالحث على الوفاء بالعهد ، وشَبَّه ناقض العهد بالمرأة الخرقاء « التى نقضت غزلها من بعد قوة أنـكاثا » . وطلب أن تـكون العهود قائمة على الصراحة والوضوح ، لا على الغش والخداع ، واصطناع

الاحتيال « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » . وألا يستغل فيها قوة أو ضعف « أن تكون أمة هى أربى من أمة » اى أكثر منها عددا أو عدة . وهكذا يضع القرآن أصول العهود والمواثيق العادلة ، ويجعل الوفاء بها من البر الذى يسمو بالانسان فى دنياه ، ويسعده فى أخراه .

أما مبدأ المقاومة فقد ذكرته الآية كما قلنا بقولها : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » والصبر عُدَّة النجاح فى الحياة ومصدر جميع الفضائل الإنسانية ، والسبيل الوحيدة للتغلب على جميع الصعاب ! وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة من غير مقاومة ولا عمل ، وإنما الصبر جهاد ومحاولة ، مع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالات ثلاثا هى أبرز ما يظهر فيه هلع الهالعين ، وجزع الجازعين : البأساء ، والضراء ، وحين البأس ، فالبأساء من البؤس وهو الشدة والفقر ، والضراء ما يضر الانسان من مرض أو فقد محبوب : مال أو أهل أو ولد ، والبأس اشتداد الحرب . وقد عنى القرآن بالحث على الصبر فى المواطن كلها ، وقرنه بالصلاة وجعلهما مستعان المرء فى المهمات والشدائد ، وملجأه عند النوازل « واستعينوا بالصبر والصلاة » . وجاء فى كلام الرسول أن الصبر نصف الإيمان ، وقد أنبأنا الله أنه مع الصابرين .

* * *

هذه عناصر البر فى العقيدة والعمل والخلق ، وهى دستور قوى متين ترقى به الأمم إلى أوج العزة والكرامة ، وتنأى به عن الشرور ومفسدات الأمن والطمأنينة ، ومنغصات السعادة والهناءة ، وحسبنا فى ذلك : أن الآية بعد ذكر هذه العناصر ، قد حصَرت الصدق والتقوى ، فى أصحابها المؤمنين بها ، العاملين عليها ، المحققين لثمارها : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » صدقوا فى إيمانهم ، صدقوا فى أعمالهم ، صدقوا فى أخلاقهم ، وهم الذين يصدق عليهم أنهم هم المتقون على الاطلاق ، الذين يعملون لكل ما يصلحهم ويصلح الناس ، ويتجنبون كل مايضرهم ويضر الناس ، هدانا الله إلى سواء السبيل . ؟

# أقيموا صرح الإصلاح على أساس من العلم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

## الشيخ عبد المجيد سليم

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر ووكيل جماعة التقريب

---

« يرفع الله الذين آمنوا منكم
والذين أوتوا العلم درجات »

لما ألفت ﴿ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ﴾ انفتح للمسلمين باب عظيم من الأمل فى أن تتنزل عليهم رحمة من الله تعم بلادهم وشعوبهم ، وتدفع بهم فى طريق الخلاص من الضعف الذى انتابهم ، والذل الذى أصابهم ، والشتات الذى فرق بين قلوبهم ، وقال المخلصون لهذه الأمة ، الغُيُر على هذه الملة : جماعة من أهل العلم ، وأولى الرأى يمثلون المذاهب المختلفة فى العالم الإسلامى ، قد انعقدت بينهم آصرة جديدة من أواصر المودة والقربى ، ويُسرت لهم وسيلة ناجعة من وسائل التفاهم والشورى ، وإنهم لواصلون بإذن الله إلى ما يبتغون من تأليف قلوب المسلمين ، وجمعهم على كلمة سواء : أن يؤمنوا بما آمن به الرسول والمؤمنون ، وأن يمحصوا ما يعرض لهم من مسائل الخلاف تمحيص الصادقين المخلصين للحق ، الذين لا يبتغون الفلج ، ولا يتنازعون الغلب ، وأن يعودوا كما كانوا أمة واحدة ، رائدها كلمة الله ، وغايتها إعزاز دينه ونشر شريعته ، وإبلاغ العالمين رسالة خاتم النبيين .

وكان من أهم ما اغتبطتُ له ، واستبشرت خيرا به ، أن هذه الجماعة قد أخذت على عاتقها تبصير المسلمين بحقيقة دينهم ، وأن تجلى لهم أصوله ومبادئه وعلومه حتى يعرفوه ، فإنهم إذا عرفوه عشِقوه ، وإذا عشقوه لم يؤثروا عليه شيئا ، ولم يدخروا فى سبيل نصرته وسعا ، فيصلح الله به أمر آخرهم ، كما أصلح به أمر أولهم .

* * *

لقد خالطت بشاشة الإيمان قلوب المسلمين الأولين ، فاستبسلوا فى نصرة الحق وشرَوْا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وخاضوا بإيمانهم كل مخاض ، حتى زلزلوا عروش الطغيان ، وأرغموا جحافل الشرك والفساد والظلم على أن تولى الأدبار ، وبسطوا لواء العدل والأمن على عالم كان قبلهم مضطرباً يسوده البغى والخوف ، وكانت هيبتهم تسبقهم ، وتعاليمهم القوية الواضحة تغزو القلوب قبل أن يغزوا البلاد ، وما كان هذا الإيمان الذى جعل الله به من بعد ضعف قوة ، ومن بعد ذل عزة ، إلا أثراً من آثار العلم الصحيح ، والمعرفة الواضحة ، وقد فطن لذلك أعداء الإسلام حيث تتبعوا أمر المسلمين فعلموا أن تمسكهم بدينهم ، وإقبالهم على التضحية فى سبيله بكل مرتخص وغال ، هو سر قوتهم ، ومبعث هيبتهم ، فكان لابد لهم أن يصرفوا المسلمين عن دينهم ، وأن يدخلوا عليهم الوهن من قِبَل التفريط فيه ، والتخلى عنه ، لكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا إلى ذلك واضحين ، فعمدوا إلى الحيلة والخديعة ، فكان من ذلك أنهم دسوا على الدين فى غفلة المسلمين ما ليس منه ، فشوهوا جماله ، بالأكاذيب تارة ، وبالبدع تارة ، وبإثارة أسباب للخلاف مصطنعة بين الطوائف الإسلامية أحيانا ، وكان من ذلك أنهم قاوموا التعليم الدينى بشتى الوسائل ، فضيقوا على أهله ، وأغروا بينهم العداوات ، وحاربوا الكفايات ، ونصروا الجهالات ، وأغدقوا المال والنعيم والجاه على كل من جرى فى سبيلهم ، وأعانهم على إثمهم ، وكان من ذلك أنهم أحلوا القوانين الوضعية محل الشريعة فى البلاد الإسلامية ، واجتلبوا تلك القوانين من بلاد الغرب كما هى دون أن يراعوا أخلاق البلاد وتقاليدها ، فأباحوا الخمور والربا والمعاملات المحرمة ، وخذلوا الفضيلة ،

ونصروا الرذيلة باسم المدنية أو الحرية ، وزينوا لأبناء الإسلام تقاليد الفجور ، وبذروا فى البلاد بذور الزيغ والإلحاد ، وكرموا كل طاعن فى الدين ، متهجم على العقائد ، مستهزىء بأحكام الله .

بهذا كله جهلت الأمة - عامتها وكثير من خاصتها - تعاليم دينها ، بل نفرت منها وعادتها ، وصرنا نسمع فى كثير من الأحيان لوما وتقريعا للتمسكين بدينهم ، وحمدا وتشجيعا للمتفلتين منه ، وقديما قيل : من جهل شيئاً عاداه .

فاذا كان أول السلسلة فى إضعاف هذه الأمة والعمل على إذلالها ، هو صرفها عن دينها بالحيلولة بينها وبين فهم هذا الدين فهما صحيحا ، وإدراك أنه سر سعادتها ، ومنبع عظمتها عن طريق العلم به ، والتعمق فى أصوله ومبادئه ؛ فان أول ما يجب على هذه الأمة - إذا أرادت أن تستعيد مجدها ، وأن تتبوأ فى العالم سامى مكانتها - أن تعنى بالعلم والمعرفة والإدراك الصحيح ، فتعرف دينها وعقائدها ، وتنفى عنهما كل شائبة من شوائب الجهل والتلبيس ، وتعرف شريعتها وما تكفله من سعادة وعزة فى الحياة ، وتعرف وسائل القوة والغلب فى العصر الذى تعيش فيه ، وتعرف حقائق التاريخ الصحيحة وأسرار تطوراته ، وسنة الله المطردة فيه من نصر الأمم إذا استقامت ، وخذلانها إذا التوت ، ومن استقرار أحوالها ، وسعادة أفرادها ، بالخلق والدين والفضيلة ، واضطرابها وشقائها وذلها باضداد ذلك . وإن هذا الدين ليدعو إلى العلم ، ويكرم العلماء أعظم تكريم ، ويحض على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ويأمر بإعداد القوة لدفع غائلة الأعداء ، وبأن تكون الأمة على أهبة الاستعداد فى كل وقت لمقاومة الطامعين فيها ، والعادين عليها .

ولا شك أن من أول ذلك وأوجبه أن تكون من الأمة فئة خبيرة بالمستحدثات فى شئون الدفاع والحرب ، وفئة محيطة بضروب الاقتصاد ووسائل الاستغلال الصحيحة ، وغير ذلك مما به تكون الأمة قوية ذات منعه يخشاها عدوها .

لقد طغت فى هذه الأيام موجة من التهاون بالعلم ، وزين للشباب هجر دوره ، والتخفف من أعبائه وتكاليفه ، ونظر كثير منهم إلى المدارس والمعاهد ، لا على أنها دور أعدتها الأمة للتزود بالعلم ، ولكن على أنها وسائل للحصول على الشهادات الدراسية ثم الوظائف التى تدر على أصحابها المال الرتيب ، والحياة الوادعة ، ولذلك يقصرون هممهم على التطلع لضمان مستقبلهم ، والاطمئنان إلى القيمة المادية التى تقدر بها شهاداتهم ، فهم فى ذلك يتنافسون ، وفى سبيله يجاهدون ، ولم يعد أحد يدرس العلم حبا فى العلم ، وتطلعا إلى التكمّل بالمعرفه ، ولم تعد قضايا العلم ومسائله هى الشغل الشاغل للأساتذة والطلاب كما كانت فى الماضى ، وضعف المشرفون على الطلاب ضعفا ينذر بأسوأ العواقب ، وأصبحنا نرى الأمور تتقرر ، والمناهج توضع أو تعدل أو تلغى رعاية لمقتضيات بعيدة عن المصلحة ، بل منافرة لها ، وبهذا كله سارت السياسة التوجيهية فى التعليم سيرا عكسيا ، فأصبح الموجّهون موجَّهين ، ومضى الركب العلمى يتخبط فى ظلمات الجهالات ، لا يعرف طريقا ، ولا يهتدى سبيلا .

هذا هو السر الحقيقى فى ضعف الأمة ، وهذا هو أساس الداء العضال الذى منيت به ، فمن أراد العلاج فليبدأ علاجه من هذه النقطة .

أن أبناء الأمس هم رجال اليوم ، وأبناء اليوم هم رجال الغد ، فاذا ترادف على الأمة أجيال من أهلها ذلك مبلغهم من العلم ، وحظهم من الدين ، تولَّوْا شئونها بأيد ضعيفة ، وقلوب واهنة ، وعزائم منحلة ، وبهذا تخبو جذوتها ، وتركد ريحها ، وتسرع إليها عوامل الفساد والضعف حتى تموت ، أو تحيا حياة ضئيلة ، خير منها الموت والفناء .

إن الأمم ليست بكثرة أفرادها وعديدها ، ولكن بروحها وإيمانها وخلقها ، ولعمرى إن سبيل ذلك لهو العلم . ؟

# حق الشعوب الإسلامية على نفسها

## لحضرة صاحب المعالى محمد حلمى عيسى باشا

« إن الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم »

فى أعقاب هاتين الحربين العالميتين الطاحنتين ، أخـذت الدول الإسلاميـة تتبوأ مكانا ملحوظا فى المحيط الدولى ، وتسترد مكانها السياسى ووجودها الجغرافى وتعمد إلى المطالبة باستكمال سيادتها واستقلالها ، واستخلاص حرياتها وحقوقها ، ـ طبقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة ـ عما يشوبها من نقص ، أو يعتورها من مساس بسيادتها ، من نحو استبقاء سلطات عسكرية أو مزايا حربية هى بعض آثار معاهدات وليدة الاستعمار تبيح لها حق استخدام مرافقها الحربية فى زمن الحرب أو بقاء جيوش لها فى مواقع معينة فى زمن السلم .

ولكن على كل حال لا نزاع فى أن مركزها السياسى ومقامها الدولى وصل بها إلى إدارة شئونها بنفسها من سياسية ومالية واقتصادية واجتماعية وصحية ، وأن تتولى حكوماتها المؤلفة من أبنائها مقاليد الحكم وسلطة التشريع ، وأصبح لأبنائها مقاعد فى هيئة الأمم المتحـدة جعلتهم أندادا لمندوبى الدول الكبرى ، فسياستهم الداخليـة والخارجية فى أيديهم ، وهم المسيطرون على مرافق بلادهم وتصريف شئونها ، فإن أحسنوا إدارتها كانت لهم الحسنى وزيادة ، وإن أساءوا فعليهم « وما ربك بظلام للعبيـد » .

ولو نظرنا لمواقع تلك البلاد الإسلامية من الوجهة الجغرافية لوجدناها ـ عربية أو غير عربية ـ تكوّن سلسلة متصلة الحلقات ، متجاورة الأراضى ، من المحيط الأطلنطى

إلى المحيط الهادى ، ووجدناها عامرة بالثروات الطبيعية ، والمحاصيل الزراعية ، وكافة المواد الأولية ، فمن له حق استغلالها والانتفاع بخيراتها ؟ لا شك أنهم أهل البلاد وأبناؤها أولا ، وإخوانهم الذين تربطهم بهم رابطة الدين واللغة والجنس ثانيا ، فهم مقدمون على من عداهم من الأجانب .

ولكن هل هذا هو الواقع ؟ كلا ! وتلك هى الحقيقة مجردة عن الخيال ، نقررها ليتنبه الغافل ويستيقظ المخدوع ، ويدرك إدراكا صحيحا أن خيرات بلاده التى ذكرنا ، وثرواتها الطبيعية ومراكزها « الاستراتيجية » الممتازة مضافا إليها حالة أهلها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من الضعف والوهن الذى أصابها فى خلال استعمارها ، حتى خيم الجهل وانتشرت الظلمات فى ربوعها ، كل ذلك مما يغرى الدول الأجنبية بالسعى فى سبيل استغلالها ، وجنى ثمراتها ، والانتفاع بخيراتها بكافة الوسائل والمسميات الخادعة الغرارة حتى لا يفطن أهلها وبنوها الى حقيقة ما ينتوون : أأرادوا بهم خيرا ورشدا ، أم أرادوا بهم شرا وعنتا ؟ .

* * *

يتقاضانا تصوير هذه الحالات أن نتناول الموضوعات الآتية :

أولا : حالة البلاد الإسلامية أثناء احتلالها واستعمارها (١) .

ثانيا : حالة أهلها بعد استقلالها كاملا كان أم ناقصا من النواحى العلمية والاجتماعية والصحية والاقتصادية .

ثالثا : مرامى السياسة الأمريكية والأوربية من حيث رغبتها فى إعانة تلك الدول ماليا بدعوى رفع مستواها الاجتماعى ، والاستعانة بها على محاربة الشيوعية أو عقد معاهدات لتستعين بها عسكريا .

رابعا : ما يجب عليها القيام به فى سبيل نهضتها ، ورفع شأنها ، ووحدة كيانها السياسى ، لتصل إلى مستوى الدول الأجنبية ، وإفهام المسلمين أن هذه ضرورة

---

(١) ويدخل فى هذه الحالة وقوع بعض البلاد تحت النفوذ الأجنبى وإن لم تكن محتلة .

تقتضيها تعاليم دينهم ، وأحكام قرآنهم ، وسنة رسولهم ، وضرورة يقتضيها العصر الحاضر ، وما وصل إليه من تقدم فى سائر النواحى .

والمقام يقتضى الإيجاز والإجمال ، وإنى لمتّبع فيه حد قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » .

فالموضوع الأول هو : حالة البلاد الاسلامية أثناء احتلالها واستعمارها :

تكاد تستوى حالة البلاد الإسلامية عامة فى فترة احتلالها على خلاف فى إدارة شئونها الداخلية ، وسياستها الخارجية والعسكرية ، ففى الغالب كان يترك لأفرادها حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وعوائدهم التقليدية ، أما الشئون السياسية والحربية ، فكانت فى يد المسيطرين .

والظاهرة العامة المشتركة ، جرت على حرمانهم من نور العلم ، ونعمة التعليم الصحيح ، الذى سار فى بلاد المسيطرين شوطا بعيدا ، أخرج العالم والفنّان والمكتشف والمخترع ، والصانع الماهر ، والتاجر الحاذق ، حتى وصل بهم سموّ مداركهم ، وعلو كعبهم ، إلى اكتشاف أسرار الكون ، ومكنونات الطبيعة وخوارقها ، واكتشفوا الكهرباء وانتفعوا بمزاياها ، والطائرات التى تسابق الريح ، والغواصات التى تسير فى أعماق البحار ، إلى غير ذلك مما نشاهده ، حتى وصلوا إلى اختراع آلات الدمار والهلاك ، وأهل البلاد المستعمَرة لاهون غافلون ، لأن العلم الذى يفتح العين ، وينير البصيرة ، كان يعطى لهم بمقدار ، ولا يسمح المستعمر المسيطر إلا بالنزر اليسير منه ، لأنه يعرف حق المعرفة ، أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وكان من آثار ذلك ، أن سيطر الأجانب على ميادين التجارة والصناعة ، وأنشئوا الشركات ، واستغلوا كنوزها ، وثمّروا خيراتها ، واستمرءوا مرعاها ، حتى إن الزارع لينتج أثمن محصول ، ولا يدرى ما يصنع به مشتريه منه ، ولا يدرك طرق تصريفه ، ولا ما يدرّه من ربح فى تصديره ، إذا تاجر فى بضاعة

مزجاة ، وإذا ربح فربح لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ونشأ عن ذلك بطبيعة الحال أن انحط المستوى الاجتماعى للفرد ، وخيم عليه بكلكله الجوع والفقر حيث لا ربح يجدى ، والمرض حيث لا علاج يشفى ، وبعُد عن اقتحام ميادين التجارة والاقتصاد ، حيث لا علم يضىء ، وهكذا كانت الخلاصة أن بقى معظم السكان زراعا فى الحقول ، وعمالا فى المصانع ، والعلم اليسير إنما يخرج طلابا للوظائف الضرورية ، التى لا يستطيع أن يقوم بها المسيطر .

وكفى أن نشير إلى ما لاقته مصر من تحملها عناء الامتيازات فى صميم مرافقها ، كامتياز شركات قنال السويس ، والمياه ، والنور ، والترام .

* * *

الموضوع الثانى : حالة أهلها العلمية والاجتماعية والصحية والاقتصادية بعد استقلالها ، كاملا كان أم ناقصا .

إقرارا بالواقع يجب أن نشير إلى أن هذه الدول ، ومن بينها مصر تعمل بجد فى سبيل نهضتها ، وحفظ كيانها ورقيها ، فهى تسعى لنشر التعليم بجميع مراحله ، ومصر أنشأت الجامعات التى لا تقل برامجها ومناهجها عن برامج الجامعات الأوربية ، وهى تكثر من البعوث ليحصل أبناؤها على أرفع الدرجات العلمية ، وقد تبعها فى ذلك الأزهر الشريف ، فإنه يبعث بخريجين من أبنائه ليتقنوا اللغات الأجنبية ، ويقفوا على المدنيات الغربية ، ويستطيعوا أن يقارنوا بينها وبين المدنيات الإسلامية ، ويتمكنوا من الدفاع عن دينهم ، والذود عن حوضه ، مما قد يوجّه إليهم من تهجم ، أو تهم باطلة ، أو تضليل .

وقد انتهى عهد المحاكم المختلطة ، التى كان يجرى التقاضى فيها بلغات أجنبية ، ووضعت قوانين على أحدث التشريعات ، لتسرى على قاطنى مصر كافة بلا فارق بين أجنبى ووطنى ، وبين مذهب ومذهب ، وأخذ بإصلاحات اجتماعية كثيرة ،

نذكر منها تحديد سن الزواج ، وحق التطليق للزوجة عند المضارة ، واقرار الوصية الاجبارية ، التى أزالت حيفا ، فجعلت للحفيد الذى مات أبوه قبل جده الحق فى أن يرث نصيب أبيه ، بشرط أن لا يزيد عن الثلث . وجعلت للمورث حق تقسيم تركته فى حياته بين ورثته تقسيما نافذا ، دفعاً لخلاف أو شقاق بين الورثة بعد وفاته (١) .

وتعنى مصر بإرسال مدرسين من بنيها إلى من يطلبهم من البلاد الشقيقة وهكذا إلى كثير من ضروب الإصلاح .

ولكننا لا نزال نرى حالة الفرد فى مصر — وأغلب الظن أنها كذلك فى سائر البلاد الشرقية — دون ما يرجو المصلحون ، مما يدعو إلى الإقرار بأن حالته لم تتغير عما كانت عليه من قبل استقلال بلاده ، فالفقر ما فتىء جاثما ، والمرض وبالأخص المتوطن منه — ما برح يحتاج إلى وسائل العلاج الناجعة ، القاضية على جراثيمه ، ولم يبد اتجاه عملى ، من حيث علاجه بالمجان ، أسوة بما جرت عليه أمريكا وانكلترا ، حتى يكون كل فرد سليم البدن ، سليم العقل ، صالحا لتلقى العلم ، قادرا على حمل السلاح .

وأهم من ذلك ما نشاهد من تراخى الافراد فى الميدان التجارى ، فالنشاط فيه غير متناسب ولا متناسق مع النشاط البادى فى طرق التعليم .

وإقرارا بالحقيقة يجب أن نشير إلى أن مرجع ذلك إلى الأفراد لا الحكومات والقائمين بأمرها ، إذ يجب أن نسجل ما نرى من تعاطف الدول الإسلامية وتوادها ، وجمع كلمتها فى الهيئات الدولية ، وسعى مندوبيها متضامنين لاستخلاص حقوقهم ، وما نرى فى أحاديثهم من رغبة صادقة فى جمع كلمة البلاد الإسلامية ، وضرورة تعاونها ، ونبذ الأهواء الشخصية ، سواء أكان باعثها دوافع شخصية ، أم دوافع خارجية ، وهذا مما يبشر بأن الروح الاسلامى لايزال بخير ، وأنه يرجى من

(١) فقه الشيعة الامامية يسمح بذلك

ورائه الخير الكثير تحقيقا لقوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » وقوله جل جلاله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

* * *

الموضوع الثالث : مرامى السياسة الامريكية والأوربية نحو البلاد الشرقية :

نقصر الكلام على سياسة هذين الجانبين نحو البلاد الشرقية ، لأنهما راغبان فى توثيق العلاقات مع بلاد الشرق .

وطبيعى أن ندع الكلام جانباً عن سياسة السوفيت الشيوعية ، فمن الموثوق به أن البلاد الاسلامية تأبى قبول النظم الشيوعية ، وتنفر من سياستها ولا تستسيغها بحكم عقائد أهلها الدينية ، وعوائدهم المرعية ، والدول الأجنبية تدرك ذلك حق الإدراك ، وقد أشارت الصحف إلى أن الفاتيكان يحبذ سياسية التقرب والاتصال بالدول الإسلامية ليتعاون أهل الأديان السماوية على مناهضة الشيوعية ومحاربة مبادئها الهدامة التى تقضى على حرية الفرد والعقيدة ، وتؤدى إلى تفكيك الأسرة وهدم نظام المواريث ، وتدعو إلى اضطهاد رجال الدين ، وإلى الإلحاد ، وقد أصبحوا يجاهرون بضرورة الاعتماد على مبادىء الدين الإسلامى وسلامة تعاليمه ، فنى ذلك قوة لهم لمحاربة الشيوعية التى أصبح شرها مستطيرا ، ووباؤها خطيرا ، يدفع معتنقها إلى إثارة الفتن والاضطرابات لتعطيل المصالح القومية والمرافق العامة التى يتوقف عليها نظام العمران وسلامة الدول وراحة الأهلين .

أما فيما يتعلق بالسياسة الامريكية والأوربية فيجب أن نشير إلى أننا لا نقصد الكلام على ما يراد من معاهدات صداقة وإقامة ، أو تجارة أو معاهدات سياسية وعسكرية يكون مدارها المساواة ، وصيانة حقوق كل بلد ، وسيادته ، ومعاملة أهله معاملة الند للند ، كما يجرى الحال مع أى بلد أوربى ، فتلك واجبات الحكومات وكل حكومة تعرف كيف تصون مصالحها ، فإنما الذى نخشاه ونريد لفت النظر إليه : هو السياسة الخادعة التى يكون مظهرها التعاون ، وباطنها تسخير الأهلين ،

واستخدامهم لصالح شركاتهم ومواطنيهم ، فقد نوهت الصحف بأن السياسة الامريكية تبحث ضمن ما تبحث فى مؤتمراتها عن مدى حاجات البلاد المتخلفة اقتصادياً من دول الشرق الأوسط إلى العون الاقتصادى ، لأن أمريكا معنية بتوفير عوامل الاستقرار الاقتصادى والسياسى فى هذه المنطقة الاستراتيجية الغنية بالبترول ، والواقعة بين القارتين الأوربية والأسيوية ، وتريد نهضة الشرق الأوسط اقتصادياً حتى يصبح حاجزا يوقف التوسع الشيوعى السوفيتى دون أغراض سياسية ، وهو قول نتمنى أن يكون حقيقيا واقعيا ، ولكن نبه بعضهم إلى ضرورة اليقظة ، وأشار الى أن الصهيونيين يدفعون الامريكيين إلى سياسة تؤدى لاستبقاء أهل تلك البلاد فى حالة اجتماعية واقتصادية منحطة حتى يبقى أهلها عمالا فى المصانع وزراعا فى الحقول ؛ وقد أشار بعض ذوى الغيرة فى الصحف الى ملاحظات مضمونها : أن أمريكا لا تزال تنظر إلى البلاد العربية باعتبار أنها سوق للاستغلال ، ويحرضها الصهيونيون على ذلك ، ويدفعونها للعمل على مقاومة الحركات الاستقلالية فى البلاد الشرقية ، وعرقلتها لوقف نموها ، والحيلولة بينها وبين تبوىء مكانتها التى تطمع إليها ويبعثها إليها مجدها القديم ، وتاريخها الطويل ، ومركزها الجغرافى الممتاز ، إذ أن شواطئها تحتضن أهم بحار العالم ، فيجب الحيلولة دون تكوينها تكوينا يخل بالتوازن الدولى فى المستقبل ، كما يحرم أمريكا من استغلال بلاد بكر تنطوى أرضها على كنوز لا تنفد من الثروات المعدنية كما أن وضعها الجغرافى من الناحية العسكرية ذو قيمة لا تقدر من حيث حشد الجنود والتجمع والتموين والطيران .

ولهذا يخشى المخلصون أن يكون هؤلاء ، إنما يرمون من وراء سياستهم ـ التى يسمونها بأسماء مختلفة ـ الى أغراض ظاهرها العون والغوث ، وباطنها مايشير إليه ذلك الكاتب الغيور .

ولذلك يجب على أهل البلاد الإسلامية أن يكونوا على حذر ، وأن يتنبهوا إلى ما يراد بهم ، فان كان خيرا قبلوه ، وإن كان شرا أبوه إباء كريما عزيزا والله المستعان .

الموضوع الرابع : ما يجب على البلاد الإسلامية أن تقوم به لنهضتها ورفع مكانتها ، استجابة لأحكام القرآن الكريم ، وسنة الرسول الأمين ، ومجاراة للتقدم العصرى الذى رفع البلاد الأجنبية مكانا عليا ، وجعلها تسيطر على حظوظ غيرها من البلدان .

بينا فيما سبق حالة البلاد الإسلامية ، وأن مستوى الفرد لا يسر ولا يرضى وذلك لنبين الفرق بين حالته وحالة الأوربى والامريكى ، وأن الذى رفع شأن هؤلاء هو العلم الذى أوصلهم إلى درجة ممتازة فى الاختراع والاكتشاف ، وفن الاقتصاد الذى هداهم الى استغلال مواردهم ، وسعيهم فى استغلال غيرهم ، ولسنا نطلب أن ينقلب أهل البلاد الشرقية بين يوم وليلة الى مكتشفين ومخترعين لطائرات تسابق الريح ، وغواصات تجرى فى أعماق البحار ، وكهرباء ، وعلوم كيماوية يخروها لكل شىء حتى أدوات الهلاك والدمار ، وإنما نريد منهم أن يغذوا السير فى الطريق القويم ، وأن ينفضوا غبار الماضى ، ويبدءوا بالتعاون الوثيق فيما بينهم أفرادا وحكومات وأمما وجماعات ، وأن يتبادلوا المنافع وينبذوا الأهواء الشخصية ، والمطامع الذاتية ، ليحققوا أوامر دينهم وأحكام شرعهم الذى جعل المؤمنين إخوة ، وأمرهم بأن يتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، ونهاهم عن التنازع حتى لا يفشلوا ، وتذهب ريحهم ، وأن يفهموا بأن الخطاب موجه للمجموع لا للفرد ، وإلا لما تحققت معانيه ، ولا تمت مدلولاته ومراميه ، فالواجب يقضى بألا تقتصر الدعوة مثلا على تبديد الخلافات المذهبية بين الأمم الإسلامية ، وإنما يجب أن تتناول الدعوة كذلك التعاون الفعلى فى أمورهم الاقتصادية ، ومصالحهم المعيشية ، وقد قال تعالى : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ، ومتى تعارفوا تآلفوا ، فان الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، فيجب أن يتبادل أهل كل بلد مصالحه بمصالح البلاد التى تجمعه بها الأخوة الإسلامية ، والرابطة الدينية ،

وأن لا يتفرقوا شيعا وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون ، فينتهز الأجنبي هذه الفرصة ويستمر فى تسخيرهم ، واستغلال خيراتهم وهم لايشعرون ، أما إذا عامل بعضهم بعضا فى متاجرهم واقتصادياتهم فان النفع يعود عليهم دون سواهم ، وتكون الأرباح التجارية دائرة بين بعضهم وبعض ، وبذلك يتحقق قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

وعلى هذا الأساس بدت لى بعض مقترحات قد تتناول نواحى إيجابية ، أعرضها لتكون فاتحة لغيرها مما يدلى به أهل الرأى والعرفان من سائر البلدان ، أو لتعدل وتحور بما يطابق المصلحة المشتركة ، فما نبغى غير الإصلاح والصلاح ونلخصها فيما يلى .

(١) العمل على تقوية دعائم الأزهر الشريف وقد حمل رسالة الإسلام مدى ألف عام ، وتقوية دعائم الجوامع التى تقوم بتدريس الدين فى أنحاء البلاد الإسلامية كجامع الزيتونة ومكناسة والنجف وقم(١) وغيرها ، مع إنشاء جوامع على نسقها فى بلاد الشرق الأقصى ، وتدريس اللغة العربية . وهى لغة الدين بها كما تدرس بالبوسنه والهرسك التابعة الآن ليوغوسلافيا ، وقد أخرجت فيما مضى علماء وفقهاء أجلاء .

(٢) إرسال البعوث وبالأخص من بلاد الشرق الأقصى إلى الأزهر الشريف ليعود طلابه إلى بلادهم قادرين على أداء رسالتهم ، سواء أكان ذلك بالتدريس فى معاهدهم الدينية أم بالقيام بالوعظ والإرشاد .

(٣) العمل على إنشاء الجامعات بها أسوة بجامعات مصر ليقوم أبناؤها بالعبء العلمى والصناعى والاجتماعى والاقتصادى ، ويكونوا قادرين على تمثيل بلادهم فى الهيئات الدولية .

(٤) إرسال بعثات من الأزهر لاتقان اللغات الأوربية واللغات الشرقية كالفارسية والأوردية لنشر الثقافة الإسلامية ، ودفع المفتريات ، وشرح ما جد من تشريعات يقصد بها الاصلاح الاجتماعى ، وتبديد الشكوك التى أوجدها المستشرقون لأغراض سياسية .

---

(١) الزيتونة ومكناسة بالمغرب ، والنجف بالعراق ، وهى مدينة علمية دينية منذ قرون ، وقم بإيران ، وبجامعتها آلاف من الطلاب يتخصصون فى العلوم الدينية .

(٥) إنشاء قسم فى المجلات المعنية بأمور الدين كرسالة الإسلام ولواء الإسلام. ومجله الأزهر لنشر وترجمة المقالات والمحاضرات الدينية والإصلاحية ، باللغات الشرقية كاللغة الفارسية أو الأوردية وغيرها ليقف على مضمونها ، ويستنير بموضوعها من لا يتكلم اللغة العربية من المسلمين .

(٦) الاهتمام بالإذاعة بتلك اللغات أسوة بالبلاد الأجنبية التى تذيع لغات متعددة غير لغة بلادها ، ومن ضمنها اللغة العربية ، لتنشر دعوتها وتعمم دعايتها .

(٧) تبادل الزيارات بين أهل البلاد الشرقية ، وخصوصاً بين المشتغلين بالتجارة حتى يتعارفوا ، وتتآلف قلوبهم ، وتنشأ الثقة بينهم ، فيتبادلوا منافعهم التجارية فيما بينهم ، إذ المشاهد إلى الآن — تحت تأثير الماضى — أن أهل تلك البلاد ما زال أكبر تعاملهم من تصدير واستيراد مع الأجنبى .

(٨) إنشاء مجلة أو ملحق للمجلات المعدة لنشرها بالبلاد الشرقية تتناول بيان ما تنتجه كل بلد من محاصيل ومواد أولية ، وما تستطيع تصديره أو استيراده من البلاد الشرقية الأخرى ، وأسماء الشركات ليتعاون الجميع فى اقتصادياتهم على نحو ما قدما ، ويكون النشر بجميع اللغات عربية أو شرقية .

(٩) إنشاء شركات مشتركة بين أهل البلاد الشرقية من المشتغلين بتجارة التصدير والاستيراد ، ومن لهم منشآت خارج بلادهم ليكون بعضهم وكيلا عن بعض .

وبديهى أن أغلب هذه المقترحات يقصد بها الأفراد والهيئات التى تشتغل بالشئون الاقتصادية والتجارية ، إذ يجب أن يتنبه الفرد إلى ما حاق به فى الماضى تحت كابوس الاستعمار ، وأن يبدأ فيعرف ما أفاء الله عليه من نعم وفيرة ، وخيرات كثيرة خلقها له لينتفع بها ويثمرها فإن أهمل أو قصر فلا يلومن إلا نفسه ، وإذا ذهبت تلك النعم عنه فإنما يكون ذلك من عمله « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » ؟

# الإسلام والمسلمون

## لصاحب العزة الكاتب الكبير الاستاذ أحمد أمين بك

---

من البديهى أنه يجب التفريق بين الإسلام فى مبادئه وتعاليمه ، كما يدل عليه القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، وبين أعمال المسلمين من وقت أن اعتنقوا الاسلام إلى اليوم ، فمن أراد الحكم على الأسلام فليرجع إلى أصوله الأولى ، وينظر إلى جوهر تعاليمه ويزنها بميزان الحق والعدل ، ومن الخطأ الفاحش أن يحكم على الإسلام بالمسلمين . فقد يكون الدين صحيحاً ، ومعتنقوه خارجين عليه ، منحرفين عنه ، فيكون الخطأ خطأ أصحابه لا خطأه هو ، بل أحيانا يكون الدين فاسداً فى جوهره وتعاليمه ، ويرتقى معتنقوه ، فتصدر عنهم أعمال فاضلة ، لا تمت إلى دينهم الأصيل بسبب ، وإنما هم الذين حوّروا دينهم ، وصاغوه صياغة خيراً مما كانت عليه ـ والحق أن الفرق كبير بين الإسلام نفسه ، وعمل المسلمين فى مختلف العصور ، وأكاد أجزم بأن الاسلام لم يحىَ حياة عملية صحيحة طبق مبادئه إلا عصراً قصيراً جداً ، وهو عصر الرسالة وما بعدها بقليل ، وأما ما عدا هذه الفترة ، فقد عاش المسلمون عيشة منحرفة عن الدين ، وإن اختلف هذا الانحراف قلة وكثرة أو شدة وضعفا .

لننظر قليلا فى أهم عنصر من عناصر الإسلام ، وهو التوحيد الذى تبلور فى قولنا « لا إله إلا الله » فهل سار المسلمون عملياً واقتصادياً على هذا المبدأ ، وإلى أى حد ؟ ــ إن هذا المبدأ يدعو إلى اعتقاد أنه لا يصح تأليه غير الله ، وعبادة غير الله ، وأما من عداه من الناس فسواسية لا إله ولا مألوه ، قد يختلفون فى النسب ، وقد يختلفون فى الثروة ، وقد يختلفون فى غير ذلك ، ولكنهم كلهم إخوة فيما بينهم ، وعبيد لله وحده .

ولكن هذه العقيدة بعدم تأليه أحـــد من الناس ، تحتاج إلى جهد جهيد فى تطبيقها فى الحياة العملية ، إنها تحتاج إلى رياضة قوية ، تحتاج إلى أن يحتفظ الضعفاء بإيمانهم ، فلا يركعوا للأقوياء ، وتحتاج إلى أن يلجم الأقوياء غرائزهم ، فلا يحاولوا السيطرة على الضعفاء ، وهذا مطلب ليس باليسير ، وإن كان هو جوهر الاسلام .

ومن أجل هذا كان أسرع الناس إلى الاسلام أكثرهم من الضعفاء ، لا من أصحاب السيطرة ، كبلالٍ وأمثاله ، لأنهم وجدوا فى الاسلام تحرروا من عبوديتهم لغير الله . وكان أكبر المعاندين أصحاب السيطرة والتأله من مثل صناديد قريش ، فلم يسلموا إلا أخيراً ، وبعد عناد طويل ، كأبى سفيان بن حرب فى مكة ، أو إسلاماً ظاهراً بعد أن سدت الأبواب فى وجوههم ، كعبد الله بن أبىّ فى المدينة ، وأكبر سبب فى تأخرهم ، أنهم رأوا الاسلام يفقدهم تألهم وعظمتهم وربوبيتهم .

ولما فتح المسلمون فارس والروم ، كان أغرب ما استرعى انظارهم ، عبادة الرعية لسادتهم ، لِما وقر فى نفوسهم بسبب الإسلام من أنه لا معبود إلا الله . والقرآن مملوء بلعن الذين اتخذوا سادتهم أرباباً ، أو خلعوا القدسية والربوبية على رؤسائهم الدينيين . وكانت دعوة الاسلام دائما دعوة إلى عبادة الله وحده وعدم الاعتراف بربوبية أحد غيره « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله » .

ولذلك حارب الاسلام الاعتزاز بالنسب ، والاعتزار بالجاه ، والاعتزاز بالمال ، لأن كل ذلك من ضروب التأله ، والاسلام عدو كل تأله .

ولكن لم يستطع كثير من المسلمين أن يحتفظوا بهذا المبدأ الجليل القويم ، وظهر التراجع من أول عهـــد معاوية أو قبله أحيانا ، فعاد الاعتزاز بالحسب والنسب ، وأصبح ملك معاوية ـ كما عبر كثير من المسلمين ـ ملكا عضوداً فيه اعتسافٌ وفيه تأله ، وخاصة من أهـــل بيته ، وعادت الفروق بين الطبقات قريبا مما كانت فى الجاهلية ، وتتابع الأمر على هذه الحال ، وكلما تقدم الزمن نمت غريزة التأله ،

كما كان فى العصر العباسى وبعده ؛ وبلغ ذلك التأله أوجه فى مثل جنكيزخان وتيمورلنك واشباههما . إن نظرة الإسلام إلى الألوهية ، والدعوة إلى إله واحد يتساوى أمامه الناس جميعاً . تقضى على كل فكرة من شأنها وجود طبقة يكون لها الشفاعة أو الوساطة بين الله وخلقه ، ولكن ما لبث المسلمون أن عادوا إلى سيرتهم الجاهلية الأولى ، فاتخذوا أصنافا من الناس شفعاء يستشفعون بهم عند الله ويتقربون بهم إلى الله ، متأثرين بالديانات القديمة ، أما الاسلام نفسه فيدعو إلى أنه لا حجاب بين أى عبد مهما ضعف وبين الله . وقد عاب على النصارى واليهود اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم ، أرباباً من دون الله .

ولعل السبب فى ذلك ، أنّ هذه العقيدة الصحيحة ، عقيدة الإيمان بالله وحده ، والخضوع له وحده ، وعبادته وحده ، تحتاج إلى رياضة شديدة فى تصفية النفس من الشوائب ، والنفوس القوية عادة تعشق التأله والاستعلاء ، والنفوس الضعيفة سرعان ما تستسلم ، وهذا مشاهد فى كل أمة ، وفى كل جماعة ، وفى كل عصر ، من عهد أن قال فرعون : « أنا ربكم الأعلى » ومن قبله ومن بعده .

وهؤلاء الأقوياء يتخذون لتألههم أشكالا وألوانا من المظاهر . فمنهم من يتأله بجنوده وبنوده ، وكثرة ماله ونحو ذلك . ومنهم كبار المستبدين فى أممهم مثل نابوليون ، ومثل هتلر وستالين ، ومنهم كبار أصحاب رؤوس الأموال فى كل أمة ، ونحو ذلك ، كلهم يتألهون ، وكل الناس حولهم تؤلههم ، وإن لم يسمّ الأولون أنفسهم آلهة ، وإن لم يسم الآخرون أعمالهم عبادة ، ولكن العبرة بالحقيقة لا بالأسماء . والاسلام يكره هذا التأله بجميع أشكاله وألوانه ، والمسلمون - مع الأسف - فى كل عصورهم ما عدا الفترة الأولى لم يخل سلوكهم من تألهٍ من جانب القوة ، وعبادة وخضوع من جانب الضعف .

هـــذه ناحية من نواحى التأله والعبودية ، يصح أن نسميها ناحية سافرة ، وهناك ناحية أخرى من التأله والعبودية يصح أن نسميها مُحَجبَة ؛ ذلك أن هناك قوماً لم يكن لهم من قوة السلطان ، وكثرة المال والجنود والعصبية ، ما يمكنهم

من الاستعلاء فى الظاهر ، فبحثوا عن وسائل للاستعلاء من طريق خفى ، ولهؤلاء أمثلة كثير كالسحرة والمشعوذين والدجالين من رجال الدين الذين يدعون الاتصال بالغيب والاستمداد من السماء ، وأن بينهم وبين الله نسبا ، أو بينهم وبين الجن صلة ، وأنهم يستطيعون بذلك أن يقربوا إلى الله من يشاءون ، ويحرموا من الجنة من يشاءون ، أو أنهم يستطيعون أن يسيطروا على قوانين الطبيعة فى هذا الكون بسحرهم وتعاويذهم وتعزيمهم وما إلى ذلك ، كل هؤلاء وأمثالهم لما فقدوا السلطة الظاهرة والقوة الدنيوية ، لجئوا بمكرهم وحيلهم إلى ادعاء سلطة خفية يستمدون منها سلطانهم ، ويبسطونها على السذج والبله ، وكان من سوء الحظ وضعف العقل أن قبلت دعوتهم ، وتألهوا هم الآخرون ، وعبدهم أتباعهم ، فكان فى الدنيا مملكتان : مملكة السلطنة المادية ، ومملكة السلطنة الغيبية ، والناس موزعون فى العبادة بين هؤلاء وهؤلاء ، وكل هذا حرب على الاسلام فى جوهر تعاليمه وهو الذى ينادى دائما ، ويجعل شعاره دائما ، أن لا إله إلا الله ، وأن كل تأله باطل ، وأن كل عبادة لغير الله باطلة ، ولكن كم من المسلمين فى العصور المختلفة استطاعوا أن يحتفظوا بهذه الوحدانية خالصة لم يشبها شىء من عبادة وتأله .

ومن الأسف أنه فى كثير من عصور تاريخ المسلمين ، تعاونت القوتان ، الظاهرة والباطنة ، والمادية والغيبية ، على إفساد حال المسلمين ، فتحالف الملوك الظلمة والسلاطين الغاشمة مع الدجالين من رجال الدين ، والدجالين من المتصوفين ، وأعملوا قوتهم فى إفساد عقيدة الوحدانية ، وفى تعديد الآلهة وعبادتها ، واتخذوا لذلك وسائل لا تحصى ، فالسلاطين الغاشمة تحيط مظاهرها بكل أنواع الجبروت والطغيان ، ورجال الدين تضع لهم من الأحاديث مثل « السلطان ظل الله فى أرضه » والخطباء والوعاظ يصرفون الناس عن المطالبة بحقوقهم بإفهامهم أن الفقر من الله والغنى من الله ، وليس للجد ولا للعمل أى دخل فى الغنى والفقر ، وأن ظلم الظالمين إنما هو انتقام من الله لسوء سيرة المسلمين ، ونحو ذلك من تعاليم تفسد الروح ، وتذل النفس ، وتمكن المتألهين من التأله ، وتوجه الأذلة إلى عبادة المتأله ، ولم يكن هذا من جوهر الاسلام فى قليل ، ولا كثير .

ولو نحن نظرنا نظرة شاملة ، لرأينا أن أكثر شرور العالم فى الشرق والغرب ، وفساد حال الأمم يرجع إلى هذا التأله من جانب ، والعبادة والضعف من جانب آخر . فالعلاقات بين الأمم والحروب المتتابعة إنما يبعثها فى الغالب حب الاستعلاء أو بعبارة أخرى التأله ومحاولة الدولة القوية أن تسيطر على العالم لتكون إلهته ، وليكون غيرها عبادا أذلة ، وكان كل هذا يزول لو اعتنق الجميع أن لا إله إلا الله .

وبعد فهذا أصل من أصول الاسلام ، رأينا كيف انحرف المسلمون عنه ، فساء حالهم ، وانحط شأنهم . ولعلنا نتبع ذلك ببيان بعض الأصول الاسلامية الأخرى ، ونبين كيف عطلت وأهملت ، والله الموفق ؟

رسالة الإسلام . ترحب المجلة بما وعد به الأستاذ الكبير من بحوث فى هذا الصدد ، فإن أمر المسلمين لا يصلح إلا إذا فهموا دينهم حق الفهم ، وكانوا على بصيرة من أصوله وقواعده ، وما كلفهم الله إياه .

وقد اشتبه على كثير من المسلمين فى هذا العصر أمر الدين فحسبوه بعيدا عن معترك الحياة العملية ، قاصرا عن الأخذ بأيدى أهله إلى الصراط السوى فى السياسة والحكم والاقتصاد والقوة وسائر ما تصلح عليه الأمم ، ولذلك نراهم ينادون بالفصل بين الدين والدولة ، ويعتبرون هذا الفصل أساسا من أسس الإصلاح ، ويزعمونه أمرا مقررا مسلّما به عند أهل التفكير التقدمى الحديث لا ينازع فيه إلا الذين يفكرون بعقول قديمة « رجعية » .

ولا شك أن الجهل بالاسلام ، والنظر إلى حالة المسلمين فى ضعفهم وتأخرهم ، والرغبة فى تقليد المبادىء الغربية فى نظم الحكم والسياسة ، هى السر فى ذلك الاشتباه ، وهذا التهجم .

فاذا تضافرت قوى المفكرين المخلصين من أهل العلم والأدب ، وذوى الأقلام السيالة ـ من أمثال الأستاذ الكبير أحمد أمين بك ـ على بيان أصول الاسلام ، ومقارنتها بما يفعله المسلمون ، فان القضية تتغير يومئذ ، فلا تكون دعوة إلى هجر الاسلام ، ولكن دعوة إلى هجر ما عليه المسلمون مما ينافى الاسلام ؟

# مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل

## الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

---

يكاد ينعقد الآن اتفاق المتشرعين من علماء الغرب ومتابعيهم على أن فكرة القانون الدولى العام فكرة حديثة العهد ابتدعتها أوروبا أخيرا .

هذا الحكم صحيح فى الجملة ، ويلوح لنا بمنأى عن الجدال ما دمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامى ، فالنظام الدولى لم يكن معروفا حقيقة فى العصر القديم اليونانى والرومانى ، ولا فى العصور الدينية الأولى فى اليهودية والمسيحية .

أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ ، وأن ندرك أسبابه ، ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامهما علاقات دولية تتطلب هذا التشريع ، فكان كل نشاطهما مركزا فى بث الدعوة الدينية فى نطاق محلى محدود ، نعم إن نشر الدعوة الموسوية فى بنى اسرائيل لم يلبث أن حمل هذا الشعب على الهجرة ، وجعله يتصل بأمة مجاورة . غير أن هذه الصلة الوقتية لم تكن إلا صراعا خاطفا انتهى إلى استئصال شأفة تلك الأمة وحلوله محلها ، ولم يترك لنا التاريخ القواعد التى بنى عليها هذا الصراع والتحول .

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة فان خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجى ، إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز هاتين الدولتين يوماً ما ، ولكن نظرتهما نفسها إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما

بوضع تشريع كهذا ، ذلك أن فكرة القانون الدولى تفترض قبل كل شىء الاعتراف بضرب من المساواة واشتراك المصالح وتبادل الحقوق والواجبات بين مختلف الأمم ، وهذا لم يكن ليتفق والنظريات اليونانية والرومانية ، فأما قدماء اليونان فانهم ، وإن كان يتعاملون فيما بينهم على قدم المساواة أو يكادون ـ على رغم الصراع الدائم بين مملكتى أسبارطة وأثينا ـ كانوا ينظرون إلى الشعوب غير اليونانية نظرتهم إلى كائنات جد منحطة ، حتى إن ارسطو كان يرى أن البرابرة ( ويعنى بهم الأجانب ) ما خلقوا إلا ليقرعوا بالعصا ويسلبوا ويستعبدوا ، وكذلك كان الأمر فى التشريع الرومانى ، فإنه لم يكتف بأن وضع نوعين متباينين من القوانين ، أحدهما : للمواطنين ( القانون المدنى ) والآخر : لسكان البلاد الممتلكة ( قانون الشعوب ) بل إنه لم يكن يعرف فى الصلات الخارجية إلا قانون القوة الباطشة ، فلم يجعل للأمم الأخرى حقاً فى دفاعها عن نفسها ، ولا فى أمنها ودعتها ، وإنما كان دستورها فى نظره : « العبودية أو الفناء » ، وإذا كان قد اتفق لروما فى بعض الأحيان أن وضعت معاهدات سلمية على وجه دون وجه ، فلم يكن ذلك راجعا إلى أن هناك قانوناً يقضى بهذا الشرط المعين أو ذاك ، بل كان مصدره محض التفضل أو السعى وراء الأغراض والمنافع .

ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولى فى أوربا فى العصور الحديثة ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولى ، على رغم التقدم الفعلى فى تدوين قواعد هذا التشريع العام ، ذلك أن فكرة تساوى الناس أمام القانون ـ تلك الفكرة التى طالما طالبت بها الشعوب وتشدقت بها الحكومات ـ لم تتخذ بعد فى نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل ، ألم يقل : « استورات ميل » باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية ؟ أو لم يحدد « لوريمير » على وجه الأرض مناطق ثلاثا تخضع كل منها لقانون مختلف ؟ فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع فى نظره بحقوق سياسية كاملة ، والعالم نصف المتمدين يكفى أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية ، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزاماً قانونيا ، وجاء ميثاق « عصبة الأمم » بعد الحرب العالمية الأولى فأقر هذا التقسيم الثلاثى وأكسبه سلطة

القانون ، بل لقد فرق فى قلب المدنيات الأوربية نفسها بين الحقوق السياسية للدول الكبرى والدول الصغرى ، وأيا ما كان فان منظمة السلام هذه لم تحظر غزو منشوريا ، ولا فتح بلاد الحبشة ، وأخيرا شكلت (جمعية الأمم المتحدة) بعد الحرب العالمية الثانية ، فماذا رأينا ؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لا يزال مسيطرا فيها على عقول السادة الذين يتحكمون فى مصير الانسانية ؟ إنه لا حاجة بنا إلى محاولة إقامة البرهان على ذلك ، فهذه الحوادث التى تجرى تحت سمعنا وبصرنا وهذه الحلول العوجاء التى تطبق عليها فى أحضان هذه الجمعية الحديثة تنطق ـ بأفصح بيان ـ بأن الضعفاء والمظلومين الذين كانوا يبنون آمالهم على مثل هذه المؤسسات لم ينلهم حتى الآن إلا حسرات تتلوها حسرات

* * *

إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولى عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية ، فعلينا أن نصعد بذاكرتنا إلى عصر رسول الإسلام .

كلنا نعرف أن محمدا عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين فى اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة معادية طورا ومسالمة طورا ، وطبيعى أن هذه الظروف الخاصة التى جعلت الاسلام سلطاناً زمنياً وحكما عالمياً ـ إلى جانب كونه عقيدة روحية ، ومبدأ اخلاقيا ـ كانت تتقاضاه أن يضع تشريعا لقانون السلم والحرب بين الأمم ، فماذا فعل ؟ وهل كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المتشرعين ، مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوى الخلق الكريم ؟

لاشك أن دراسة مستوعبة لهذه الناحية من التشريع الإسلامى تتطلب بحثا عميقا ، لا للعهود والأقضية النبوية وحدها ، بل للمعاهدات التى وضعها الخلفاء والملوك الإسلاميون أيضا فى غضون التاريخ ، ولكنه ليس من غرضنا فى هذا المقال أن نجعل مجال بحثنا بهذه المثابة من السعة والاستقصاء ، وكل ما يعنينا الآن هو أن نستخلص ما فى القرآن والسنة النبوية من المبادىء الأساسية ، والخطوط الرئيسية فى هذا الشأن .

١ - تصحيح خطأ مشهور :

وقبل كل شىء يجب أن نصحح خطأ ذائعا فى الأوساط الأوربية ، وهو زعم أن الشعوب الإسلامية يباح لها - بل يجب عليها امتثالا لدستورها الدينى - أن تحمل السلاح لإكراه الناس على الاسلام ، وسحق الشعوب الأخرى التى لا تعتنق هذا الدين .

لئن كان هذا الرأى حقا لقد وجب أن تمحى كلمة « القانون الدولى » من التشريع الإسلامى إذ لا يبق لها فيه مدلول تشير إليه ، ولا يبق لغير المسلمين أمامه حق يطالبون فيه بحرياتهم ولا بحياتهم .

ولكن الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم يكشف لنا عن الحقيقة التى تخالف هذا الزعم على خط مستقيم ، فالقرآن لا يكتفى بأن يحظر حظراً أدبيا كل محاولة لإكراه الناس على الإيمان : ( لا إكراه فى الدين ) سورة ٢ آية ٢٥٦ بل يقرر أنه من المستحيل وقوعيا أن يسيطر على العالم دين واحد : ( ولا يزالون مختلفين ) ١١ : ١١٨ ( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) ١٢ : ١٠٣ ، ألا تكون محاولة فرض عقيدة واحدة على الناس - والحالة هذه - ضربا من التناقض والإحالة الظاهرة ؟ إن القرآن لم يفته أن يبرز ما فى هذه الغاية الطموحة من غرور خداع ، وذلك حيث يقول : ( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) ١٠ : ٩٩

ومن هنا نرى كتاب الاسلام المطهر يحدد رسالة نبيه بأدق ما يكون من العبارات الحاضرة ، مبينا أن مهمته إنما هى الموعظة والتذكير : ( فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ) ٨٨ : ٢١ ، ٢٢ ، بل إن هذه الدعوة السلمية نفسها لم يتركها القرآن حتى رسم حدودها وطريقتها ، وأوجب أن تؤدى بأكرم أسلوب ، ومن ألطف طريق ( أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ) ١٦ : ١٢٥ ( ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ) ٦ : ١٠٨ ( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى

أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون ) ٢٩ : ٤٦

ورب قائل يقول لنا : سلمنا أن كل إكراه دينى يجب أن يستبعد من أهداف الإسلام ، فما الذى يمنع أن يكون من بين هذه الأهداف فكرة الفتح والتوسع التى يكون المسلمون قد دفعوا إليها بسبب من الأسباب الأخرى كداعية الثروة الاقتصادية أو الاستعلاء السياسى ، أو غير ذلك ؟

فلندع القرآن يقدم لنا الجواب عن هذا السؤال ، وهاهوذا يقول : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا ) ٢٨ : ٨٢

هكذا يقضى القرآن فى حزم على تلك الروح الاستعمارية الجبارة . وبوجه عام على تلك النزعة المادية المتطرفة التى انتشرت انتشارا وبائيا فى عصرنا هذا ، والتى هى المنبع الأول لكل ما نشكو منه الآن .

ولكن هل نأخذ من كل ما تقدم أن الحروب ليس لها وجود قانونى فى نظر الاسلام ؟

هيهات فها هى ذى نصوص القرآن ، لا تجعل الجهاد عملا فاضلا فحسب ، بل تعده غالبا من الواجبات الأولية .

فالسؤال الذى يجب وضعه الآن هو هذا : ما الأحوال والشروط التى يبرر بها الاسلام اتخاذ تلك المواقف الحربية ، ويجعلها حقا مشروعا ؟

## ٢ — تعريف الحرب المشروعة

ليس من غرضنا قط أن نعمل الفكر والقياس الدقيق للتوفيق بين هاتين المجموعتين من النصوص القرآنية المتعارضة فى الظاهر ، فالنص القرآنى نفسه يعفينا من هذه المهمة بما يقدمه لنا من الصيغ المحددة للمقصود ، تمييزا بين الحرب المشروعة ، وغير المشروعة ، وإليك طائفة من هذه النصوص :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ( ٢ : ١٩٠ ) « فان انتهوا فان الله غفور رحيم .... فان انتهوا فلا

عـدوان إلا على الظالمين » ( ٢ : ١٩٢ — ١٩٣ ) « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليـكم السلم فما جعل الله لـكم عليهم سبيلا » ( ٤ : ٩٠ ) « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ( ٦٠ : ٨ ) . واقرأ على الخصوص آية براءة التالية ، فان تحـديدها لأهداف الأسلام فى هذا الشأن أوضح وأصرح : « ألا تقاتلون قوما نـكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ( ٩ : ١٣ ) .

من هـذه النصوص التى سردناها ، ومن نصوص كثيرة أخرى يخلص لنـا تعريف « الحرب المشروعة » فى الاسلام وأنها هى « الحرب الدفاعية » .

ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوى تحتها نوعان قـد أشار القرآن إلى كليهما :

(١) الدفاع عن النفس . وفيه يقول الـكتاب المجيد : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » ( ٢٢ : ٣٩ — ٤٠ ) .

(٢) الاغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه . وهـــذا هو ما حث عليه القرآن فى قوله : « وما لـكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » ( ٤ : ٧٥ ) .

وغنى عن البيان أن المفروض فى كلتا الحالين ، أن يـكون العدو قد اتخـذ بالفعل موقفا عدائيا ، وأن يكون فى حالة هجوم أو تأهب للهجوم . فالمظاهر غير الودية والاساءات الأدبية ، والمقاومات العنيدة لأمانينا المشروعة ، كل ذلك لا يسوغ لنا ان نتخذه ذريعة لإعـلان الحرب . وإنه لمن أكبر مفاخر الاسلام أن يـكون القرآن نفسه هـو الذى وضع هـذا التحديد فى صراحة حيث يقول :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى . ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ( ٥ : ٢ ) .

٣ — الصلح المجحف خير من الانتصار الدامى

من هنا نرى أن الحروب فى نظر الاسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر . فلأن ينتهى المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشىء من حقوقهم ، ولكنه فى الوقت نفسه يحقن الدماء ، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح .

وإن لنا فى موقف الرسول فى غزوة الحديبية لنموذجا حسنا لهذا الروح العالى فى التسامح والصفح ، حرصا على السلام من جانب الطرف الأقوى ، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا ، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه فى ذلك العام من المناسك « زيارة الأماكن المقدسة » ، ولم يكتف بأن رضى بتجريد اسمه فى نصوص الهدنة من كل لقب تشريفى هو أهله ، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختارا مقترحات الهدنة التى لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة . بل تخول الأعداء حقوقا لا تخولها المسلمين ، ناهيك بالشرط الذى يُلزم المسلمين باعادة من يلجأ إليهم فرارا من معسكر قريش ، بينما تجعل للهاربين من معسكر المسلمين حق البقاء فى معسكر قريش دون إزعاج ولا رد ، ونحن نعرف كم كان هذا الموقف البالغ الحد فى المسألة مثير الاستفسارات الصحابة واعتراضاتهم . ولكن كل هذه المآخذ لم تكن لترجح كفة الحرب فى نظر قائدهم الأعلى ، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذى يحفظ به دماء الناس وأرواحهم . ولنستمع له حين يقول مصمما فى جواب السائلين له عن السر فى هذا العدول عن دخول مكة « والله لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها » .

٤ — قواعد الحرب

هكذا يوصينا الاسلام بالمصابرة ما بقى فى قوس الصبر منزع ولا يخولنا حق الالتجاء إلى القتال ، إلا حيث يفرضه علينا العدو فرضا ، وحيث يكون القعود معناه الالقاء باليد إلى التهلكة .

لكنه — حتى فى هذه الحال المشروعة — لا يبيح لأحد أن يخوض غمار الحرب منقادا بسورة الغضب ، أسيرا لغريزة الانتقام ، دون تعقل ولا عاطفة إنسانية ، بل يوجب أن يسير فيها الجيشان ، وفق قانون معين يضبط هذه الانفعالات وينظمها .

فلنعرض الآن بعض تلك التعاليم التى أراد الاسلام — لا أقول أن يمحو بها إلى الأبد تلك الكارثة العالمية ، فذلك ما لا يمكن تحقيقه ما بقى على الأرض شريرون لا يقمع نشاطهم الإجرامى إلا بالقوة — ولكن أراد الاسلام بها تضييق مجال الحروب ، وتخفيف عواقبها الوخيمة .

(١) الأهداف الحربية :

رأينا كيف أن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزا واضحا بين المحاربين وغير المحاربين ، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل ، ولا بد أن نفهم من كلمة المقاتلين : أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية .

ولقد استرشد التشريع الإسلامى بتعاليم النبوة فى هذا الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس ، ويكفل إبعاد شرور الحرب عن الضعفاء ، ويجنب المدنيين كل ويلاتها ، فالأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمعتوهون ، بل حتى الفلاحون فى حرثهم ، والرهبان فى معابدهم (١) كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحروب .

والذى يلفت نظرنا بوجه خاص فى هذا المقام هو حرص الاسلام ، لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب ، بل على حمايتهم أيضا من التعرض

---

(١) هذا أحد الأدلة الساطعة على أن هدف الحرب الإسلامية ليس هو محو الديانات الأخرى ، فها نحن أولاء نراه على العكس من ذلك يحرص على تحصين أبناء تلك الديانات وحماية رؤسائها — الذين هم أبرز من يمثلها — من كل عدوان ما داموا بعيدين عن إشعال نار الحرب .

لـكل ألم نفسى ، يبدو لنا ذلك جليا بتأمل المثال التالى الذى ترويه لنا الآثار عن واقعة خيبر ، ذلك أنه حين انتهى حصار هـــذه المدينة بنصر المسلمين ، وقعت امرأتان يهوديتان فى أسر بلال ، فمضى بهما بلال إلى مركز القيادة ، مارا بميدان المعركة حيث سقطت جثث القتلى من اليهود ، وكان لهـذا المشهد أثره العميق فى نفس إحدى الأسيرتين ، فصاحت وأجهشت بالبكاء ، وما إن علم النبى بسـلوك بلال هذا، حتى استنكر فعلته ، ووجه إليه اللوم العنيف قائلا له : ( هل نُزعت منك الرحمة يابلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ ) .

وينساق بنـا الحديث فى هذا المعنى إلى التنويه بالقاعدة الإسـلامية المتعلقة بأسرى الحرب ، والتى تحرم الفصل بين المرأة الأسيرة وأبنائها ، وتوجب الجمع بينهم فى مكان واحد ، فيالها من عناية رحيمة حتى فى معمعة البأس .

(ب) النهى عن حبس الطعام عن المـدن :

ويظهر أن الاسلام لا يستحسن - بل لايبيح - فرض حصار يرمى إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ، أو أن هذا على الأقل هو ما تدل عليه حادثة ثمـامة ( أحد أشراف بنى حنيفة ) فقد صمم هذا الرجل وهو فى حداثة إسـلامه ، وأقسم مندفعاً بحرارة إيمـانه الغض على منع تموين مكة بالحبوب التى تنتجها بلاده (اليمامة) ما لم ينهـه النبى عن ذلك نهيا صريحا ، فلما عانى أهل مكة ما عانوا من بأس هـذا الحصار وجهوا إلى النبى رسالة موجزة يقولون فيها : ( إنك تأمر بصلة الرحم ، ولـكنك قطعت أرحامنا فقتلت الآباء وجوعت الأبناء) فبعث النبى على الفور إلى ثمـامة يأمره برفع هذا الحظر ، وبأن يدع أهـل مكة يتمتعون بمواردهم العادية .

(ج) تقييد مرمى الأسلحة :

ومن ثمرات القاعدة التى توجب حصر العمليات الحربية فى الأهداف العسكرية النهى عن استعمال الأسلحة البعيدة المدى ، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتغريق والتحريق .

(د) حظار وسائل الانتقام الوحشية :

يستنكر القرآن فى غير موضع تلك العادة الهمجية التى يشيع استعمالها فى أثناء الحروب، ألا وهى تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة، وإنه ليصل فى استنكار هذه الفعلة إلى حد أن يعد تعذيب العدو أشد جرما من القتل : ( والفتنة أشد القتل ) ٢ : ١٩١ ( والفتنة أكبر من القتل ) ٢ : ٢١٧

ثم إننا نجد تعاليم الرسول التى كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك فى قتالهم ، ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب والنهب والقتل غدرا ، والتمثيل بجثث القتلى، نعم إنه ذات مرة اشتد غضبه من أهل مكة لتمثيلهم بجثة عمه حمزة الذى استشهد فى غزوة أُحد ، وحمله ذلك الغضب على التفكير فى مضاعفة الانتقام منهم فى واقعة مقبلة ، ولكن القرآن لم يلبث أن نفره من هذه المحاولة ، محذرا إياه من مجاوزة الحد فى الانتقام ، مرغبا له فى الصبر والصفح (١٦ : ١٢٦ ، ١٢٧) فلم يسع النبى عليه الصلاة والسلام إلا العدول عن هذه الفكرة ، واختار ما هو أليق بخلقه الكريم ، فشمل مجرمى الحرب هؤلاء بكرمه وصفحه .

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذى يأمر بالعفو عن الاعداء متى انتهوا عن عدوانهم أن نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب ، فما بالك بمن يلقى سلاحه ويتقدم إلينا فى صراحة بعبارات السلام والاستسلام ؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذاءه تحريما قاطعا حتى لو كان ذلك بحجة الشك فى صدق إيمانه ( ٤ : ٩٤ ) .

تلك كلها أدلة ملموسة على أن الاسلام لا يرمى قط إلى القضاء على أعدائه ، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر ، ولكن إلى تجنب خطرهم ، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع فى نظره مبرر .

(هـ) الهدنة الإجبارية فى الأشهر الحرم :

وهذا أسلوب آخر من أساليب تخفيف ويلات الحرب .

فنحن نعرف مدى ما تستنفده الحروب الطويلة الأمد من جهود الشعوب وقوامم، وكيف أنها تصيب نشاطهم التعميرى بالجمود والشلل، وعلاجا لهذه الحال سن القرآن، أو بالأحرى أحيا تلك السنة القديمة التى توجب عدم استمرار الحروب حولا بأكمله، فتقرر فى أثنائه هدنة جبرية تعود فيها العلاقات السلمية، وتأخذ الحياة مجراها الطبيعى بين الأمم فى مدة أقلها أربعة أشهر، هذا الوضع الذى تُكف به أعمال الحرب جبرا خلال ثلث العام لا تنحصر مزيته فى إشعار المتحاربين بلذة السلم فى هذه المدة فحسب، بل إنه بما يتركه من الأثر فى نفوس الجماهير يثبطهم عن الشر، ويغريهم بإطالة أمد الصلح، وتحويله من هدنة مؤقتة إلى هدنة حقيقية أو إلى سلم دائم.

(و) التسلح :

من أنواع العلاج الواقى الذى يوصى به ساسة الغرب فى العصور الحديثة منعا لنشوب الصراع بين الدول، مشروع منع التسلح أو تقييده. غير أن هذا العلاج لم يتخذ قط حتى الآن صفة القانون الدولى ولم تطبق مبادئه تطبيقاً عادلا على الجميع وإنما كان يفرض على المغلوب وحده، بل يمكن القول بأن تطبيق هذا المبدأ الذى يتعارض وغريزة البقاء سيظل دائما حلما مستحيل التحقق.

أما القرآن فإن نظرته الواقعية النفاذة جعلته على العكس من ذلك، يحضنا على أن نعد للطاغين كل ما استطعنا من قوة، على أن تلك النظرة الواقعية الى الوسائل التى يجب اتخاذها لم تكن لتحول دون نظرته المثالية إلى الغايات العليا التى يهدف إليها من وراء هذا الاستعداد الحربى، وهى غاية تختلف كل الاختلاف عن الغايات التى يسعى إليها الغزاة الطامحون، فالمسألة فى نظر القرآن ليست مسألة إعداد للهجوم على الأعداء، بل للتحصن من شرهم، وإنذارهم بالقوة الباطشة التى تنتظرهم إذا لم يقفوا عند حدهم ( ٨ : ٦٠ ).

ها هنا يكمن أنجع علاج فى نظرنا لآلام الإنسانية الحاضرة، فليس الشأن فى أن نقلل من مقادير عتادنا الحربى أو نغير من طبيعته وإنما الأمر فى أن

نعدل أسلوبنا الفكرى من أساسه ، علينا أن تنظر إلى الحياة نظرة جديدة تخضع فيها المادة للروح ، وتسمو فيها المعنويات على الجثمانيات ، وكل حل ينقصه هذا العنصر ، إنما هو حل سطحى واه لا بقاء له .

٥ — العلاقات السياسية :

رأينا فى الأسطر القليلة السابقة كيف نظم الاسلام حالة الحرب . فلننظر الآن كيف نظم علائق السلم ، وأول ما يعنينا من ذلك طريقة معاملته لمبعوثى أعدائه ، وحاملى رسائلهم ، وممثليهم السياسيين ، وهى معاملة يحق لنا أن نقول فيها أنها سديدة مستقيمة ، فالإسلام فوق ما يكفله لهم من صيانة وأمن على الأرواح (١) يمنحهم نوعا من الحصانة الاجتماعية التى تخولهم حرية العودة الى أوطانهم متى شاءوا ، ولا يدع سبيلا إلى حجزهم فى بلادنا بحجة أنهم من قوم عدو لنا .

يلى ذلك طريقته فى الاستماع لهؤلاء المفاوضين وحسن استعداده للتفاهم والتعاقد معهم ، فالقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلا إليه « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ( ٨ : ٦١ ) .

أما شرائط الصلح وطرائقه ، فقد رأينا بصدد هدنة الحديبية ، كيف أن روح المسالمة التى تعمر قلب رسول الاسلام ، قد جعلته يضحى بكثير من التفاصيل المتعلقة بألقابه الأدبية ، وبالسمعة الحربية لجيشه ، وببعض الحقوق الفردية لاتباعه على أنه ليس معنى ذلك أنه يوجب قبول كل اقتراح من جانب الأعداء ، مهما كان شاذا ، أو ضارا بحقوق الأمة والأجيال المقبلة ، فقد رأينا هذا الرسول الرحيم نفسه ، حين عرض عليه مسيلمة الكذاب تقسيم « الأرض » بينه وبينه يرفض ذلك العرض رفضا صارما ، ويجيبه بتلك الجملة الحكمية التى يقتبسها من القرآن : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » ( ٢١ : ١٠٥ ) .

---

(١) أنظر قول الرسول لمبعوثى مسيلمة الكذاب : « والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » .

فاذا نحن درسنا الوثائق التى تركتها لنا السير عن العلاقات السياسية النبوية ، استطعنا أن نتبين فيها أنواعا مختلفة من المواثيق :

(ا) إعلان الأمن والحماية:

لعل أبسط العقود السياسية هو التصريح الذى يصدر من جانب واحد ، ولا يُلزم إلا الطرف الذى أصدره ، كاعلان دولة ما : أنها تلتزم الأمن والحماية لدولة أخرى . وإننا لنجد من هذا النوع مثالا واضحا فى ذلك العهد الذى اعطاه النبي لأهل سوريا ومن معهم فى أثناء غزوة تبوك ، وضمن لهم فيه حرية انتقالهم ، وأمن قوافلهم البرية والبحرية ، وحرية استعمالهم للطرق ومجارى المياه ، على شريطة واحدة ، وهى ألا يثيروا على المسلمين شغبا .

(ب) ميثاق عدم الاعتداء من الجانبين :

لكن المعاهدة بالمعنى الصحيح تتطلب اتفاقا وتبادلا للمنافع يقبله طرفا العقد جميعا . وإن أقل ما يتحقق فيه هذا النوع من العهود ، هو التعاقد الذى لا يتضمن إلا التزامات سلبية تنحصر فى امتناع كلا الطرفين عن كل فعل ضارّ بالآخر . وقد نقل لنا المؤرخون أمثلة لمواثيق من هذا النوع عتمدها النبي والتزم فيها الطرفان — إما لمدة غير محصورة ، وإما إلى أجل معلوم — ألا يهاجم أحدهما الآخر ، ولا يحالف عدوا له ، ولا يساعد معتديا عليه . فن هذا القبيل ميثاقه إلى أجل غير مسمى مع بنى ضمرة فى السنة الثانية من الهجرة ، ومنه أيضا ميثاق الهدنة التى عقدها مع قريش فى السنة السادسة من الهجرة لمدة عشرة أعوام .

(ج) المحالفة :

على أن الحقوق والواجبات المتبادلة إنما تبرز فى أكمل مظاهرها فى عهود الحلف ، ومن أمثلة هذه العهود فى حياة الرسول ، تانك المحالفتان اللتان مهد لهما صلح الحديبية حيث خول كلا من الفريقين أن يختار حليفا له من بين القبائل العربية فاختارت « خزاعة » أن تحالف محمدا ، واختارت « بنوبكر » أن تحالف قريشا . ولقد كان من نتائج تطبيق هاتين المحالفتين أن نهض المسلمون فى السنة الثامنة لنجدة

خزاعة حين نقضت قريش عهدها بإزائها ، وينبغى أن يلاحظ أن هذا النقض لم يكن بقتال مباشر موجه علانية لخزاعة ، وإنما كان معاونة سرية بالمال والسلاح لبنى بكر عليها ، ومن هنا تعرف وجهة نظر الإسلام فى هذه النقطة القانونية.

(د) الإعارة والتأجير :

وهذا مثال طريف لنوع من المواثيق لا نجده بعد إلا فى العصر الحديث : ذلك هو العهد الذى أعطاه النبى لنصارى نجران باليمن ، وهو وإن كان عهداً ملياً أكثر منه عهداً دوليا ، إلا أن فيه شرطا يذكرنا بميثاق الإعارة والتأجير الذى عقدته الولايات المتحدة الامريكية مع بريطانيا لتموين الجيوش الانجليزية فى الحرب العالمية الثانية .

فهذا العهد النبوى إذا نظرنا إليه من وجهتيه الاجتماعية والدينية ، نراه يلتزم للنجرانيين حرية عقيدتهم وعبادتهم ، وسلامة معابدهم ، وعدم المساس بمساكن كهنتهم ما داموا لا يحدثون اضطرابا ، ولكن الناحية الاقتصادية لهذا العهد أكثر طرافة فانه ينص على ضرورة تقديم مساعدة مادية معينة منهم للمسلمين فى حال حدوث نزاع بين المسلمين وبين طرف ثالث فى اليمن ، ومن بين هذه المساعدة إعارة جيش المسلمين ثلاثين وحدة من كل صنف من أصناف السلاح ، على أن يقوم المسلمون برد هذه الأسلحة إلى حلفائهم النجرانيين بمجرد انتهاء الحرب .

٦ — الوفاء بالعهود :

وبعد : فإن من المقرر المعترف به عند الجميع أنه يجب على طرفى العقد ـ مهما كان نوع المعاهدة التى بينهما ـ أن يحافظا بدقة وأمانة على تنفيذ كل شروط الميثاق بنصها وروحها .

غير أن هذا الالتزام يأخذ فى نصوص القرآن طابعا خاصا من التشديد ومن القدسية بجعله فرضا دينيا بالمعنى الحقيقى ، فالميثاق الذى يعقده المسلم لا يرتبط به أمام الناس فحسب ، بل أنه ينعقد فى الوقت نفسه بينه وبين الله تعالى إذ يجعل المسلم ربه شهيدا وكفيلا على عقوده والتزاماته ، ومن هنا يصبح احترام هذه

الالتزامات أمراً متغلغلا فى النفوس ، متصلا أوثق اتصال بعقد الإيمان ، بحيث لا يبقى لقوة فى الأرض أن تحالله منـــه ، سواء فى ذلك دوافع المنفعة أو طلب النفوذ ، أو زيادة الرخاء ، أو المجال الحيوى ، أو التوسع الاقتصادى ، أو التوازن السياسى ، أو غير ذلك .

وإلى هذا كله يشير القرآن حيث يقول : ( ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ) ١٦ : ٩١ ، ٩٢

فإذ نحن رجعنا إلى السـنة النبوية وجدناها قد بلغت من الدقة فى تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغا يكفى فى وصفه أن نورد بعض أمثلة منه :

كان أبو جندل من المسلمين المحصورين فى مكة ، فبينما كانت تكتب شروط صلح الحديبيـة أقبل يرسف فى قيوده ليقيم مع المسلمين ، وإذ كانت المعاهـدة لم توقع بعد ، كان من الممكن ألا يطبق عليه شرط رد اللاجئين ، ولكن ممثل قريش عارض فى ذلك بحجة أن الاتفاق الشفوى قد تم آنفا قبل قدوم هذا اللاجىء ، فصدقه النبي عليه الصلاة والسلام ، وتركه يأخذ بتلابيب المهاجر ليرده إلى مكة ، ولم يكن صياح أبي جنـدل وشـكواه وإعـلان خوفه من أن يفتنه المشركون عن دينـه إذا رجـع إليهم ، ولا الألم النفسى الذى أصاب المسلمين بسبب هـــذا التنازل ـ لم يكن كل ذلك ـ ليغير من موقف النبي وما زاد على أن قال : ( يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعـل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، ولـكننا قـد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك عهدا ، وإننـا لانغدر بهم ـ أو ـ وإنه لا يصلح فى ديننا الغدر ) ولقد تـكرر مثل هذا الحادث بعد فى شأن أسير آخر وهو أبو بصير ، وكان الحل هو الحل .

وإليك مثالا من نوع آخر كان القادم فيه من المشركين لا من المسلمين ، وجاء مبعوثا لا هاربا ذلك هو أبو رافع الذى قدم برسالة من قريش إلى النبي فما هو إلا أن رأى

النبي حتى وقع فى قلبه الإسلام، وأراد ألا يرجع إلى قومه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد » .

بل هناك ما هو أعظم من ذلك دلالة على قدسية العهود والمواثيق فى نظر رسول الإسلام ، وأنه لم يكن حرصه على الوفاء بعهوده أشد منه على وفاء أتباعه بعهودهم الشخصية ، مهما شقت على ضمير المؤمنين ، ومن أطرف الأمثلة فى ذلك وأشدها غرابة حادثة حذيفة وأبيه فقد كانا قطعا على نفسيهما لبعض الأعداء عهدا — بدون استئذان الرسول — ألا يقاتلاهم ، فلما جاء وقت القتال استفتيا فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان جوابه إلا أن قال : « انصرفا ففيالهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم » .

٧ — قطع العلائق السياسية :

شرطان لابد منهما فى نظر القرآن لإباحة نقض حلف سابق .

(١) هذا النقض لا يصح أن يحدث اعتباطا وابتكارا من قبلنا تحت تأثير الأغراض والمنافع ، أو بباعث الهوى والعاطفة ، بل لا بد أن يكون مسبوقا باستفزاز من قبل الخصم وبأمارات تدل على أنه ينوى خيانة العهد .

(٢) ولا يصح أن يكون قطع العلائق عملياً فقط ، وبدون سابق إنذار ، وإلا لكان غسلا للخيانة بالخيانة ، بل لابد أن يكون نبذا للمعاهدة صريحا واضحاً وأن يصل إلى علم الخصم فى الوقت المناسب ليكون على بينة من نيتنا نحوه حتى نكون وإياه سواء فى ذلك ، هذا هو صريح نص القرآن ( ٨ : ٥٨ ) .

خاتمـــة :

هكذا نرى أن التشريع الدولى فى الإسلام يستوحى فى كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس أمام القانون ، بل يستمد من ينابيع أشد عمقا من ذلك كله : يستمد من منابع الإيمان الصحيح ، والخلق الكامل .

ونستطيع أن نقول — ووثائق التاريخ بين أيدينا — : إن هذا التشريع الدولى العام بمعناه الصحيح لم يكن له وجود قبل الإسلام ، ولم يصل إليه تشريع آخر بعد الإسلام إلى يومنا هذا ؟

# فرصة سانحة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

## الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

---

تسنح الفرص نادرا ، وتمضى سراعا ، والسعيد من ينتهزها ويفيد منها . وما الفتوحات إلا فرص اغتنمتها الأمم ، وما أبطال التاريخ إلا رجال لم تفلت منهم الفرص .

واليوم تسوق العوامل الكثيرة المتضافرة والمؤثرات العظيمة القوية ، فرصة لا مثيل لها ، يمكن بانتهازها توطيد القوة الهائلة الكامنة فى الإسلام وإبرازها إلى حيز الوجود .

فأمام العالم الاسلامى الآن فرصة فى ميدانين : ميدانى السياسة والأخلاق .

أما فى ميدان السياسة : فالعالم ينقسم إلى معسكرين ، كل يريد أن يضم إليه أكبر عدد من الأمم ، وكل يريد أن يجر إلى صفه فى الجامعات الدولية ، أكبر عدد من الأصوات ، ببذل الوعود ، وتخفيف الضغط ، ومنح الاستقلال ؛ وهما يتصارعان فى معركة يعتبرانها حيوية ، يبذلان فى سبيلها كل ما فى الطوق . وهذا ما دفع بكليهما إلى مصانعة الشعوب الصغيرة وملاينتها ، مع أن البطش بها والتعسف معها كانا سنة الجميع إلى الأمس القريب .

ثم إن تسابق المعسكرين فى التسلح ، وما ينفقان فى هذه السبيل ؛ وما تتطلبه حاجات شعوبهما الجائعة ، ومحاولة إصلاح ما دمرته الحرب ، ومعالجة الضعف المالى ، وانعدام الأسواق لمنتجاتهما ، والأزمة الاقتصادية السائدة ، كل هذا

هبط بدخل دول المعسكرين ، وزلزل مراكزها ، وطوح بهيبتها ، وجعلها تخطب ودنا وتشترى صداقتنا ، وتمنحنا استقلالنا وتحترمه ، وهى التى تسلطت علينا تسلط الشياطين على النفوس الضعيفة ، وعشنا طويلا على الخوف منها ، والحاجة إلى إرضائها فى كل صغيرة وكبيرة .

إن إحدى الكتلتين تشجع اليوم - ولو لأغراض سياسية - الحركة الدينية ، وهو مالم يكن من قبل ؛ فلماذا لانسارع إلى إدخال الدين فى كل معهد ، وفرضه على كل فرد ، وجعله أساس الحكم فى كل بلد إسلامى ، لنتحصن به ضد كل عدو ، ونقوى به على كل مشكلة ، ونتخلص بفضله من دعاة الالحاد والتفرقة إلى الأبد ، ونخلق به جيلا سليما قويا ؛ ولماذا لا نركز - فى هذه الفرصة - روح الاسلام فى النفوس والبلاد ، حتى لاتزلزله الحوادث ، ولا تعطله يد قوية أو دكتاتور ظالم لو أرادت السياسة ذلك فيما بعد .

إن المسلم إذا رضى أن يكون نصيبه فى الحياة ألا يعترضه القوى فى إقامة صلواته وشعائره ، أو يكون غاية مرامه بناء مسجد فى حيه ، أو التمتع بالحرية فى لباسه أو ترضيه المجاملات ، ومثل هذا اللون من الاستقلال الموهوب ، دون أن يهيء نفسه لاحتمال تكاليف الحرية والاستقلال ، أقول بصراحة - ولنا أن نكون صرحاء مع الإخوة - إنه لم يحصل على شيء ، وليس هذا فحسب ، بل إن هذه الحريات الوقتية الممنوحة - التى لا يدله فيها - يمكن أن تسلب بسهولة حين تصفى الكتلتان المشاكل بينهما ، أو تقضى الحرب المقبلة على إحداهما وتبقى الأخرى بغير منافس .

هذه - لا شك - فرصة أتيحت لنا بغير جهد ، لو نتهزها لأمكن أن نستغل لمصلحتنا اضطراب الكتلتين أكبر استغلال .

أما فى الميدان الأخلاقى : فعلى أثر الحربين العالميتين الماضيتين - ولا سيما الأخيرة - انهارت المبادىء الأخلاقية ، وانتشر الفقر وعمت الفوضى ، بسبب كثرة القتل ، ودمار البلاد ، وهدم البيوت ، واختلاط الغالب بالمغلوب ،

وإجلاء الملايين عن بيوتهم ، وتشرد الكثيرين فى الآفاق ، وانفصام روابط الأسر بل انعدامها ، حتى أصبح رب الأسرة لا يأمن على نفسه ، ولا يطمئن على أهله ، ثم التعذيب والنفى ، ومعاملة الناس كالرقيق ، وإعدام آلاف الأسرى بشكل جماعى فى معسكرات الاعتقال ، حتى ان هيئة الأمم اقترحت عقد اتفاقية تحرم « القتل الجماعى » ؛ كل هذا قضى على الأخلاق ، ومسخ فى أعين الناس معانى الفضيلة فأصبحنا نرى العلماء أنفسهم — وهم أصحاب العقول الناضجة والفكر المستنير — يتفاخرون بصنع ما يدمر ويخرب ويفنى البشر ، فهذا يتيه بصنع قنبلة تقضى على مليون فى أقل من ثانية ، وذلك يفخر بتوفيقه إلى صنع قنبلة أخرى أشد وأقوى ، يبقى أثرها فى الأرض ألف سنة . وسواء أصدقنا هذا أم لم نصدقه ، فإن إعلان الفريقين لهذه الأخبار ، يدل على مدى الانهيار الخلقى ؛ واشتغالُ العلماء بما ينزل بالعالم الدمار والهلاك ، ويهدد البشرية بالفناء ، أكبر دليل على انعدام المبادىء الإنسانية .

على أثر هذا ، بدأ المفكرون يبحثون عن طريق للنجاة من هذا الوضع الوحشى ويفتشون عن نظام - لا ينبعث عن الميول السياسية والنزوات الحزبية - بل يقوم على قواعد سليمة يضمن للبشرية العيش فى راحة وسلام ، ولا يمنعها من التقدم فى كل نواحى الحياة ، والتقى أكثرهم عند فكرة الأخذ بدعوة روحية ، وهى فكرة نرى لها أنصاراً وأعوانا فى كل بلد وصقع يزدادون يوما بعد يوم .

وعندنا نحن المسلمين ، قانون إلهى ، يضمن السعادة للبشرية ، ويقضى على الوحشية والبربرية ، ويقيم موازين الاجتماع بالعدل ، ويحرّم قتل النفوس ، ويحض على التواصى بالخير والفضل ، ويؤمّن الفرد على نفسه وعرضه وماله ، ويشبع الفقير الجائع ، ويشفى الغنى المتخوم ، ويضع للحرب قوانين إنسانية ، إذا احتيج إليها .

فلماذا لانخرج بنور شريعة الإسلام على هذا العالم المضطرب ، كما خرج المسلمون الأوائل على العالم المحيط بهم من الفرس والروم إثر حروبهما ، واختلال أوضاعهما ، وضعف العقيدة الدينية فى أبنائهما ، فتَقَبَّل الناس دعوتهم ، واطمأنت القلوب إلى دينهم ونظامهم واستقرت بهم أمور الدنيا بعد اضطراب عاصف ، وقلق شديد ؟

لو انتهز المسلمون هذه الفرصة الذهبية ، لأمكن أن يكونوا هداة العالم المضطرب ، وأطباء النفوس المريضة ، ورسل النجاة والخلاص ، ولأمكن أن يغزوا الدنيا غزوا روحياً خلقياً تشريعيا ، يبقى على البشرية ويسعدها قبل أن يقضى عليها دعاة الدمار ، ودهاة التخريب .

لكننا مع الأسف الشديد ، لا نستطيع بحالتنا الراهنة أن نستفيد من الفرصة السانحة فنقوى بناءنا ، وننشر دعوتنا ، لأن ذلك يتطلب التكتل والتآخى ، وأن يفهم بعضنا بعضا ، كما يتطلب الأخذ بتعاليم الإسلام الصحيحة ، والعمل بأحكامه واتباع آدابه ، حتى لا تكون ـ على الأقل ـ حرب بيننا ، وحتى نظهر أمام العالم بالمظهر الذى يليق بمن يريد حفظ حقه ، وبث دعوته ، وانقاذ الآخرين .

ولست أعنى بالتكتل الإسلامى ، ما اصطلح عليه الساسة ، أو ما يفرضه علينا غيرنا ، أو ما يبرمه رؤساء الحكومات على الموائد ، ويشربون « نخب » توقيعه ، فهذا تكتل لا وجود له إلا على الورق ، لأن الشعوب لا تؤمن به ، بل ترتاب فيه ، وهل يحتاج الأخ الى توقيع ميثاق صداقة مع أخيه ؟ .

وإنما أعنى التكتل الطبيعى الذى أوجده الله فى أمة بعث فيها نبيه وبث فيها دعوته ، وهداها إلى كتابه ، وجمع أبناءها على قبلة واحدة ، ووحد صَلاتهم ، وصيامهم ، وحجهم ، فاجتمعت قلوبهم ، وتلاقت أرواحهم ، وصفت ضمائرهم ، واتحدت مصالحهم .

هذا التكتل هو أمر طبيعى للمسلمين ، لولا أن عصفت به النزعة العنصرية ، والتعصب المذهبى ، وهما مشكلتان خطيرتان على التكتل يجب أن نقف أمامهما قليلا .

فالأولى : مشكلة العنصرية : أثبت التاريخ منذ القدم وأثبت الغرب أخيرا أنها سبب كثير من الويلات وما كانت الحرب العالمية الأخيرة إلا مظهرا من مظاهرها ، ومن أجل ذلك دعا المخلصون للإنسانية ، إلى نبذها ظهريا ، وأخذ العالم الغربى يحاربها بطرق عملية فيرفع الحواجز بين الشعوب المختلفة العنصر « كالانجلوسكسون » و « اللاتين » ويدمج الشعوب المختلفة الأصول بعضها فى بعض .

أما نحن فى الشرق الإسلامى فلا نزال نصغى إلى دعاة العنصرية ، ونسكت على ألاعيب الأيدى الأجنبية التى تحبذ العنصرية ، وتخترع الوسائل لتمكينها فى النفوس ، مع أن الاسلام مال بنا عنها ، ووجهنا إلى الطريق القويم ، وقرر أن لافضل لأبيض على اسود إلا بالتقوى ، ولا ميزة للعرب — وهم قوم الرسول — على غيرهم من المسلمين إلا بحسن العمل .

والثانية : التعصب المذهبي أو الاختلاف الطائفى — ولولا شهوات الحكم لم يتعد حدوده المعقولة ولم يصبح مشكلة — لقد استغلته السياسة أشنع استغلال فجعلت المسلم يفر من أخيه اكثر مما يفر من عدوه ، ويضمر لأخيه عداوة أشد مما يضمر لخصمه ، وكم من مآس جرها على المسلمين هذا التعصب ، وكم أريق بسببه من دماء ، وكم من سيوف شهرت على الإخوة بدل أن تشهر على الأعداء ، وكم من قوى بذلت فى محاربة أبناء التوحيد بدل أن تبذل فى محاربة المشركين . مع أننا لو دققنا النظر وأنصفنا فى الحكم ، لوجدنا الخلافات المذهبية لا تمس أصول العقائد التى يجب الايمان بها ، ولو أن أهل السنة تعرفوا على إخوانهم الإمامية والزيدية من الشيعة ، وتعرف الشيعة على إخوانهم أهل السنة ، لتبين لهم جميعا أن الخلاف بينهم ليس على الأصول ، وأن كثيرا من الشُّبه التى وجدت فى أفكار كل طائفة عن الطائفة الأخرى ، ليست إلا من صنع المفترين ، وأن الخلاف بينهم غالبا ، شبيه بخلاف الفقهاء فى أن واحدا يجهر البسملة فى صلاته ، والآخر يسرها ، أو أن واحدا يمسح على القدمين والآخر يغسلهما ، ونحو ذلك من خلافات يمكن أن يحتفظ كل فريق برأيه فيها وأن يحترم رأى غيره ، فاذا كان المسلمون قد استطاعوا أن يقفوا أمام خلافاتهم الفقهية فى العصر الأخير موقف التسامح ، ولم يعد بينهم من يعتدى على مخالفه فى الرأى — كما فعل الذى كسر إصبع صاحبه لأنه رفعها فى التشهد — فانهم قادرون على مثل ذلك فى آرائهم الفكرية ومعارفهم التى لا تتصل بالعقائد ولا تشترط فى الإيمان .

وها نحن أولاء نرى الأزهر الشريف يدرس الفقه المقارن بين جميع المذاهب

ـ بصورة إجمالية نرجو أن تكون فيما بعد تفصيلية ـ دون تمييز بينها، ولا اقتصار على بعضها، ونرى كبار شيوخه يشتركون فى لجان القوانين ويفتشون عن أقوال الأئمة الموافقة لمصلحة الأمة، فيعدلون أحيانا عن مذهب أبى حنيفة إلى مذهب غيره، بل يعدلون عن الراجح فى مذهب الحنفية إلى المرجوح، وقد يخرجون عن دائرة مذاهب السنة الأربعة إلى مذهب آخر، كما فعلوا فى قانونى الطلاق والوصية وغيرهما، إذ أخذوا برأى ابن تيمية وابن القيم والشيعة الامامية، وكل ذلك قد تم بهدوء ورضى وإقبال دون تحرج ولا تذمر، وأدرك الناس ما فيه من مصلحة ورحمة وتيسير، فماذا عليهم لو استقبلوا ما وراء الفقه كما استقبلوا الفقه، وما الفرق بين الفروع العملية والفروع العلمية، وكلها ليست خلافات جوهرية تنهض سببا للقطيعة والخصومة.

هنا نقف قليلا لنقول: إن هذه المشكلة الأخيرة، قد وجد اليوم ـ ولله الحمد ـ من يعالجها، فها هى ذى جماعة التقريب تسير فيها باتزان وتعقل وحزم، وقد تمكنت فى مدة وجيزة من أن تلفت العالم الإسلامى إلى دعوتها، وإنا لنرجو الله أن يوفقها فى إنجاز مهمتها.

إنه لجدير بالمسلمين أن يدركوا أنهم بتخلصهم من هاتين المشكلتين، يمكنهم أن يفيدوا من هذه الفرصة السانحة، وينهضوا بأمتهم نهضة مباركة، ويصدوا عن بلادهم كل عدوان.

إن المسلم إذا احتفظ بتعاليمه كان أمة، وإن المسلم إذا صح إسلامه كان حصنا.

وإن الأمة الاسلامية إذا حكمت بكتابها، برزت قوة الاسلام الكامنة فيها، ويومئذ تكون أمة موجهة تحفظ التوازن فى العالم، وتتحكم فى الكتلتين المتناحرتين، وتوقف كلا منهما عند حده، يساعدها فى ذلك ثراؤها العريض، وموقعها الجغرافى الممتاز، وكثرة أبنائها، وعميق الإخلاص الذى يغرسه فى قلوب أبنائها دينهم الإسلامى الحنيف؟

عود على بدء :

# حقوق الإنسان

لحضرة صاحب الفضيلة

## الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى بك

عضو جماعة كبار العلماء والإمام الخاص للحضرة الملكية

---

كان ، ولا يزال ، مما أولع به المتغطرسون من الغرب ، أن يعلقوا دائما على الصراع بين الشرق والغرب ، أثناء امتداد موجة الفتح الإسلامى ، بقولهم : لو كتب للسلمين النصر فى معركة پواتييه ، وأظلت راياتهم أوروبا لأصبحت تلك البلاد التى انطوى عليها ملكهم ، وأظلتها أعلامهم أبعد ما تكون عن المدنية وأبعد شىء عن ذلك النظام المبارك الذى تنوء به كواهلهم ، والذى يوقعهم فى ورطة بعد ورطة ، واضطراب بعد اضطراب ، على سَنن لا يعلم إلا الله ما مصيره ، وكيف وأين ينتهى .

هـذا دينهم ، وذاك هجيراهم ، أما نحن فنحمد الله على تلك الفوضى التى كانوا يخافون الوقوع فيها لو قدر لأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام أن ينتصروا ، ونسأله المزيد من التوفيق للاعتصام بما يخشون أو يسود مجتمعهم المبارك ، والمبارك جدا ! . . ونقول مع القائل :

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ولقد ألممنا فى العدد الماضى من مجلة رسالة الاسلام بموضوع حقوق الإنسان إلمامة عابرة ، رجونا بعدها أن يوفقنا الله للعودة إلى ذلك الموضوع عسى أن نلم مرة أخرى بحقوق الإنسان فى تاريخنا وتاريخهم ، وشرعنا وشرعهم ، وقبل أن نعرض لكلمة عن تاريخ حقوق الانسان فى أوروبا ، نود أن نلفت نظر القارىء

الى خطبة الوداع ليراجع ما فيها من المبادىء التى تتصل بهذا الموضوع ، فإنها ـ كما قلنا سابقا ـ خطبة جديرة بالدرس ، لأنها وثيقة رسمية نهائية ـــ كما يحلو التعبير للدارسين الحديثين ـــ وإن كان كل ما صح لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وثائق رسمية ، ولكن نختار تلك الوثيقة لما ارتبط بها من ظرف الزمان وظرف المكان ومن شهدها من جمهرة المسلمين ممن قرع سمعهم لأول مرة كلمة الرسول ( فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ) فكان لذلك أثره المادى وأثره السيكولوجى فى نفوس السامعين ، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يكاد يختم كل فقرة من فقرات تلك الوثيقة العظمى بقوله : « ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد » .

هذه خطبة الوداع الكريمة علينا ، والأثيرة عند من يعرف الحق والانصاف ، والكفيلة أن تهدى ضالا وترشد غاويا لو أراد الضال والغاوى مخلصا أن يهتدى ، لم تكن نتيجة بحث مؤتمر ، ولا تقرير لجنة ، ولم يطبل لها طبل ولم يزمر بها زامر ، ولكنها كانت وحيا من الله العالم بمصالح العباد ، والخبير بما ينفعهم ، لأمىّ ما كان يدرى من قبل ما جاء به ما الكتاب ولا الإيمان ، جعله الله نورا يهدى به من يشاء من عباده .

نكتفى بها اليوم وعسانا أن نعرج مرة أخرى بذلك الحى .

لعل إلمامة بالجزع ثانية يدب منه نسيم البرء فى عللى

وقد عرضنا فى الماضى للنصوص التى أذاعتها هيئة الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان حديثا ، ونقلنا ماتمدحت به تلك الرسائل ، وما قاله عنها أصحابها ، فكيف حاولت تلك البلاد العريقة فى المدنية كما يقولون أن تصل إلى حقوق الانسان ؟ .

عرف التاريخ وثيقتين أو تصريحين فى هذه الناحية :

أحداهما ماعرفه الانكليز باسم MAGNA GHARTA

والثانية ماعرفته فرنسا والعالم باسم :

LA DECLARATION DES DROITS DE L'HOMME

واتخذ الانكليز من وثيقتهم دستورا لحرياتهم التى اكتسبوها بعد صراع مرير ، فى عهد الملك چون ملك بريطانيا ، ووقعها الملك فى ١٥ يونيو سنة ١٢١٥م تحت ضغط ظروف لا نريد أن نعرض لها لأنها لا تمس الموضوع الذى نعالجه اليوم ، وتقع تلك الوثيقة فى حوالى ثلاثة وستين من المواد ، وظلت عرضة للتعديل حتى استقرت بصيغتها النهائية التى يعرفها العالم الانكليزى اليوم فى ١٢٢٥ .

كما اتخذت فرنسا بل اتخذ العالم ، شرقيه وغربيه ، من الوثيقة التى كانت نتيجة الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، ما يعدونه الأساس لكل حرية أو كل تمكين فى العالم يومذاك ، وإذا طرحنا جانباً تلك الديباجة الطويلة للوثيقة الفرنسية والتعليق عليها ، لو فعلنا ذلك لوجدنا خطبة حجة الوداع فى بساطتها تتكفل فى أسلوب سهل بسيط بتلك المبادىء التى فخرت أوروبا بأنها وليدة عملها الجبار ، وجهادها المبارك ، كما فخرت أمريكا فى هذا العام بأن على أرضها أعلنت تلك الحريات باسم خمسين من الدول وافقوا عليها وباركوها ، بارك الله فيهم ، وهداهم سبيل الحق والرشاد ، فكم قرناً ياترى مرت بين حجة الوداع وبين إعلان أول وثيقة للحريات قد كانت حجة الوداع فى سنة ٦٣١ م ، ومعنى هذا أن قرونا ستة قد مرت منذ أعلن على لسان محمد عليه الصلاة والسلام حق الإنسان مفصلا حتى عهد MAGNA GHARTA وأحد عشر قرناً حتى أعلنت حقوق الانسان على يد رجال الثورة فى فرنسا فى الوثيقة التى أسلفنا الاشارة إليها .

ثم ماذا ؟ إنك لتجد قواعد الاعتراف بالكيان الإنسانى ، وحق الإنسان فى المساواة فى شتى بقاع الأرض ماثلة لأول نظرة فى سطور قلائل لا يعييك حفظها وفى أسلوب سهل محبب للناس ، حفظها المسلمون أو ـ مع التحفظ ـ جمهرتهم عن ظهر قلب ، وتدارسوها مدارسة الشىء المقدس لديهم ، ولم تعد مجرد ألفاظ قانونية صيغت صياغة قانونية ، فى أسلوب جاف ، ثم أودعت أضابير المكتبات ، فلم يعد يعيها إلا الاخصائيون المعنيون بدرسها ، وبذلك رسخت تلك السطور القلائل فى نفوس الجيل الأول الذى عمل بها ، فاقتلع من الأرض أمماً طاغية وجعلها أثراً بعد عين ، وبنى على أنقاضها دولة سادت العالم على وجه لا يكابر فى فضله إلا من

كابر فى الشمس ونفعها للناس ، ثم ماذا ؟ نحن لا نريد أن نتهم بالمغالاة والتعصب فنقول مع القائلين أن كل فضل فى التقليد العلمى أو الاجتماعى أو السياسى عرفته أوروبا من عصر النهضة وما بعدها ، هوأثر من تراثنا المجيد ، وشفق من شمسنا التى غابت على ذلك الفردوس المفقود فى الأندلس ، وما استفاد من نوره من بلد ، نعم لانريد أن نقول ذلك — وإن كان الدليل عليه ميسورا — ولكن هل استطاعت تلك الثورات ، وما خلفت من وثائق ؛ أن تهدى شعوباً جعلتها دستورها ، للعمل بها ، أما أنا فجد عليم بالجواب ، فيما رأيت فى جنوب أفريقيا ، وما رأى الثقات فى الهند وفى أمريكا من مساواة ، معكوسة للسود فيها جناح فى المقام ، وللبيض آخر ، حتى أماكن العبادة ، وفضلا عن أماكنهم المحتقرة المرذولة فى سبل المواصلات — بل وهو الذى يقضى منه العجب — فى البحر المحيط الطهور ماؤه الحل ميتته ، والذى يغسل أوضار الناس وأدناسهم تجد فيه المفاضلة بالجنس واللون والدين ، وفى غيره ، على نحو أو آخر من المفاضلة ، وحسبك ما يقرأ الناس عن قضايا الزنوج والبيض والسود فى أمريكا أم البلاد التى أعلن على أرضها حق الإنسان ، أما نحن وأما وثيقتنا فقد انتجت ، ما أحب أن يرجع إليه قارئى الكريم فى العدد الماضى من هذه المجلة ، وإنه لواجد ما احترمه الاسلام فى أصوله العامة ، وأقره أصولا كلية جاءت الشريعة الغراء بحفظها ، ولن تجد لهافيها نسخا ، ذلك هو : الكليات الخمس : الدين ، النفس ، العقل ، النسل ، المال . التى أفاض العلماء فى تفصيلها وإيضاح ما يتعلق بها (١) . والتى بينا طرفا منها فى المقال السابق ، كما بينا شمول تلك الأحكام إلا القليل منها للسلمين وغيرهم ، وأن اختلاف الناس فيه قد رجع إلى شىء يشبه مبدأ اختلاف الجنسية فى العصر الحديث .

فإن كانت الـ MAGNA GHARTA — واختها الفرنسية — حفظت الحرية للفرد ، وقالت إن الأفراد لدى القانون سواء ، وإن حريتهم الشخصية مكفولة

---

(١) راجع الموافقات للشاطبي . المسألة الثامنة من كتاب الأدلة الشرعية ، والمسألة الأولى من الفصل الثانى من الاحكام والنسخ .

فلا يقبض على أحد ، ولا يحبس أحد إلا بحق ، وإن كانت كفلت حرية الرأى ، وأوجبت على الدولة حماية حرية القيام بجميع شعائر الأديان والعقائد ، وإن كانت كل الدساتير التى تلتها نصت على ذلك ، وجعلتها ركن الديمقراطية الحقة ، ومنعت الضرائب إلا بحقها ، وأوجبت توزيع العدل بين الناس ، فلا يحرم منه أحد (١) ، إن كان حقا كل أولئك فنبئونا فيم يختصم الملأ شرقيه وغربيه اليوم ، وفيم تتطاحن المعسكرات ويهدد أحدها الآخر بطامة لا تبقى ولا تذر ، وهل ذلك إلا مظهر من مظاهر عصبية ممقوتة كامنة أظهرها الغلب ، وزكتها القوة التى يشعر بها كل فريق حتى لم تعد كتلة تعترف للأخرى بحق من حقوق الانسان الأولى رغم الدعاوى الجوفاء .

لكن الاسلام قد كفل الحقوق وحفظ التوازن بين القوى على وجه لا يطغى فيه أحد على أحد ، ولا يضار معه ذو مبدأ أو عقيدة ، ما دامت تلتئم والأحوال العامة فى التشريع ، فصلت ذلك كتب السنة وأصول الفقه والمدارس الفقهية على اختلافها ، وكان ذلك إيضاحا لذلك الدستور السماوى الكريم على ضوء ما بين فى حجة الوداع ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام أو فعله محررا منضبوطا لا ينقصه إلا الدعاية ، وإلا العرض الحسن للناس ، وبعبارة أدق ، لا ينقصه إلا حماسة المؤمنين وقوتهم وجلادهم ليفهموه للناس .

| | |
|---|---|
| ألإشتراكيون أنت إمامهم | لولا دعاوى القوم والغلواءُ |
| أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى | فالناس فى حق الحياة سواء |
| داويت متئدا وداووا طفرة | وأخف من بعض الدواء الداء |

فأى الفريقين بعد الذى أسلفناه خير مقاما وأحسن نديا ؟

وأظننى الآن ألممت إجمالا بما عرضت له ، أما التفصيل فقد تضيق به صفحات رسالة الاسلام الغراء ، ولعل ثمة فرصة أسعد والسلام ؟

(١) راجع تفصيل ذلك :
P. 115 Sources of English Constitutional History by earl Slephesison.

# هل تعبّدنا الشرع بالهدى في حال يترك فيها للفساد

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

---

فى العدد الأول للسنة الثانية من مجلة رسالة الإسلام الغراء كتبت تحت هـذا العنوان كلمة أوحاها إلىّ جواب فضيلة شيخنا الجليل الشيخ محمود شلتوت ، المنشور فى العدد الرابع للسنة الأولى من هذه المجلة ، وتكرم صاحب الفضيلة الأستاذ المحرر بتعليق على قولى فتح فيـه بابا جديداً وجديراً بالبحث والعناية ، رغبة منه فى أن يتدارس ذوو الفضل الموضوع من جميع جهاته .

وإنى أشكر لفضيلة الأستاذ تعليقه المفيد الذى رجع بى إلى الموضوع لعلى أبلغ فى محاولتى الثانية ما فاتنى أولا .

إذا ثبت أن الشرع الأقدس أمر بشىء ، وكان ذلك الشىء المأمور به من نوع العبادة ، كالصلاة ، والحج وأجزائهما . فنحن ملزمون بامتثال هذا الأمر تقرباً إلى الله سبحانه ، ولا يقبل منا الاعتذار عن الترك بعدم ظهور المصلحة لدينا من إتيان الفعل ، لأن معنى العبادة هى العبودية لله تعالى والتسليم لأمره على كل حال ، فإطاعة المخلوق لخالقـه لا تتحقق إلا بهذا التسلم المطلق ، سواء أعلمنا المصلحة أم جهلناها لسكوت الشرع عنها ، وفى هـذه الحال لا يسوغ لأحد مهما بلغت منزلته العلمية أن يستنبط المصلحة من عنـد نفسه ، ويجعلها علة يدور مدارها الحكم وجوداً وعدما ، كما لا يسوغ له أن يهمل ما اعتبره الشرع قيد التكليف أو يعتبر ما أهمله ، ومن فعل شيئاً من ذاك فقد اجتهد فى قُبالة النص ، وأعطى

لنفسه صفة المشرع ، والاجتهاد الصحيح إنما هو فى استنباط الأحكام من مداركها الثابتة لا فى تشريعها وإنشائها .

أما الفعل الذى تعلق به الأمر فإن لم يكن للشارع فيه حقيقة شرعية ، فأمر تعيينه يعود إلى نظر المكلف وتشخيصه من غير فرق بين المجتهد والمقلد .

هذا وإن للإنسان أن يحاول بيان المصلحة من العبادة الواجبة ، ويقربها إلى الأفهام بما يتفق مع العقل ، ولا يتنافى والشرع على أن لا يكون لاستنباطه أى تأثير على الحكم الشرعى إثباتاً ولا نفيا ، بل إن الشرع نفسه يحتم على من له كفاية العلامة الشيخ محمود شلتوت العلمية والبيانية أن يسلك هذه السبيل المثمرة — فى أيامنا هذه — لنشر الدعوة إلى الحق والدين .

وعلى هذا الأساس يرتكز تفهمى لما جاء فى الكتاب والسنة من وجوب الهدى فى الحج وغيره من العبادات .

أمر الشرع بالهدى ، ولم يبين أن المصلحة منه هى إراقة الدماء ، أو تذكر الفداء ، وليس له فى معنى الهدى حقيقة شرعية ، فاللازم إذن أن نلحظ معنى الهدى بصرف النظر عن تعلق التكليف به ، فما صدق عليه اسم الهدى قبل أن يكون مطلوباً للشرع يجب إيجاده فى الخارج على ما كان عليه قبل الطلب ، لأن الأمر لم يغير شيئا من معناه ، وإنما جعله واجبا يحرم على المكلف تركه وإهماله .

وإذا لم يكن إراقة الدم مطلوباً بنفسه ، ولا هو علة للطلب حيث لم يرد فى الشرع ما يشعر بأحدهما ، فكيف يقصد به امتثال أمر الله سبحانه ؟ .

أما ماجرت عليه سيرة حجاج بيت الله الحرام من تسمية إراقة الدم المستلزم للطمر أو الاحراق بالهدى ، فنسبب عن الاعتقاد بأن الشرع أراد من الهدى إراقة الدم ، وأن إراقة الدم هو المأمور به ، والهدى جُعل سبيلا للتعبير عنه ، وهذا الاعتقاد ناشىء عن الحرص الشديد على أوامر الله التعبدية والمحافظة على امتثالها .

وتقدم منا أن المطلوب الشرعى هو الهدى ، وأن إراقة الدم ليس مورداً للحكم ، ولا علة له ، وأنه ليس للشرع حقيقة شرعية فى الهدى ، وأن المفهوم منه

عرفا - بقطع النظر عن الطلب - هو ما كان هناك آكل ومطعم ، كما كانت عليه الحال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ولا حجة على المتأخر بعمل المتقدم ، إذا علم أن المتقدم استند في عمله إلى آية أو رواية أو أصل لا يدل شيء منها على المعنى الذى فهمه المتقدم ، بل لا تجوز — والحالة هذه — المتابعة بوجه ، بعد أن ظهر الخطأ والاشتباه .

ونجد المتأخرين من علماء الشيعة الإمامية خالفوا المتقدمين منهم في كثير من مسائل الفقه ، منها : ( منزوحات البئر ) فقد أوجب المتقدمون أن ينزح سبعون دلواً من بئر مات فيها إنسان ، وأربعون دلواً لميتة الثعلب ، وسبعة لميته الطير ، وثلاثة للحية ، وواحد للعصفور مستندين إلى ما فهموه من بعض الروايات ، فخالفهم المتأخرون لأنهم لم يستفيدوا من هذه الروايات الوجوب .

فالغرض أن المرجع الوحيد في تفسير معنى الهدى بقطع النظر عن الحكم هو العرف وحده ، وأن العرف يفهم من معنى الهدى والأضحية وجودَ الآكلين ، والتوزيع عليهم أيضا ، لأن الناس لو رأوا رجلا يذبح وينحر ثم يطمر اللحم أو يحرقه ، وسألوه عن ذلك فأجاب : إنى أهدى أو أضحى لأنكروا عليه سالبين اسم الهدى والأضحية عن عمله .

لكن فضيلة الأستاذ المحرر فسر الهدى ( بما يمكن الأكل منه أو الاطعام . وليس اللازم أن يوجد من يأكل أو يُطعَم ) والحق أن في تفسيره هذا صناعة وفذلكة علمية تدل على قوة في الجدل ، ومقدرة على إنشاء السبل والخطوط ، متى اقتضى الأمر .

وتتجلى هذه الصناعة في شرحي لفحوى كلامه ، وما يرمى إليه من وراء هذا التفسير ، وكأنى بالأستاذ يقول : كما أن الشارع لم يطلب إراقة الدم بالذات ، ولم يبين أن الاراقة هي العلة من طلبه . كذلك لم يقل الشارع : إن وجد الآكل فاهدِ أى لم يعتبر وجود الآكل شرطا في التكليف . كما في قوله : إن استطعت فحج ، لم ويقل : إهد لأجل الأكل ، أى لم يجعل الأكل علة ولا غاية لطلبه . وإذا لم يكن

كل من الإراقة ووجود الآكل مطلوبا بالذات ولا غاية للطلب تعينت الحالة الوسطى، وهى أن تكون الذبيحة قابلة للأكل، ولهذه القابلية فردان: وجود الآكل، وعدمه، وكل واحد منهما يصدق عليه المطلوب على السواء، ويتحقق بفعله الامتثال من غير فرق بين الحالين ما دامت الذبيحة جامعة للأوصاف التى يسوغ معها الأكل.

وهـــذا التوجيه متين بحسب الصناعة، لكن يرجع فى الحقيقة إلى العمل بإطلاق لفظ الهدى فى الفرد الثانى، أى الصورة المفروضة، والتمسك باطلاق اللفظ يرتكز على أمور ثلاثة:

(١) أن يصدق اللفظ على الفرد الذى نريد أن نثبت له حكم الكلى، بحيث يكون هذا الكلى قابلا للانقسام إليه وإلى غيره، كالانسان الذى ينقسم إلى رجل وامرأة، والماء إلى ماء مطر وماء نابع، ومتى حصل الشك فى صدق اللفظ وتسمية الفرد به، فلا مجال للتمسك بالاطلاق، فلو قال الشارع: أكرم عالما، ولم نعلم أن زيدا عالم كى يجب إكرامه، أو جاهل كى لا يجب لا يسوغ لنا التمسك بإطلاق لفظ عالم لأجل إكرام زيد، لأن خطاب أكرم عالما يستحيل أن يكون طريقا يستكشف منه علمية زيد، لأن تشخيص الأفراد الخارجية، وتطبيق الكلى على جزئياته ليس من شأن مشرع الأحكام. ولا من وظيفة واضع الألفاظ، ونتمسك بالاطلاق لو تأكدنا من علمية زيد، وكان بينه وبين من أوجب الاكرام جفاء وتباعد، وشككنا لذلك بأنه يريد إكرام كل عالم حتى عدوه زيد أو لا يريده لمكان العداوة، فاذا كان الأمر على هذا، نتمسك بالاطلاق موجبين الإكرام لزيد كغيره من العلماء.

(٢) أن يكون المتكلم فى صدد بيان الأحكام ومتعلقاتها وأجزائها وشرائطها، وكل ما له تأثير فى مراده، أما لو كان فى صدد التشريع فحسب كقوله تعالى: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة الوارد لبيان أصل الوجوب من غير تعرض لبيان الأجزاء والشرائط، فيمتنع التمسك بالإطلاق.

(٢) أن لا يأتى المتكلم بقرينة متصلة أو منفصلة تصلح لصرف الظاهر عن ظاهره . والمطلق عن إطلاقه ، كما لو قال : اسقنى الماء ، وعقب بما يدل على أنه لن يشرب ماء المطر ، فالقرينة أخرجت هذا النوع من الماء عن مراد المتكلم وطلبه ، فاللفظ يصدق عليه بما هو ماء بقطع النظر عن الحكم ، ولا يصدق عليه بما هو مطلوب ومأمور به .

هذه شروط ثلاثة لا بد من وجودها جميعا لصحة التمسك بالإطلاق ، وإثبات الحكم لجميع الأفراد ، ومتى اختل واحد منها كان الدليل مهملا بالنسبة إلى الفرد المشكوك ، والشرط الأول غير متحقق فيما نحن فيه ، لأنا نعلم علم اليقين أن الذبح المستلزم للطمر أو الإحراق لا يسمى هدياً فى عرف الناس مع قطع النظر عن الحكم ، ولا أقل من الشك فى الصدق وصحة التسمية ، وعليه لا يمكن التمسك بالإطلاق لأن تشخيص أن هذا الفرد من الهدى أو من غيره ليس من شأن الشارع ولا الواضع .

ولو سلمنا جدلا أن الهدى يصدق فى حالة الطمر أو الاحراق نقول : إن الشرط الثالث منتف لوجود الأمر بالأكل والاطعام فى الكتاب والسنة ؛ قال تعالى : « فكلوا منها وأطعموا » وهناك عدة روايات فى هذا المعنى ، وقد نص الفقهاء فى كتبهم على وجوب الأكل والتفريق ، وبينوا مقدار ما يؤكل ويُطعَم .

فالتقرب إلى الله تعالى بالذبح مع وجود الآكل مبنى على القول بأن الشرع تعبدنا بإراقة الدماء مطلقا ، ولا أثر لهذا القول فى لسان الشرع ، وإنما فهمه الفقهاء من الهدى المأمور به شرعا ، ومتى كانت الأفهام حجة فى إثبات الدين وأحكامه ؟ إن دين الله لا يصاب بالعقول .

وإذا لم يكن فى البين مبدل منه لانتفاء الأمر فلا يبقى مجال للبدل والاستبدال والأصل يقتضى البراءة لعدم وجود النص فى الصورة الفرضية .

ولكن ترجح الصدقة بثمن الهدى من باب الاحتياط فى الدين ، على أن لا ينوى الحاج بصدقته هذه البدل عن الهدى ، بل يقصد التقرب المطلق كسائر

الصدقات المتمحضة لله سبحانه ، ويستأنس لذلك بما أجمع عليه فقهاؤنا حيث أوجبوا على من لم يجد الأضحيه أن يتصدق بثمنها .

ومن أنعم النظر فيما قدمت يعلم أن محور كلامى كان فى المطلوب الشرعى ، وأنه هل هـو إراقه الدم أو الهدى ؟ وفى الحالة الثانية هل : يصدق الهدى على الذبيحة المستلزم ذبحها لطمر لحمها أو إحراقه ؟ فبحثى يرجع إذن الى التطبيق لا غيره ، فمن استصوب قولى بعد النظر والتأمل كان مستدلا ومستقلا فى رأيه ، وكنت شريكا له فى النتيجة ، ومن بلغ به اجتهاده وتفكيره الى تخطئتى كنت أيضاً شريكه فى البحث والدرس ، وكان مستحقاً على جهوده الاحترام والتقدير ؟

## رسالة الإسلام

نشكر لفضيلة الأستاذ الجليل ما جاد به قلمه من ثناء طويناه هو أولى به ، كما نشكر له حسن تقبله لما كتبنا وما يبدو فى أسلوبه من هدوء ورغبة فى خدمة العلم ، والوصول الى الحق .

ولا يفوتنا أن نبشر قراءنا بما وعدنا به فضيلته من بحث فى الأصول الفقهية للشيعة الإمامية بين القديم والحديث . فلا شك أن بحثا كهذا تدبجه يراعة كيراعته ، ويمده جنان كجنانه ؛ مما يبشر به عشاق العلم ، ورواد البحث . فرحى مرحى !

أما موضوع الهدى فإن لدينا على ما كتبه الشيخ العلامة كلاما . بيد أننا لاننسى أن دخولنا بين الشيخين الجليلين كان عارضا ، فليس لنا فى الموضوع أصالتهما ولا أردنا الفصل بينهما ، وإنا لنحسب أن قراءنا الآن لفى شوق إلى ما يقوله فضيلة أستاذنا الكبير الشيخ محمود شلتوت ، ونحسب أنه مستجيب لما نرجو ويرجون إن شاء الله تعالى ؟

# اَللغةُ وَٱلأدبُ
## بَيْنَ ٱلجَديدِ وَٱلقديمِ

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس فى كلية اللغة العربية

---

انشعب الباحثون فى اللغة العربية وآدابها ، منذ مشرق النهضة الأدبية الحديثة ، إلى ثلاث شعب :

فأما الشعبة الأولى : فقد مضت على سنن المنهج القديم ، ترسمه ، وتتعمقه ، وتؤمن به إيمانا لا يخامره ريب ، وتنافح عنه نفاح المجاهد المستميت ، ثقة منها بأنه الدرب الذى لا يصل العربى بعامّة إلى إدراك أسرار البيان العربى ، وإلى نواحى الجمال فيه ، ولا يصل المسلم بخاصة إلى دلائل إعجاز القرآن الكريم الذى هو عروة الإسلام ومُجّاعه - إلا إذا سار عليه .

وأما الأخرى : فقد وردت موارد الشعبة الأولى ، فنهلت ، وعلّت وتملّت وتملأت ، وأطالت الدرس والتأمل ، وغاصت إلى الأعماق ، ثم أسعدتها حيواتها الخاصة ، بالاطلاع على مناهج البحث والنظر فى بعض لغات الغرب ، فاستعارت منها أفضل ما فيها ، مما ظهر أثره فى استيفاء الوسائل ، وتوسيع آفاق البحث ، وتهذيب العرض ، وعظم الفوائد التى يصل إليها الباحث من أقرب طريق .

ولقد اشتعلت نار الحرب بين هاتين الشعبتين زمنا طويلا ، وكان اشتعالها فى أول الأمر طبيعيا ، لأثر القديم الموروث فى النفوس ، ولسوء الظن بكل ما هو غربى ،

ثم لعدم الاطمئنان إلى نوايا الروّاد الأول لهذه النجعة . بيد أن الزمن حلاّل المشكلات ، قد تكفل بإخماد نار الحرب ، إذ كانت مطاولته فرصة لأن يدرك المحافظون ، أن المنهج الجديد ، يمسّ الشكل دون الجوهر ، وأنه معين مسعد ، لا مثبط خاذل ، وأنه بانيا أكثر منه هادما ، على أنه حينما هدم ما هدم ، لم يكن مبتدعا ، ولا مدعيا ، ولا قائلا على القدماء ما لم يقولوا ، وإنما ردّد ما قالوا ، وشرح ما أجملوا ، ولذلك غدونا اليوم ، وهذا المنهج « المطعم » منهج المحافظين والاحرار ، والمجددين والرجعيين ، فيما يعالجون من بحوث النقد في مختلف الأوطان العربية والاسلامية جميعا .

* * *

نحن — الآن — أمام الشعبة الثالثة : وهي شعبة لها خطرها ، ولها رجالها البارزون ، ولها شبابها الجرءاء ، الذين يستمدون تسعة أعشار قوتهم من جهات ثقافية ، من الغرور أن أمسّ رسالتها ، أو أنال منها ، وإلا سمعت قصة الصخر والوعـــل !

هذه الشعبة : قد أعطت الثقافة الغربية والآداب الغربية من أنفسها بمقدار ما أعطت الشعبتان الأوليان اللغة العربية وآدابها من أنفسهم ، وكانت قد حامت حول اللغة العربية وأدبها ، ولكنها ما وردت ، أو بعبارة أقرب إلى الإنصاف ، وردت ورود الرّافه الرّيان ، لا ورود المتعطش الظمآن .

وبعيدٌ ما بين وارد رِفْهٍ عَلَلٍ شُربُه ، ووارد خِمْسِ !

هذه الشعبة — مذ اليوم — تحاول مُلِحّة جاهدة ، أن تُنزل الآداب العربية منذ جرى بها لسان عربي على معايير النقد الأدبي في الغرب ، يسلم منها — وقلما يسلم — ما وافقها ، ويُبَهْرَج منها ما حاد عنه ، وما أكثر ما يحيد ! لهم في هذا الكتب المؤلفة ، والرسائل والمقالات ، والجدل الشفوي ، الذي ينتهي أحيانا إلى الصراع ، أو إلى ما هو شر من الصراع .

لست هنا بسبيل أن أذكر أسماء ، أو أن أرد على شخص معين ، ولكنني أناهض

مذهبا أدبيا ينشط فى الدعاية له وفى العمل به مثقفون يملكون كثيرا من وسائل الدعاية والنشر، وقد أنقل بعض العبارات يستدعيها الكلام، لا أريد أن أرد على صاحبها بالذات، وإنما أريد ناحيتها العامة التى تمس جوهر الموضوع، وسأحتفظ بالمراجع لنفسى، إمعانا فى التبرى من الاهتمام بالقائل، ومن العناية بالرد عليه .

هذا واحد منهم يقول :

« إذا قلت لك إن الشعر العربى القديم كان فى جملته شعر « السطوح الخارجية » للنفس والحياة، فلا تحمل هذا القول على التعصب للحديث والوقوف إلى جانبه إن أمامك هذا الشعر، فراجع فيه نفسك، واستشر فى حقيقته ذوقك وحسك، إنه شعر يشعرك بفراغ « الوجود الداخلى » عند قائليه، لأنهم كانوا يعيشون خارج « الحدود النفسية » فى الكثير الغالب من الأحيان، فاذا عادوا إلى تلك الحدود، فتغلبوا على مشكلة « الصدق الشعورى » قامت فى وجوههم مشكلة أخرى، هى مشكلة « الصدق الفنى » وهنا مفرق الطريق بين المشكلتين الرئيسيتين : مشكلة « الأداء النفسى » ومشكلة « الأداء اللفظى » فى معرض الموازنة بين الشعر العربى الحديث، والشعر العربى القديم » .

ويقول فى موضع آخر :

« على هذا الأساس سار الشعر القديم ، يبارك خطواته النقد القديم ، ذلك لأن الأجيال قد دأبت على أن تخلق أبناءها فى ميدان الفن من طينة واحدة، وأن تصوغ ملكاتهم من معدن واحد : يقف الشاعر عند « الهياكل العظمية » للألفاظ، ويقف معه الناقد؛ وغاية الفن عند هذا وذاك ، أن يطلب الأول إلى صاحبيه أن يقفا لحظات ليبكيا معه، وأن يشير الثانى إلى أنه قد بلغ القمة، لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، أو لأنه مثلا، قد وفق إلى تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد ! » اه بنصه .

* * *

هذا كلام واضح بنفسه ، ليس فى حاجة الى تعليق ولا تعقيب ، وما بى أن

أعرض له فى تفاصيله ، فان ذلك يحمل الاعتراف بالمبدأ ، وهو خاطىء ؛ ولكنى أقصده فى صميمه ، بما لعله يخزيه ، ويخذله ، ويشفى صدور قوم مؤمنين .

اللغة العربية لغة مقدسة ، حصّن الإسلام ثغورها بحماية مسلحة ، تستعصى على الحديد والنار ، لأنها وعاء القرآن ، معجزة الإسلام ، ولقد جاءت دولة بنى العباس ، فجعلت من الاسلام العربى ، اسلاما عالميا ، والتهمت جميع العلوم والفلسفات التى كانت للأمم القديمة ، من الفرس والهنود والاغريق ؛ ثم عزفت عن الآداب الغريبة عزوفا ، فلم تقلب لها صفحة ، ولا أعارتها أى اهتمام ، وأرتجت أبواب الوضع ، والتعريب ، والاستشهاد ، بانتهاء الدولة الأموية ، وبين سمع بنى العباس وبصرهم ؛ فأقروا هذا الارتاج ، واعترفوا به ، ولم يحاولوا أن يمسوه من قريب أو من بعيد .

وجاء فقهاء الفروع فاشترطوا فى المجتهد أن يتبحر فى اللغة العربية تبحرا يقربه من السليقة ، واختلفوا اختلافا مُرّا فى جواز ترجمة القرآن ، وكانت الصولة فى جانب المانعين ، ولكنّ أشفقتُ ـ فى عهد قريب ـ على شخص ، أثير عندنا ، كريم علينا وعلى التاريخ معنا ، من تورطه فى هذا الموقف تورطا ، لم يخامرنى ريب ـ عهدئذ ـ فى أنه غير ناجح فى الخلاص منه بغير التساهل والإهمال .

ومتى كانت اللغة مقدسة ، فان آدابها : رواية ودراية ونقدا وعروضا وفقها الخ . من كل ما تتوقف عليه حياتها ، مما لا يتم الواجب المطلق إلا به ؛ فالانحراف بها عن سننه إلى نهج غريب عنها ، محاولة فى قيام المشروط بدون شرطه ، وهى محاولة فاشلة بلا جدال .

إن الحاكم فى النقد الأدبى عند العرب هو الذوق الأدبى العربى ، لا الذوق الشخصى الخاص كما يفهم بعض أدعياء النقد فى هذا العهد ؛ والذوق الأدبى العربى إنما يربيه التملؤ من الآثار الأدبية ، حفظا وبحثاً وتعمقا وطول ممارسة ، حتى إذا اكتهل هذا الذوق واكتمل ، تصدر للحكم على هذه الآداب ، أوْ لها وللفُتْيا فيما يعرض لطلابها من مشكلات ؛ ولبيان أسرار البلاغة فيها ، وسمات الجمال فى

فى معاطفها ، وعلل الضعف أو النقص فى بعض نواحيها . فالآداب العربية مؤثرة فى « النقد العربى » لأنها مصدره ، متأثرة بالنقد العربى لأنه يميز صحيحها من عليلها ، ورفيعها من مُسِفِّها ، وكاذبها من صادقها ، وما فسر العرب القرآن ؛ ولا ألف الزمخشرى كشافه المعجز ، ولا وضع عبد القاهر الجرجانى كتبه فى أسرار الإعجاز ، ولا ، ولا ، الخ . إلا بعد البحث المستقصى فى آداب اللغة العربية ، وإلا بعد اكتمال الملكة الذواقة التى طاروا بها فى سماء البلاغة العربية وآفاقها الرحيبة كل مطار .

* * *

جوهر المشكلة بيننا وبين بعض مجددى النقاد فى هذا العهد الأخير ، إنهم يريدون فصل اللغة العربية : متنها وآدابها ونقدها وعروضها الخ . عن الدين .

أما نحن ، فاننا نعتبر هذا الفصل كالفصل بين الروح والجسد ؛ فان اللغة قوام الدين ؛ والدين هو المقوم لحياة الإسلام بين شعوب العالم المعمور .

وأذكر أن هذه الخاطرة التافهة نمت بها بعض الأقلام منذ عهد بعيد ، وكان الفرد الذى لمحها فأسرع الى كبها ، ذلك الكاتب الاسلامى العظيم المغفور له مصطفى صادق الرافعى ، فى أسطر قليلة وردت فى مقدمة أحد مؤلفاته ، وقرأتها يومئذ ثم ماتت الفكرة فترة طويلة حتى نشأ نقاد الفترة الحاضرة ، فأخذوا يحومون حولها ، ولكنها ستعود إلى قبرها ، لا لأننا سنعنى بمحاربتها ، بل لأنها غير صالحة للحياة .

قد يقول قائل : إذا كانت اللغة على ما ذكرت مقدسة ؛ فما عمل المجمع اللغوى وهو سؤال قد يخطر ببال من لا يتعمقون الأمور ؛ فأما أنا فاننى مؤمن أعمق الإيمان بأن الرجال الخالدين أعضاء المجمع الموقر يرون أول واجباتهم حماية اللغة من أمثال هذه الوافدة ؛ وان لهم وراء ذلك لمجالا رحبا يستنفد الجهود فى الحياطة والتيسير ؟

# لولا القدماء

---

كتبت إلينا جماعة نشر الكتب القديمة التى تألفت فى النجف ، طالبة أن نرسل إليها بحثا من جماعة التقريب لينشر فى الكتاب الذى اعتزمت إصداره كمقدمة لمشروعها الجليل « سلسلة الآثار » وقد عهدت اللجنة الثقافية للتقريب بكتابة هذا المقال إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى السكرتير العام المساعد للجماعة ، وعضو لجنتها الثقافية : ولعل هذا الوقت الذى حاولت فيه بعض الأقلام أن تغض من شأن القدماء هو أنسب الأوقات لنشره ، وهذا هو :

نسمع بين حين وآخر صيحات من الشباب والكهول فى البلاد الإسلامية ، تدعو إلى التجديد ونبذ القديم ، وتصف ما بين أيدينا من الكتب العلمية والأدبية والتاريخية ، وكتب الحديث والرواية والفقه والأصول والبلاغة والنحو وما إليها بالتعقيد أحيانا ، وبالغموض أحيانا ، وبالاضطراب أحيانا ، وأنها كتب لا تناسب العصر الحديث ، ولا تلائم أذواق أهله ، وتضيع وقت طلابها فى بحوث جدلية ، وخلافات عرضية ، لا طائل تحتها ، ولا ثمرة تبتغى من ورائها .

نسمع هذه الصيحات متوالية على صفحات المجلات أحيانا ، وفى المعاهد والكليات أحيانا ، وفى النوادى العلمية ، وعلى ألسنة المحاضرين والخطباء ، وكل متصدر لدعوة إصلاحية - بزعمه - يندفع إليها دون بحث ولا روية ، أو يريد أن يستهوى

بها أفئدة من الشباب الذين أخذوا بالحديث اغترارا به أو التماسا لمظهر التجديد والتقدم ، وكرهوا القديم جهلا به ، أو ضعفا عنه ، أو فرارا من تهمة الرجعية والتأخر .

وقد أدت هذه الصيحات إلى ضرر عظيم أصاب شباب الأمة الاسلامية ، وأضعف محصولهم العلمى ، وحدّ من نشاطهم الفكرى ، وزين لهم التنكر لسلفهم ، وإطلاق الألسنة بالقول فيهم ، واستقبال آرائهم وذكراهم بنوع من الاستخفاف والتهاون ، ترى ذلك فيهم على تفاوت ، فمنهم المسرف فيه ، ومنهم المقتصد ، تبعاً لأحوالهم المتفاوتة ، وحظوظهم المختلفة من التأثر بأسباب ذلك وعوامله .

ولقد عصفت هذه العاصفة الهوجاء بكل طائفة من طوائف الأمة الاسلامية ودخلت فتنتها على جميع أقطارها ، وشملت أصناف المتعلمين فيها ، حتى رأينا بأخرةٍ آثارَها فى الأزهر ، وهو أكبر جامعة فى العالم تعنى بالقديم ، وتعيش به وعليه ، فقد اعتنق كثير من طلابه ، وقليل من علمائه هذا المبدأ ، وتأثروا بهذه الدعوة إلى حد ما ، وبدت آثار هذا التأثر فى دراستهم وكتبهم ومقالاتهم وبحوثهم ، بل بدت فى المناهج الرسمية التى أخذ الأزهر بها فى قانونه الحديث الصادر فى سنة ١٩٣٦ م .

كما أدت هذه الصيحات المتتابعة إلى خطر على الروح الاسلامى فى الأمة ، فإن إنصراف كثير من الشباب وأهل العلم عن كتب الأقدمين ، فتح أمامهم مجال الاقبال على الثقافات الأجنبية ، والتزود منها بزاد جميل الظاهر ، خبيث الباطن مثله كمثل العسل المسموم ، حلو مذاقه ، والموت كامن فيه ، ذلك أن هذه الثقافات مبنية فى الغالب على ما ينافى الدين والقومية الاسلامية ، والأخلاق الموروثة التى يعتز بها أهل القرآن ، وهى مبنية أيضا على احتقار الشرق والمسلمين عامة ، وتصويرهم فى صورة البدائيين فى أفكارهم وعقولهم ، المتقلبين مع السياسات فى كل زمن من الأزمان ، الواضعين — تبعا لاهوائهم — أساطير التاريخ ، وافانين الرواية ، المطوعين لفقههم وأحكام شريعتهم على منازع المالكين من الخلفاء والقادة وأصحاب

السلطان ، وهى ترمى بذلك كله إلى توهين العزائم ، وإفساد الأخلاق ، وحــل العرى ، وتقطيع الوشائج بين المسلمين ، وقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم ليكونوا صيدا سهلا وطعاما شهيا ، وتكون بلادهم الشاسعة ، وأراضيهم الواسعة منابت غلات ، ومناجم آلات ، يتمتع بها المستعمرون ويسعدون ، ويملكون ويحكمون.

فاذا امتلأ جوّ بلادنا بالدعاوة الضارة ، التى تذاع وتنشر عن كتبنا وقديمنا فلا مناص للعقول أن تلتفت إلى غير هذه الكتب ، وتلتمس غير هـذا القديم ، فلا تجـد ذلك إلا فى تلك الثقافات الطارئة التى بينا بعض مضارها وأخطارها ، وأكبر ما تمنى به الأمم بعد غزوها بالحرب والفتح ، أن تغزى بالأفكار والثقافات ، بل إن غزوها بالأفكار والثقافات لأشد عليها خطرا وأفعل فيها أثرا ، فإن جرح الحسام قد يندمل ، وشرخ العظام قد ينجبر ، أما أدواء القلوب والرءوس ، فلا شفاء منها إلا بالموت ، وقديما قيل « جرح اللسان أنكى من جرح السنان » .

* * *

ليس كاتب هذا من المتعصبين المنقطعين عن مجاراة الحركات الحديثة ، وليس من المسرفين الذين يقولون : « ما ترك الاول للآخر شيئا » وليس بالداعية إلى جمود العلم والفقه والأدب والتاريخ وغير ذلك على ماتركها لنا السلف ، لا نحيد عنها يمنة ولا يسرة ، ولـكنه امرؤ كابد من هذا وذاك ، فلابس القديم والحديث فتى ناشئا يصبح بهما صباحه ، ويمسى عليهما مساؤه ، ثم لابسهما كهلا فتيا مكتمل الفهم والرشاد ، خرّاجا ولاّجا طُلعَة ذواقًا ، فأنه بهما لجدّ خبير .

لـكننى أومن إيمانا يشاركنى فيه كل منصف بأنه لولا القدماء لضاع العلم ، واضطرب الرأى ، وضلت الافهام ، وهذه قضية لا أزداد فيها نظرا إلا ازددت بها ثقة ، وازدادت عندى وضوحا ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين ، فقد علمنا أن عصر الأئمة المجتهدين فى الفقه والشريعة كان ينطوى على فقهاء يعدون بالمئات ، كلهم يعكف على الأدلة ، ويستنبط الأحكام وينظر فى المصالح ، ويعلل ويخرّج ، ويدعو إلى الحق ويرشد إلى الصواب ، حتى ملئوا طباق الأرض علما ، وتركوا

من ورائهم كنوزا لا يزيدها الإنفاق إلا نماء وزكاة ، ثم جاء من بعدهم تلاميذهم والمقتفون آثارهم فولّدوا من علمهم علما ، ومن فقههم فقها ، وفرعوا على أصولهم وأصلوا من فروعهم ، وخرّجوا أقوالهم ، وجلَوْا غوامض مسائلهم ، وقربوا إلى الأذهان الكليلة ما ندّ ، ونفوا ما شذّ ، وفصّلوا وبوّبوا ، وهذّبوا ورتبوا حتى جعلوا علم الشريعة على طرف الثمام ، فماذا فعل المتأخرون ؟ إن قصارى المبرز فيهم أن يرجع إلى آراء القدماء ، فيدركها ويحسن أخذها ، والاقتباس منها ، فإن تيسر له ذلك واسعفه به طبع موات ، وعقل نافذ ، وبصر ثاقب ، أطل على الناس من سماء النبوغ ، وتقاضاهم ألوان الاعتراف والتمجيد ، ولم يرض منهم إلا مكانة الصدارة والزعامة كأنه « الشافعي » صاحب الام ، أو مالك صاحب « المدونة » و « الموطأ » أو ابن حنبل صاحب « المسند » أو أبو حنيفة صاحب الرأى ، أو الليث ، أو سفيان ، بل كأنه على باب العلم ، أو عمر المحدث أو أبو بكر الصديق ، أو عثمان أمين القرآن .

وقد علمنا أن أهل الحديث ورجاله المخلصين كانوا يفنون زهرة أعمارهم فى التحقيق والتدقيق ، وكانوا يرحلون فى طلبه ، فيضربون فى الارض كما يضرب المجاهدون فى سبيل الله تاركين أبناءهم وأهليهم ومساكنهم ، وأنهم تتبعوا كل ما يتصل بالراوية والرواة والمروى ، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وضبطوها ، ودرسوا سائر نواحيها ، وليس بين المتأخرين إلا من هو كلٌّ عليهم فى هذا الشأن يقبل ما قبلوا ، ويثبت ما أثبتوا ، وينفى ما نفوا .

وقل مثل ذلك فى علوم البلاغة والأدب والنحو والتفسير وكل ما درسه المتقدمون وألفوا فيه ، وتتبعوا دقائقه خدمة للقرآن الكريم والحديث النبوى ، وحفظا للغة العرب ، فإننا نرى المتأخرين يجرون فى أوديتهم ويسلكون سبيلهم ، ويرجعون إليهم ، فلا يكادون يغيرون من أحكامهم حكما ، ولا يزيدون عليهم إلا ما عسى أن يكون من تمثيل لقاعدة أو بيان لمجمل أو تحقيق لشاهد أو نحو ذلك .

فعلام إذن يتنكرون للقديم وهم بنوره يستضيئون وعلى هديه يسيرون ،

ولولاه لكانوا من الضالين ؟ وإلى أى جديد يدعون ؟ أإلى جديد قوامه ما عند السلف من علم ورأى ، أم إلى جديد قوامه الزيغ والإلحاد والخروج على الدين والتنكر للنصوص والأصول ؟ فاذا قال قائل : أن للجديد ميادين لم يجُل فيها القدماء ولم تخطر لهم على بال ، وقد عرفها العلم الحديث والفن الحديث ، وظهر من آثارها ما نعمنا به ونعم به العالم من مخترعات وعجائب ، قلنا ذلك حق مافيه ريب ، ولكن ذلك نقل للكلام الى موضوع آخر ، فانما نريد الموازنة بين القديم والجديد فيما اشترك فيه القديم والجديد لا فيما انفرد فيه أحدهما .

* * *

إن هؤلاء القدامى قد فعلوا الأعاجيب ، وإن حياتهم العلمية ومثابرتهم وطول صبرهم وأناتهم لجديرة بكل ثناء وتمجيد وإكبار .

إننا لو نظرنا الى محصول علمى لأحد العلماء القدامى مثل الرازى أو البخارى أو ابن كثير أو ابن منظور المصرى أو النووى أو ابن تيمية أو ابن القيم أو المرتضى أو الطوسى أو نصير الدين أو أمثالهم من الذين تزخر المكتبة الإسلامية بآثارهم ، لعلمنا بصورة واضحة نسبتنا اليهم ، ولمسنا مقدار فضل الله عليهم فى ربطه على قلوبهم وتوفيقه إياهم إلى ما قاموا به من عمل باهر ، وما تركوا من أثر خالد .

أن تفسير القرآن الكريم المسمى : « مفاتيح الغيب » وهو أحد الآثار العلمية القيمة الخالدة للامام الرازى يقع فى ثمانيــة أجزاء ، يحتوى كل جزء منها على نحو ثمانمائة صفحة ، وليست الصفحة فى هذا الكتاب كصفحة صغيرة من الكتب اللطيفة التى تنشر اليوم ، وإنما هى صفحة لو وزعت على أمثال هذه الكتب لملأت عدة صفحات ، ففيها أكثر من ثلاثين سطرا فى كل سطر أكثر من خمس عشرة كلمة ، فهو إذن محصول ضخم فى مادته وقيمته ، وهو على ذلك أحد الآثار — كما قلنا — لرجل واحد ربط الله على قلبه ، فحبب إليه العلم والبحث والكتابة والتأليف ، على الفقر والتقشف ومجافاة مطالب الحياة ، ويرى القارىء فى هذا التفسير فى آخر تفسير سورة يوسف ( ص ٢٥٨ من الجزء الخامس ) مانصه :

« قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان ختم بالخير والرضوان ، سنة إحدى وستمائة ، وقد كنت ضيق الصدر جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد ، تغمده الله بالرحمة والغفران ، وخصه بدرجات الفضل والاحسان ، وأنا أوصى من طالع كتابى هذا واستفاد ما فيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدى ويخصنى بقراءة الفاتحة ، ويدعو لمن مات فى غربة بعيدا عن الاخوان والأب والأم بالرحمة والمغفرة ، فإنى كنت أيضاً كثير الدعاء لمن فعل ذلك فى حق .

نقلنا هذا الكلام من الكتاب بنصه ، ليدرك القراء مدى التأثر العميق الذى كان الرجل قد بلغه ، ومدى اللوعة التى كان يحس بها على فقده هذا الابن البار ، وهو مع ذلك يجلس — لا أقول على مكتبه تحت مصباحه الكهربى ، وفى يده قلمه السيال ، ولكن أقول — على « حصيرته » الخشنة ، وأمامه مسند من الخشب ، وسراج يتخافت نوره ، وفى يده قلم من القصب تمده محبرة غاض مدادها وحال لونه ، وهو مع ذلك يكتب تفسيره ، ويفكر فى استنباط المعانى الرائعة من كتاب الله ، ولا يشغله همه الممض بوفاة « ولده الصالح محمد » غريباً عن اخوانه وأمه وأبيه ، لا يشغله ذلك عن عمله الذى يسره الله له ! فأى عزم هذا وأى ثبات ؟ ألا إن هذا المثل رائع من ربط الله على قلوب المؤمنين العالمين ، وقد يذكرنا ذلك بكلمة عن ابن رشد يقول فيها : « إننى لم أنقطع عن مذاكرة العلم منذ عقلت إلا ليلتين : ليلة مات أبى ، وليلة تزوجت » ، وقل مثل هذا عن ابن منظور المصرى الذى ألف كتابه المحيط الجامع المانع « لسان العرب » وأودعه جميع ما فى لغة العرب وموادها ، وعنى عناية خاصة بألفاظ القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، والشواهد الفصيحة ، فوقع كتابه فى عشرين جزءا هى الذخيرة فى المكتبات القيمة التى يهنأ صاحبها بحوزها .

وغير هؤلاء من المؤلفين الذين ربط الله على قلوبهم وحبب إليهم العلم كثير كثير ، وقد أفادت الإنسانية فى حاضرها وماضيها من هؤلاء الأفذاذ وأمثالهم فوائد لا تقل فى قدرها وقيمتها عما أفادته من المخترعين الذين يعيش الواحد منهم

فى معمله أو مصنعه كأنه يعيش فى فلاة أو جبل ، منقطعا عن الدنيا ولذائذها وشهواتها ، ليتابع فكرة ، أو يلاحظ سببا أو علة ، أو يستنبط بعقله ما يفيد الناس ، وكما أن المدنية العملية مدينة لهؤلاء المخترعين بهذا الفضل العظيم ، فان المدنية العلمية والعقلية مدينة لأولئك المؤلفين المحققين .

ولا ينبغى أن يظن ظان أننا ندعو إلى التمسك بكل قديم فان من القديم ما أساء إلى العلم ، وأثر فى العقول تأثيرا ضارا ، كهذه الاسرائيليات التى شحنت بها كتب التفسير ، وكالروايات الضعيفة فى سندها أو متنها التى حُكِّمت فى فهم كلام الله وسنة نبيه ، وكالأحكام الفقهية التى ولدها المتعصبون من أتباع الأئمة ولم يملها إلا فكرة الدفاع عن المذهب ، وَلَىُّ الأدلة والمصادر وتحريفها لتتلاقى معها ، وكالآراء الغالية والمعارف الفرعية التى دارت حولها خلافات الطوائف والمذاهب ، وقطعت ما بين الأمة الواحدة من الأواصر ، وأمثال ذلك مما خلط به العلم ولُبِّس فيه على العقل ، وفتحت به على المسلمين منافذ الشر .

وإن « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » بتكوينها القوى ، وغرضها الشريف ، ووسائلها الفعالة ، وصِلاتها بجميع الطوائف الإسلامية ، ومكتبتها الجامعة ، ومجلتها الذائعة ، لجديرة بأن تنظر فى هذا التراث العظيم نظرات أمينة رزينة ، فتنفض عنه الغبار ، وتنفى منه الزيف ، وتعرضه على العقول فى ثوب يناسب جلاله وخطره ، ويليق بالإسلام والمسلمين ، ويدفع إلى ساحته من نفر منه أو ندّ عنه.

إن ذلك لمن أغراضها الشريفة ومن أعز أمانيها التى تسعى إليها ، وهى لذلك تشكر القائمين بهذه الفكرة الجليلة على ما اعتزموه من العمل على إحياء هذا التراث المجيد ، وتعتز بكل جهد يبذل فى سبيل ذلك ، وتؤيد القائمين به ، فكلنا عاملون على مجد الإسلام ، مشتركون فى إنهاض المسلمين ، تواقون إلى منزلة العزة بالعلم والخلق والقوة والإصلاح ، ترقى إليها أمتنا العزيزة حيثما وجد مسلم فى أرض الله .

وسلام على كل من ساهم فى خير ، أو حث على علم ، أو أمر بمعروف أو إصلاح بين الناس ؟

# مِنْ ذَخَائِرِ الفِكْرِ الإِسْلَامِيّ

## تعليق من النجف

---

كتب إلينا حضرة صاحب السماحة العلامة الأكبر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء تعليقا على ما نشر فى العدد الماضى من « رسالة الإسلام » تحت عنوان « من ذخائر الفكر الإسلامى » وهو رسالة لنجم الدين الطوفى من علماء القرن الثامن الهجرى ، يرى فيها تقديم المصلحة على النص فى المعاملات .

قال فضيلة العلامة الجليل حفظه الله : « من اللازم التنبيه على أمر لعل له مقاما من الأهمية يتصل بما نشرته الرسالة من البحث الأصولى عن نجم الدين الطوفى تحت عنوان « المصلحة فى الشريعة الإسلامية » وأن المصلحة إذا خالفت النص والاجماع تقدم عليهما فى المعاملات ، فهو وأن عرف المصلحة بما فيه النفع والفائدة كالتجارة المؤدية إلى الربح ، والسبب المؤدى إلى مقصود الشارع ، لكنه لم يبين أيكون المدار على مصلحة الفرد ، أم الجماعة ، أم المجتمع ؟ كما أنه لم يذكر المراد بالنص ، وما ضابط الاجماع ، والذى نتذكره أن الاصوليين قسموا الكلام أى الجملة من حيث الدلالة إلى ثلاثة أنواع : ( نص ) وهو ما لا يحتمل خلاف مدلوله مثل قوله تعالى : « إن الله على كل شىء قدير » وقوله تعالى : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم » وكثير من أمثالها و ( ظاهر ) وهو ما يحتمل خلاف مدلوله ، ولكن احتمالا مرجوحا . و ( مجمل ) وهو ما يتساوى فيه الاحتمالات ، أو ما لا يعرف مدلوله أصلا كحروف أوائل السور ونحوها ، فاذا كان النص لا يحتمل الخلاف والاجماع يفيد القطع بالحكم فكيف تقدم المصلحة عليهما ؟ نعم يمكن أن تقدم على الظاهر ولكن لا يمكن التعويل على هذه القاعدة ( تقديم المصلحة على الظاهر ) على إطلاقها وإرسالها ، ففيها توسع غريب ، أو هى من توسع بعضهم فى القول بالمصالح المرسلة ، وربما

جر ذلك إلى الهرج والمرج ، والفوضى فى أحكام الشريعة الإسلامية ، والتلاعب حسب الأهواء ، فيتسنى للفقيه على هذا أن يحكم بحلّية الربا مثلا ، لأن فيه مصلحة ، والفائدة والمصلحة تعارض النص وتقدم عليه فى المعاملات ، إلى كثير من أمثال هذا ، وهل ذلك إلا الفوضى والتلاعب بأحكام الشريعة ؟ نعم يمكن العمل بالمصلحة حيث لا دليل لفظى من نص أو ظاهر ، ويرجع ذلك إلى حكم العقل والقياس ، فإن الأدلة الشرعية عندنا أربعة : الكتاب والسنة والاجماع والعقل . وهنا مباحث واسعة ، وتحقيقات عميقة ودقيقة لا مجال للخوض فيها فى هذه الكلمة العابرة ، ومهما يكن من شىء ، فنحن لا نحاول الحجر على العلماء الأعلام من أعضاء جمعية التقريب ، ولا إلزامهم بألا يذكروا فى رسالتهم ما لعله يمس جوهر التشريع الإسلامى ، ولكن الجدير بهم - بل اللازم - أنهم إذا نشروا شيئا من هذا القبيل يعلقون عليه ، ويعدلون ميله ، ويكبحون جماحه وتطرفه ، ولعل فى مراجعة مؤلفنا « تحرير المجلة » وهو عدة أجزاء ما يوضح شيئا من هذا الموضوع ، أو ناحية منه ، وبالله المستعان ومنه التوفيق ؟

*رسالة الإسلام* تشكر فضيلة الشيخ الموقر على هذه الغيرة الأصيلة التى تمتلىء بها نفسه على الشريعة الغراء ، وتطمئنه على أن الغرض من نشر أمثال هذه الرسالة ، هو بيان ما امتاز به أفق المفكرين المسلمين من سعة فى التفكير ، وسعة فى التقبل ، لم يؤد أحدهما إلى تشاحن أو تباغض أو ترام بالتهم ، فاذا كان الأمر وصل إلى هذا الحد فيما حفظه التاريخ للسالفين من تراث ، فأجدر باللاحقين ألا يعولوا على الخلافات الفكرية تعويلا يقطع الأواصر ، ويحل الخناصر .

أما رأى الطوفى أو رأى سواه فى شىء بذاته ، فإنه رأى خاضع للبحث والنظر ، وأن يتلقاه العلماء بما يرون من تأييد أو نقض ، عمادهما البرهان والحجة ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

وإن صفحات « رسالة الإسلام » لمعرض آراء ، ومجلى درس وتبيان .

وللشيخ الأجل وافر الشكر ، وخالص الدعاء : أطال الله فى حياته ، ونفع المسلمين بعلمه وبركاته ؟

# في أسرة التقريب

للشيعة الزيدية بجماعة التقريب عضوان كريمان هما صاحبا السعادة القاضى محمد بن عبد الله العمرى ، والسيد على بن اسماعيل المؤيد ، وقد انضم إليهما أخيرا حضرة صاحب المعالى السيد الحسن بن على بن ابراهيم وزير الدولة بالمملكة المتوكلية اليمنية وهو شخصية من الشخصيات الممتازة المعروفة بالعلم والأدب وأصالة الرأى ، وله عناية كبرى بفكرة التقريب ونشاط محمود فى خدمتها ، وقد حضر ـ بصفة خاصة ـ الجلسة التى عقدتها الجماعة فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ هـ ، وتقدم إلى الجماعة بطلب انضمامه إليها ، فرحبت الجماعة بمعاليه وأجابته إلى ما طلب ، فنهنئه ونعتقد أن أسرة التقريب قد كسبت بانضمامه إليها عضواً نافعاً مخلصاً ، ونسجل كلمة معاليه التى ألقاها فى هذه الجلسة :

* * *

سادتى : لقد كان من حسن حظى أن حضرت الاجتماعات الأولى التى عقدت عند تأسيس هذه الدار ، وعرفت إذ ذاك أن الفكرة التى طالما كان يحلم بها كل مؤمن غيور على هذه الأمة ، حريص على وحدتها وعزتها ؛ قد آذنت شمسها بالطلوع من هذا الأفق ، وأن هذه الدار ستكون العامل الأول لتحقيق هذه الغاية الشريفة عن طريق نشر الدعوة الصحيحة التى تثبت للعالم أن الخلافات اليسيرة فى وجهات النظر المستوحاة من الأدلة لا توجب تباعداً ولا تنابزاً يؤثران فى صميم الوحدة التى أوجدها الرباط الإسلامى المقدس ، وقد كنت إذ ذاك أجد فى نفسى شوقاً بل حنيناً إلى أن أكون أحد أعضاء هذه الجماعة المباركة ليكون لى حظ العمل فى هذا المضمار ، ولكن الظروف كانت تحول دون تحقيق ما كنت أصبو إليه ، وإنه لمن دواعى سرورى اليوم أن أجد نفسى محلا لحسن ظن حضرة صاحب السماحة السكرتير العام الشيخ محمد تقى القمى ، وسعادة الأخ السيد على المؤيد اللذين رأيا أن أنال حظى من الاشتراك المباشر فى هذا العمل الذى كنت مشتركا فيه من أول يوم بقلبى ، وأيدا طلبى ، فأتقدم إلى سعادة الرئيس وحضرات الأعضاء الكرام راجياً أن يعتبرونى زميلا عاملا معهم فى خدمة الفكرة الشريفة بجهودى المتواضعة ، وأرجو من الله سبحانه أن يشمل الجميع بتوفيقه وعنايته ، وأن يجعل ثمار هذه الجماعه دانية القطوف إنه ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

# عناصر وجود الأمة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الدكتور محمود فياض
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

— ٢ —

تحدثنا إلى القارىء الكريم ، عن التوحيد والوحدة فى العدد السالف ، وخلصنا من ذلك الحديث إلى أن القرآن الكريم بدعوته إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وتقريره الوحدة بين الموحدين ، أبرز إلى الوجود لأول مرة فكرة الأمة المكلفة والجماعة المسئولة ، مسئولية حقيقية لا رمزية ، تتناول الفرد بصفته فردا ، ثم بصفته عضوا فى الأمة المسئولة ، وهذه فكرة جديدة لم يعرفها العقل البشرى ـ بهذا الشكل الاسلامى ـ إلا من القرآن ، ولذلك كان القرآن ثورة على فكرة « الذاتية » أو « الفردية » التى أخذت بزمام الانسانية عصورا طويلة قبل الاسلام ، ولا تزال حتى الآن تجد أنصارها من « الفلاسفة التقميين » .

وعلى أساس « التوحيد والوحدة » قام الاجتماع الاسلامى ، وتقررت الحقوق والواجبات للفرد والجماعة ، ووضعت أسس الحكم ، والضمانات اللازمة لحفظ النظام والرخاء والسلام فى المجتمع ، ولقد تقرر ذلك كله على أنه دين لازم ، لا على أنه كمال يبتغى كما تبتغى الكماليات ، وإلى القارىء بعض البيان .

٢ ـ الحرية والأخوّة والمساواة :

إذا كان الخالق واحدا ، ونسبة خلقه إليه واحدة ، وهم عبيده لا سيادة لغير الله عليهم ، فهم جميعا أحرار ودرجاتهم فى الحرية واحدة ، ليس إنسان عبدا لإنسان ، ولا معبودا لإنسان « ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه

جهنم . كذلك نجزى الظالمين ، وإذن فليس هناك إنسان فيه عنصر إلهى يجب على الناس تقديسه ، وليس لإنسان أن يفتات على حرية إنسان أو يقيد حريته ، وإنما ذلك للخالق وحده ، ولقد وضع حدودا لهذه الحرية ، وقرر متى تعطل أو تقيد نفسها ، ولم تكن تلك الحدود والقيود إلا لمصلحة الإنسان ، ولضمان حريته وسعادة مجتمعه ، وقد وكل الله إلى الأمة رعاية ذلك ، ولم يجعله حقا لفرد يمتاز به على فرد آخر ؛ فدفعُ العدوان ، والظلم عن الأموال والأنفس والأعراض له سبيله المقررة فى الحدود التى شرعها الله فى القرآن الكريم : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله » . « ولكم فى القصاص حياة » . « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » . وكذلك بيّن القرآن وفصّلت السنة الدواعى التى توجب تعطيل الحريات أو تقييدها لمصلحة الفرد والمجتمع ، وليس وراء عدوان الإنسان على الأموال والأنفس والأعراض وخيانته أمته سبيل إلى تعطيل حريته أو تقييدها .

ولكى يركّز القرآن ذلك المبدأ السامى ؛ نراه يحرص فى كل مناسبة على تذكير الإنسان بأن خالقه وخالق الكون كله واحد . سبحانه وتعالى عما يشركون ؛ وعما يصفون ؛ ليشعره دائما بحريته ، ثم يعرض على الإنسان وحدة خالقه مشفوعة بوحدة الأصل الذى خلقه منه فيقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا » ليشعره بوحدة أصله بعد استيقانه بوحدانية خالقه ، ولا ريب فى أن شعور العاقل بأن الخالق واحد ، والأب واحد ، والأم واحدة ، يحمله على أن يعرف أنّ لأخيه مثل الذى عرفه لنفسه من حقوق وواجبات ، وأن الإنسانية رحم بين أفرادها ، وأن الأرحام يجب أن توصل ، وأنّ قطعها لم يأذن به الله ، وأن الله رقيب على الناس فى تعاطيهم حرياتهم وصلة أرحامهم .

ولما كانت المعرفة المجردة لا قيمة لها ما لم تظهر ثمرتها ، فإن القرآن يعمد إلى توجيه الإنسان للعمل بمقتضيات تلك المعرفة بأسلوب رائع يأخذ بمجامع الألباب ، فيقول : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ليجعله دائما على ذُكرٍ من وحدانية الخالق ووحدة الأصل والأخوّة الإنسانية « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » فأنتم إخوة ، والإخوة سواسية فى كل حق وواجب ، تحمل الإخوة ـ على الرغم من تعدد شعوبهم ، وتباين قبائلهم ـ على التعارف والمودة والمحبة والتعاطف والتراحم والتناصح والتآزر ، وهذه أقصى آمال الإنسانية الراقية المهذبة .

وهكذا ترى القرآن يضع أمام الإنسان وحدة الخالق ؛ ووحدة الأصل ؛ والأخوة الإنسانية فى إطار واحد ، يزيده جمالا تحديده غاية الإنسانية « لتعارفوا » تحديداً أساسه التعارف المستلزم للألفة والوئام ، والتعاون والمحبة والسلام ، والعدل بين أناس هم إخوة أحرار متساوون . وكما قلت فى مقال فائت : إن القرآن بهذا النهج الرائع كان أول مبتكر لفكرة الجامعة الإنسانية . أو فكرة العالمية التى تجعل الانسان أخا للإنسان و « مواطنا عالميا » يحنو على أخيه فى كل مكان ، على بُعد الدار وسعة الفواصل وطول الأسفار ؛ ومن هنا أخذ الغربيون عن الإسلام فكرته السامية ودعوا إليها باسم : « الزمالة العالمية » وتجددت الدعوة إليها اليوم باسم : « المواطن العالمى » و « الحكومة العالمية » ولكن شتان بين الأسس التى تُقَوِّم الفكرة الإسلامية ، والأسس التى تقوم الفكرة المقلدة لها !! .

خالق الإنسان عليم خبير بالنفوس البشرية ، وقد علم سبحانه أن سلوك هؤلاء الإخوة فى حياتهم العملية لا بد أن يتباين ـ نتيجة لمدى استخدام الطاقة العقلية ، وشعورهم بالأخوة الإنسانية ـ تباينا يقضى بالتفاوت والتمايز بين الأفراد ، وهذا أمر يحتم وضع مقياس صحيح لا عوج فيه ، يقاس به هذا التمايز ، ويُحكَم فى تحديد مدى صلاحية الأفراد عند الله وعند الناس .

ونظرا لخطورة الأمر بين أعضاء الأسرة الإنسانية ، لم يكل القرآن الكريم

أمر وضع هذا المقياس إلى العقل البشرى ، لأن الشواهد من يوم الخلقة تنطق فى صراحة بأن العقل البشرى لم تتفق أفراده على مقررات ثابتة صحيحة فى قياس التفاضل بين الناس ، لعدم الاتفاق على كل ما هو حسن أو قبيح ؛ فتولى القرآن وضع مقياس التكريم والتفضيل، والحكم بالصلاحية بين البشر عند الله وعند الناس. بقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأكرم الناس وأفضلهم : أتقاهم للشرك الدينى والاجتماعى ، وأبعدهم عن الشر بمختلف ألوانه ، وبعبارة أوضح : أفضل الناس أصحهم عقيدة فى الله ، وأنفعهم للناس .

ومما تقدم نرى القرآن الكريم يشفع تقريره لوحدانية الخالق ، بتقرير حرية خلق الله من بنى آدم أجمعين ، ويربط بينهم بأخوة حقيقية نسبية تجعلهم أرحاما يتراحمون بمقتضى أخوتهم ، ويقرر المساواة التامة بينهم ، فلا فروق ولا تمايز بين الأفراد أو القبائل أو الشعوب بمقتضى الخلقة والأصل ، بل بمدى ما يقدمه الفرد أو الشعب من خير ونفع للمجتمع الإنسانى ، حسبما يمليه عليه مدى إيمانه بالخالق وعقيدته فيه ، وعلى هذا فلا ظلم ولا عدوان ، ولكن عدل ورحمة وسلام .

يقرر الإسلام ـ هكذا ـ الحرية والأخوة والمساواة بين بنى الإنسان ، تقريرا مستندا إلى أهم مبادىء الإسلام إطلاقا ، وهو توحيد الخالق (١) منذ أربعة عشر قرنا ، فى وقت كان فيه التحضر والتمدن يقومان على أساس من الظلم والعدوان بين الشعوب ، وعلى شريعة الغاب بين أفراد الشعب الواحد ، فنقل الاسلام بمقرراته هذه ، البشرية من ذل العبودية لغير الله إلى الحرية المطلقة فى ظلال سيادة الله ؛ ومن طغيان الفرد واستبداده إلى المساواة المطلقة ، ومن الخصام إلى الأخوة والسلام ، فردّ إلى الانسانية كرامتها ، وأخرج الناس حقيقة من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

ولما كانت دعوة القرآن إلى الكرامة الإنسانية مهدرة لمعظم الأوضاع البشرية

(١) لم نشأ الاعتماد على غير النصوص القرآنية ـ مع كثرة نصوص السنة فى هذا المعنى ـ لنظهر مدى أهمية هذه المبادىء فى كتاب الله .

الخاطئة ، التي لا تتفق وكرامة الإنسان ، ومصححة لبعضها الآخر ؛ وهي بعدُ أمر جديد لم تعرفه الإنسانية من قبل ، ولم يكن متوقعا - والبشرية غارقة في محيط من الظلم والجهل والفساد - أن تستجيب الإنسانية كلها لداعي كرامتها ، لدوافع عدة يعرفها العالمون بتاريخ الدعوة الإسلامية « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » اتجه القرآن إلى تأكيد هذه الأخوة الإنسانية العامة ومقتضياتها في محيط المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقويتها بعقد أخوة دينية خاصة بين هؤلاء المؤمنين ، ليكون ذلك نموذجا تتبعه الإنسانية العاقلة إذا أرادت لنفسها الخير والكرامة « إنما المؤمنون إخوة » ، وهكذا أضيفت قوة الأخوة في الإيمان بالدين الجديد إلى قوة الأخوة الإنسانية ، وتدعمت بذلك الروابط بين المسلمين ، فهم إخوة في الإنسانية ، إخوة في الإسلام ، وهم متساوون لأنهم عبيد إله واحد ، وأبناء أب واحد ، وأتباع دين واحد ، ورسول واحد ، وكتاب واحد ، وتكاليفهم واحدة ، لا فرق بينهم ولا فضل إلا بما شرع الله من مقياس ، وإلا لتفاضلوا في التكاليف ، ولكنهم فيها سواء ؛ رسولهم الكريم وكبيرهم وصغيرهم ، كلهم عبيد لله وتكاليفهم واحدة ؛ وهم أحرار لا سيادة عليهم لأحد غير الله ! أليس يقول الله لرسوله : « لست عليهم بمصيطر » .. « وما أنت عليهم بجبار » ؟ أو ليس يقول الرسول نفسه : ( لست ملكا ولا جبارا ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة ) ؟ وإذن فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وأصفرهم سواء ، تتكافؤ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم !

ولقد كان تطبيق هذه المبادىء عمليا في المحيط الاسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والراشدين من خلفائه ، تجربة ناجحة إلى أبعد حدود النجاح ، ولو شاءت الإنسانية إعادة هذه التجربة على نفس المنهج المحمدي لتحقق لها كل ما ترجوه من رخاء وأمن وسلام !

والناظر في أول معاهدة عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين المسلمين ومَن حولهم في يثرب ( المدينة ) من يهود ونصارى ومشركين — وهي أساس جميع

المعاهدات الاسلامية فى عهد الراشدين — يعجب لمبلغ احترام الاسلام للإنسانية وللحرية الدينية ، ومقتضيات الكرامة الانسانية ، ولقد نهج المسلمون فى حياتهم العملية هذا المنهج حتى تركزت تماما تلك المبادىء ، وبرزت إلى الوجود ، القومية الإسلامية ، المتميزة بمشخصاتها عن غيرها من القوميات الأخرى فى عصور الإسلام الأولى ، ولا تزال رائحة تلك القومية عالقة بأرض الشرق حتى اليوم ، وعرف العالم اصطلاحا جديدا لتقسيم الأرض ، بكلمات : أرض الاسلام وأرض الحرب ؛ أو دار الاسلام ودار الحرب ، وعرف السكان باسم : المسلمين والحربيين ، وأصبح وطن المسلم هو دار الاسلام موطن القومية الاسلامية ، وألغيت الحدود الجغرافيه التى اصطنعها ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وأضحى المسلم على حدود الهند ينادى : لا إله إلا الله ، فيجيبه أخوه على شاطىء الأطلسى : نعم ومحمد رسول الله ويلتقيان فى دار الاسلام فى المكان الذى يريدانه دون قيود أو حدود ، وجوازهما كلمة التوحيد فحسب ؛ وأصبح لكل مسلم فى دار الاسلام حق فى أن يعيش حرا كريما حياة شريفة كريمة بلا أثرة ولا محاباة ، وأصبح على الأمه أو الدولة أن تمكنه من جميع الوسائل الممكنة التى تعينه على تحصيل حياة كريمه ، وعلى القيام بتكاليفه والتزاماته ، واستخدام حريته فى غير عدوان على حريات الآخرين « والرجل وبلاؤه فى الاسلام ؛ والرجل وقدمه ؛ والرجل وحاجته » من غير إسراف ولا تفريط ، فإذا قيدت حرية الفرد أو عطلت . لغير مبرر شرعى من عدوان على مال أو نفس أو عرض ، أو مُنِعَ من وسائل أداء تكاليفه خرج من عهدته ، وكان تكليفه اعتسافا ، لأنه « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » و « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » وتلك غاية العدالة !.

ويؤكد القرآن وجوب تحقق هذه العناصر فى الأمه « الحرية . الأخوة المساواة » بعبارة رائعه أخرى على نفس الأساس الذى تحدثنا عنه ، فيقول رداً على المنافقين الذين قالوا : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل » يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وسواء أكانت العزة هى القوة والغلبة ، أم الكرامة والقوة ، فانها ـ بحكم السياق ـ لا تخرج بحال عن المعنى الذى يقرره فقهاء السياسة

لكلمة « السيادة » للدولة المستقلة التى لا سلطان فوق سلطانها ، ولا تخضع لغير إرادتها فى مقدراتها ، ومعنى ذلك أن الله هو السيّد المطلق لكل عبيده ، والرسول ممثل لسيادة الله بتنفيذ أحكام شرعه لا سلطان لغير الله عليه ، والمؤمنون ـ الأمة ـ هم خلفاء الله ورسوله فى تمثيل سيادة الله وسلطانه ، وبلفظ أوضح : إن الله قد جعل السيادة له على الأمة الاسلامية ، وجعل هذه السيادة بعده للأمة نفسها لا لفرد من أفرادها ، وبذلك تم معنى سيادة الفرد على نفسه ، ومساواته تماماً لأخيه فى كل نواحى الحياة ، ومن هنا صح توجيه الخطاب إلى الأمة ، كما قلت فيما سبق : إن القرآن عرف الأمة أولا ، وعرف الفرد عضوا من أعضائها إلا أنه قضى على استبداده بها .

قد يسأل البعض : إذا كانت نظرة القرآن هكذا إلى الانسانية وكرامتها ، وإذا كان قد منح كل إنسان حق الحياة فى حرية وأخوة ومساواة ، فما باله يبيح استرقاق الانسان للإنسان ، ويبيح للسلمين جبر غيرهم على معتقداتهم ؟! وهذا سؤال وجيه نجيب عليه بإيجاز .

(١) نظر الاسلام إلى الرق على أنه أمر اجتماعى اقتصادى قامت عليه آثار إيجابية فى حياة البشر قرونا طويلة ، ورأى الاسلام أن أسبابه غير محدودة ولا مضبوطة ، فعالجه علاجا خاصا يشبه إلى حد بعيد علاجه لمشاكل الخمر ومفاسدها فمن ناحية الأسباب ، أو طرق الاسترقاق المتعارفة إذ ذاك . ألغى جميع هذه الأسباب وتلك الطرق ، وقصره على حالة واحدة هى حالة الحرب بين المسلمين وغيرهم ، فمن أسره المسلمون فهو رقيق ما لم يدخل فى الإسلام قبل أسره ، وبذلك كان الاسلام من أسباب الحرية ، لا من وسائل العبودية ، ومن أقام على معتقده فهو رقيق للسلمين ، وقصد بذلك وضعه فى بيئة الاسلام ليمحصه على مهل ، ويراه عمليا عسى أن تتهذب نفسه وتهفو إلى مبادىء اليسر والخير ، وكثيرا ما أسلم الأسرى عن هذا الطريق ، وبلغة العصر ، قصد عزله ـ كما يعزل المريض ـ عن بيئته على أمل أن يصح ، وبهذا انحصر الرق فى دائرة ضيقة ؛ ومن ناحية أخرى

عالج حال الأرقاء بالفعل علاجا يشبه الالغاء ، بقصد رد الحرية إلى كل من فقدها مسلما كان أو غير مسلم ، ففرض العتق كفارة لكثير من الجرائم ، فى القتل الخطأ ، فى الظهار ؛ فى الحنث فى الأيمان ؛ وجعل التعاقد على مال سبيلا للحرية ؛ وجعل الولد وسيله لتحرير أمه ، ثم رغب فى العتق ابتغاء مرضاة الله ، وجعل من وسائل اقتحام العقبة يوم القيامة : فك رقبة ، وجعله من مصارف الزكاة . وهكذا أخذ يتلمس الأسباب لرد الحرية إلى فاقديها ، كرامة للإنسانية ، وتمهيدا لإلغاء الرق بزوال سببه ، ويكفى أن الإسلام راعى حاجة البشرية يومئذ فلم يشأ أن يقلب كل أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تقوم على الرق ، ثم رسم طريق إلغائه ولم يقر ولن يقر وسائل « الخطف » التى اتبعها الأوربيون فيما مضى ، ولا زالوا يتبعونها حتى اليوم باسم « استجلاب الأيدى العاملة » على أن استعباد فردٍ إلى أمد ما ، لا يبلغ مبلغ استعباد شعوب بأسرها .

وقد رفع الاسلام فى وصاياه الخلقية مكانة الرقيق إلى مكانة سادته ، فلم يهدر آدميته كما كان متواضعا عليه ، بل كرمه تكريما ، فلم يجعله عبداً لمسترقه ، وإنما جعله خادما له ، وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « لا يقل أحدكم عبدى ، أمتى ! وليقل فتاى وفتاتى ! (١) » ويقول : « اتقوا الله فى خولكم فانهم أشقاؤكم لم ينحتوا من جبل ، ولم ينشروا من خشب . أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، واستعينوا بهم فى أعمالكم فإن عجزوا فأعينوهم (٢) » ومن شاء فليرجع إلى مباحث العتق فى كتب الحديث والفقه فإنه يجد عناية بحرية الأرقاء ، تفوق العناية بحرية الأحرار فى العصر الحديث . ؟

[ يتبع ]

(١) البخارى ج٣ ص ١٥٠ طبع الخيرية .
(٢) محاضرات الأدباء طبع المويلحى ج ١ ص ١٣٤

# الحركة التعليمية في مصر في العصور الوسطى

لحضرة الكاتب الفاضل الاستاذ محمود رزق سليم
المدرس بكلية اللغة العربية

---

إن مشكلة التعليم فى العصر الحديث من أهم المشاكل التى يعانيها المجتمع المصرى ، اختلفت فيها الآراء ، وافترقت المذاهب ، وتغايرت النوايا .

وكلما أراد قوم أن يقيموا الدليل على خطأ الآخرين ، وفساد ما يذهبون إليه رموهم بأنهم يعيشون بعقول أهل القرون الوسطى ، وأنهم يصدرون عن مواردهم وينظرون إلى الشعب كما كان ينظر إليه ولاته حينذاك .

فإذا كانوا يعنون بأهل العصور الوسطى ، تلك الدول التى حكمت مصر فى العصور المذكورة ، وهى الفاطمية والأيوبية والمملوكية ؛ فانى أعتقد أن فى ذلك تجنياً كبيرا على أهل تلك العصور ، وغمطا لجهودهم فى سبيل العلم والتعليم ، وإنكارا لما سجله لهم التاريخ من حسنات وأياد بيض ، حفظوا بها سلسلة العلم موصولة الحلقات ، متتابعة الخطوات .

وحقاً إن بيننا وبينهم فوارق جلية ، فى النظر إلى التعليم ، أوحى بها منطق العصر ، وسياق الحوادث ، ونظم الدولة ، فلم تكن هناك ـ مثلا ـ سياسة تعليمية عامة يدعو إليها الشعب ، وينفذها أولو الأمر ، ولم تكن الحكومات تقوم بما تقوم به من التعليم ، إلا على أنه منحة تمنحها الشعب ، وصدقة تتصدق بها عليه ، لا على أنه حق من حقوقه يؤدّى إليه .

على أن هذه الاعتبارات ، على وجاهتها وأهميتها ، شكلية ، بالنسبة إلى جوهر التعليم ، ذلك التعليم الذى كانت سبله ميسرة ، وطرقه معبدة ، وأبوابه مفتحة ،

تشيد له الدور ، وتدر عليها الأموال ، وترصد الأوقاف ، ويتأنق فى اختيار أساتذتها ، ويُوصى بطلابها .

وما خبر الأزهر عنا ببعيد ، فقد أسسه الفاطميون ، حين أسسوا قاهرتهم المجيدة ، وجعلوا منه منارة للعلم ، ومثابة للطلاب ، ولا يطعن فيه أنهم اتخذوه منبرا عاما ومركزا هاما ، للدعاية الشيعية ، فالمذهب الشيعى ـ وإن لم يلتئم مع ماعليه جمهور المسلمين فى مصر ـ لا ينبغى أن تنظر إليه كل هذا النظر الشزر ، بل علينا أن ندرسه ، ونتفهم كنهه ، ونسبر غوره ، ونكشف عن مكنون فلسفته ، فاذا وصلنا إلى ذلك ، بدا لنا أنه ذو متات بالفكر وثيق ، وأنه لون من ألوان العلم ، وأن دراسته فى الأزهر حينذاك ، وإقامة داعى الدعاة للتبشير به ، واستدراج العقول إليه ، كان إحدى النزعات العلمية فى ذلك الحين ، وإن تأبى عليه جمهور المصريين ، ولا مبالغة إذا اعتبرناه المنهج التعليمى أو السياسة التعليمية التى أخذ ملوك الفاطميين أنفسهم بنشرها فى البلاد .

ولا ننسى أن الدول العربية — أو الإسلامية — التى قامت فى تلك العصور اتخذت من الدين دعامة كبرى تؤسس عليها ، وتستند إليها ، متوخية فى كثير من محاولاتها ، النزوع الدينى ، والاتجاه الاعتقادى ، لدى شعوبها ورعاياها ، ولهذا كانت مغامرة كبرى من ملوك الفاطميين أن يحاولوا تشييع مصر ، تلك البلاد التى كان مركز الشافعية بها وطيدا ، وكانت مهجرا ومثوى لإمامها الجليل ، حتى وقر فى نفوس كثير من الشافعية أن البلاد بلادهم ، وأنهم حكامها ، وأنه لا بقاء فيها لحاكم غير شافعى ، فكانت مغامرة جريئة لاقت مناهضات كثيرة ومقاومات عدة

وكان صلاح الدين الأيوبى أنجح منهم سياسة وأثقب بصرا ، إذ أنه سلك الى استقامة ملكه مسالك عدة . فأقبل على تأييد مذهب الشافعية ؛ والتمكين له ؛ وإبادة آثار الفاطميين العلمية ؛ وتلك نكبة بلا ريب يشعر بها كل حريص على نزاهة البحث العلمى ـ أيا كانت فكرته المذهبية ـ .

غير أن صلاح الدين قدم للشعب وللمسلمين من الحسنات ، ماقد يكفر عن هذه الزلة

وقد أسس فى القاهرة عددا من المدارس لنشر التعليم الدينى ، ودراسة المذاهب الأربعة ، منها : المدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعى ، ونصب فيها عددا من المدرسين والمصدرين ، والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص ، وكانت مخصصة لفقهاء المالكية ، والمدرسة السيوفية بجوار سوق السيوفيين ، وكانت مخصصة للأحناف ، وغير ذلك .

واقتدى بصلاح الدين وزيره القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى . فأنشأ المدرسة الفاضلية للقراءات وفقه الشافعية والمالكية ، واقتدى به أيضا ملوك دولته من بعده مثل الملك العادل فقد أنشأ مدرسة عرفت بمدرسة ابن شاس ، نسبة إلى القاضى تقى الدين بن شاس أحد مدرسيها ، وكانت للمالكية ، ومثل الملك الصالح نجم الدين أيوب فقد أنشأ مدرسة الصالحية ، بين القصرين ، وكانت تتكون من أربع مدارس لكل مذهب مدرسة ، وقيل إنها أول مدرسة أنشئت على هذا النمط .

وقد اتبع سلاطين الدولة المملوكية هذه السياسة فى نشر العلم . فكانوا يقيمون المدارس ويحتفلون بإفتتاحها ، ويزودونها بالمكتبات النافعة الزاخرة بصنوف الكتب ونفائسها ، ويقفون عليها الأوقاف ، ويحسنون فى اختيار شيوخها ، وييسرون سبيل التعليم بها للطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم . ويجرون على هؤلاء وهؤلاء الأجور والمنح ، ولا يفتأون يتوددون إليهم زلفى وتقربا إلى الله ، أو حبا للظهور .

وطبعى أن تكون العلوم الدينية صاحبة الخطوة الموفورة بين مواد الدراسة فانه حتى التصوف أنشئوا له الخوانق ، وهيئوا له الربط والزوايا . ولذلك أسباب وظروف لا محل لسردها الآن .

ويفيدنا فى هذا المقام أن فى عملهم هذا ، نشرا للعلم وتيسيرا لطلبه ، ومعاونة لطلابه . وإذا كانوا يفعلون ذلك تقربا إلى الله ، ويجرون الأرزاق على الطلاب ، فبدهى أنهم لم يتقاضوا أجورا على التعليم ، يرهقون بها الطلاب ـ إذا استثنينا دراهم معدودة كان يجود بها آباء الصغار لمعلمى المكاتب ـ .

ولا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا فى ذلك أكثر منا معرفة بواجبات الدولة إزاء ناشئتها وإزاء العلم .

وقد كانت دور التعليم مفتحة لكل راغب فيه ، فلم يصدوا عنها طالبا ، كما كان يصد الطلاب فى العصر الحديث . ولم يبتدعوا لذلك التعلات المختلفة كما كان يحدث .

وحقا إنهم قصروا التعليم العسكرى على طبقات المماليك ، التى كان مددها يتجدد من خارج البلاد . ولكن لم تكن لهم مندوحة عن ذلك ، لأن منطق العصر كان يدعوهم إلى انتهاج هــذا النهج ، ليظلوا فى البلاد هم الطبقة الحاكمة ، لهم كيانهم الأصيل الذى بدءوا به ، وكان من أهم مقوماتهم ، وهو المنحدَر الذى انحدروا منه ، بما فيه من رق وعتق ، ولو أنهم اتجهوا إلى الشعب فاتخذوا منه جنودهم وعددهم من أول الأمر ، لتمصروا ولتغير وضعهم ، وزالت عنهم هــذه الصفة التقليــدية ، وأصبحوا ملوكا آخرين .

ومهما يكن من أمر ، فقـــد أسسوا كثيرا من المدارس ، وانتشر التعليم فى عهــدهم فى كثير من مــدن مصر ، كالقاهرة والاسكندرية ودمياط وقوص وأسيوط وأبو تيج وأخميم وسوهاج وغيرها ، وقد أحصى ابن دقمـان فى كتابه « الانتصار » من هــذه المدارس والجوامع والخوانق والربط والزوايا نحو خمس ومائة ، وذكر المقريزى فى خططه تواريخ كثير من هذه المدارس وأخبارهـا ، وما كان يدرس بها من العلوم ، وتقلب الاحوال بها ، وأبناء من اتصلوا بها من مؤسسين أو مدرسين أو نحوهم ، وقد توفى ابن دقماق عام ٨٠٨ هـ ، والمقريزى عام ٨٤٥ هـ ، ومن ذلك إلى نهاية العصر المملوكى ، اسست مدارس غير ما ذكراه منها مدرسة قايتباى ومدرسة الغورى .

ويفهم من أخبار تلك المدارس أن العلوم الدينية كانت لها الاسبقية فى العناية وبعدها علوم اللغة ثم العلوم الاخرى . وذكروا أن المواد الدراسية فى الجـامع الطولونى كانت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الاربعة والقراءات والطب والميقات . وأن الجـامع الازهر كان أهم ما يدرس به ، علوم الدين والمذاهب

الاربعة والحديث واللغة والادب والوعظ ، وقال المقريزى عنه إنه فى سنة ٨١٨هـ بلغ عدد المنقطعين فيه لطلب العلم نحو ٧٥٠ رجلا من مختلف بلاد المسلمين . وقال : « فلا يزال هذا الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ، ومجالس الوعظ وحلق الذكر » .

ويطول بنا المقام لو ذهبنا نستقصى أخبار هذه المدارس وجهودها فى سبيل نشر العلم ، وقد سعدت البلاد فى العصر المملوكى ، بجملة مؤلفات ثمينة فى تاريخ الاعلام ورجال الطبقات ، ومن حسن الحظ أننا نستطيع أن نستخلص منها أخبارا قيمة عن حالة التعليم ومواد الدراسة ورجال التعليم ، ـ ونفهم منها أن هذه المدارس كانت بمثابة الجامعات ـ وإذا غضضنا النظر عن الشكليات الحديثة ، وجدنا فيها كل المعانى الجامعية ، فقد كان فى كل مدرسة ـ على وجه الاجمال ـ عدد من الشيوخ ، كل شيخ منهم أستاذ مادة من المواد المقررة ، وقد يعينه فى عمله بعض المعيدين ، ودرسه مباح للطالب المنقطع لطلب العلم ومباح لغيره .

واعتاد كثير من الطلاب أن يلازموا شيوخهم . فيلازم الطالب شيخا من شيوخه يقع كل منهما من نفس الآخر موقع القبول ، يلازمه فى كل دروسه ، حتى فى دروسه المنزلية ، فيتردد على بيته من آن لآن ، وقد لازم شمس الدين السخاوى شيخه شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، وأخذ عنه كثيرا من علمه ، وأجيز منه برواية مصنفاته ، وكان ابن حجر يرسل الى تلميذه هذا ليفد إليه فى داره إذا كان قد تهيأ لإلقاء درسه على طلابه .

وكان بعض الطلبة يطوفون على كثيرين من الشيوخ ، حسب اختيارهم ، فيلتمسونهم فى دروسهم ولو تباعدت أماكن هذه الدروس . وروى أن محيى الدين النووى ـ رأس الشافعية فى زمانه ـ كان وهو طالب يتلق اثنى عشر درسا فى اليوم والليلة ، رواه الذهبي فى تذكرة حفاظه .

واشتد حرص الطلبة على الرحلة فى طلب الحديث الشريف ، فطافوا لأجله بالمدن المصرية على حفاظه ورواته ، ورحلوا إلى البلاد الشامية والحجازية وغيرها

ولهذا تعدد المشايخ للطالب الواحد حتى ليبلغ عددهم أحيانا العشرات بل المئات ، وعنى بعضهم بإخراج معجم لشيوخه ، يترجم فيه لكل منهم ، وينوه بمقدار علمه وفضله وما أفاد منه . وفى هذا ما فيه من معانى تقدير الطالب لأستاذه ووفائه له ، وهو يدلنا ضمنا على مبلغ ما كان بين الطالب وشيوخه من محبة وثقة وملابسة طويلة ، وكل هذا يصور لنا الجو التعليمى الذى كانوا يعيشون فيه .

وحرص الطلاب كذلك على استجازة شيوخهم فى الحديث وغيره ، حتى فى علوم اللغة والأدب ، فأجازوهم وكتب بعضهم إجازاتهم أدبى بديع طريف ، فكانت هذه الاجازات بمثابة الشهادات الجامعية الحديثة ، ولعلها تشبه أرقى أنواع هذه الشهادات .

وامتد حرص الطلبة على الأخذ عن الشيوخ أخذا معنعنا واصلاً بسنده إليهم حتى فى الخط . ومن الطريف ما ذكره شمس الدين السخاوى فى كتابه « الضوء اللامع » فى ترجمة ابن الصائغ ، فقد قال ما ملخصه : « إن ابن الصائغ تعلم الخط المنسوب من النور الوسيمى تلميذ غازى ولازمه حتى أتقن قلم النسخ وفاق عليه ، وأحب طريقة ابن العفيف فسلكها وتعلمها من أبى على محمد الزفتاوى المصرى ، ثم صارت له طريقة منتزعة من طريقتى غازى وابن العفيف ، والزفتاوى تلميذ الشمس محمد بن أبى رقيبة ، وأبو رقيبة تلميذ العلاء محمد بن العفيف ، وابن العفيف أخذ الخط عن أبيه ، عن الولى العجمى ، عن شهدة الكاتبة ، عن ابن أسد ، عن على بن البواب ، وابن السمسمانى ، عن مشايخها عن ابن مقلة . . . » وهذا التسلسل فى الأخذ ، هو ما يسمونه بالخط المنسوب .

ولم تمنح الاجازات جزافا واعتباطا ، بل بعد طول اختبار للطالب ودقة معرفة به ، وبحصوله من العلم .

وكان أمر التدريس يوكل إلى حذاق المعلمين ، ومهرة الشيوخ ممن ذاع فضلهم ، واكتمل علمهم . ونذكر على سبيل المثال : تقى الدين بن دقيق العيد ، فقد درس فى المدرسة الصلاحية والكاملية المعروفة بدار الحديث . وابن رزين ،

درّس بالمدرسة الظاهرية ـ وابن الملقن ، درّس بالبقرية والسابقية ـ وقوام الدين الاتقانى ، درّس بالصرغتمشية ـ وابن حجر العسقلانى بالمؤيدية ـ وابن خلدون بالأزهر . وغيرهم كثيرون ، وما من مدرس من هؤلاء إلا وهو ضليع فى علمه .

وكان من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ منصب القضاء الأكبر ، غير أنهم كانوا يتأبون على المناصب والقضاء ، خشية الفتنة أو الزلل ، بينما هم يتزاحمون على التصدى للتعليم ، وهم يعتقدون أنه أفضل قربة يتقربون بها إلى الله ، وأنه فرض عليهم للعلم يجب أداؤه .

وكانت دروسهم جدلا أو إملاء ، غير أن الجدل كان أوسع نطاقا ، وأبعد آفاقا ، فولّد فى كثير من الطلاب روح النقـــد ، وحسن الموازنة وسلامة الاستدراك ، والاقتدار على المناظرة .

وكان على الطالب ـ قبل أن ينقطع لطلب العلم بهذه المدارس ـ أن يمر بمكتب من المكاتب يحفظ فيه القرآن ، ويتعلم الكتابة والقراءة . ثم يأخذ نفسه بحفظ عدد من كتب العلوم المختلفة التى ينوى دراستها ، ليكون حفظه سندا له ، وقوة على استحضار نصوصها ، ومناقشتها ، وفهمها ، ونقدها ، والاستدراك عليها ـ وكان عليه بعد حفظها أن يسمعها لبعض شيوخه ، ليتثبت من حفظها ، وكان هذا بمثابة اختبار له ـ على أن بعض الشيوخ كان يختبر طلابه ، إذا زايلوا مكاتبهم ، ليندمجوا فى حلقته ، فقد روى السبكى فى طبقاته عن الحافظ شمس الدين الذهبى « أنه عند ما قدم الى القاهرة ، ودخل الى شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد ـ وكان المذكور شديد التحرى فى الاسماع ـ قال له : من أين جئت ؟ قال : من الشام ، قال : بم تُعرف ؟ قال : بالذهبى . قال : من أبو طاهر الذهبى ؟ فقال له : المخلص . فقال : أحسنت . فقال : من أبو محمد الهلال ؟ قال : سفيان بن عيينة . قال : أحسنت ، اقرأ ، ومكنه من القراءة عليه حينئذ ، إذ رآه عارفاً بالأسماء » .

وكانت لهذه المدارس والمكاتب جميعا آداب تُراعى ، وتقاليد تتبع ، كلها ترمى إلى تقديس العلم واحترام المعلم ورعاية المتعلم ، ويضيق المقام هنا ، لو ذهبنا نعدد

هذه الآداب والتقاليد ، ولعل ما جاء فى كتاب « تذكرة السامع والمتكلم ، فى أدب العالم والمتعلم » للقاضى الأديب المصرى البارع بدر الدين بن جماعة المتوفى عام ٧٣٣ هـ وكتاب « المدخل » لابن الحاج نزيل القاهرة والمتوفى بها عام ٧٣٧ هـ ، ماينوه بها أو ببعض ما كان متبعا منها .

من هذا وذاك نشعر بجلال الحركة التعليمية فى تلك العصور ، وبأنها كانت أنبل مستوى فى بعض مظاهرها ومعانيها ومراميها ، مما سمونا إليه نحن الآن .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى أن البلاد المصرية حينذاك رحبت عن كرم نفس ، واطمئنان ضمير بالوافدين إليها من الغرباء شيوخا وطلابا معا ، فقد كانت هى المثابة الآمنة بين العالم الإسلامى القلق المضطرب شرقا وغربا . فوطأت لهم فى كنفها ، وأفسحت فى رحابها ، فوجدوا فيها الدعة والطمأنينة ، والراحة والسكينة ، ولقوا المراح البر ، والمرتزق الثر ، والحظوة الطيبة لدى السلاطين والأمراء ، والعلية والعامة .

وكانت مصر تصدر فى سياستها تلك عن روح دينية عالية ، وأخوة إسلامية سامية ، فهمت حقيقة الدين ، وما يدعو إليه من إيثار ومودة وتعاون حتى يصبح المسلمون قاطبة بنعمه الله إخوانا ، وقوة ويداً على من عاداهم ، وفى ذلك ما فيه من العزة .

وأعتقد أن من محاسن التعليم فى العصر الحديث ، صدور مصر فى سياسته عن تلك الروح القديمة ، وذلك المبدأ القويم الذى اعتنقته فيما سلف ، فلقد أصبح الطالب الشرقى يجد من معونة الدولة وتيسيرها له سبيل التعليم ما لا يجده الطالب المصرى أحيانا ، إلى هذا الحد بلغ بها الإيثار والود ، وإنها لسعادة كبرى أن توفق الجارات الشرقية إلى فهم هذه الروح فهما دقيقا ، حتى تقدر ما تنشده مصر من أخوة عامة حق قدره ، وتعمل على توطيد هذه الأخوة .

وبعد ، فلعل هذه العجالة تلق ضوءا - ولو يسيرا - على الحركة التعليمية فى مصر ، إبان عصورها الوسطى التى يسمونها « المظلمة » يقنعنا بأن نعدل عن اتهامها بل بأن نعرف لها فضلها ، ونترفق فى الحديث عنها ، ونحن بصدد العلاج لمشكلة التعليم؟

# صدر الدين الشيرازى

## مجدد الفلسفة الإسلامية

لحضرة الدكتور محمود محمد الخضيرى

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

---

يطلق هذا اللقب صدر الدين مع النسبة إلى شيراز ، بل أيضا مع اسم محمد ، الذى هو اسم الفيلسوف الكبير الذى نصف فى مقالنا شيئا من أحواله وأعماله ، ونلخص بعض أفكاره ، على أعلام ثلاثة من رجال إيران ، ممن خدموا العلوم الإسلامية ، وخلدوا فى تاريخها لأنفسهم أطيب الذكر ، ويدعونا هذا الاتفاق الغريب فى الاسم واللقب والنسبة بين رجال تفرق بينهم الأجيال والسنون على كثرة من انجبت شيراز من علماء أولى شأن ومكانة ملحوظة فى بناء الحضارة فى الإسلام .

وأول هؤلاء الرجال الثلاثة هو أبو المعالى صدر الدين محمد بن ابراهيم الحسينى الدشتكى الشيرازى ، ويقال له الأمير صدر الأول أو الكبير ، كان معاصرا للعلامة الدوانى ، وصنوه فى العلم وجرت بينهما مناظرات كثيرة مشهورة ، وكانا يتنافسان فى شرح « تجريد الكلام » للمحقق نصير الدين الطوسى ، ولكل منهما على شرحيه القديم والجديد عدة حواش وتعليقات قيمة ، كما أن لصدر الدين هذا مؤلفات أخرى كثيرة فى التفسير وعلم الكلام والفلسفة ، وقد توفى مقتولا فى رمضان سنة ٩٠٣ هجرية ، عن نحو خمسة وسبعين عاما بعد أن أسس أسرة كبيرة نبغ منها خلال عدة قرون ، رجال شاركوا فى الأدب والعلم والسياسة مشاركة جليلة (١) .

---

(١) تراجع ترجمته المفصلة فى مواضع مختلفة من كتاب روضات الجنات للعلامة محمد باقر الخوانسارى ، لا سيما ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها .

وثانيهم هو صدر الدين محمد بن منصور بن محمد بن ابراهيم الشيرازى ، وهو حفيد الأول ، ويقال له الأمير صدر الدين محمد الثانى أو المير صدر الثانى ، وهو ابن الأمير غياث الدين منصور مؤسس المدرسة المنصورية بشيراز ، وله شهرة واسعة فى الحكمة والكلام والفقه ، وزاد فى مكانته رفعة وشهرة أن كان من الوزراء وأصحاب الجاه ، ولصدر الدين الثانى شهرة خاصة برسالة قصيرة عنوانها « التوبة النصوح » يتجلى فيها الإخلاص ، وله رسالة فى تحريم الخمر والحشيش ، وكان يسمى فى أيامه حشيشة البنج ، وبيان مساويهما من جميع الوجوه ، وكان كثير العناية بمؤلفات والده والتمجيد لذكراه ؛ وصدرت منه إجازات لبعض المعروفين من فضلاء عصره تشهد له بإخلاص التوجه نحو التعليم كما يدل بقاؤها على تقديره والاعتزاز بالأخذ عنه ، وقرر العلامة صاحب الروضات أن وفاته كانت كما ذكر صاحب المجالس(١) سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وأنه دفن بجوار والده (٢) والواقع أن والده الأمير غياث الدين منصور هو الذى توفى فى هذه السنة ، وأن ابنه صدر الدين عاش بعد ذلك عدة سنوات ، كما يشهد بذلك ما نقله صاحب الروضات نفسه من كلام لصدر الدين الثانى فى آخر رسالته فى ذم الخمر ، حيث ذكر تاريخ الانتهاء من تحريرها ، وهو ٢٥ من ربيع الثانى سنة ٩٦١ ، كما ذكر أيضا تاريخ الفراغ من نقلها من المسودة ، وهو يوم الغدير من سنة ٩٦٢ ، وعلى ذلك فإن صدر الدين الثانى قد توفى بعد يوم الغدير من سنة ٩٦٢

أما الثالث : وهو موضوع هذا المقال ، فإنه لا يمت إلى السابقين بصلة القرابة ، وإن كان يتفق معهما فى اللقب والاسم والنسبة إلى شيراز ، بل يتفق مع

---

(١) مجالس المؤمنين (باللغة الفارسية) للقاضى نور الله المرعشى الشوشترى ، وهو مطبوع على الحجر فى تبريز ، وقد رجعت إليه ووجدت جل ما ذكره الخوانسارى فى ترجمة الأمير منصور الشيرازى وولده صدرالدين مترجما عن المجالس ص ٣٤٠ – ٣٤١ من الطبعة المذكورة والمدهش أننى رأيت فيها أيضا تحديداً لوفاة الصدر الثانى فى شهور سنة ٩٤٨ كما نقل عنه الخوانسارى ، وهو سهو عجيب .

(٢) روضات الجنات ج ٤ ص ١٣٠ وما بعدها .

الأول فى اسم الآب أيضا ، فهو صدر الدين محمد بن ابراهيم القوامى الشيرازى المشهور بملا صدرا أشهر حكماء الإسلام المتأخرين المتوفى فى سفره إلى الحج سنة ١٠٥٠ هجرية على قول وفى العشر الخامس من المائة الحادية عشرة على قول آخر .

ذكره السيد على خان المعروف بابن معصوم فيمن لم يترجم لهم من أعيان الإيرانيين فى القرن الحادى عشر لإنصرافهم عن الشعر بسبب اهتمامهم بما هو أهم ، واكتفى بذكر طائفة من أعظم فضلائهم ، وأكبر نبلائهم فقال : « ومنهم المولى صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازى المعروف بالملا صدرا . كان أعلم أهل زمانه بالحكمة ، متفننا بسائر الفنون ، له تصانيف كثيرة عظيمة الشأن فى الحكمة وغيرها ، منها شرح الكافى فى مجلدين . توفى بالبصرة وهو متوجه للحج فى العشر الخامس من هذه المائة رحمه الله تعالى » (١)

ونقل عنه معاصره صاحب « أمل الآمل » (٢) هذه الترجمة على وجه الاختصار . وكذلك فعل العلامة الخوانسارى ، ولكنه أضاف إلى هذه الترجمة الموجزة عدة فوائد استقاها من المتأخرين . ومما أضافه تقديره لصدر الدين على النحو التالى : « كان فائقا على سائر من تقدمه من الحكماء الباذخين والعلماء الراسخين إلى زمن مولانا الخواجه نصير الدين ، منقحا أساس الإشراق بما لا مزيد عليه ، ومفتحا أبواب الفضيحة على طريقة المشائين وأهل الرواق حسب ما أرشده الدليل إليه . ومما ذكره الخوانسارى أيضا أن صدر الدين كان من تلامذة الأمير محمد باقر الداماد ، وبهاء الدين العاملى ، كما أنه أورد فهرست مؤلفاته نقلا عن حاشية لعالم من معاصرى صدر الدين ، وأشار فى آخر ترجمته إلى بعض تلاميذه كما ترجم لابنه ابراهيم (٣) .

والظاهر من هذا أن المؤرخين من معاصرى صدر الدين لم يحفظوا شيئا

(١) سلافة العصر فى محاسن الشعراء بكل مصر ، طبعة القاهرة ص ٤٩٩

(٢) أمل الآمل فى ذكر علماء جبل عامل الخ . لمحمد بن الحسن بن على الحر العاملى ، طبعة طهران ( على حجر مع كتب أخرى ) سنة ١٣٠٧ ، ص ٤٩٥

(٣) روضات الجنات ، ص ٣٣١

كثيرا عن تفاصيل نشأته وحياته ، كما يظهر أيضا إجماعهم على تقدير تعمقه فى الحكمة ، وإن كان بعضهم لا يحب طريقته فى التفكير ولا يقبل مزج الحكمة بالدين على نحو ما فعل .

ومما يؤيد ذلك ما أجمع عليه الذين كتبوا عن ابنه ابراهيم وإجماعهم على مدحه ، لأنه سلك فى الحكمة والكلام منهجا غير منهج ابيه ، ولأن اعتقاده فى أصول الدين ، كان على حد وصفه ، مثل اعتقاد العوام ، وزاد بعضهم بأنه مصداق لقوله تعالى : يخرج الحىّ من الميت » (١)

وقيل أيضا فى معرض التشنيع على صدر الدين : إن أول من شرح « أصول الكافى » بالكفر هو المولى صدرا (٢) . والمقصود من أصول الكافى هو الكتاب المشهور فى الأصول والحديث الذى ألفه الإمام الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الرازى الكلينى المتوفى سنة ٣٢٩ هـ ، وهو من شيوخ الإمامية الأجلاء ، وكتابه عمدة عندهم . ومعنى قولهم إن صدر الدين شرحه بالكفر أنه استعان بالفلسفة فى توضيح معانيه ، ولم يتبع ما جرى عليه السلف من شرحه على طريقة المفسرين والمحدثين .

ولحسن الحظ لم يكن هذا الرأى فى شرح أصول الكافى هو الوحيد ، فإن العلامة الخوانسارى ، وهو ممن نقلوا هذا الرأى عن القائلين به ، يرى فيه غير ذلك ، إذ يقول ما نصه : « وكذلك شرحه المبسوط على أصول الكافى وهو فى مجلدتين يقرب من أربعين ألف بيت كتبه إلى باب : إن الأئمة عليهم السلام ولاة أمر الله وخزنة علمه من كتاب الحجة ، وعندى أنه أرفع شرح كتب على أحاديث أهل البيت عليهم السلام ، وأرجحها فائدة ، وأجلها قدرا الخ » (٣)

والواقع أن خصوم صدر الدين نقموا عليه أشياء كثيرة ترجع كلها إلى

---

(١) روضات الجنات آخر ص ٣٣١ و أطروحة المرحوم الشيخ أبى عبد الله الزنجانى عن صدر الدين ، مطبوعة فى دمشق ص ٩

(٢) الروضات ، الموضع المذكور

(٣) روضات الجنات ، الصفحة المذكورة

خروجه عن المستوى العقلي لعصره وارتفاعه عنه ارتفاعا كبيرا ، وذلك لأن عصره كان موبوءا بطائفة من الجهلاء « والدراويش » الجامدين الذين يهون عندهم تفكير المفكرين دون تحقيق لأقوالهم ، والذين كانوا ينفرون من التعمق فى دراسة المسائل النظرية ولا سيما ما كان منها وثيق الاتصال بالدين .

ومما يدل على تفشي الجهل والخلط فى ذلك العصر ، مارواه مؤلف « قصص العلماء » أن رجلا من أهل المعرفة وَجد فى كربلاء عند قبر الحسين عليه السلام ، واحدا من هؤلاء المدعين للعلم ، الحاصلين على الجاه بفضل هذا الادعاء الباطل ، كما هى العادة فى عصور الجهل والجمود ، يأخذ بعد صلاة الصبح فى لعن كبار العارفين من الصوفية واحدا بعد واحد ، وكان ممن تناولهم باللعن صدر الدين ، وانتهى بلعن جاره الذى يروى الخبر ، وكان لا يعرفه ، فسأله عن سبب لعنه إياه فأجاب : لانه يعتقد بوحدة واجب الوجود ! فقال له : فالعنه إذن فإنه حقيق بلعنك بهذه العقيدة . ولم يكن المتعصب يميز بين الاعتقاد بوحدة الوجود ووحدة واجب الوجود (١) .

وعانى صدر الدين كثيرا من المتاعب ، وشكا مر الشكوى فى أكثر من واحد من كتبه من إنكار أهل عصره للحكمة واضطهادهم لطالبيها ، فقال فى مطلع كتابه الكبير « الأسفار الأربعة » مشيرا إلى سبق عزمه على تأليف كتاب جامع فى الحكمة لم يسبق أحد إلى تأليف مثله ، ولكن العوائق كانت تمنع من المراد ، وعوادى الأيام تضرب دون بلوغ الغرض بالاسداد ، فأقعدتنى الايام عن القيام ، وحجبنى الدهر عن الوصول إلى المرام ، لما رأيت من معاداة الدهر ، بتربية الجهلة والارذال ، وشعشعة نيران الجهالة والضلال ، ورثاثة الحال وركاكة الرجال ، وقد ابتلينا بجماعة عازبى الفهم ، تعمش عيونهم عن أنوار الحكمة وأسرارها ، وتكل أبصارهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها ، يرون التعمق فى الامور الربانية ، والتدبر فى الآيات السبحانية بدعة ، ومخالفة أوضاع جماهير الخلق من

(١) الفيلسوف الفارسى الكبير صدر الدين الشيرازى بقلم أبى عبد الله الزنجانى دمشق ص ١١ .

الهمج الرعاع ضلالة وخدعة ... فأصبح الجهل باهر الرايات، ظاهر الآيات، فأعدموا العلم وفضله، واسترذلوا العرفان وأهله، وانصرفوا عن الحكمة زاهدين، ومنعوها معاندين، ينفرون الطباع عن الحكماء، ويطرحون العلماء العرفاء والأصفياء، وكل من كان فى بحر الجهل والحمق أولج، وعن ضياء المعقول والمنقول أخرج، كان إلى أوج القبول والإقبال أوصل، وعند أرباب الزمان أعلم وأفضل.

كم عالم لم يلج بالقرع باب مُنىً وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا

وكيف ورؤساؤهم قوم عزل من سلاح الفضل والسواد، عارية مناكبهم عن لباس العقل والرشاد . . . فلما رأيت الحال على هذا المنوال، من خلو الديار عمن يعرف قدر الاسرار، وعلو الاحرار، وأنه قد اندرس العلم وأسراره، وانطمس الحق وأنواره، وضاعت السير العادلة، وشاعت الآراء الباطلة، ضربت عن أبناء الزمان صفحا، وطويت عنهم كشحا، فألجأنى خمود الفطنة، وجمود الطبيعة لمعاداة الزمان، وعدم مساعدة الدوران، إلى أن انزويت فى بعض نواحى الديار، واستترت بالخمول والانكسار، منقطع الآمال، منكسر البال، متوفرا على فرض أؤديه، وتفريط فى جنب الله أسعى فى تلافيه، لا على درس ألقيه، أو تأليف أتصرف فيه، إذ التصرف فى العلوم والصناعات، وإفادة المباحث ودفع المعضلات، مما يحتاج إلى تصفية الفكر وتهذيب الخيال، عما يوجب الملال والاختلال، واستقامة الاوضاع والاحوال مع فراغ البال، ومن أين يحصل للإنسان مع هذه المكاره التى يسمع ويرى من أهل الزمان، ويشاهد مما يكب عليه الناس فى هذا الاوان، من قلة الإنصاف وكثرة الاعتساف، وخفض الاعالى والافاضل، ورفع الادانى والاراذل الخ » ثم استشهد برباعى نظمه بعض إخوانه جاء فيه ما ترجمته : « لا حاجة للكلام فى جواب كل سؤال، فإن العين البصيرة تلتمس العذر لشفة الإنسان عند التزام السكوت » ثم تمثل بكلام للإمام على عليه السلام، فى الصبر على قلة الانصار وتطليق الدنيا وإيثار الآخرة على الأولى (١).

(١) الأسفار الأربعة ج ١ ص ٢ ، ٣

ونستنتج من عبارة صدر الدين أنه جزع من مقابلة أهل عصره لما أراد أن يدلى به إليهم من حكمة فى مجالس العلم وحلقات التدريس، ويئس من قبولهم لآرائه، فاضطر أن يلتزم الصمت، وألا يتكلم فى العلوم، وحز فى نفسه أيضا أنهم كانوا يحسنون الإصغاء إلى من كانوا بالنسبة إليه كالعوام، فعزم على كره منه أن يأوى إلى جانب العزلة والخمول فى جبال قم، وابتعد عن العلم مدة طويلة، خاف أن يؤدى امتدادها مع شعور بالغم والخيبة إلى جمود القريحة وبلادة الفكر، ولكن الله تداركه بفيض من نعمته ورحمته، فكانت حاله مصداقا لقوله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» وذلك أنه عندما اضطر إلى الاعتزال والابتعاد عن التصرف، فى العلوم أتاح له الوقت أن يهضم ما حصّل، وكان تحصيله عظيما، وأن يتمثل جميع ما وعى وحفظ، وأن يقلب المسائل والمذاهب متأملا فى نفسه جميع ما ورد عليه فيها من مقالات، فاستطاع أن يميز بين ما ينبغى نبذه وما ينبغى التمسك به والاعتماد عليه، واهتدى بعد كل ذلك إلى ما آمن بأنه وجه الحق الصريح، ولذلك جاء مذهبه مستقيما لا عوج فيه ولا زيغ، صافيا لا أثر للتناقض فى معانيه، وهو يشرح هذا التطور فيقول بعد وصفه لما حل به من كرب وضيق، على نحو ما نقلنا عنه، إنه رأى أن يقتدى بالإمام على عليه السلام، فى جميل صبره على الأذى، وفى عدم اكتراثه بمعاداة الزمان؛ ثم توجه بكل قواه نحو مسبب الأسباب، وتضرع إليه أن يسهل له الأمور الصعاب، وأخذ نفسه بشتى أنواع المجاهدة والرياضة حتى فاض عليه من أنوار الملكوت، ما جعله يطلع على أسرار لم يشهدها من قبل، فسأل الله أن يشد أزره ويشرح صدره، فنهضت عزيمته بعد القعود، وهبت همته بعد الركود، فأدمج العلوم الإلهيه فى الحكمة البحثية، وبذلك تمثل بقوله تعالى: «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» واستغفر كثيرا لما ضيع من عمره فى تتبع آراء الفلاسفة والمجادلين من أهل الكلام، واستبان له فى آخر الأمر أن أن قياسهم عقيم، وصراطهم غير مستقيم (١).

وسنتكلم فى المقال الآتى إن شاء الله فى تكوينه الدراسى وأساتذته وتلاميذه ؟

(١) الأسفار الأربعه ج ١ ص ٣، ٤

# عالمان

للدكتور محمد محمود غالى

دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون

وكيل مصلحة النقل

---

عالمان متميزان فى تاريخ البشرية نبغ فيهما الإنسان نبوغا عظيما ، وارتقى فيهما شأوا عاليا ، وظهرت فيهما مزاياه العقلية وقواه الفكرية التى بها استحق الزعامة فى هذا الكوكب دون غيره من المخلوقات .

العالم الأول : عالم « الكترونى » اعتمد فى خلق مدنيته على معرفته للكهرباء ، حيث دار الموتور وتحرك الدينامو ، وحيث نشأت الصناعات الصغرى ثم الكبرى ، فانتقل الناس من عصر إقطاعى كانت تباع فيه الضِّياع والأملاك بمن يسكنها من البشر إلى عصر برجوازى صناعى ، تحولت الصناعات فيه من مصانع صغيرة إلى مصانع كبيرة ، ثم إلى مصانع أكبر منها ، وبعبارة أخرى انتقل الناس فيه ، وفى أكثر بقاع المعمورة من العصر الإقطاعى إلى العصر الرأسمالى .

ولئن كانت قدرة الانسان ونبوغه وسعة حيلته ، وتقدم حضارته ومدنيته ، قد ظهرت فى هذا العالم بمظهرها الرائع المعجب ، لقد اكتنف هذا التطور العظيم ضروب عدة من الصعاب والمشاق والتعقيد ، كان آخرها هاتان الحربان العالميتان اللتان ترادفتا على سكان المعمورة فى مدى قريب لا يزيد على ربع قرن .

هاتان الحربان كانتا بين حكومات لم يفهم كثير من محكوميها الأسباب الحقيقية التى دعت إليهما ، ولا الدوافع التى طوعت للإنسان قتل أخيه الإنسان .

لقد مات وجرح ملايين من البشر ، واختفى من على وجه الأرض أناس لو قدر لهم أن يتجنبوا هذه المجازر العاتية لأفادت الإنسانية منهم أعظم الفوائد ، وناهيك بشباب مفتولى السواعد ، مكتملى النشاط ، يفيضون حيوية وإقداما وقدرة على الانتاج ، أتت عليهم نيران حاصدة ، وفنون من التدمير والاهلاك لا تبقى ولا تذر ، هذا إلى أن الانتاج قد تحول مرتين فى ربع قرن إلى صناعات حربية فخسر العالم بذلك خسارتين :

الأولى أنه أنتج أدوات ومعدات لا فائدة منها للبشر ، أدوات لا قيمة لها فى أى عمل إيجابى يزيد فى رفاهية الانسان .

والثانية أنه أهلك بها ملايين من بنى الإنسان ، وهدّم مساكنهم ، وخرَّب مدارسهم ، ودك مصحاتهم وطرق مواصلاتهم ، وكل ما هو نافع لهم .

* * *

والعالم الثانى : عالم نووى يعتمد الانسان فيه على قوة جديدة خارقة للعادة ، قوة دفينة فى كل مادة نلمسها وفى كل عنصر نعرفه ، هـذه القوة أو الطاقة هى جزء من المادة إن لم تكن هى المادة كلها ، هذه القوة الخارقة للعادة هى التى تجعل مثلا جسيمات نواة كل ذرة مجتمعة بعضها إلى بعض ، وهى التى تعطينا هذا الشكل المادى الساكن الهادىء لما نراه من الأشياء ، فهذا حديد وهذا خشب ، وهذا زئبق وذلك ماء ، وهـذا منزل وذلك جبل ، وهذا « يورانيوم » وذلك « توريوم » ، ويغلب على الظن أن بعض هذه العناصر قابل بمعاملة خاصة ، لما نسميه اليوم : الانفلاق النووى ، أو تفرق الجسيمات المكونة لنواة ذراتها وخروجها إلى الخارج ، وتحولها الكامل فى بعضها ، أو فى بعض أجزائها إلى طاقة قوية كمينة فيها منذ القدم ، ربما كانت هى التى استخدمت فى تجميعها وضم شتاتها بطريقة لا نعرفها اليوم ، بل يغلب على الظن أن الإنسان سيعرف طريق تحويل الكثير منها إلى هذه

الطاقة الخطيرة ، بحيث إذا كان الإنسان المفكر قد عرف الوسيلة فى بعض العناصر ليجعلها قابلة للانفلاق وخروج الطاقة ، فليس هناك ما يمنعه فى القريب أن يعرف السبيل إلى ذلك ، فى غيرها من العناصر .

« فاليورانيوم » وهو عنصر من ثمانية وتسعين عنصراً ، هى المعروفة اليوم على هذه الأرض - يصبح بمعاملة خاصة وتعديل فى نواة ذرتة « بليتونيوم » وهو عنصر آخر جديد لم يكن فى جدول العناصر ، وهذا العنصر الأخير قابل للانفلاق أى قابل لما نسميه الانفجار الذرى - وأفضل الانفجار النووى - ذلك النوع من الانفجار الذى ذهب « بهيروشيما » و « ناكازاكى » ، وقد يذهب انفجار من نوعه غدا بباريس أو موسكو أو نيويورك ، كما أنه قد يُسخَّر فى صالح الإنسانية فيأتى بالعجب العجاب .

ولعل الانفجارات التى حدثت فى سيبريا هذه الشهور ، وذكرت الأنباء أنها لأعمال تتعلق بحفر أنهار جديدة وترع كبيرة الرى ، هى استخدام للطاقة النووية لصالح الإنسان ، وقد يكون هذا فاتحة خير للبشر .

* * *

هذا العالم النووى الجديد الذى بدأنا نعيش فيه يحتاج إلى كثير من التأمل ، ويثير فى نفس القارىء كثيرا من الأسئلة ، ولعل أهمها : هل يستخدم الإنسان الطاقة النووية لأعمال الخير والسلم ؟ والجواب على ذلك : أننى لا أشك فى وصولنا لهذه الغاية وذلك فى الحالة التى نتحاشى فيها حربا ثالثة تدمر كل هذه المدنية وتدفن معها كل ما ورثناه من علم ، أو ما لدينا من كتب .

إنما أذهب إلى هذا الرأى بسبب ما ينشأ عن سلسلة الانفلاق المعروفة اليوم فى نويات الذرة من طاقة حرارية فوق الوصف ، وهذه الحرارة من الممكن تحويلها إلى كهرباء ، بل أن الكهرباء موجودة أيضا من جراء « الالكترونات » الناتجة رأسا من عملية السلسلة المتقدمة .

وها نحن أولاء وقد انتصف القرن العشرون ، نجد أنفسنا على فوهة بركان ، إن يكن اليوم هادئا فقد يثور غدا ، ونحن بين حرب تهددنا ، وسلام قد ننعم فيه ، بما لم ينعم به إنسان من قبل ، بل نحن على مفترق طريقين : إما أننا سنهدم أنفسنا بأنفسنا ، وإما أننا سنحظى بمدنية لم نشهد لها مثيلا .

سؤال آخر يتبادر إلى الذهن هو : هل ينتقل العالم فى هذا العصر النووى الجديد من العصر الرأسمالى إلى عصر اشتراكى ، كما انتقل خلال العالم الألكترونى السابق ، والذى استخدم فيه الكهرباء من العصر الإقطاعى إلى العصر البرجوازى الرأسمالى ؟ وجوابنا على ذلك : أننى اعتقد أن هذا حادث فعلا ، وأن ثمة تطورا من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، سيصل إليه البشر بصفة فعالة إذا لم تحدث قبل ذلك حرب نووية ، تعتمد على القنابل الذرية وعلى ما هو حادث اليوم من تسلسل فى نواة البليتونيوم أواليورانيوم ٢٣٥ ، أو تعتمد على قنابل « هيدروجينية » يحدثها الإنسان بتحويل « الهيدروجين » إلى « هيليوم » مارا بالكربون ، كما هو حادث فى الشمس ، وكما هو معروف فى سلسلة بيث المشهورة .

وكل ما نرجوه أن يحدث هذا التطور دون عنف ، وأن يتم هذا التغيير فى هدوء ، عندئذ تحظى غالبية الناس بالكثير من النعيم الذى لا يحظى به الآن إلا قليل منهم .

وإنى لممن يعتقدون أن الفضل فى هذا سيكون لما يعرفه العلماء اليوم من معارف لها أهميتها عن حقيقة نواة الذرة وإخراج ما بها من طاقة لصالح الإنسان فيومئذ تقل ساعات العمل ، وتصبح الطاقة أداة نافعة تحت تصرفنا ، بل خادما متفانيا فى سبيل تقدمنا ورفاهيتنا ، ونصل الى عهد نطمئن فيه الى زوال كثير من الأسباب التى تؤدى فى العادة إلى الحروب .

* * *

لقد أضحت صحيفة نواة الذرة اليوم من الصحائف العلمية الممتازة ، والأدبية النادرة فى الوقت ذاته ، وأضحى للنواة اليوم أدب يستهوى المفكرين ، وإنه لمن

الواجب أن يكون للناس فى العالم النووى الجديد من الخلق ما يفوق ما كان له فى العالم الالكترونى ، وعلى العلماء والأدباء أن يدلوا الناس خاصتهم وعامتهم على خطورة المرحلة التى يجتازها العالم اليوم .

وهكذا : عالم « الكترونى » عشنا فيه مضى وانقضى ، وعالم نووى نعيش الآن فيه أقبل وانبرى .

أما المدنية الألكترونية فقد لمسناها وعرفناها ، فليت شعرى كم تحتاج المدنية النووية منا إلى التأمل والتفكير ؟

ألا إن بيدنا أن نسلك طريق السعادة والبقاء ، أو طريقا أخرى يكتنفها الشقاء والعناء ، وقد تفضى بالبشرية كلها إلى الفناء .

وإليك رأياً غير رأيى الذى أدليت به فى هذا الموضوع ، فقد كان معى اليوم ( ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٠ ) العالم الكبير « ماكس بورن » الألمانى الأصل ، والأستاذ بجامعة « أدنبره » بانجلترا ، الذى شرفنى بتناول الغداء فى منزل ريفى لأهلى قريب من القاهرة ، سأله أحد الحاضرين : ما ذا تنتظر من تقدم فى الذرة ؟ فقال : أرجو ألا يعرف الإنسان بصفة سهلة الطريق لاستخدام القوى الدفينة فى نواة الذرة قبل أن تعلو أخلاق البشر لأنى أخشى أن يستخدمها فى الشر .

لقد ذهب « ماكس بورن » إلى أكثر مما ذهبت إليه ، فإنى لم أتمن لحظةً عدم تقدم هذه العلوم ، وها هو ذا تزيد خشيته عن خشيتى ؛ وإذا علمت أن « ماكس بورن » هو أحد أقطاب علماء الذرة النظريين فى العالم ، بل هو أستاذ لخمسة من أكبر أقطاب الذرة اليوم ، هم « هايزنبرج » صاحب نظرية عدم التعيين و « باولى » صاحب المبدأ المعروف باسمه ، و « فرمى » العالم الإيطالى الكبير الذى كان له دور هام فى القنبلة الذرية ، و « ديراك » الشهير ، و « شرودنجير » العظيم لأدركت كم لكلمات هذا العالم الكبير من المعنى الخطير .

فليتمن القارىء معى أن تسير البشرية إذن نحو عصر من السلام والبقاء ، لا نحو عصر من الحروب والفناء ؟

# فهـــرس


| | | |
|---|---|---|
| كلمة التحرير . . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير | ١١٥ |
| تفسير القرآن الكريم . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت | ١١٧ |
| أقيموا صرح الإصلاح على أساس من العلم | لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم | ١٢٩ |
| حق الشعوب الإسلامية على نفسها | لحضرة صاحب المعالى محمد حلمى عيسى باشا | ١٣٣ |
| الإسلام والمسلمون . . . . . . . . . | لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك | ١٤٣ |
| مبادىء القانون الدولى العام فى الإسلام | لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز | ١٤٨ |
| فرصة سانحة . . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى | ١٦٤ |
| حقوق الإنسان . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى | ١٧٠ |
| هل تعبدنا الشرع بالهدى . . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه | ١٧٥ |
| اللغة والأدب . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان | ١٨١ |
| لولا القدماء . . . . . . . . . . . . | للجنة الثقافية لجماعة التقريب | ١٨٦ |
| من ذخائر الفكر الإسلامى . . . . | تعليق للعلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء | ١٩٣ |
| فى أسرة التقريب . . . . . . . . . | كلمة صاحب المعالى السيد الحسن بن على بن ابراهيم | ١٩٥ |
| عناصر وجود الأمة الاسلامية . . . | لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض | ١٩٦ |
| الحركة التعليمية فى مصر . . . . . . | لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ محمود رزق سليم | ٢٠٤ |
| صدر الدين الشيرازى . . . . . . . . | لحضرة الدكتور محمود محمد الخضيرى | ٢١٢ |
| عالمان . . . . . . . . . . . . . . | لحضرة الدكتور محمد محمود غالى | ٢١٩ |





رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

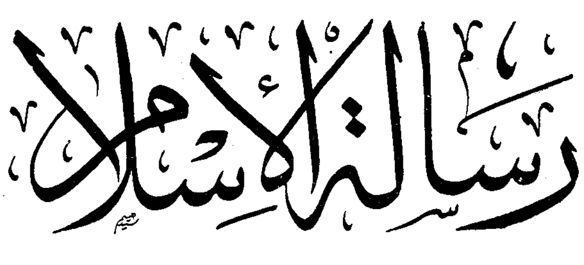
رئيس التحرير : محمد محمد المدنى — مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشاً مصرياً

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ١ ليرة إنجليزية

مطبعة احمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٢




مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثانية — رمضان ١٣٦٩ هـ

العدد الثالث — يوليو ١٩٥٠ م

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة التحرير

حدثنا التاريخ مَوْرِد المُثُل ، ومَجْلى الذكريات والعبر ، عما كان من شجاعة علماء الدين فى قول الحق ، وشهادة الصدق ، وبذل النصح ، وبيان ما أنزل الله من الكتاب ، لا يشارون فيه ولا يمارون ، ولا يكتمون مافيه من الحق وهم يعلمون .

حدثنا أنهم كانوا أعزة بعزة الإيمان ، يرون الله أكبر كل شىء ، فلم يذلوا لمخلوق ، ولم يذعنوا لجبروت ، ولم يطأطئوا أمام الباطل رأساً ، ولم يغُضوا على الفساد والمنكر طرفا .

حدثنا أنهم كانوا أقوياء بالتعفف عما فى أيدى الناس ، فكان لهم السلطان الأكبر على الناس ، تكفيهم الكسرة ، وتشبعهم التمرة ، ولا يجدون لبطونهم سلطانا على عقولهم ، ولا يثقل رءوسهم دوار الطعام الحرام تتخمهم به موائد الأغنياء والمسلطين .

حدثنا أنهم كانوا يركبون الصعب من الأمر وهم عالمون بصعوبته ، ويقارفون الخطر وهم أدرى الناس بخطورته ، ليحق الله بهم الحق ويبطل الباطل ، ويظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون .

حدثنا أنهم كانوا يرون الجهاد باللسان كالجهاد بالسنان ، فرضَ عين على كل قادر ، وأن من تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيم الخسف وديِّث بالصغار .

حدثنا أن العالم الدينى كان موضع الإجلال والمهابة لا من الشعب فحسب ، ولكن ممن يلون شئونه ، ويتقلدون سلطان الحكم فيه . فكان رجل الدين ربما دخل على السلطان مغضبا يجرثوبه ، وتَرْعَشُ من الكِبَر أو المرض يداه ، فتحل

له الحي ، ويوطأ له مجلس الصدارة ، ويقبل عليه السلطان بوجه منصتا لحديثه ، فإذا هو يراجعه فى أمرٍ أمَر به ، أو ينكر عليه فعلا صدرعنه أو عن أحد عماله ويقول له على مرأى ومسمع من بطانته ورجاله : ليس هذا فى مصلحة المسلمين فاتق الله وارجع عنه ، فإنك واقف بين يديه غدا ، وإنه محاسبك على ما قدَّمت ، وسائلك عما حفظت أو ضيعت .

وقد قال قائل يوماً لسليمان بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين إنه قد تكنَّفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا الأمانة تضييعا ، والأمة كسفا وخسفا ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تُصلِح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غَبْنا من باع آخرته بدنيا غيره .

وكان الملوك يسمعون ذلك راضين به ، متقبلين النصح فيه ، لثقتهم أن الباعث الله ، والمقصد الله ، فقليلا ما سمعنا أن أحدهم أخذته العزة بالإثم ، فتجهم للناصح الأمين ، أو أذن لقالة سوء فيه ينطق بها أحد الملِقين من بطانته ، أو الحاسدين من جلسائه ، فإذا حدثت أحدَهم نفسُه بأن يستكبر عن النصح أو ينأى بجانبه عن الحق ، أو يأخذ المتجرىء بما يردعه من عقوبة ، تردد فى ذلك ، وهاب الإقدام عليه ، كأنه الأعزل الجبان ، حمل على منازلة الليث والليث غضبان .

وقد حفظ التاريخ موقفا عجيبا لسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ، ذلك أن جماعة من أمراء المماليك بالديار المصرية لم يثبت عنده أنهم أحرار ، فأفتى بأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، ولم يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ، حتى باعهم واحدا واحدا ، وقبض لبيت المال أثمانهم مغاليا فيها ، ثم اعتقهم من اشتراهم فصاروا بذلك أحرارا ، وأفتى بنفاذ تصرفاتهم من بعد .

تلك كانت سنة الأولين : شجاعة فى قول الحق ، وشجاعة فى تقبله ، واعتصام بالله عن كل ما يخذِّل عنه من رغبة أو رهبة ، ولهذا كانت الشعوب فى خير ،

وكانت كلمة الدين بينهم هى العليا . وكان المقام الأول للفضيلة والخلق ، وكانت عظة العالم تؤثر فى النفوس ما لا تؤثره أوامر الحاكم ، وكان ما يزع الله بالقرآن أكثرَ مما يزع بالسلطان !.

* * *

وحدثنا التاريخ أيضاً — وهو مَوْرد المثُل ، ومجلى الذكريات والعبر — أن علماء بنى إسرائيل كانوا على طرف النقيض من هذا النهج القويم ، فكانوا يمالئون على المنكر ، ويرضون بتعدى حدود الله ، ويسكتون على قول الإثم ، وأكل السحت ، وارتكاب الموبقات ، فأخذهم الله جميعاً بالعذاب الشديد ، وفى ذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ، ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

* * *

وحدثنا التاريخ — وهو مَوْرد المثُل ومَجلى الذكريات والعبر — أن أهل العلم من المسلمين الأولين ، كانوا مطبوعين على لون آخر من ألوان الشجاعة فى الحق ، ذلك هو جهرهم بما يرون ، ودفاعهم عما يعتقدون ، دون أن يصانعوا فيه العامة ، أو يمالئوا عليه أهل الجهالات ، فكم من عالم أخلص لعلمه ، وآثره على دنيا الناس ، ولم يعبأ فى سبيله بغضب الغاضبين ، ولا بطش الباطشين ، فهو يقارع بالحجة ، ويمسّك بالمنطق ، ويقف بطلا دون رأيه ، ولا يكتم ما علمه الله ، ولا يجد فى نفسه حرجا مما شَرَح به صدرا .

ولذلك كان العلم فى خير ، وكان أفق الحقائق واضحاً متكشفاً لا يحول دونه

حائل من سحائب الجهل ، أو غياهب التعصب ، وكان التقارب بين القلوب سنة العلماء ومن تبعهم ، كلٌّ يحترم رأى صاحبه وإن خالفه ، وكلٌّ يعذر صاحبه وإن رآه من المخطئين .

وقد زخرت المكتبة الإسلامية بآلاف من الكتب ، وانطوت على أثمن آثار الفكر البشرى ، وحفل سجل الخالدين بأسماء المئين من العلماء المجتهدين ، حتى أصبحنا أمام تراث غنىٍّ جامع ، لايكاد يخرج عنه مفكر مهما نبغ ، ولا يكاد يضيق عن حادث يحدث للناس .

وإن الذين يشتغلون بالقانون ، ويتصلون بالفقه الإسلامى ، ويدرسون آراء أعلامه ؛ ليعلمون هذه الحقيقة ، ويشهدون صادقين بأنه ما من رأى لمتأخر يُظَن مبتكراً ، أو يُرى ملائماً لأحوال الناس فى العصور الحديثة ، إلا وله فى الفقه الإسلامى أصل ، ومن أقوال الفقهاء سند ، يشهد بذلك أهل الإسلام وغيرهم لأنه الحق المبين الذى لا مرية فيه !

* * *

أما بعد فهذا حديث التاريخ عن الأولين ، فليت شعرى ماذا هو قائل عن الآخرين ؟ أما والله إن الحساب لعسير ، وإن الحكم لخطير ، وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

فرحماك اللهم رحماك ؟

رئيس التحرير

محمد محمد المدنى

# تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

# سورة آل عمران

هذه السورة هي السورة الثالثة من سور القرآن الكريم فى ترتيب المصحف ، وهى معروفة بسورة « آل عمران » ويجدر بنا قبل أن نتناول مقاصدها أن نذكر كلمة عن تسميتها بسورة آل عمران .

جاء ذكر « عمران » فى هذه السورة مرتين فى آيتين متتاليتين : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .إذ قالت امرأة عمران : رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » فذهب فريق من المفسرين إلى أن عمران الذى سميت السورة بآله والذى ذكر فى الآية الأولى هو عمران أبو موسى وهرون ، وليس أبا مريم ، وكان بين العمرانين فيما يقول الرواة أمد طويل .

ونحن إذا تتبعنا أسماء السور فى القرآن الكريم نجدها تشير إلى أهم أو أغرب ما اشتملت عليه السورة ، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن تتعلق ببقرة أمر بنو إسرائيل بذبحها ، وكان ذلك سبيلا لمعرفة الجانى فى حادثة قتل لم يعرف مرتكبها ، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التى طلب الحواريون إنزالها من السماء ، وسورة النساء سميت بذلك لأن أهم ما عرضت له هو الأحكام التى أراد الله بها تنظيم أحوال النساء ، وحفظ حقوقهن ، وعدم الإضرار بهن . وهكذا .

وإذا عرف هذا وهو أساس عام فى شأن تسمية السور ، فلنرجع إلى تسمية السورة الثالثة من القرآن بسورة « آل عمران » ، ونحن إذا قرأنا السورة من أولها إلى آخرها لا نجد فيها شيئا غريبا أو هاما يتعلق بخصوص موسى وهرون ، ولكن أبرز ما فيها وأغرب شئونها ، هو ما عنيت بتفصيله من شأن عيسى وأمه ، وهذا يدعونا إلى موافقة فريق آخر من المفسرين يرى أن عمران الذى سميت السورة بآله ، وذكر فى الآية الأولى هو عمران المذكور فى الآية الثانية ، وهو أبو مريم لا أبو موسى وهرون ، فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم من آدم ونوح وآل ابراهيم وآل عمران لتبين للقوم من أول الأمر أن اصطفاء الله آل عمران من عيسى وأمه ، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما ممن اصطفى ، وأن ماظهر على يد عيسى من خوارق العادات التى يتخذونها دليلا على ألوهيته أو بنوته أو حلول الله فيه ؛ لم يكن إلا أثرا من آثار التكريم الذى جرت به سنة الله فيمن يصطفى من الأنبياء والمرسلين ، ويقوى هذا أن الله يقول عقب هذه الآية بيانا لاصطفاء آل عمران : « والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » وأنه يقول فى جانب مريم : « وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وهكذا نجد أن اصطفاء آل عمران ذكر أولا مجملا ضمن من اصطفى الله ، ثم بين باصطفاء مريم أم عيسى ، ومن هذا يتبين أن عمران الذى سميت السورة بآله هو أبو مريم لا أبو موسى وهرون .

* * *

نسير بعد هذا مع السورة لنتعرف مقاصدها وما بنيت عليه .

هذه السورة مدنية ، وليست من أوائل ما نزل بالمدينة ، ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين ، تقلبت فيها عليهم أحوال من النصر والهزيمة فى غزوات متعددة ، واختلطوا على صورة واضحة بأهل الكتاب من يهود ونصارى ، وجرى بينهم كثير من الحجاج والنقاش فيما يتصل بالدعوة المحمدية وفروعها .

وقد ذكر منها غزوات بدر ، وأحد ، وحمراء الأسد ، وبدر الأخيرة ، وكانت هذه فى شهر شعبان من السنة الرابعة . وقد نزلت بعد سورة الأنفال التى تكفلت بالكلام على بدر ونزلت بعدها سورة الأحزاب التى حصلت فى آخر السنة الخامسة .

ونحن إذ نقرأ السورة نجدها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين لهما خطرهما فى سعادة الأمم وشقائها : أحدهما تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى وهى مسألة الألوهية وانزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الدين والوحى والرسالة . والثانى تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق ، والعمل على إدراكه والتمسك به .

وقد بدأت السورة بتقرير الأمر الأول فذكرت وحدانية الله ، وأنه وحده هو الحى الذى لا يدركه الفناء ، القيوم الذى له الهيمنة والتدبير والقيام على شئون الخلق ، بالإيجاد والتربية الجسمية والعقلية والاعزاز والاذلال ، وقررت فى سبيل ذلك علمه المحيط وقدرته النافذة القاهرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » . « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » .

تقرر السورة هذا فى كثير من أمثال هذه الآيات ، ثم تقرر اصطفاء الله لبعض خلقه « رسلا مبشرين ومنذرين » يعرفون مهمتهم التى كلفهم الله إياها وهى دعوة الخلق إلى الحق وأنهم أعقل وأحكم من أن يقولوا للناس وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة إلا ما طلب الله منهم أن يقولوه ، وأنه قد أخذ عليهم جميعاً العهد والميثاق أن يصدق بعضهم بعضا فى الحق ودعوة الناس اليه « ما كان لبشر أن يؤتيه

الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » . « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

وهذا هو العهد الذى حفظه عيسى عليه السلام وتوفى عليه وسيجيب به ربه يوم القيامة « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

نعود إلى السورة فنجدها تبرز مع هذا فى وضوح وحدةَ الدين عند الله وعلى لسان رسله جميعاً « نزل عليك الكتاب بالحق . . » « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . وتقرر أن هذا هو الدين عند الله . وأن من يبتغى غيره ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

ثم بعد أن تركز السورة هذا الشأن الخطير على شهادة الله بما أودع كونه من آيات وعبر ، وشهادة الملائكة ، وشهادة أولى العلم ؛ تتجه إلى الذين غلبت عليهم شقوتهم فحاربوا الله فى دينه وأعرضوا عن رسله وأخذوا يناوئون الحق على وضوحه ؛ فتذكر كثيراً من أساليب إضلالهم ، وألوان شبههم التى كانوا يعززون بها مراكزهم ، ويحاولون بها فتنة المؤمنين عن دينهم حسداً وبغياً ، لاطلباً للحق ولا التماساً للهدى ، وقد خصت السورة جماعة المسرفين فى شأن عيسى الزاعمين له

ماليس له من ألوهية أو نبوة أو حلول ، فذكرت أن عيسى لم يكن إلا من آل عمران الذين اصطفاهم الله بين من اصطفى ، وأن ولادته لم تكن إلا تنفيذاً لإرادة الله الذي يصور الناس فى الأرحام كيف يشاء ، والذى له سنن عرف منها ما عرف وجهل ما جهل ، والذى إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ، شأنه فى خلق السموات والأرض عامة ، وفى خلق آدم وفى خلق يحي بن زكريا خاصة ، « وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون » ، « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ، « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ، قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء » .

هذا الذى ذكره الله فى شأن خلق السموات والأرض ، وخلق آدم ويحي ؛ هو عين ما ذكره فى شأن خلق عيسى : وجدت السموات والأرض إنشاء وإبداعا ، ووجد آدم من غير أب وأم ، ووجد يحي على كبر من أبيه ، ويأس من أمه ، وبشرت الملائكة زكريا بيحي ، وتعجب زكريا من هذه البشارة مع حالته ، فرده الله إلى مشيئته « كذلك الله يفعل ما يشاء » وهكذا كان شأن عيسى : وجد من غير أب بمشيئة الله ، وبشرت الملائكة به أمه بأمر الله ، وعجبت مريم لهذه البشارة « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » فردها الله إلى مشيئته « قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » .

ثم تعرض السورة بعد هذا إلى أن الخوارق التى ظهرت على يد عيسى لم تكن إلا من سنة الله فى تأييد رسله بالمعجزات الدالة على أنهم عباد علمهم الله الكتاب والحكمة ، وأن الله أرسله إلى بنى إسرائيل بآيات من ربه « أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض

الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

وبعد أن تكشف السورة لهؤلاء الذين أسرفوا فى شأن عيسى ، شبهتهم التى ضلوا بها عن حقيقة التوحيد ، وعن حقيقة الدين عند الله ، تسلك معهم سبيلا آخر فتأمر الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يتقدم اليهم فى ثقة بنفسه واطمئنان إلى دعوته ، فيدعوهم إلى المباهلة وهى أن يجتمعوا جميعاً مع محمد صلى الله عليه وسلم وجماعته فى صعيد واحد ، ويستمطر الكل لعنة الله على الكاذب من الفريقين ، « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » تزلزلت أقدامهم واضطربت أعصابهم وعلموا أنهم إذا قبلوا الدعوة إلى هذه المباهلة فهو الفناء للوالد وما ولد ، وهو المحق الذى لا يبقى ولا يذر ، فتولوا وانقطعوا عن الحجاج ،

وهكذا كما تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بمثله وهم أرباب اللسان والبيان ، تحدى المسرفين فى شأن عيسى بهذه المباهلة السهلة الهينة لو كانوا صادقين فلم يقدروا عليها ، ثم تحدى التاريخَ فى كل ما قصه فى شأن عيسى بقوله « إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

بعد هذا تتجه السورة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يوجه إليهم جميعا دعوة المنتصر فى حقه ، القوى فى برهانه ، الحريص على خير خصمه وسعادته ، مناشدا إياهم بما يقربهم إليه ، ويخفف من غطرستهم وغلوائهم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

هذا هو مجمل ما عرضت له السورة من الحجاج الخاص بالشبه التى أثارتها عند القوم ولادة عيسى وخوارقه ، وقد كانت لهم فنون من الحيل ، وألوان من الشبه ، قصدوا بها على وجه عام إضلال المؤمنين ، وفتنتهم عن دينهم ، وقصدوا بها تبرير استمرارهم على العناد والمكابرة ، ومنع من يريدون الإيمان من أتباعهم بمحمد ورسالته .

فمن فنون حيلهم :

(١) أنهم كانوا يعمدون إلى الحق الذى جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب ، فيخلطونه بالباطل الذى ألحقه به أحبارهم ورهبانهم عن طريق تأويلهم الفاسد لمتشابه الكتاب دون أن يردوه الى المحكم الذى يبين به الحق فى أصول الدين ، ثم يجعلونه دينا يجب اتباعه ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله .

(٢) ومنها إذاعتهم أن إبراهيم كان على دينهم ، ومحاولة صرف الناس عن محمد بذلك ، وفى هذا تقول السورة : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده » .

(٣) ومنها أن بعضهم كان يوحى إلى بعض أن يظهروا الإيمان بمحمد ، وما أنزل عليه فى وقت ، ثم يظهروا العدول عنه والكفر به فى وقت آخر ، ليقول الناس إنه لو كان حقا ما رجع عنه هؤلاء بعد أن آمنوا به .

وفى ذلك كله تقول السورة : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

وتقول : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

وبينما تفضح السورة هذا النوع من فنون حيلهم وكيدهم تتناول من جانب آخر شبههم التى يخلعون عليها لونا من التمويه .

(٤) فمن ذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هؤلاء على ملة إبراهيم والنبيين من بعده ـ كما يزعمون ـ لما أحلوا ما كان محرما من حيوان أو طعام ، ولاتجهوا فى صلاتهم إلى قبلة الأنبياء جميعا وهى بيت المقدس ، فترد عليهم السورة فى هاتين الشبهتين بتكذيبهم فى الأولى ، وبيان صلة الكعبة بإبراهيم فى الثانية ، فتقول :

« كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ، قل صدق الله ، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم » .

وقد سمعوا من قبل فى هذا الشأن من سورة البقرة : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

فهذا شأن الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ، وهذا دين ابراهيم كان هو الإسلام ، وهذه هى الكعبة رفع ابراهيم قواعدها واسماعيل ، وطهراها للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وهذا محمد بن عبد الله هو دعوة أبيه إبراهيم « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين »

هذا ما تناولته السورة فى تقرير المقصد الأول ، ومعالجة أفانين حيلهم وشبههم فيه

* * *

وبينما كانت السورة تقرر هذا المقصد على هذا النحو الذى شرحنا : كانت تعرض فى الأثناء إلى بيان العلة التى تستحوذ على قلوب الناس ، وتستولى على عقولهم فتحول بينهم وبين اعتناق الحق والعمل بالحق ، وهذا هو المقصد الثانى للسورة ، ترده إلى شىء واحد هو الغرور بما لهم من أموال وأولاد ، وسلطان وجاه ، فقد كانوا يتصورون أن فى إيمانهم بصاحب الدعوة الجديدة زلزلة لما لهم من جاه وسلطان ، وأنهم فى غنى عن هذه الدعوة بما لهم من أموال وأولاد ، ويظنون أن ذلك كان لهم عن استحقاق ذاتى ، وأنه دائم لا يزول ، ولا يؤثر فيه إيمان

ولا كفر ، وكثيرا ما حدثنا القرآن عن مثل هذا الوهم الفاسد الذى خدع كثيرا من الناس فأضلهم وأعمى أبصارهم : «ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » . « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » .

وعلى هذا الأساس الذى أرشدنا الله إليه فى كثير من كتابه أخذت سورة آل عمران تضرب على هذه العلة التى يتوارثها الجبارون بعضهم عن بعض ، وترشد إلى أن حب المال والغرور بمتاع هذه الحياة هما علة العلل ، وهما الحائل بين الناس وبين الحياة الطيبة والإيمان الصادق ، وفى ذلك تقول : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار » .

ثم تضرب لهم مثلين ، أحدهما من الماضى البعيد ، والآخر من الماضى القريب : تضرب لهم مثلا بآل فرعون والذين من قبلهم ، وتضرب مثلا بفئتى المؤمنين والمشركين فى بدر وتقول : « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ... لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

ثم تعود السورة وتؤكد أن أموال هؤلاء لا ترد عنهم من بأس الله شيئا ، ولا تنقذهم من العذاب الأليم الذى أعد لهم جزاء نكوصهم عن الحق ، ومناوأتهم لهدى المرسلين « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » . « إن الذين كفروا

لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر (١) أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

وإنه ليجدر بأمثال هؤلاء ، وهم موجودون فى كل زمان ومكان ، أن يلتفتوا إلى أن الأموال التى ينفقونها فى لذاتهم وشهواتهم وبسط سلطانهم على الناس بغيرحق ؛ لا بد أن تفسد عليهم فى نهاية الأمر أخلاقهم وعقولهم ، وتهدم ما بنوا من حضارات ، وشيدوا من قصور ، وابتكروا من وسائل الهدم والتخريب ، ستقضى أموالهم هذه على حرثهم الذى له يعملون ، وفى سبيل بقائه ينفقون ، ولا أجد مصداقا لهذه الآية الكريمة أقرب ولا أوضح من هذه الحروب الطاحنة التى تقضى بين الفترة والفترة على كل ما لهم مما يزرعون ويحرثون .

وبينما تعرض السورة أثر الافتتان وسوء عاقبة الغرور بالأموال والأولاد على هذا النحو ؛ نراها تقرر الحق فى شأن حب الناس للأموال ومظاهر هذه الحياة ، وتقول إنه شىء قد فطروا عليه ، ولكنه ليس هو المقصد الأسمى من هذه الحياة ، وإنما هو متاع وزينة ، وهو فى الوقت نفسه سبيل ـ إذا أحسن استعماله ، وأديت حقوقه ـ للحصول على المتاع الخالد فى الحياة الخالدة ، سبيل لمتاع خير منه وأسمى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد » .

ثم تصف هؤلاء الذين اتقوا والذين لهم ذلك الجزاء ، بأنهم هم الذين أدركوا الحق وأنفقوا ما آتاهم الله من مال ، ابتغاء مرضاة الله ، وصبروا على ما انتابهم من بلايا ومحن ، ورجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين

(١) البرد الشديد

والمستغفرين بالأسحار » . « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وبعد أن تركز السورة هذين المقصدين : المقصد الأول الذى يتعلق بالألوهية وبيان الحق فى الدين والرسالة ، والمقصد الثانى فى بيان العلة التى أعمت من أعمت ، وأصمّت من أصمت عن قبول الحق والاستجابة لدعوته ، وهى علة الغرور بالمال والولد ، وتستنفد فى هذين أكثر من نصفها ؛ تتجه إلى جماعة المؤمنين الذين جمعهم الحق ، وتكوّنوا على أساس من الرحمة بالخَلْق ، فتحذرهم أن يتأثروا لشىء من خطة هؤلاء المعاندين فى أفانين حيلهم وباطل شبههم والاغترار بمتاع الحياة ، وتطلب إليهم أن يعتصموا بحبل الله وأن يذكروا الأخوة التى ربطت بين عواطفهم ، ثم تأمرهم بوسيلة ذلك كله ، وهو التضامن الاجتماعى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى تدوم لهم وحدتهم وتستقر دولتهم « يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » .

ثم تضع السورة لهم فى جانب ذلك ما ينبغى أن يسلكوه فى علاقتهم بغير المؤمنين ما يباح منها وما لا يباح : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون »

* * *

نسير بعد ذلك مع السورة فنراها تركز هذه الأصول عند المؤمنين ، وتلفت

أنظارهم فى سبيل ذلك إلى حادثتين عظيمتين من حوادثهم الخاصة ، لهم فى كل حادثة منهما أكبر العظات فيما قررته السورة من مقصديها العظيمين : الصدق فى الإيمان ، وعدم الاغترار بزخارف هذه الحياة .

تلفتهم إلى واقعة بدر وكيف انتصروا فيها بالإيمان والصبر والتقوى مع قلتهم وضعفهم فى المال والعدة ، ومع كثرة أعدائهم ووفرة مالهم وقوة عددهم : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

وتلفتهم إلى واقعة أحد وفيها اعتمد المسلمون على قوتهم وكثرتهم ، وخطف أبصارهم شيء من زخارف الدنيا ، وفيها انهزموا لسبب مخالفة الرماة أوامر القيادة الحكيمة ، وفيها أرجف الأعداء بموت الرسول ، فتزلزلت أعصاب كثير من المؤمنين ، وفيها أفصح المنافقون عن نياتهم ، وفى ذلك كله تقول السورة : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » الخ ، وفيها تقول : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » ، وفيها تقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين ، وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين » وفيها تقول عن المنافقين الذين رجعوا : « وما

أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أوادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » . « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

وأخذت تشرح لهم فى شأن هذه الواقعة إلى أن تقول بيانا لواقع الأمر عند الله « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وأن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ثم لايفوت السورة ـ وهى تحدثهم عما أصابهم من هزيمة فى أحد ـ أن تبين لهم أن هذا إنما هو ابتلاء من الله وتمحيص للمؤمنين ، والعاقبة لهم على كل حال : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وأن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

وتقول فى شأن مكانة الذين قتلوا فى سبيل الله عند الله ، تحريضا لغيرهم على الاستشهاد ، وعلى الاخلاص ، « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » وهكذا تشرح السورة لهم بمناسبة هذه الواقعة مايجب أن يتحلى به المؤمنون من الاعتماد على النفس ، والثبات والإخلاص وعدم

التأثر بالأراجيف ، وتبين لهم أن الجيش له حياة مستقلة عن حياة شخص القائد ، وأنه لا ارتباط بين موقفه وما يصيب القيادة ، إلى غير ذلك من أنواع التعليم والتأديب التى لا غنى عنها لجيش يريد العزة والحياة الطيبة .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى النهى عن مظهر من مظاهر الاغترار بالمال وهو البخل به عن الإنفاق فى سبيل الله : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرلهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

ثم تنبههم إلى أن الشأن فى أرباب الحق أن ينالهم من نصراء الباطل كثير من الأذى بالقول والعمل ، وأن واجب المؤمنين أن يتلقوا كل ذلك بالصبر والاحتمال : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

بعد هذا كله تختم السورة الكريمة بأمرين عظيمين :

أحدهما : رسم الطريق الذى يصل به الإنسان إلى معرفة الحق والإيمان به : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

والثانى : هذه النصيحة الغالية التى ما تمسكت بها أمة إلا تركزت وسمت وعزت ، وما تخلت عنها أمة إلا أصيبت بالضعف والانحلال والتدهور والانحطاط والذل والهوان :

« يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » ؟

## رسالة الإسلام :

إن هذا النهج القويم الذى يسير عليه فى تفسير كتاب الله ، أستاذنا العلامة الشيخ شلتوت ؛ لنهج فريد يحق لنا أن نعتز به ، ولقرائنا الكرام أن يحرصوا

عليه ، ويعلنوا شديد اغتباطهم بتوفيق الله فيه ، فقد ائتلفت عليه قلوب أرباب المذاهب المختلفة فى شتى البلاد الاسلامية إعجابا وحبا ، وقبولا ورضى ، وما تزال تأتينا الرسائل من أهل العلم والفضل معنة فى الثناء عليه ، والتشجيع على المزيد منه .

وأول محاسن هذا التفسير ، أنه إلى عنايته الكبرى بإبراز الموضوعات الهامة فى النواحى العلمية والخلقية والاعتقادية والاجتماعية ، يعرض السورة القرآنية أمام أنظار القراء عرضا يمكنهم من استجلاء عظمتها ، ومجاراتها فى أهدافها وأغراضها ، وتذوق أسلوبها ومنهاجها الذى رسمته لبيان هذه الأغراض ، والوصول إلى تلك الأهداف ، دون أن يشغلهم بما تعودالمفسرون فى القديم والحديث أن يشغلوا به قراءهم من الخوض فى الموضوعات التى تخرج بالقرآن فى كثير من الأحيان عن وضعه الذى أنزله الله عليه ، وتلوى العقول والأفهام عما فيه من هدى وبيان .

ولذلك يترجم هذا التفسير فى العالم الإسلامى نقلا عن هذه المجلة إلى ثلاث لغات : الفارسية والتركية والانجليزية ، يترجمه إلى كل منها علماء ندبوا أنفسهم لذلك تقديرا له ، وإعجابا به .

وكان آخر ما جاءنا فى الثناء عليه كتابٌ أرسله العلامة الكبير الشيخ مرتضى آل ياسين من كبار علماء النجف الأشرف يقول فيه :

« وإن كتمتكم شيئا فلا أكتمكم إعجابى ببحوث التفسير التى تنتجها براعة العلامة شلتوت ، فانى أنتهز لها فرصة الفراغ من أعمالى فأستوفيها مطالعة ومراجعة ، متمنيا لفضيلته اطراد التوفيق ، لمواصلة هذه البحوث القيمة ، بهذا الأسلوب الرائق الرصين ، ولو لم تتكشف « رسالة الاسلام » إلا عن هذا الوسام الممتاز الذى تحمله على صدرها ، فتظهر به أمام قرائها ؛ لكفاها مفخرة تعتز بها فى مجالى العز ، وترفع بها رأسا عاليا حين ترفع الرءوس » .

ونحن نضم دعاءنا إلى دعاء فضيلة العلامة المرتضى ، فنسأل الله أن يعين أستاذنا الجليل ، على استكمال هذا التفسير البارع الفريد ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ؟

# ديموقراطية الإسلام

لحضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا

رئيس جماعة التقريب

---

« الديمقراطية » لفظ مكون من كلمتين : « ديموس » ومعناها : « الشعب » و « كراتوس » ومعناها : « سلطة » فالمعنى التركيبي لها هو : « سلطة الشعب » .

وهي كلمة إغريقية دخيلة فى اللغة العربية لم يتداولها الناس قبل القرن الحاضر . فلم يكن العرب فى صدر الإسلام على اتصال بما أنتجه العقل الإغريقى ، من علوم ومعارف ، وثقافات حتى العهد العباسى ، الذى بدأ العرب يترجمون فيه التراث الإغريقى إلى اللغة العربية .

وإذا جاز أن يكون العرب قد سمعوا فى هذا العهد عهد الترجمة كلمة « الديمقراطية » فقد كان هذا السماع مقصوراً على دائرة ضيقة من العلماء الذين ترجموا أو اتصلوا بالمترجمين ولم تشع فى ذلك الحين ، ولم تستعمل بين الجمهور للدلالة على هذا المعنى الخاص الذى تدل عليه اليوم .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا يجهلون مدلولها ، الذى تدل عليه اليوم ، كما كانوا يجهلون اللفظ ، فالعرب أحرار بطبيعتهم ، وديمقراطيون بطبيعة تكوينهم وبيئتهم . وسنرى هنا إلى أى مدى كان الإسلام ديمقراطيا فى نزعته . وتشريعه . وفى تكييف حياة المسلمين العملية .

قام نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى التوحيد والفضائل ، فى بلاد تفشت فيها عبادة الأوثان والجهالة . وكان القوم فى بلاد الحجاز عاكفين

على الظلم والاستبداد ، وعلى أعمال السلب والنهب ، وعلى الغزو والتقاتل ، وعلى الخمر والميسر . وعلى التفاخر بالأنساب ، وقوة الشكيمة والأتباع ، وكثرة النفر والنفير .

وكانت بلاد الحجاز بلاداً جرداء قاحلة ، كلها صحارى وجبال ووهاد ونجاد . عف الفاتحون عنها فبقيت فى عزلة واستقلال . وظل أهلها متمتعين بحرية الحركة والانتقال . يتصرفون فى أمورهم كما يشاءون ، من غير أن يكون لهم وازع إلا المصلحة القبلية والعصبية والوثنية .

وحول هذه الصحراء القاحلة كان يوجد من جهة الشمال إمبراطوريتان عظيمتان ، هما : إمبراطورية الرومان الشرقية . وإمبراطورية الأكاسرة «إمبراطورية الفرس» . ويوجد من جهة الغرب البحر الأحمر . ومن جهة الشرق صحراء . ومن الجنوب بلاد اليمن ، وكان لا يؤبه بها فى ذلك الحين .

ومن حيث الحكومة وشئون السياسة كانت بلاد الفرس تحت حكم الطغيان ، أى حكم الفرد المستبد الذى لا يخضع فى حكمه إلا لما يمليه عليه عقله وإرداته . أما بلاد الرومان الشرقية . وهى التى كان يعبر عنها العرب بأمة الروم فقد كان لها إمبراطور يحكمها ، وكانت ذات قوانين وضعية كان أهمها التشريعات التى وضعها «جوستانيوس» فى القرن السادس من الميلاد ، فوضع ما يسمى ( ديجست ) و ( انستيتوت ) و ( نوفل ) و ( القوانين ) .

وبالرغم من تلك القوانين ، ومن الشرائع التى وضعت أيام جوستانيوس وقبله فقد كانت هذه الامبراطورية مقطعة الأوصال ، مفككة العرى ، عم فيها فساد الحكم والطغيان ، وانتشرت فيها المحاباة والرشوة ، حتى ضعفت قوتها وتفككت .

وأما العرب فكما قلنا كان لا يتحكم فيهم إلا التقاليد القبليـــة ، والمصالح والنزعات والشهوات .

فى هذا العصر ظهر النبى الأمى الكريم صلى الله عليه وسلم ، وقام يدعو إلى التوحيد . وهو أساس الإسلام . ذلك التوحيد الذى يعنى أن الله واحد « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

ويبين أن محمداً ليس إلا عبد الله ورسوله . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، ولا يملك لأحد شفاعة إلا أن يأذن الله له ، وأنه إنسان وبشر أوحى إليه برسالة فحسب . « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد » وأنه ليس هناك بين العبد وربه حاجز ، فلا وساطة . والطريق إلى الله مفتوح لكل إنسان ، يصل إليه من يشاء بعمله وجده لا بحسبه ونسبه ، ولا بشهادة القديسين والمصلين له . فليس هناك اعتراف لغير الله أو توبة إلا له . وليس هناك نظام كهانة أو كهنوت أو رهبانية أو زهد عما أباح الله لعباده من الطيبات ، ولكن عبادة وتعمير للأرض وبناء للمجتمع .

فحطم « محمد » بهذه الفكرة أوثان المشركين كاللات والعزى ومَناة وهُبل ، وحرم عبادة الأوثان ، وفى سبيل هذه الدعوة الكريمة التى نهضت بالعقل الإنسانى إلى ما يليق به من كمال إنسانى عرض نفسه إلى الأذى ، وعداء أهله وذويه وأقرب الناس إليه ، فتألبوا عليه وجمعوا جموعهم لقتله ، فأنقذه الله مما كانوا يمكرون .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كانوا كلما أمعنوا فى إيذائه قال : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

حرم الخمر والميسر ، وحرم وأد البنات ، وقد كان المشركون يرون من العار أن تكون لهم بنات ، فكان من بينهم من يضعها فى حفرة ، ويهيل عليها التراب حتى تموت .

منع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الوحشية ، وأزال هذه الجهالة ، وجعل للبنات حقا فى العيش كالبنين ، وجعل للناس جميعا واجبات بعضهم على بعض ، وأشاع فيما بينهم أن أحبهم إلى الله هو أنفعهم للناس ، ليتسابقوا إلى الجهاد فى سبيل

الخير الاجتماعي حتى يوجد شعب يستعد كل فرد من أفراده للتضحية بمصالحه الشخصية فى سبيل المصلحة الاجتماعية .

أوجب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، لا ليطهرقلوب الأفراد ويزكيها فحسب ، بل ليهيء مع ذلك للسلمين فرصا اجتماعية للخير والبر والتراحم ويجعلهم يلتقون كل يوم وليلة لتتأكد عرى الروابط بينهم ، ويلتقون كل عام فى مكة المكرمة ، ويكونون مؤتمرا إسلاميا يتداولون فيه شئونهم ويتدبرون أمورهم ، ويقررون ما فيه خيرهم وصلاحهم ، حتى ينهضوا إخوة متآزرين متصافين متحابين كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ونادى بأن الناس سواء لا فرق بين هاشمي وغير هاشمي ، بين عربى وغير عربى ، بين أبيض وغير أبيض ، بين شريف ووضيع ، بين هذا وذاك ، فالكل سواء فى الإنسانية ، والكل سواء أمام القانون ، والكل سواء أمام الله ، لا يتميزون إلا بالتقوى والعمل الصالح .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

أرأيت خيراً من هذا نورا ينبثق من بين أمة جاهلة متناحرة ، تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض ، وتتفاخر بالأحساب والأنساب ، والقوة والعصبية فينادى بأن الناس سواسية ، لا يتفاوتون ولا يتفاضلون ، إلا بما يقدمون للمجتمع من جلائل الأعمال ؟ .

ذلك النور هو محمد بن عبد الله الذى لم يتلق هذا السمو عن أحد من أهله وذويه ، أو عن البيئات التى كانت تعاصره وتجاوره ، ولكنه تلقاه عن الوحى الأمين الذى لا ينطق عن الهوى ، فهو نور إلهى يهدى الإنسانية إلى أرقى ما يهدف إليه الإنسان الكريم .

كفل محمد للمرأة حريتها واحتفظ لها بإنسانيتها ، ولم يجعلها متاعا ، بل إنسانا

يتمتع بما يتمتع به كل إنسان من حقوق ، فلها أن تملك المنقول والعقار ما شاء لها حق التملك ، ولها أن تبيع ، وأن تهب ، وأن توصى وتقاضى كما تريد ، ولها حق الإرشاد ، ولها حق التعليم ، ولا ينقص حق من هذه الحقوق بزواجها ، فهى تحتفظ بمالها ، مستقلة عن مال زوجها ، كما لها أن تتصرف فيه كما تشاء ، وأن توكل عنها من تشاء ، دون أن يكون لزوجها سلطان عليها فى ذلك كله .

نهض بالإنسان إلى مكانة عليا ، فاحترم عقله وإرادته وحريته ، وتركه حراً من غير أن يكرهه على أن يعتنق هـذا الدين أو ذلك الدين « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ولم يشرع الحرب أداة لإلزام الناس أن يكونوا مؤمنين ، بل دفاعا عن النفس والعقيدة ، وتأمينا لطريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

وانظر إلى خطب الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة تجده فيها ينهى عن حرب التخريب والشدة ، ويحرم حرب الاستئصال ، فكان يقول فى وصاياه : لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ، ولا تقطع شجرا مثمرا ، ولا تخرب عامرا ، ولا تعقر شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، ولا تقطع نخلا ولا تحرقه ، ولا تغلل ولا تمثل ، ، ولا تقتل أصحاب الصوامع ، أى المعتكفين على العبادة من غير أهل دين الإسلام ، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهى ، التى تبين بوضوح أنها لم تكن حرب غيظ ونكاية ، بل حرب ضرورة أثارتها أحقاد قوم لايعقلون ، ولا يريدون أن يتركوا الأبواب مفتحة فى سبيل دعوة رشيدة تتبع خير الطرق وأسلمها .

ارتفع بالعلم والعلماء فى عصر الجهلاء والجهالة .

فجاء فى القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

« وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور » .

وجاء فى السنة : « تعلموا العلم ولو بالصين » .

« تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة » .

ارتفع بالعلماء حتى سماهم أهل الذكر وأولياء الأمر ، يسألون فيما يختلف فيه الناس ، ويرجع إليهم الحاكمون والمحكومون على السواء .

وبلغ من حبه للعلم والتعلم أن جعل فداء من يقرءون ويكتبون من أسرى « بدر » أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة فى وقت كان الإسلام فيه أحوج ما يكون للرجال والمال .

جعل أمر الناس شورى فيما بينهم ، بعد أن وضع قواعد عامة ومبادىء عليا صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان . وترك للعقل الإنسانى بعد ذلك ـ فيما عدا قليلا من التشريعات التفصيلية ـ حرية الحركة والعمل فى كل العصور والأزمان .

فجاء فى القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » « وشاورهم فى الأمر » .

وأوجب طاعة هؤلاء وطاعة أولى الأمر ما لم يامروا بما يخالف أمر الله أو نهيه . (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ) . وفى الحديث ( السمع والطاعة حق على المرء فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ) و ( إنما الطاعة بالمعروف ) .

بذلك كله ـ وكله نهوض بالعقل الإنسانى ، نهوض بالمرأة والرقيق ، تسوية شاملة بين أفراد الجنس البشرى ، لا يفترق فيها فرد عن فرد لدينه أو لقومه أو لونه ـ أوجد الاسلام ديمقراطية عالمية ، مخالفة لتلك الديمقراطيات المحلية التى ألمعنا إليها سابقا ، ونفذها بين الجماعة .

أرأيت كيف كان محمد صلى الله عليه وسلم منفذاً لأوامر ربه ، ومسوياً بين الأشراف والأرقاء ؟ .

أرأيت كيف غضب حين قال أبو ذر الغفارى لعبد زنجى : « يا ابن السوداء » وقال له : طفَّ الصاع طفَّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ؟ .

انظر إليه يقرر فى حجة الوداع دستور المسلمين فى هذا الصدد ، فيقول : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

فلما بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وأعلم الناس بوحدة الخالق وبوحدة المخلوق انتهت مهمته فى هذا العالم ، ففارقه مطمئنا ، تاركا فينا ثروة ، لو تمسكنا بها لكانت نورا هادياً إلى سبيل الرشاد .

وهى تلك الثروة التى لا نجد لها شبيها من عمل الإنسان ، فقد ناقضت ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وعقائد وتقاليد ، وما رآه فلاسفة اليونان والرومان ووصلوا إليه من ثقافات ، بل كانت ثورة عليها لأنها كانت تستعبد الإنسان للإنسان وقد خلق الله الكل متساوين فى الحقوق والالتزامات .

وحق لها ذلك ، فهى دين الخلود ، وخاتمة الأديان ، ومكملة الرسالات التى جاء بها النبيون من قبل: ابراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى والنبيون أجمعون ، وبذا اختتمت سلسلة الرسالة واكتمل بناء النبوة .

وقد كانت الشعوب المضطهدة تستقبل المسلمين بترحيب واستبشار بل يدعونهم للدخول ، ويفتحون لهم الأبواب ، كما فعل المقوقس رئيس أقباط مصر ، وغيرهم من الشعوب وحكام الأقاليم ، لينقذوهم من براثن الحكم الغاشم ، حكم الدخلاء الغاصبين ، إذ أن العرب لم يكونوا مستعمرين طامعين فى التوسع الاقليمى رغبة فى ملك أو مادة ، ولكن كانوا مؤمنين بتلك الدعوة ، يحاولون إزالة الغواشى التى كانت تقف حاجزا ، تمنع الضعفاء من الاستماع للحق والانصات لكلمة الهدى والرشاد .

لذلك لم يكن المسلمون الأولون — وهم أكبر حجة فى فهم معنى الاسلام — يعدون جيشاً للاستعمار ، ولكن كانوا يتركون من فتحت بلادهم يديرون أمورهم كيف شاءوا ، وإذا أسلموا لم يكن لأحد عليهم من سلطان إلا سلطان كتاب الله ، وما للمسلمين بعضهم على بعض من حقوق النصح والشفقة والإحسان .

* * *

لست أريد هنا أن أقارن بين تلك العدالة الشاملة ، والحرية الكاملة ، وبين الكبت والعسف والاستبداد التى كان يئن العالم منها فى ذلك الحين وبعد ذلك الحين ، فكتب التاريخ مليئة بذلك النوع ، تبين أن الطغيان والجبروت كان ديدن حكام أوروبا ، حتى بلغ أن قال بعضهم - لويس الرابع عشر - فى القرن السابع عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر من الميلاد : « أنا الدولة » .

وظل ذلك الوضع سائدا حتى الثورة الفرنسية التى أعلن فيها الفرنسيون مبادئهم السامية الثلاثة (الحرية والإخاء والمساواة) وهى ليست إلا إحدى المبادىء السامية التى أعلنها الإسلام قبل ذلك بأحد عشر قرنا .

وضع الإسلام قواعد عامة لقيادة الجماعة ، ولأصول الأحكام ، وضع قواعد أغلبها عام يرجع إلى مكارم الأخلاق ، وتحقيق العدالة ، وإزالة المنكر ، وجعل الحكم شورى بين المسلمين ، ولكن تفاصيل تلك الشورى متروكة للمسلمين ليقرروا أصلح الأنواع التى تتناسب مع الزمان والمكان وظروف الأحوال ، ولما يجد من أحداث ، ولما يرتبط بالعالم الإسلامى عند اتساع رقعته من أمم وتقاليد وعادات .

فقواعد الإسلام فى هذا الباب ، وفى كثير غيره عامة ومرنة ، تتسع لكثير من الأمور الجديدة التى تستدعيها طبيعة العمران ، ولقد كان الإسلام حكيما فى ذلك ، وحكيما فى أنه لم يترك للناس التصرف فى معنى الأخلاق ومدلولها ، خيفة أن يزيغوا ويضلوا فى تحديد الأخلاق الكريمة ، تحت عامل الجهل أو الشهوة .

وتلك الأخلاق القويمة والمبادىء الكريمة التى دعا إليها الإسلام وقام بها

المسلمون هى سر انتشاره واتساع رقعته ، وإن نظرة واحدة إلى العالم الإسلامى كما نراه اليوم لكفيلة بتبيين ذلك .

انظر إلى الإسلام تجده قد انتشر فى بلاد الهند مثلا انتشارا عظيما ، بعد سقوط الدولة المغولية ، وبعد زوال ملك المسلمين ، حتى بلغوا اليوم مائة مليون ، وقاربوا الخمسين فى الصين ، وفى إندونيسيا وجزر المحيط الهندى وسواحله نحو ثمانين مليونا ، وفى أواسط إفريقية عدد كبير من الملايين ، كل ذلك من غير ان يكون له ظهير من قوة أو سلطان ، وإنما هى سماحة الدين الإسلامى ، والتجاء المسلمين إلى وسائل الدعوة بالحسنى التى أمر بها القرآن الكريم ، فى قوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

فالاسلام يتغلغل بالسلم والاقناع ، ويسير إلى الأمام بخطىً واسعة ، قوى المؤمنون أو ضعفوا . ولقد شهد بذلك كل من رجال الدين والسياسة على السواء .

فترى هتلر مثلا فى كتابه ( كفاحى ) يصرح بأن المبشرين مع ما ينفقون من أموال ، وما يبذلون من تضحيات ، لم ينجحوا فى إيقاف هذا التيار الجارف ، تيار انتشار الإسلام . ولعل ذلك هو الذى دعا بعض السياسيين إلى أن يمنعوا المسلمين من دخول بعض المناطق الاستوائية ، ومنع سكان هذه المناطق من الاتصال بالمسلمين . أتلك هى حرية القرن العشرين أم أننا لا نزال نتخبط فى دياجير من العسف والعبودية ؟

قلنا : إن الإسلام وضع قواعد عامة ، وترك أمرها إلى أهل الذكر من المسلمين ، كما جاء فى القرآن الكريم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . ولهذا قام فى الدين عند بعض المذاهب ـ للمحافظة على روح الإسلام ، وحسن تطبيقه ـ مصدران آخران فى التشريع بعد القرآن والسنة . هما القياس والاجماع . حتى إذا ظهرت حادثة لم يشملها نص صريح من كتاب أو سنة ، تمكن المؤمنون من إيجاد حكم معقول لها ، مسترشدين فى ذلك بالأقيسة ، وبإجماع أهل الذكر ،

وهم الأكفاء الذين تمكنوا من قواعد دينهم ، وسمت أخلاقهم ، حتى يأتمنهم المسلمون فى أقضيتهم ومنازعاتهم .

ومن هنا ظهرت المذاهب الإسلامية ، واختلفت وتعددت ، وهى تسعى كلها إلى الخير وإلى الحق ، دون أن تخرج عن الأسس التى جاءت فى الكتاب وفى السنة فهى خاضعة من حيث المبدأ إلى التشريعات السماوية الخالدة .

فالشورى من القواعد التشريعية العامة ، التى أمرنا أن نعمل بها فى شئون المسلمين ، وفى شئون الدولة . ولكن ترك تحديدها وتفصيلها للمسلمين ، ليكونوا نوع الشورى الذى يتناسب مع حياتهم الاجتماعية .

وهنا صح للمسلمين أن ينشئوا مجالس نيابية بجانب ولى الأمر . وجاز لهم أن ينشئوا بجانب هذه المجالس أيضاً مجالس أخرى ، تراقب الأولى ، وتراجع ما تقرره ، تكون قراراتها أدعى إلى الطمأنينة ، وأقرب إلى السداد .

ويجوز للجماعة الإسلامية أن تطمئن إلى قرار أهل الذكر ، فتحصر النواب فيمن ترى فيهم كفاءة فى نواحي النشاط الاجتماعى ، كما يجوز لها أن تجعل الانتخاب حراً طليقاً ، تختار الأمة من تشاء ، إذا لم تجد حرجا من ذلك .

كل هذا وغيره من الأمور التى لم يشأ الإسلام أن يدخل فى تفاصيلها . بل تركها إلى ضمير الشعب ودينه وخضوعه لقواعد الإسلام الأساسية ، التى أمر بها من عدل ورحمة ، واحترام للحقوق الفردية والحقوق العامة والالتزامات والعهود .

* * *

تلك هى القواعد العامة التى تباهى بها اليوم الديمقراطيات الحديثة ، وهى من مبادىء الإسلام الأولى ، التى لم تترك تحت رقابة الضمائر والنظم والقوانين فحسب . بل تحت رقابة الله العليا ، وهو الذى يعلم ما تخفى الصدور ، ويراقب المرء فى سره وفى علانيته .

تلك هى ديمقراطية الإسلام . وهذا هو عمقها وأثرها فى النفوس ، كأداة

تطهير لها . لا بالرياء والختل والخداع ، ولا بالمظهر والصورة . ولكن بالواقع والحقيقة وبحسن النية والإخلاص .

وإن الديمقراطية اليونانية بما فيها من حكم الفرد الصالح كالديمقراطيات الحديثة ، التى تفرعت عنها ديمقراطيات محلية لم تنهض بحال للمستوى العالمى ، الذى يليق بالديمقراطيات الإنسانية .

وأما الإسلام فالنظرة الإنسانية فيه كاملة .

فقد سوى كما بينا آنفا بين أفراد الإنسانية جمعاء ، لا فرق بين زنجى وغير زنجى . لا فرق بين عربى وغير عربى . لا فرق بين هاشمى وغير هاشمى . لا فرق بين أقارب الرسول وأقارب من عداه ، أو من عاداه ؛ إلا بالتقوى وبالعمل الصالح .

ذلك هو العدل الإنسانى المطلق . فسمه بما شئت غير الديمقراطية فإنها كلمة كما نعرفها اليوم ضيقة لا تصفه ولا تحده .

وهو العدل الشامل الذى وقف بعض من لا يفهمونه حاجزاً دون انتشاره . ولكنه سينتشر يوماً ما ، حين يرقى الإنسان ، وتزول عنه عصبية الجاهلية .

وسيأتى يوم يوفق فيه الإنسان كإنسان . ويتسع أفقه . ويكبر عقله . وترتفع إنسانيته . فيتخلى عن قانون الغاب والظلم والاستبداد ، ويتمسك بقانون الإسلام ، قانون العقل والرحمة والعرفان .

وإلى أن يأتى ذلك اليوم ، يوم الإنسانية السعيد ، فستظل الأرض مهلكة ومذبحة ، ومكان التطاحن والتنازع والحروب ، حتى تشتد الأزمة ، وتعصف العاصفة ، وتضيق الأمور ، وتحلك الظلمات ، فتوقظه الشدة ، وتنبهه القارعة ، فيؤمن بسبل السلام والإسلام ، ويحترم أخاه الإنسان .

وفقنا الله جميعاً للسداد ؟

# الإسلام والمدنية الحديثة

## لصاحب العزة الكاتب الكبير الدكتور أحمد أمين بك

---

مما يؤسف له أن المسلمين لم يتابعوا النهضة الأوروبية منذ نشأتها ، ولم يكونوا يعرفون عنها شيئا ، إذ كانت البلاد الإسلامية مغلقة على نفسها لا تتصل اتصالا وثيقا بالعالم الأوروبى إلا عن طريق تجارة ضئيلة ، أو أحداث سياسية قليلة ، أما ما يجرى فى أوروبا منذ نهضتها من حركة علمية وصناعية ، ونهضة قومية ، وثورات لمطالبة الشعوب بحقوقها ، ونحو ذلك ، فلم يكن المسلمون يعرفون عنه شيئا ، ولو أنهم عرفوا ذلك وجاروا الغربيين فى نهضتهم لكان لهم شأن آخر .

إنما عرف المسلمون المدنية الغربية عن طريق سيء جدا ، وهو طريق الفتح والاستعمار ، عرفوا المدنية الغربية من صوت المدافع تفتك بهم ، وتغزو بلادهم فلا عجب إن كانوا قد قابلوها بكثير من الكره والبغض ، وكان ذلك طبيعياً ، ولو أن هذه المدنية تقدمت فى شكل تقدم إنسانى يصح أن يحتذى ؛ لقابلها المسلمون بكل أنواع الارتياح وسعة الصدر ، ولفتحوا قلوبهم كلها للاستفادة منها .

إنما أتتهم فى شكل حديد ونار ، واكتساح واستغلال ، ففزعوا منها وصدّوا عنها .

نعم إنهم استفادوا منها كثيرا ، فاستخدموا مخترعاتها ، واقتبسوا كثيرا من معارفها وعلومها وصناعاتها ونحو ذلك ، ولكن كل هذا لا يساوى ما خسروه بسببها : لقد فقدوا بها حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وتقدمهم ، ولو تقدما بطيئا من داخل أنفسهم .

لقد كان طابع المدنية الحديثة طابعا قوميا ، فكل أمة ترى الخير فى مصلحتها الخاصة بها ، ولا تعترف بأى مصلحة لغيرها ، وتزعم أنها أحق بالسيادة على الأمم الأخرى المستضعفة ، وخدمَ العلمُ والأدب والتربية ، هذه النزعة القومية حتى بلغت القمة ، ونشأ عن ذلك مقياس أخلاقى جديد ، وهو ان ما كان فى مصلحة الأمة فخير مهما ضر الآخرين ، وما ضر الأمه فشر مهما نفع الآخرين ، وساد فى كل أمة أوروبية الشعور بالكره لغيرها والخوف من غيرها ، فانجلترا تكره ألمانيا وتخافها ، وألمانيا تكره انجلترا وتخافها ، وهكذا العلاقات بين الدول ، فان كان هناك مسالمة وتودد فأمر ظاهرى فقط ، ورياء ونفاق لاحب ولا إخلاص ، وظل هذا هو الشأن فى المدنية الحديثة من عهد أن تكونت القومية إلى اليوم .

وكل أمة أوروبيه قوية تعبد المجد ؛ ومعنى المجد حب العظمة والسيطرة ، والاعتزاز بالقوة ، وكان من أثر هذا المجد عند كل أمة كبيرة رغبتها فى أن تسيطر على أكبر رقعة من الأرض تستطيع السيطرة عليها ، وفى أن يكون لها مستعمرات أو ممتلكات واسعة فسيحة ، وهذا المجد القومى غير المجد الخلقى ، فالمجد الخلقى هو العمل على وفق القوانين الأخلاقية العالمية من عدل ووفاء وإحسان ونحو ذلك ؛ أما المجد القومى فهو سيطرة واستغلال وتسخير الأمم الضعيفة لمصلحة الأمم الكبيرة ، ولو اضطرها ذلك إلى إسالة الدماء البريئة ، وإذلال الأعزة ورفع شأن الأذلة ، وهذا ليس من الأخلاق فى شىء ؛ والسياسى الماهر فى المدنية الحديثة هو من استطاع أن يذل الأمم المحكومة ويكبت صوتها ، ويعلى من شأن أمته ويظهر سيطرتها .

ولما تغلبت الوطنية وحب المجد على أمم أوروبا وأمريكا تنافست فى السيطرة طلبا لهذه العزة الكاذبة ، فتسابقوا جميعاً للاستعمار ، وكان الاستعمار فى نظرهم هو إخضاع الأمم المستعمَرَة وإذلالها ما أمكن ، واستغلال موادها ، وفتحها سوقا لتجارتها ومنافعها . ولا عبرة عندها بخلق أو فضيلة ، حتى لو رأت الأمة الفاتحة أن تجارة الخمر ، أو الأفيون ، أو المخدرات عموماً ، أو الرقيق الأبيض ،

أو نحو ذلك مما يفيد استعمارها ؛ لم تتورع عنه ، لأنها لاتقصد إلى سمو فى الخلق ولا نبل فى الفضيلة ، وإنما كل ما تقصد هو العزة القومية ، والمجد الكاذب ، بالمعنى الذى ذكرنا .

وليس هناك أى شعور إنسانى ، من الأخذ بيد الضعيف ، وتعليمه علماً نافعاً ، وترقيته والأخذ بيده ، حتى ينهض بنفسه أو نحو ذلك ، فهذا المعنى الإنسانى معدوم فى نظر الاستعمار الغربى .

على هذه الأسس ، استُعمرت البلاد الإسلامية ، وتقسمتها انكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندة وغيرها ، وكانت كلها سواء فى هذين الأساسين ، وهما تقويم المسائل حسب القومية ، لاحسب الإنسانية ، والعمل للمجد القومى والمنفعة القومية ، بإذلال الأمم المفتوحة ، واستغلالها وإضعافها . فليست تقدم لها علماً إلا علماً ضعيفاً لإخراج موظفين يخدمون الاستعمار ، وليس هناك استغلال ثروة إلا لمصلحة الفاتح دون مصلحة المفتوح .

وهكذا أضعفت المدنية الأقطار الإسلامية ، واستنزفت أموالها ودماءها وأخلاقها من غير مراعاة لأى شعور إنسانى ، أو إخاء إنسانى ، أو عطف كبير على صغير ، أو مساعدة قوى لضعيف ، وليس هناك من فرق بين هذه الأمم إلا فى الأسلوب ، لا فى الجوهر والحقيقة .

ومما يستدعى العجب ، أن المدنية الحديثة كرهت الإسلام والمسلمين أشد كراهة ، بل إن كراهيتها للاسلام والمسلمين أشد من كراهيتها لسائر الأديان الأخرى ، من يهودية وغيرها ، بل أشد من كراهيتها للوثنية ؛ فهى تكره المسلمين أشد مما تكره اليهود ، وأشد مما تكره البوذيين وسائر الوثنيين ، وتظهر هذه الكراهية فى سوء المعاملة وحب الانتقام ، وظلم ما يصدر عنها من أحكام ؛ وإذا كان هناك نزاع بين مسلمين وغير مسلمين وتدخلت المدنية الحديثة ، فإنما تتدخل للإيقاع بالمسلمين والتنكيل بهم ، يتجلى ذلك فى حكم الانجليز للهند ، وتمييزهم فى المعاملة بين المسلمين والهندوكيين ، وفى المظهر الحديث فى النزاع القائم بين المسلمين واليهود إلى كثير من أمثال ذلك .

وعلة هذا تستوقف النظر ؛ فليست المسألة مسألة خصومة بين الإسلام والمسيحية ، ولو كان الأمر كذلك ، لكان المعقول أن يكون الإسلام أقرب إلى المسيحية من أى دين آخر ، وعلى الأقل أقرب إلى المسيحية من المسيحية إلى الوثنية ، فليس الأمر أمر دين فحسب ، ولكن يظهر أن هذه الخصومة والكراهية ترجع إلى أسباب أعمق من ذلك ، منها ما خلفته الحروب الصليبية من الخصومة ، فقد أراد الصليبيون أن يستولوا على الأقطار الاسلامية ، وبذلوا فى ذلك من الجهود الجبارة ما يعرفه التاريخ ، واستعملوا للتغلب على المسلمين كل الوسائل الصادقة والكاذبة ، فجمعوا كل قوتهم المادية ، ونشر القساوسة كل ما استطاعوا من تضليل وكذب ، وافتراء على الاسلام ، حتى صوروا الاسلام وصاحبه أبشع صورة وأفظعها . فلما لم ينجحوا مع ما بذلوا من كل هذه الجهود عادوا وهم يحملون الحقد والضغينة على الإسلام والمسلمين ، وأورث السلف هذا للخلف .

هذا سبب ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الاسلام أنجح الأديان فى منافسة النصرانية بين الشعوب الوثنية ، على الرغم من ضعف التبشير فى الاسلام ، وقلة ما يبذل من جهد فى نشره ، ومع قوة التبشير فى المسيحية ، وما يبذل فى سبيل ذلك من جهود وأموال ، فهذا التنافس بين الاسلام القوى والمسيحية سبب كراهية ونفوراً ، لأن الكراهية والنفور ، تشتد بين الأقوياء ؛ أكثر مما تشتد بين قوى وضعيف .

ومن الأسباب أيضاً أن الاسلام يبث فى معتنقيه العزة ، وأن تكون كلمة أهله هى العليا ، وكلمة غيره هى السفلى ، ويحث على مقاومة حكم الغير ، وعدم الخضوع للأجنبي ، وهذا ما يغيظ الاستعمار كل الغيظ ؛ وهل أتاك حديث زعيم فرنسى يحمل على تعليم العلوم باللغة العربية فى بلاد المغرب ، لأن اللغة العربية وسيلة للإسلام ، والاسلام يناهض الاستعمار فإذا علمنا بالعربية ، فقد مكّنا من مناهضة حكم الأجنبي .

هذه الأسباب وغيرها هى التى حملت المدنية الحديثة على مناهضة الإسلام

والمسلمين ، والتنكيل بهم ، وإقفال طريق الرقى أمامهم ، وكان الواجب أن يشعر المسلمون بذلك كل الشعور ، فيزيدوا قوتهم ، ويبذلوا كل جهدهم لتكوين أنفسهم وإعلاء كلمتهم واستقلالهم بأنفسهم ، وادخار القوة لمكافحة القوة .

لقد فتح الاسلام كما فتحت المدنية الحديثة ، ولكن كان أساس فتحه نشرَ العدل والأخذ بيد المفتوحين ، والرقى بهم فى سلوكهم وأخلاقهم ودينهم ، وأن لأهل الذمة من الحقوق ما للمسلمين ، ولكن الفتح الغربى فتحُ جبايه واستغلال ، لا فتح سمو فى الأخلاق ، ولا نشر لمبادىء إنسانية ، ولا أخوة عالمية ، لا شىء من ذلك ، إنما هو فتح لأسواق تجارية ، واستعباد من القوى للضعيف ، ومن العالم للجاهل .

فليفتح المسلمون أعينهم ليروا كل هذا وليبنوا خططهم على أن لا أمل إلا فى أنفسهم ، وإلا ببذل كل الجهد فى تقويتهم مادياً وروحانيا ، وإلا بجمع كلمتهم ووحدتهم وهدم تفرقهم وتعاونهم التام للعمل أمام الخصم الذى يسعى للتنكيل بهم ، ووضع العراقيل فى سبيل تقدمهم ، والله يوفقهم ؟

# الشخصية المحمدية

## تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

## طلب الدنيا فريضة على كل مسلم

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الاستاذ محمد فريد وجــــدى بك

مدير مجلة الأزهر

---

يصم الملحدون الأديان بأنها تصرف الناس عن الاهتمام بأمور دنياهم ، فيكثر فيهم الزهاد المتقللون ، والعباد المتقشفون ، ادعاءً منهم بأن الغنى ينافى التقوى ، ويجافى المسكنة التى يجب أن تكون شعار المؤمنين ! وهذا لو صدق على أديان محرفة ، أو طوائف متطرفة ، فليس من الاسلام فى شىء ، فلقد شهد التاريخ جملة وتفصيلا بأن الاسلام ما حل بأمة فى عهد نهضته الأولى إلا زاد ثروتها ، وعمر بلادها ، وأحيا مواتها ، فكان أهله حيث حلوا حلت العدالة فى الأحكام ، والمساواة فى الحقوق ، ونشط الناس لطلب بركات الأرض ، باستثمار سهولها ، واستخراج المعادن من حزونها ، حتى عمر غامرها ، وأخصب مجدبها ، وازدهر عمرانها ، وتلألأت مدنيتها ، وارتقت معارفها وصناعاتها ؛ ولست بمطلق القول جزافا فى هذا الموطن ، فهو من الحقائق التاريخية التى لا يمارى فيها إلا جاهل أو مكابر ، وهل بعد أن يشهد بذلك مؤلفو الفرنجة مكانٌ للشك والارتياب ؟ قال العلامة « دريبر » المدرس بجامعة « هارفارد » بأمريكا فى كتابه : « المنازعة بين العلم والدين » :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ ميلادية ، أى بعد موت محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح » .

إلى أن قال :

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً ( تأمل ) ، وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم » .

إلى أن قال :

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد ، وتربية الحيوانات ، وسنن النظم الزراعية الحكيمة ، وادخال زراعة الأرز وقصب السكر والبن . وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن ، وكانوا يذيبون المعادن ويجرون فى عملها على ماحسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها . وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر . الخ الخ » .

وقال العلامة (جيبون) المؤرخ الانجليزى المشهور عند ذكره للرعاية والحماية التى بذلها المسلمون للعلوم :

« كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس جامعة علمية فى بغداد ، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً ، وكان عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غنى وفقير ، الخ الخ » .

وقال العلامة ( سِدِيُّو ) أحد وزراء فرنسا فى كتابه ( تاريخ العرب ) :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون الجميلة ،

وقد نشروها أينما حلت أقدامهم ، وتسربت عنهم إلى أوروبا ، فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها .

« ولم يكتف المسلمون بأن يكونوا معلمين للأوروبيين ، وملقنين لهم النهوض والمدنية ، ولكنهم أسسوا فى بلادهم جامعات ، وأقاموا مراصد ، باعتبار أنها كانت تحت سلطانهم ، فبقيت لأهلها بعد جلائهم ، وأثمرت ثمراتها اليانعة لهم » .

وقال العلامة ( دريبر ) السابق ذكره :

« أول مدرسة أنشئت للطب فى أوروبا هى المدرسة التى أسسها العرب فى ( بالرم ) من إيطاليا ؛ وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون فى أشبيلية بأسبانيا ، ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً ، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن موجودة من قبلهم » .

إننا نستأنس بهذه الأقوال عن علماء الفرنجة المعاصرين لندل قراءنا على أن الإسلام قد أحدث انتقالا عالمياً من ناحيتى العلم والمدنية لم تكن لتحلم به الإنسانية فى عهد من عهودها السابقة ؛ فهو ليس بدين خنوع واستكانة ، ولكنه دين ترق عقلى ومدنى لا يقف عند حد ، وهذا كله يرجع إلى الروح العلوية المحمدية التى فقهت مرامى الوحى الإلهى ، فأدركت كيف يمكن أن يجمع المسلمون بين العقائد الصحيحة والسيرة القويمة المؤديتين إلى أرقى مراتب الحياتين الروحية والمادية ، وبين الخلط والخبط فى المدركات الدينية ، حتى تسقط بأهلها إلى حضيض المهانة ، فتكون سبباً إما فى هلاكهم أدبياً واجتماعياً ، وإما فى خروجهم على الأديان باعتبار أنها تودى بذويها إلى حياة الصغار والذل ، وتقذف بهم إلى هوة الانحلال والتلاشى .

احتاط النبى صلى الله عليه وسلم لوقاية أمته من التأدى إلى هذه النهاية فأيقظ فيهم روح العمل لطلب الدنيا إلى جانب نشاطهم لاقامة الدين عملا بقول الله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » ، فالمتأمل فى

أحاديثه الكريمة يدرك لأول وهلة ، مما يراه فيها من المبالغة فى التحضيض على العمل الدنيوى ، أنه يرمى إلى غاية سامية كل السمو ، وهو أن يحمى المسلمين من الضعف المادى الذى يصيب الغالين فى الدين ، فيكون ذلك سبباً لتدهور الأمة ، وصدًّا لها عن بلوغ الغايات القصية من الوسائل المادية الضرورية لمتابعة ترقيها إلى المثل العليا للحياتين معا .

لقد انتقل المسلمون طفرة ، بفضل حكمة القرآن الكريم ، وسمو قيادة محمد صلى الله عليه وسلم للنفوس ، من جاهلية جهلاء ، إلى إيمان راسخ رسوخ الأطواد ، وحب للتعبد ونيل الدرجات الروحية ، فاقوا فيهما الذين توارثوا الدين والكتب السماوية أجيالا كثيرة ، حتى آثروا أن يشاركوا النبى فى تهجده بالليل ، ومنهم من حرموا على أنفسهم الطيبات ، ومن شرعوا يصومون الدهر ، فكان صلى الله عليه وسلم يعدّل من غلوائهم فى ضروب العبادات ، ويلطف من تشددهم فيها ، لما كان يخشاه من أن إيثارهم للعبادة إلى هذا القدر ، يحد من نشاطهم للقيام بالأعباء المادية ، والمهام العلمية والصناعية ، التى لا محيص عنها لأمة اختيرت لأن تبلغ أرقى ما يمكن الوصول اليه من الناحيتين الدينية والدنيوية ، فلذلك أكثر من حضهم على طلب الدنيا ، واعتبر مثوبة العمل لها مساوية لمثوبة العمل للآخرة . وبدأ فوضع أصلا لهذه الوجهة فقال صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ، وهى كلمة لم تؤثر عن أى مصلح دينى فى الأرض ، لأنه أدرك بسمو تعقله ، وعلو تفكيره ، أن الإنسان فى هذا العالم المادى لايستطيع أن يبلغ درجة الكمال الروحى والعقلى إلا إذا أمن غوائل الحاجة ، وهى لا تؤمن إلا بالعمل الجثمانى ، وأنه كلما ازداد أمنا من هذه الناحية ازداد نشاطه الروحى ، وادراكه العقلى ؛ فأشاد لهم بثواب العمل للدنيا ، إشادته بثواب العمل للآخرة ، دفعاً لهم إلى طلب مقوّمات الحياة الاجتماعية ، ومن يتأمل فى أحاديثه المروية عنه فى هذا الباب ، يجد ما يدهش له ، ويتضح له بُعد مدى ادراكه لعوامل الارتقاء فى الشعوب ، وسمو فهمه لمقومات

العمران ، ولعلاقة هذا العمران ببقاء الدين الذى يدعو اليه ، وبمناعة المجتمع الذى يعيش فى ظلاله .

بحسب الداعى إلى دين أن يُحل طلب أهله لما يقوّم جماعتهم من تكاليف الحياة ، ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكتف بذلك ، بل جعل لطلب هذه المقوّمات ثواباً يساوى ثواب المجاهدين فى سبيل الله . فأول مافعله فى هذا الموضوع أنه جعل طلب الحلال فريضة يأثم تاركها ويحاسب عليها فقال : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » . ثم شرع يدعو إليه بعبارات مؤثرة تشعر بجلالة خطره ، فقال : من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء » ؛ وزاد فى الدعوة اليه حتى فضله على نوافل العبادات فقال : « العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى طلب الحلال » . بل قال : « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمّ فى طلب المعيشة » .

ورفع من قدر أماكن المبادلات ، ومحال المبايعات فقال : « الأسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها » فأى ورع يمنع من غشيان الأسواق بعد هذا ؟

وقال مشيدا بالكد فى طلب العيش : « من أمسى وانيا من طلب الحلال بات مغفورا له ، وأصبح والله عنه راض » ومن ذا الذى لا يحب أن يصبح على هذه الحال ؟

يرى القارىء مما سردناه عليه من هذه الأحاديث سمو إدراك محمد صلى الله عليه وسلم لمقوّمات الحياة الإنسانية ، وشمول نظره لعوامل ارتقاء الجماعات البشرية ، وإيصالهم إلى المثل العليا من الكمالات المادية والمعنوية ، وقد فهم المسلمون الأولون مراميه البعيدة صلى الله عليه وسلم فجدوا للحصول على الحسنيين معا ، فبلغوا من التدين إلى ما لا يروى عن سواهم من الاخلاص والورع ، ومن المدنية المادية إلى ما لم تدانهم فيه أعرق الأمم فى الحضارة ، حتى شهد متمدنو هذا العصر من الغربيين أن المدنية المادية التى وصلوا إليها لا تقل عن المدنية العصرية رونقا ولألاء ، فقال الأستاذ ( دريبر ) فى مؤلفه ( المنازعة بين العلم والدين ) :

« لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقا ، ولا أرق مدنية ، ولا ألطف رونقا

من عواصم الأندلس على عهد العرب ، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط ، وكانت تدفأ شتاءً بالمواقد ، وتهوّى صيفا بالنسمات المعطرة بوساطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرا ، وكانت لهم حمامات ومكتبات ، ومحال للغذاء ، وينابيع مياه عذبة . الخ الخ » .

قال المؤلف نفسه مقارنا مدائن الأوربين بمدائن المسلمين : « فى هذا العهد كانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن لها نوافذ ولا أرضيات خشبية ، أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرا ، إلى أن قال :

« وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون أحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة . الخ الخ » .

هذا غيض من فيض ، ولولا كراهة الاطالة لأمعنا فى الكتابة ، فعذرة ؟

---

# علويّات

سئل الإمام على كرم الله وجهه فى فداء أسرى المسلمين من أيدى المشركين ، فقال : "فادُوا منهم من كانت جراحاته بين يديه دون من كانت من ورائه فإنه فارّ" .

واوصى رجل إلى آخر أن يتصدق عنه من هذه الألف دينار بما أحب ، فتصدق بعشرها ، وأمسك الباقى ، فخاصموه إلى على رضى الله عنه ، وقالوا : تأخذ النصف وتعطينا النصف ، فقال : أنصفوك ! قال : إنه قال لى : أخرج منها ما أحببت ، قال : فأخرج عن الرجل تسعمائة والباقى لك ! قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأن الرجل أمرك أن تخرج ما أحببت ، وقد أحببت التسعمائة فأخرِجْها !

# بيان للمسلمين

لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الكبير

## الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء

---

اطلع القراء على ما نشرناه من قبل لبعض العلماء من استعظام مهمة التقريب ، وتوهم استحالتها ،

وقد جاد فكر الإمام العلامة شيخ الشريعة ، وكبير مجتهدى الشيعة بهذا البيان الناصع ، الذى يفيض إخلاصا وإيمانا ، كما يفيض ألمعية وعلما ، ونحن إذ ننشره دفاعا عن فكرة الحق ، وجمعا للمسلمين على كلمة الإيمان ، نسأل الله تعالى أن يطيل حياة الشيخ ، ويبارك فيها للاسلام والمسلمين .

قال دامت بركاته :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلنى العدد الأول من السنة الثانية من مجلة رسالة الإسلام الزاهرة التى تصدرها جماعة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة ، ونظرت حسبما سمح لى الوقت والفراغ فى أكثر ما نشره الأعلام فيه من المقالات ، فما وقع بصرى منه إلا على النافع الشهى مما لذ وطاب، من أقلام أولئك الكتاب ، بيد أنى شعرت من بعض ما نشر فى آخر هذا العدد ، وبعض الأعداد السابقة ، أن جماعة من ذوى الفضل لم يصلوا إلى ما يهدف له أعضاء هذه الجماعة الأماثل ، وحيث ضلوا عن قصد السبيل ، وجدوا أن حصول غرض الجمعية من المستحيل

نعم إنه لمن المستحيل إن لم يكن عقلا فعادة ، إذا كان الغرض هو إزالة الخلاف بين المذاهب الإسلامية ، وجعلها مذهبا واحدا سنيا فقط أو شيعيا أو وهابيا ، كيف واختلاف الرأى والخلاف فى الجملة طبيعة ارتكازية فى البشر ، ولعل إليه الاشارة بقوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » أى للرحمة أو للاختلاف على الخلاف .

ولكن ينبغى أن يكون من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الاسلامية إزالة أصل الخلاف بينها ، بل اقصى المراد وجلّ الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سببا للعداء والبغضاء ، الغرض تبديل التباعد والتضارب ، بالإخاء والتقارب ، فان المسلمين جميعا مهما اختلفوا فى أشياء من الأصول والفروع فانهم قد اتفقوا على مضمون الأحاديث المقطوع عندهم بصحتها من أن من شهد الشهادتين واتخذ الاسلام دينا له ، فقد حرم دمه وماله وعرضه ، والمسلم أخو المسلم ، وأن من صلى إلى قبلتنا ، وأكل من ذبيحتنا ، ولم يتدين بغير ديننا فهو منا ، له مالنا وعليه ما علينا .

إن « جمعية التقريب » لعلها تقول : المسلمون بعد اتفاقهم كلمة واحدة على أن القرآن العزيز وحى من الله جل شأنه وأن العمل به واجب ، ومنكر كونه وحيا كافر ، والقرآن صريح فى لزوم الاتفاق والإخاء والنهى عن التفرق والعداء ، وقد جعل المسلمين إخوة فقال عز شأنه : « إنما المؤمنون إخوة » . « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » إلى كثير من أمثالها ، فبعد اتفاقهم على وجوب الأخذ بنصوص الكتاب الكريم فأى عذر لهم فى هذا التباعد والتباغض والعداء والبغضاء ، وكفى بالقرآن جامعا لهم مهما بلغ الخلاف بينهم فى غيره ، فان رابطة القرآن تجمعهم فى كثير من الأصول والفروع ، تجمعهم فى أشد الروابط من التوحيد والنبوة والقبلة وأمثالها من الأركان والدعائم واختلاف الرأى فيما يستنبط أو يفهم من القرآن فى بعض النواحى ، اختلاف اجتهادى لا يوجب التباغض والتعادى .

نعم أعظم فرق جوهرى ، بل لعله الفارق الوحيد بين الطائفتين : السنة ، والشيعة ، هو قضية الإمامة حيث وقع الفرقتان منها على طرفى الخط ، فالشيعة ترى أن الامامة أصل من أصول الدين ، وهى رديفة التوحيد والنبوة ، وأنها منوطة بالنص من الله ورسوله ، وليس للأمة فيها من الرأى والاختيار شىء ، كما لا اختيار لهم فى النبوة بخلاف إخواننا من أهل السنة ، فهم متفقون على عدم كونها من أصول الدين ، ومختلفون بين قائل بوجوب نصب الامام على الرعية بالاجماع ونحوه ، وبين قائل بأنها قضية سياسية ليست من الدين فى شىء لا من أصوله ولا من فروعه ، ولكن مع هذا التباعد الشاسع بين الفريقين فى هذه القضية ، هل تجد الشيعة تقول إن من لا يقول بالامامة غير مسلم (كلا ومعاذ الله) أو تجد السنة تقول إن القائل بالامامة خارج عن الاسلام - لا وكلا - إذن فالقول بالامامة وعدمه لا علاقة له بالجامة الاسلامية وأحكامها من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ، ووجوب أخوته ، وحفظ حرمته ، وعدم جواز غيبته ، إلى كثير من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه .

نعم ونريد أن نكون أشد صراحة من ذلك ، ولا نبقى ما لعله يعتلج أو يختلج فى نفس القراء الكرام . فنقول : لعل قائلا يقول إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم ، وقد يتجاوز البعض إلى السب والقدح مما يسىء الفريق الآخر طبعاً ويهيج عواطفهم . فيشتد العداء والخصومة بينهم .

والجواب أن هذا لو تبصرنا قليلا ورجعنا إلى حكم العقل بل والشرع أيضا لم نجده مقتضياً للعداء أيضا .

أما (أولا) فليس هذا من رأى جميع الشيعة وإنما هو رأى فردى من بعضهم ، وربما لا يوافق عليه الأكثر . كيف وفى أخبار أئمة الشيعة النهى عن ذلك فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم .

(وثانيا) أن هذا على فرضه لايكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام .

بل أقصى ما هناك أن يكون معصية ، وما أكثر العصاة فى الطائفتين . ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعا .

( وثالثاً ) قد لا يدخل هذا فى المعصية أيضاً ولا يوجب فسقا إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد ، وإن كان خطأ ، فان من المُتَسالمَ عليه عند الجميع فى باب الاجتهاد أن للمخطىء أجراً وللمصيب أجرين . وقد صحح علماء السنة الحروب التى وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما ، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وهم وإن أخطأوا فى اجتهادهم ، ولكن لا يقدح ذلك فى عدالتهم وعظيم مكانتهم . وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتلَ آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم ، فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه — أى مع الاجتهاد — تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة .

والغرض من كل هذا أننا مهما تعمقنا فى البحث ومشينا على ضوء الأدلة عقلية أو شرعية ، وتجردنا من الهوى والهوس والعصبيات ، فلا نجد أى سبب مبرر للعداء والتضارب بين طوائف المسلمين مهما اتسعت شقة الخلاف بينهم فى كثير من المسائل .

هذا كله بالنظر إلى القضية من حيث ذاتها مجردة عن كل الملابسات ، فكيف إذا نظرنا إليها من حيث ما جرّه هذا الخلاف والعداء من الويلات والبليات على المسلمين ، وما ضاع على أثره من الممالك الإسلامية الكبرى كالأندلس والقوقاز وبخارى ونحوها ، ولو أن المسلمين كانوا فى تلك الظروف يداً واحدة كما أمرهم الله ، لما انتزع من الإسلام شبر واحد . وإذا لم يكفنا عبرة ما سجله التاريخ من تلك الفجائع فليكفنا ما رأيناه بأعيننا من رزية المسلمين بفلسطين وهى الفردوس الثانى ؛ سبع دول عربية إسلامية كما يزعمون تتغلب عليها عصابة من أذل الأمم مشهداً وأقلهم عددا . ثم يمزقون تلك الدول شر ممزق . يشردون تسعمائة ألف مسلم بل أكثر من عرب فلسطين فيملكون دورهم وقصورهم وأراضيهم وأموالهم ، ويضعونهم فى البرارى والقفار ، تحت رحمة الأقدار . يفتك بهم البرد والجوع

والمرض ، والمسلمون يسرحون ويمرحون لا ينصرونهم إلا بالـكلمات الفارغة ، والتأوهات الـكاذبة . أما والله لو أن تلك الدول تركت عرب فلسطين يحاربون اليهود بأنفسهم لمـا استطاع اليهود أن يتغلبوا على قرية من قراهم أو قطعـة من أراضيهم . لم يـكتف المسلمون بخذلان اخوانهم وتسليمهم إلى اليهود ، بل كانوا ولا يزالون حتى اليوم عونا لليهود ، يساعدونهم بكل ما فى وسعهم من تهريب وغيره ؛ بل يصنعون لليهود ما لايصنع اليهود لأنفسهم ؛ كل ذلك من آثار التقاطع والتخاذل بين المسلمين ؛ فلا جامعة تجمعهم ولا رابطة تربط بعضهم ببعض، وتعطف بعضاً على بعض ، لذلك حقت عليهم كلمة العذاب ، ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولـّوا مدبرين .

نعود فنقول إن جمعيـــة التقريب تريد أن تقرب بين الطوائف الإسلامية وترفع العداء المستحكم بينهم ، وتدعوهم إلى الأخذ بمـا أمرهم الله به من الاعتصام بحبل الإسلام ، وأن لا يتفرقوا ويتنازعوا فتـذهب ريحهم ، ويتسلط عليهم أذل عباده وأرذل خلقه ؛ وليست هذه الفئة المباركة بأول من نهض بهذه الدعوة وقام بهذه الفـكرة ، بل سبقهم إلى ذلك جماعة من المخلصين الغيارى على الإسلام والمسلمين كالسيد الأفغانى وتلميذيه الشيخ محمد عبده والـكواكبي وغيرهم ؛ سوى أن هؤلاء كانت دعوتهم بصفة فردية ، ورجال التقريب قاموا بهـا بصفة جمعية ؛ ولعل الحق جل شأنه بعنايته إذا علم بإخلاصهم وصدق نياتهم يجعـل لدعوتهم ثمراً جنياً ، وأثراً حسيا .

أما هذا العاجز فقد أهبتُ بالمسلمين وصرختُ فيهم بهـذه الدعوة منذ عهد سحيق كما تشهد بذلك مؤلفاتنا التى طبعت قبل زهاء أربعين سنة ، كالدين والإسلام والمراجعات وغيرهما . ثم ملأنا الصحف والمجلات بإيقاظهم من نومهم ، وبعثهم من موتهم ، وألقينا مئات الخطب على المنابر فى عواصم الإسلام ، وقد طبع عدة منها كخطبة فلسطين التاريخية ، طبعت مرتين ؛ وخطبة الاتحاد والاقتصاد فى جامع

الكوفة والخطب الأربع إلى كثير من أمثالها ؛ ولكن كأن الله ختم على قلوبهم وذهب بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

* * *

جماعة التقريب تريد أن تقرب بين الطوائف الإسلامية وتبعثهم وتحثهم على الأخوة والوحدة التى أمرهم الله بها فى كتابه العزيز ، ولكن يلزمهم ويلزمنا تمهيداً لهذه الغاية الشريفة أن ينصحوا لإخوانهم من الكتّاب وحملة الأقلام فى مصر أن لا يتحرشوا ويطعنوا بإخوانهم الإمامية ، فما يكاد يأتى عام إلا ونسمع أو نرى كتاباً أو رسالة من مصر ترمى الشيعة بالفظائع وتهجم عليهم بالمطاعن ، وبحكم الضرورة يلتجىء هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم فتثور الاحقاد ، وتستعر الحفائظ ، وتكون أكبر خدمة للأعداء والمستعمرين ، كما أن اللازم على كل فرقة من المسلمين ، من الشيعة وغيرهم أن يوصدوا باب المجادلات المذهبية ، وما يثير الحفائظ والعصبية ، فانها إن لم تكن محرمة بنفسها ، ومضرة بذاتها ، فهى من أعظم المحرمات فى هذه الظروف التى أحاط بنا فيها الأعداء أعداء الإسلام من كل جانب ومكان حتى من المسلمين ومدعى الإسلام العدو الداخلى الذى ضرره أعظم من العدو الخارجى فهل فى هذا كفاية وبلاغ أيها المسلمون .

« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله . على بصيرة أنا ومن اتبعنى . وسبحان الله وما أنا من المشركين » ؟

# نظم الحكم كما يراها الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى بك

عضو جماعة كبار العلماء والإمام الخاص للحضرة الملكية

---

قال الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » ، وقد يكون ذلك الدمار الذى خلفته حروب دامية ، ومساجلات مستمرة بين الجماعات والشعوب خلال ذلك الجزء الأول من هذا القرن فاتحة عهد تنعم فيه البشرية ، إن لم يكن برخاء مادى فعلى الأقل براحة روحية بعد تلك الأزمات النفسية ، والهزات العصبية التى اجتاحت الأمم والأفراد ربع قرن أو يزيد ، وقد تتنبه الإنسانية بعد عظيم الكوارث التى مرت بها إلى العمل على تفادى صراع آخر لا يعرف مصدره ولا مورده ، ولا يدرى أوله ولا آخره ، والله يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » وإن له فى كل ذلك لمقصداً وحكمة ، وإنه ليبتلى بالحسنات والسيئات لعل العالم يرجع عن غيه حين يدرك أن وراء تقديره تقديرا ، ووراء سلطانه سلطانا لا يغلب ولا يقهر ، وفوق منطقه الضعيف الذى ينظر للحوادث وللعالم نظرة فردية نفعية ، منطق المدبر الأعظم للكائنات ، وهو ينظر إليها فى مجموعها وتباين أزمانها ، وتغاير أمكنتها على أنها وحدة متكافلة فى خيرها وشرها ، مهما ضؤل فى نظر الناظر أفرادها .

وقد بدأ العالم يرسل الصيحة إثر الصيحة مبشرا بنظام عالمى جديد غير ذلك العالم الممزق الأوصال ، المهلهل النسج ، الذى لم يعرف ـ رغم تقدمه المادى فى خلال ربع القرن الأخير ، تقدما سيطر به على أصغر شىء فى الوجود ، وغير به ، وسيغير ، مجرى الحياة للأفراد والجماعات ـ إلا التعاسة والشقاء والخراب والدمار والفوضى

التي كادت تهد بنيانه من القواعد ، وإلا صرخات ُغلب فيها الضعيف على أمره ، وأطل منها الشيطان بقرنه يقرع الحق بالباطل ، وقد ضاعت صرخات الشعوب فى طلب استقلالها ، وتبددت فى غمرة من شهوة التوسع والاستعمار، التىأظلت الاقوياء ممن بيدهم الحول والطول ، وتعطلت خطوات التقدم نحو الغـاية المنشودة .

هذا هو التصوير الحقيقى لمـا عليه العالم اليوم ، وهذا هو التصوير الحقيقى لمـا كان عليـه العالم يوم أشرق عليهم ذلك النور الإلهى يحمله محمد عليـه الصلاة والسلام هـداية للناس ، وليؤلف به بين تلك الزمر المتحاربة فى أخوة واحدة ، لافى وطن واحد بل فى جميع العالم ، ومحا الفوارق بين الاجناس والالوان واللغات والحدود الجغرافية ، وبين العقائد المختلفة ، وآخى بين البشر جميعا ، حتى ليكاد قلب أهل المشرق البعيد يخفق إذا ما اهتز قلب المغرب الاقصى ، ولم يتسام إلى المركز الذى شغله الاسلام فى تلك الناحية أى دين آخر ، بل إن النظم التى خلفتها بعض الأديان كانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدل الاتحاد والتعاون ، ففـكرة إدماج البشرية فى وطن واحـد دون الاهتمام بالاجناس والألوان واللغات أو التقيد بالحدود الجغرافية ، هى الهدية التى قدمتها جامعة الإسـلام إلى المدنية البشرية ، وهى البلسم الوحيـد لشفاء تلك الأحقاد الدولية والعداوة البغيضة اللتين ساقتا المدنية والحضارة إلى هوة سحيقة لا يَعرف غورَها ونهايتها إلا عالم الغيب والشهادة .

فالإسلام هو الدين الدولى العام ، الذى يجمع بين الغربى والشرقى ، والأبيض والأسود ، والآرى والسامى ، والهندى والزنجى ، ينال كل نصيبه فى الحياة والتقدم ساعة ينطق بالشهادتين ، ويقف جنباً إلى جنب مع أعظم إخوانه مقاماً ومكانة اجتماعية ، فالجنس البشرى فى نظره أسرة واحدة ، من الناحية النظرية والناحية العملية .

تلك مقدمة عن الفـكرة التى يقوم على أساسها الإسلام ، ومعذرة إن كنا قد أطلنا فى تقديمها ، فهى مقدمة ضرورية ، لفهم الفـكرة العامة فى نظرية الخلافة الإسلامية ، التى هى أساس الحـكم الإسلامى ، ومنهـا تستمد جميع السلطات فى الإسلام ، كيانهـا العملى التنفيذى ، فالخلافة فى نظر الإسـلام رياسة عامة

لشئون المسلمين ، وهنا نقطة جديرة بالتنبه ، ذلك أن بعض العلماء يفترض العالم كله داراً واحدة ، والخلافة تشبه أن تكون حكومة عالمية ، ووجود أمم أو شعوب لا تدين بالإسلام ، لا يمنع من أن تكون تلك الشعوب والأمم خاضعة لتلك الحكومة العالمية ، فليس من شرط الاندماج فى ظل حكومة ، أن يكون جميع المنضوين تحت لوائها من دين واحد ، ومعنى الحكومة العالمية فى الخلافة على ذلك الرأى واضح جداً .

وهذه الحكومة العالمية هى التى يحاول الدعاة جاهدين تهيئة الرأى العام العالمى لها ، مع اختلاف الأشكال والصور ، ولكن النتيجة المحتومة واحدة ، لا بل إن الدول بدأت تظهر محاولات جدية عملية للوصول إلى فكرة كهذه ، وما محاولات الكتل الإقليمية ، وبرلمان الدول الغربية ، وحلف الأطلنطى ، إلا محاولات جزئية للسير إلى تلك الغاية التى أوضحها الإسلام نظرياً وعمليا ، و من قبل حاول مكيافيلى من كتاب القرون الوسطى ، أن يصور فى كتابه ( الأمير ) ما يجب أن يكون عليه الملك العالمى ، ووضح الدوافع التى تدعوه إلى المناداة بهذا الرأى ، ولسنا نسبق الحوادث ، فنقول : إن ذلك واقع لا محالة ، ولكننا أشد تفاؤلا اليوم منا أمس ، بأن فكرة العالمية ، والوطن العالمى ، هى المصير المحتوم للعالم ، والترياق الوحيد لشفاء تلك الأمراض المستعصية .

فالإسلام قد قدم العلاج للتخلص من شرور الحكومات التى عرفتها الأمم التى تدعى لنفسها القوة والغلب ، فبعد أن وضع الأساس للأخوة البشرية ، وللحكومة العالمية كما أسلفنا ، وضع شكل الحكومة ، بحيث يدفع مساوىء الحكومات الأخرى ، فالفاشية تخبرنا فى كلمات مختصرة ، أن الحكومة هى الكل فى الكل ، وما الفرد فيها إلا عبد يعمل وفق مشيئتها . . والبلشفية : شر من هذا ، فهى تعمل إلى أقصى حد على تطبيق النظرية الفاشية ، فتسلب الإنسان حريته وماله . . أما الديمقراطية فإن ادعاءاتها كنظرية ترن فى الآذان الرنين الحلو ، ولكنها عند التطبيق العملى تصبح شراً من أختيها السالفتين ، فهى تستعبد — مستترة بأسماء مختلفة — أكثر من نصف الجنس البشرى ، لا لجريرة إلا ضعفه .

وأهملت فى ظلال هذه الحكومات القيم العليا للحياة ، فالوطن والحكومة هما الصنمان الجديدان اللذان خر الإنسان المتحضر لها ساجداً ، وانضم اليهما المال فأصبح المال ، والوطن ، والحكومة ، أصحاب المكان الأسمى فى قلب الرجل المتحضر ، وعبدها بعد ما صنعها وخلقها بيديه ، وبعد أن كان الغرض من الحكومة أن تبطل اضطهاد الناس للناس ، وأن تقر العدالة بينهم ؛ أصبحت الحكومات أداة ظلم واضطهاد ، وما دام فى قبضتهم قوة وقنابل فلهم الحق فى بسط سيادتهم على الدول الأخرى لكسب المغانم المادية والاقتصادية لدولتهم ، فأصبحت النتيجة أن قوات الحكومات المتزايدة التى كان عليها أن تعمل لخير الأفراد ، أضحت تستخدم فى استرقاق الناس وإيقاع الظلم بهم ، أكثر مما تستخدم لإنقاذهم من الظلم ونشر الحق والعدل بينهم ، والاسلام يقلب هذه النظريات الخاطئة ، ويضع أساس حكومة عادلة لخير البشر ويضع السلطة الحكومية فى أيدى رجال يخافون الله ويخشونه ، فإحقاق الحق ، وخشية الله سبحانه وتعالى ، ورعاية حقوق الناس ، أهم الصفات اللازمة للحاكم الذى يتولى أمور الناس ، وإن القوة الروحية وحدها هى التى تمكن الانسان من السيطرة على القوة التى تمده بها السلطة الدنيوية ، وبغيرها تكون السلطة الدنيوية فى خطر .

ولهذا بلغت الإدارة الحكومية الإسلامية فى صدر الإسلام ـ وهى التى جمعت بين القوة الروحية والدنيوية ـ حداً من الكمال لم نر مثله فى تاريخ الحكومات ، وكان رئيس الحكومة يعتبر نفسه مسئولا أولا أمام الله ، وثانيا أمام موكليه أو مستأجريه ـ كما عبر أبو العلاء المعرى فى قوله : « وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها »

ولكن ليس معنى ذلك ما فهمه البعض من أن حكومة الإسلام كانت حكومة ـ ثيوقراطية ـ أى حكومة دينية ، رؤساؤها هم رؤساء الدين ، فإن رؤساء الحكومات الإسلامية لم يدر بخلدهم أنهم ممثلو الله فى الأرض ، ويستدعى بسط تلك الفكرة مقاماً آخر نعرض لها فيه ، كما نعرض لتفصيل ما أجملنا عن الخليفة ، فإلى الحديث القادم إن شاء الله ؟

# أصول الفقه للشيعة الإمامية
## بين القديم والحديث

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه
المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

---

يحتل علم أصول الفقه فى جامعتى النجف وقم، المكانة الأولى بين سائر العلوم التى تدرس فيهما ، فذو الشهرة بالفضل والتحقيق ، وصاحب الحلقة الكبرى للتدريس ، ومرجع الطلاب إذا احتدم بينهم النقاش والجدال ، هو من أتقن أصول الفقه ، وحقق فيها ، وأحاط بها أصلا فأصلا .

وكل عالم أو طالب جاد لا بد أن يؤلف ويكتب فى الأصول ، فكان من نتيجة هذا الاهتمام أن تطورت مباحث هذا العلم ، وأدخل عليها تعديلات ونظريات حديثة ظهرت آثارها فى مخالفة الأواخر للأوائل فى كثير من الأحكام الشرعية التى ترتبط بأصولها ارتباط المعلول بالجزء الأخير من علته .

ولا يتسع لنا المجال لشرح جميع النظريات الحديثة والمقارنة بينها وبين ماذهب إليه المتقدمون ، لهذا اكتفينا بشرح البعض مع الإشارة إلى بعض القواعد الأخر التى نتنبه إليها .

أصول الفقه علم يبحث فيه عن مفاد مصادر التشريع الذى يحدد أفعال المكلفين من رجحان الفعل أو الترك أو تساوى الطرفين ، وتنقسم مباحث الأصول إلى لفظية وعملية ، واللفظية ما يبحث فيها عن مفاد هيئة اللفظ منطوقا ومفهوما ، لغاية تفهّم ما تضمنه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهى ، وصيغ العموم ، ومله

إلى ذلك مما له دخل فى استنباط الأحكام الشرعية من مداركها ، وأنه هل للشارع فى ذلك حقائق خاصة تخالف أفهام العرف العام ؟

أما المباحث العملية فيبحث فيها عن الأصل الذى يرجع إليه المكلف إذا لم يصل إليه الدليل الشرعى من إجماع أو نص ، أى لو فقد المكلف الدليل فماذا يجب عليه شرعا ؟ فالأصل العملى يبين وظيفة الجاهل بحكم واقعة من الوقائع بسبب فقدان الدليل على نحو لو طبق المكلف عمله على مؤدى الأصل المقرر له لكان معذورا عند الله والناس غير مستحق لعتاب ولا عقاب إن خالف عمله الواقع ، شريطة أن لا يلجأ إلى هذا الأصل إلا بعد اليأس من العثور على دليل الحكم ، ومعلوم أن هذا اليأس لا يحصل للمكلف إلا بعد أن يبذل أقصى ما يمكنه من جهد متتبعاً الآيات القرآنية ، وكتب الحديث ، ومؤلفات الفقهاء وفتاويهم ، ومتى تهاون فى البحث والتنقيب امتنع عليه العمل بالأصل لارتفاع موضوعه .

فالفرق بين الأصول اللفظية والعملية من وجهين ، الأول : أن البحث فى الأولى يرجع إلى مفاد النص الشرعى بعد ثبوته وتحققه ، وفى الأصول العملية يرجع إلى وظيفة المكلف المتحير الذى لم يصل إليه الدليل . الثانى : أن مدرك الأصول غير اللفظية قد يكون العقل ، كقاعدة قبح العقاب من غير بيان ، وهى دليل البراءة ، وقاعدة الشغل اليقينى يستدعى الفراغ اليقينى ، وهى دليل الاحتياط وقد يكون مدركها الشرع ، كحديث « لا تنقض اليقين بالشك » وهو دليل الاستصحاب ، أما مدرك الأصول اللفظية فالعرف العام ، وافق اللغة أم خالفها ، فانه المتبع فى المحاورات ، ولا يقدم عليه شىء سوى الحقيقة الشرعية على تقدير ثبوتها ، وينبغى الانتباه إلى أن العرف حجة متبعة فى تشخيص المعنى العام ، لا فى تطبيقه على أفراده الخارجية ، لأن العرف يتسامح فى التطبيق ، وخاصة فى الأوزان والمكاييل ، والمساحات ، فهو لا يشتبه أبدا فى معنى الساعة ، وأنها ستون دقيقة ، ولكنه يطلق لفظ الساعة على مسافة دون الستين أو أكثر منها .

من هذه التفرقة بين اللفظيـة والعملية يتبين أن التقليم والتطعيم فى الأصول العملية أكثر منهما فى الأصول اللفظية حيث يتسع مجال العقل لتلك دون هذه .

الشبهة المصداقيـة :

فمن النظريات الحديثة فى الأصول اللفظية : النظرية المعروفة بالشبهة المصداقية ومحصلها أن صيغ العموم تدور كثيرا على ألسنة العرب ، وقد امتلأ بها الكتاب والسنة ، وجاءت فيهما مورداً لأوامر الشارع ونواهيه ، وقد تبقى هـذه الصيغ على ما هى عليه من غير تخصيص ، وحينئذ يسرى حكمها إلى جميع أفراد العـام ، وكثيرا ماتخصص بقيد متصل أو منفصل ، حتى قيل : مامن عام إلا وقد خصص بل حتى هذا القول خصص بمثل إن الله على كل شىء قدير ، وهو مالك كل شىء ، وبعد تضييق دائرة العام لا يكون حجة إلا فيما تبقى من أفراده .

فقوله تعالى : « أوفوا بالعقود » دليل عام كاشف عن وجوب الوفاء بكل عقد ربويا كان أم غير ربوى ، وإذا ضممنـا الآية إلى أدلة حرمة الربا ينتج أن وجوب الوفاء مختص بالمعاملات غير الربوية ، وهذه قضية كلية بديهية ، ليست محلا للخلاف والاجتهاد .

ولكنْ هناك أفراد مشتبهة ومرددة بين دليل العام ، وهو أوفوا بالعقود ، ودليل الخاص الدال على حرمة الربا ، أى لم يُعلم من أى النوعين هى ، فلو أن تاجراً يبيع الرطل من سلعته بعشرة دراهم نقداً ، وباثنى عشر نسيئة ، وجهلنـا هل بيع النسيئة هذا من نوع الربا كى يحرم ، أو من غيره كى يجب الوفاء به ؟ مع الفرض بأنه لا دليل يبين حكم هذا البيع ، فهل نستخرج حكمه من آية أوفوا بالعقود ، أو أن الآية مجملة بالنسبة اليه ، وأن حكمه يستخرج من الأصول العملية لفقدان النص ، وكذا حديث « على اليد ما أخذت حتى تؤدى » فإن مساقه تغريم كل ذى يد غاصباً كان أم وكيلا أم مؤتمناً أم وصياً أم ولياً أم حارساً أم مستعيراً أم عاملا بأجرة كالصائغ ، والقصار ، والخياط ، والبيطار ، والمكارى ، والملاح . والراعى والنجار ، والبانى ، أم أخذه بيده يفحصه للشراء والسوم ، فمقتضى حديث اليـد

تغريم هؤلاء جميعاً لو تلف المال فى أيديهم سواء أكان ذلك بسبب التفريط والإهمال، أم بسبب قهرى مع التحفظ الكامل، والاحتراز التام.

وبعد أن تواترت الأدلة على أن غير الغاصب لا يضمن شيئاً مما تلف فى يده إلا مع التعدى والتفريط اختص الضمان والتغريم بالغاصب، والمفرط المهمل، وخرج عن الحديث أكثر هؤلاء، ولا يختلف فى هذه الحقيقة اثنان، ولكن لو علمنا أن مال الغير تلف فى يد زيد، ولم نعلم أكان المال غصباً فى يده كى يضمن على كل حال، أو بطريق مشروع، فلا يكون سبيل لصاحب المال على ذى اليد إلا مع ثبوت التعدى والتفريط، أو علمنا أن المال فى يده بطريق شرعى، ولم نعلم أكان تلفه بغير تقصير كى ينتفى السبيل عنه؛ أو بسبب ترك التحفظ كى يجب الضمان؟ فهل يسوغ الاعتماد على حديث اليد لاستخراج حكم الفرد المشتبه، أو أن الحديث مجمل بالنسبة إليه؟ وحينئذ يتعين الرجوع إلى الأصول العملية، والأمثلة كثيرة من الكتاب والسنة، وللبحث تأثيره البالغ فى جميع أبواب الفقه.

والمعروف من سيرة القدامى، هو التمسك بالعام والرجوع اليه فى حكم الفرد المشتبه؛ فبيعُ النسيئة مع زيادة الثمن لأجل الإمهال صحيح عندهم تمسكاً بأوفوا بالعقود، وصاحب اليد ضامن مع الجهل بأنها شرعية عملا بعموم: على اليد، لأن العام بمقتضى وضعه ظاهر فى جميع الأفراد، فيجب العمل به حتى يثبت العكس فأوفوا بالعقود يشمل أنواع العقود وأفرادها جميعاً، وعليه يكون دليلا شرعياً على وجوب الوفاء بكل عقد من غير فرق بين الربوى، وغير الربوى، ولا تُرفع اليد عن هذا الدليل إلا بحجة مثله أو أقوى منه، ولا شىء سوى أدلة حرمة الربا ومفادها عدم الوفاء بما ثبت أنه ربوى، أما غيره من العقود فيجب الوفاء به أخذاً بالعموم، وكذا يجب الحكم بالضمان، إذا دار أمر اليد بين أن تكون يد ضمان أو غيرها استناداً إلى عموم: على اليد.

أما المتأخرون من فقهاء الإمامية فمنعوا الالتجاء إلى العام لإجماله فى هذه الموارد وأمثالها، وأوجبوا الرجوع فى حكمها إلى الأصول العملية، لفقدان النص،

ومحصل ماذكروه دليلا على ذلك أن قرينة التخصيص إما متصلة بالعام ، أى أنها جاءت والعامُّ فى كلام واحد ، ومثلوا بأكرم العلماء إلا الفساق ، وإما أن تكون منفصلة أى وردت فى كلام مستقل عن العام ، ومثلوا بكلامين مستقلين ، أحدهما : أكرم العلماء ، والثانى لا تكرم فساق العلماء ، وعُلم أن زيدا عالم ، ولكن لم يُعلم أهو عدل كى يجب إكرامه ، أو فاسق كى لا يجب ؟ وذكرنا مثالهم بالذات ، لأنه أخصر وأوضح مما قدمناه من الأمثلة ، والنتيجة واحدة فى الجميع ، وهى عدم جواز الاعتماد على العام فى حكم الفرد المردد .

أما مع الاتصال فلأن القرينة المتصلة بالعام توجب قصر ظهوره ودلالته على خصوص الأفراد التى أرادها المتكلم ، فأكرم العلماء إلا الفساق ظاهر فى إرادة العلماء غير الفاسقين ، ولا ظهور له أبداً بالنسبة إلى معلوم الفسق ، ومجهول الحال ، لأن الكلام لاينعقد له ظهور إلا بعد تمامه ، وبتمام الكلام خرج الفرد المعلوم وتردد الفرد المجهول بين البقاء والخروج ، لإجمال اللفظ بالنسبة إليه ، وإذا كان العام مجملا فى الفرد المجهول فكيف نستنبط حكمه منه ؟ ومن أوجب أكرام هذا الفرد تمسكاً بالعام فقد نفى عنه الفسق مستنداً فى النفى إلى — أكرم العلماء إلا الفساق — أى أنه أثبت الموضوع الخارجى بدليل حكمه الشرعى ، وهو كما ترى ! وبتعبير ثانٍ بعد أن كان مفاد الكلام مقيداً من أول الأمر بغير الفاسق مراداً واستعمالا وظهوراً ، وبعد فرض أن القيد مجمل وغير محرز فى مجهول الحال ، فلا يكون — والحالة هذه — ظهورٌ كى يعتمد عليه فى مقام الحيرة والشك .

أما إذا كانت قرينة التخصيص منفصلة عن العام ، فإن ظهور العام متحقق بلا ريب ، لأن الكلام الذى فيه لفظ العموم ، قد تم بانتهاء المتكلم منه قبل أن يتبعه بقرينة تصرفه عن ظاهره ، فلفظ العام من قولك أكرم العلماء ظاهر فى العالم العدل والفاسق على السواء ، ولكن علمنا من دليل منفصل — لا تكرم فساق العلماء — أن هذا الظهور على إطلاقه غير مراد ، وإنما المراد الحقيق مقيد بغير الفاسق ، ومع هذا التقييد لا يكون ظهور العام حجة بالنسبة إلى الفرد المشتبه ،

لأنه لا يكشف عن مراد المتكلم ، مع أن المتسالم عليه بين العلماء كافة قديماً وحديثاً أن ظواهر الألفاظ إنما تكون حجة متبعة ، لأجل كشفها عن مقاصد المتكلمين ومراداتهم ، ومع عدم هذا الكشف لا يكون لظهور اللفظ أى وزن ، فالقرينة المنفصلة وإن كانت لا ترفع الظهور كما ترفعه القرينة المتصلة إلا أنها تسقطه عن الاعتبار، فالفرق بين الاتصال والانفصال أن العام فى الحالة الأولى غير ظاهر فى جميع الأفراد ، وفى الثانية الظهور موجود ، ولكنه ليس بحجـــة ، فالنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين .

وقرر المحدثون هذه الحقيقة بتعبير آخر، وهو أن دليل العام - أكرم العلماء - ودليل التخصيص ــ لا تكرم فساقهم ــ يرجعان إلى دليل واحد ، وهو : أكرم العلماء غير الفساق ــ ومؤداه ، أن من ثبت علمه مع عدم فسقه ، وجب إكرامه ، ومن ثبت علمه وفسقه معاً ، لا يجب إكرامه ، أما العالم المردد بين الفاسق وغيره ، فلا يمكن استخراج حكمه من هذا الدليل نفياً ولا إثباتا ، أى لا يستفاد منه وجوب الإكرام ، ولا عدم وجوبه . لأن الدليل مسوق لاثبات الحكم عند ثبوت موضوعه ، فمعنى أكرم العلماء ، أنه متى وجد العالم ، وجب عليك إكرامه ، وليس فى دليل الحكم أية جهة نحرز بها موضوعه الخارجى عند الاشتباه ، فكما لا يسوغ الاعتماد على أكرم العلماء ، لأجل وجوب إكرام من لم يثبت علمه كذلك لا يسوغ الاعتماد على هذا العموم ــ بعد ورود التخصيص عليه ــ لأجل إكرام العالم المردد بين الفاسق وغيره .

والخلاصة أن هناك موارد كثيرة فى العبادات والمعاملات لم يرد فيها نص خاص قد استخرج الأولون أحكامها من عمومات الكتاب والسنة ، ورجع المتأخرون فى أحكامها إلى الأصول العملية ، لأن العمومات المذكورة بعيدة عنها كل البعد (١) .

---

(١) لقد أطنب بعض أعلام هذا العصر حيث قسم القرينة إلى متصلة ومنفصلة ، ثم كلا منهما إلى لفظية ولبية ، ثم منشأ الاشتباه إلى المتباينين والأقل والأكثر ، واعتمد على العام فى بعض أقسام الانفصال ، ومن يرغب فى التفصيل فعليه بالجزء الأول من تقريرات السيد أبى القاسم الخوئى .

وأكتفى من الأصول اللفظية بهذه النظرية مخافة الملل والتطويل ، على أنها أهم النظريات ، ولها أبلغ التأثير فى استنباط الفروع من أصولها .

## من الأصول العملية :

وضع المتأخرون لمباحث الأصول العملية كتبا خاصة مستقلة عن المباحث اللفظية ، وابتدءوها بباب القطع ، أى العلم بالحكم الشرعى ، وثنوا بباب الظن به ، ثم باب الشك ، وأدرجوا فيه البحث عن الأصول الأربعة : البراءة ، والاحتياط ، والتخيير ، والاستصحاب (١) ؛ وذكروا فى باب الظن الإجماع والشهرة .

## الإجماع :

اتفق المتقدمون على أن مصادر التشريع أربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، وغالوا فى الاعتماد على الإجماع حتى كادوا يجعلونه دليلا على كل أصل ، وكل فرع .

وعدّ المتأخرون لفظ الإجماع مع هذه المصادر ، ولكنهم أهملوه عمليا ، ولم يعتمدوا عليه إلا نادرا ، بل لم يعتمدوا عليه إلا منضما مع دليل أو أصل معتبر ، ويتلخص رأيهم بأن الإجماع إما أن يكون منقولا بلسان أحد الفقهاء ، وإما أن يكون محصلا ، وهو أن نتتبع بالذات أقوال الفقهاء فى حكم واقعة خاصة ، ونبذل أقصى ما لدينا من جهد فى استقراء آرائهم ، فنجد فقهاء عصر واحد قد أجمعوا بقول واحد على حكم تلك الواقعة .

---

(١) وهناك أصول أخرى كأصل الطهارة فيما لم يعلم نجاسته ، وأصل الحل فى المأكولات والمشروبات الحادثة ، وأصل عدم التذكية فى اللحوم ، وأصل الاحترام فى الأموال ، وأصل الحقن فى الدماء ، وأصل فساد العقد على من لم يعلم أنها غير ذات محرم ، وأصل صحة العمل بعد الفراغ منه ، وأصل السلامة من العيوب فى المبيع ، وأصل اللزوم فى العقود ، وقاعدة الميسور لا يسقط بالمعسور ، وما إلى ذلك من الأصول والقواعد المقررة فى أماكنها ، وحيث كانت هذه لموضوعات خاصة ، ولا تتعداها إلى غيرها ، والأصول الأربعة تسرى وتعم جميع أبواب الفقه ، لذلك جعلوا لكل واحد من الأربعة عنوانا مستقلا ، وأجروا الكلام على تلك تبعا .

والمنقول من الإجماع ليس بحجة ، وإن كان الناقل ثقة عادلا ، وعالماً محتاطا لأن نقله يرتكز على الحدس ، على النظر والاجتهاد ، وعدالة الناقل إنما تنزهه عن تعمد الكذب ، ولا تعصمه عن الغفلة والاشتباه ، ثم إن الإجماع لابد فيه من التتبع التام لأقوال الفقهاء ، وتفهم كلماتهم تفهماً صحيحاً ، وبأى شىء نحرز أن تتبع الناقل كان تاما ، وأن فهمه كان مستقيما ؟ فالانسان حسن الظن بنفسه خاصة الفقيه ، هذا وقد رأينا كثيرا من الفقهاء ينقلون الاجماع فى محل الخلاف ، يختلف اثنان منهم فى حكم واقعة ، فيحتج كل على صاحبه بالاجماع ! بل رأينا الواحد منهم يفتى بأمر مستدلا عليه بالاجماع وبعد حين يتبدل اجتهاده فيفتى بالعكس مستدلا بالاجماع أيضا .

وأوّل بعض الأعلام هذا التهافت بأن ناقل الاجماع ينظر قول بعض الفقهاء ، فيحسن الظن به ، وينقل الإجماع اتكالا على قوله ، أو أن الناقل يستنبط الفتوى من دليل أو قاعدة أو أصل ، ويعتقد أن هذا الدليل مجمع عليه ، فينقل الإجماع لذلك ، وأيا كان ناقل الإجماع ، ومنشأ نقله فلا يسوغ الاعتماد عليه بوجه ، لأن نقله يرتكز على الاجتهاد والحدس ، لا على البصر والحس .

أما الاجماع المحصل ، وهو ما حصل من تتبع الأقوال واستقرائها فتعسر جدا لأن السبب فى اعتباره وحجته هو كشفه عن وجود حجة متبعة فى واقع الأمر اطلع عليها المجمعون ، وخفيت علينا نحن ، والإجماع إنما يكشف عن هذه الحجة الثابتة إذا اتفق المتقدمون والمتأخرون من الصدر الأول إلى يومنا هذا ، أما اتفاق أهل عصر واحد أو عصرين فإن دل على شىء فإنه يدل على وجود حجة عند المجمعين أنفسهم ، لا فى واقع الأمر وحقيقته ، وخاصة إذا كان فى مورد الإجماع دليل أو أصل يصلح مستندا للحكم الذى اتفقوا عليه ، فإن الاجماع ـ والحالة هذه ـ لا يكشف عن شىء أبدا ، ويكون المعتمد هو الأصل أو الدليل ، هذا وإن احتمال الخطأ والاشتباه فى المجمعين كلا أو بعضا ولو فى واحد منهم يسقط الاجماع عن الاعتبار ، وليس لدينا أية حجة نستند إليها لإلغاء هذا الاحتمال ، لأنه يرجع إلى النظر والفكر ، ولا يتنزه عن مثله عالم ولا عادل مهما بلغت منزلته العلمية والدينية .

والخلاصة أن الاجماع المنقول ليس بحجة ، والاجماع المحصل حجة شريطةَ أن يحصل من الصدر الأول إلى العصر الأخير ، وقد اشتهر على ألسنة رجال الدين فى هذا العصر ، وذهب مذهب المثل القول : بأن الاجماع المنقول ليس بحجة ، والمحصل غير حاصل .

الشهـرة :

ذهب بعض من تقدم إلى أن الشهرة دليل شرعى ، لأنها أقوى ظنا من الحديث المنقول بخبر الواحد ، ومن شهادة العدلين .

وقسم المتأخرون الشهرة إلى ثلاثة أقسام :

أولهـا : الشهرة الروائية ، وهى أن تشتهر رواية بسبب نقلها فى أغلب كتب الحديث ، وتكرارها على ألسنة الراوين ، وهـذه الشهرة لا تفيد أية فائدة سوى أنها تكون سببا فى تقديم الرواية المشهورة عند معارضتها برواية أخرى دونها معرفة وشهرة ، فتقديم الحديث المشهور والأشهر متفق عليه بين الفقهاء جميعا .

ثانيها : الشهرة العملية : وهى أن توجد رواية ضعيفة السند ، ولكن على الرغم من ضعفها عمل بها أكثر الفقهاء ، واستندوا إليها فى الفتوى والعمل ، فعملهم يجبر ما فيها من ضعف ، كما أن إعراضهم عن رواية صحيحة السند يضعف من قوتها ، وبعبارة أخصر إن عمل المشهور يقوى الضعيف ، ويضعف القوى من جهة السند فحسب ، لأن إعراض أكثر العلماء عن حديث هو بمرأى منهم ، مع شدة احتياطهم للدين يدل دلالة واضحة على أن هناك أسباباً تستدعى ترك الحديث ، من غفلة الراوى ، أو عدم صدور الحديث لبيان الحكم الواقعى ، وما إلى ذلك من الأسباب الصحيحة التى أطلعوا عليها ، وخفيت علينا ، كما أن عملهم بالضعيف مع علمهم بحال الراوى يدل على صدقه بهذا الحديث خاصة ، لأن الكاذب قد يصدق .

ثالثها : الشهرة الفتوائية . وهى أن يفتى أكثر الفقهاء فى واقعة ما ، ولم نعلم مدرك الفتوى ، وهـــذه لا تأثير لهـا فى شىء أبدا ، لمـا قدمناه من الكلام على الاجماع .

## الاستصحاب :

استصحاب الشيء هو البقاء على اليقين السابق بوجوده ، واستمراره إلى زمن الشك ، واحتمال خلوه من صفحة الوجود ، فلو علمنا بحياة إنسان غائب ، ثم احتملت لدينا وفاته لسبب من الأسباب ، فنبقى على اليقين السابق بحياته ، ولا نرفع اليد عنه إلا بحدوث اليقين بموته ، وخير ما قيل في تحديد الاستصحاب موضوعا وحكما قول الإمام الصادق ( لا يُنقض اليقين بالشك ، ولا يدخل الشك في اليقين ، ولا يُخلط أحدهما في الآخر ، ولكن يُنقض الشك باليقين ، ويُتَمّ على اليقين ، فيبنى عليه ، ولا يعتد بالشك في حال من الأحوال ) .

وقد اتفقت كلمة الجميع على العمل باليقين السابق عند فقدان النص إلا أن هناك موارد خاصة هي في نظر القدامى داخلة في الاستصحاب بينما يراها المحدَثون خارجة عنه ، ونذكر منها موردين .

( ١ ) ان يسري الشك إلى وجود الشيء وحدوثه ، بحيث يتبين أن وجوده لم يكن متيقناً في آن من الآنات ، كما إذا تيقنت يوم الجمعة بعدالة زيد ، ثم يوم السبت ، ترددت في عدالته في بدء الأمر ، وأنه هل كان عادلا يوم الجمعة ، وأن اليقين كان مطابقاً للواقع ، أو أنه لم يكن عادلا أبداً ، وأن اليقين السابق كان اشتباها وجهلا مركبا ، ومثل هذا خارج عن الاستصحاب ، لأن حقيقته أن يتمحض الشك إلى البقاء مع إحراز اليقين بالوجود في السابق ، كما لو علمت بعدالة زيد يوم الجمعة ، وترددت في بقائها ، واستمرارها إلى يوم السبت ، وبتعبير أخصر إن الاستصحاب هو علم بالحدوث ، وشك بالبقاء ، ومتى رجع الشك إلى الحدوث نفسه ، فلا يكون من الاستصحاب في شيء ، وسمى المتأخرون هذا النوع بالشك الساري ، وجزموا بفساده وعدم الاعتماد عليه .

( ٢ ) ان الشيء الذي أريد استصحابه ، والحكم ببقائه واستمراره ، تارة يكون بنفسه حكماً شرعياً ، كوجوب شيء أو حرمته ، وأخرى يكون موضوعا خارجياً ، وليس له أي أثر شرعي ، كبقاء حجر في المكان الذي كان فيه ، وحياة

شجرة كانت حية فى العام الماضى ، وثالثاً يكون موضوعا خارجياً ، له آثارشرعية تترتب عليه ابتداءً وبلا واسطة ، وله آثارغير شرعية ،كحياة زيد ، فإن من آثارها الشرعية ، وجوب الإنفاق على زوجته ، وعدم تقسيم تركته ، ومن غير الشرعية نمو جسمه ، وقيامه بأعمال تتفق مع حياته ومهنته ، والقسم الأول يجرى فيه الاستصحاب ، ويكون الحكم الشرعى المجهول بمنزلة المتيقن من حيث وجوب العمل، والقسم الثانى لايجرى فيه الاستصحاب بوجه ، ويُنْقض اليقين فيه بالشك ، أما القسم الثالث ، فيجرى فيه الاستصحاب بالنسبة إلى الآثار الشرعية فحسب ، دون اللوازم العادية والعقلية ، للموضوع المستصحب ، فباستصحاب حياة زيد تثبت وجوب الانفاق على زوجته ، وعدم تقسيم تركته ، ولا يمكن إثبات شىء غير شرعى ، مما تستلزمه حياته العامة والخاصة .

والسرأن تنزيل المجهول منزلة المعلوم ، ومعاملة الشىء الذى لم يُحرز بالوجدان ولا بالبينة ، معاملة الشىء الثابت ؛ ـ هذا التنزيل وهذه المعاملة ، خلاف ما ينبغى أن تكون عليه الحال ، لأن المجهول غير المعلوم ، والمتردد غير العالم ، ولكن للشارع أن يطلب من المكلف فى جميع أحواله ما يشاء ، وكيف يشاء ، فيكلفه حال الجهل بما كلفه به حال العلم ، ما دام العقل لا يرى فى ذلك بأسا، وقد ثبت عن الشارع أنه يجب المضى على العمل حال الشك ، كما يجب حال العلم ، وهذا التصرف من الشارع إنما يتناول ما كان من وظيفته وشئونه ، أما الأشياء التى لا تدخل تحت سلطانه من حيث هو مشرع ، فلا يجرى فيها الاستصحاب ، فلو أن رجلاشكك فى طلوع الفجر فى إحدى ليالى شهررمضان ، فله أن يستصحب بقاء الليل ، فيأكل ويشرب اتكالاعلى استصحاب الليل ، لأن الشارع أمره بالبقاء على اليقين السابق ، وأذن له بالأكل والشرب ما دام الليل باقياً ، ولكن ليس له إذا سئل عن الساعة أن يجيب بأنها لم تبلغ الرابعة بعد ــ إذاكانت وقتاً لمطلع الفجر ــ لأنها خارجة عن دائرة الشرع .

فالاستصحاب أصل مدركه الشرع تعبد به المتحير ، على أن يأتى بعمله على

ما تقتضيه حالته السابقة ، ولا يتعدى هذا التعبد الآثار الشرعية إلى غيرها ، وعلى هذا يكون الاستصحاب حجة شرعية متبعة فى موردين فحسب ، فيما إذا كان المستصحَب نفسه حكما شرعياً وفيما إذا كان موضوعاً لحكم شرعى بحيث يكون الحكم لازماً للمستصحب نفسه ، ولا حقاً له من غير واسطة عقلية أو عادية ، أما لو كان الحكم أثر الشئ ، وهذا الشئ لازم من لوازم المستصحب ، أى ينتهى إليه بواسطة غير شرعية ، فلا يعتمد فى مثله على الاستصحاب ، ومثاله لو تردى كبش من شاهق ، وذبح بعد التردى ، وجهلنا أن الذبح كان حال استقرار الحياة بحيث استند خروج الروح إلى الذبح لا إلى التردى كى يحل الأكل منه ، أو أن الذبح حصل عند النفس الأخير للكبش ، وأن روحه خرجت بسبب التردى لا بسبب الذبح ، كى يحرم لحمه ، فليس لنا ـــ والحالة هذه ـــ أن نستصحب حياة الكبش الثابتة قبل التردى ، ونحكم باستمرارها إلى زمن الذبح ، لأن هذا يرجع إلى الملازمة العقلية لإثبات وقوع الذبح حين استقرار الحياة ، والمفروض أن الاستصحاب أصل شرعى لا عقلى ، وبتعبير ثان ، ان جواز الأكل ليس حكما للحياة نفسها ، وإنما هو حكم للذبح الصحيح ، وهذا الذبح لم يثبت بطريق الاستصحاب ، بل ثبت بطريق الملازمة العقلية لاستصحاب الحيـــاة أى إن الموضوع الشرعى ثبت باستصحاب غيره لا باستصحابه بالذات .

واصطلح المتأخرون على تسميه هذا النوع بالأصل المثبت ، جازمين ببطلانه ، واعتمد عليه السلف فى العبادات والمعاملات مثبتين به كثيرا من الأحكام الشرعية نقل منها من تأخر عنهم جملة وافرة فى باب الاستصحاب ، وانتقدها بما قدمنا بيانه .

والخلاصة أن الاستصحاب لا يتحقق إلا بوجود ركنيه : يقين سابق ، وشك لا حق ، ولا يكون حجة متبعة إلا فى الأمور الشرعية فحسب .

وأقف عند هـذا الحد مخافة أن لا يتسع صدر القراء للمزيد ، وأحسب أن ما ذكرته يصلح مثالا للفرق بين القديم والجديد من أصول الفقه للشيعة الإمامية كما يصلح شاهدا لفتح باب الاجتهاد عندهم ، وعدم تقييدهم بأقوال السلف قلّت أم كثرت ؟

# التاريخ في الشرق الأوسط

لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة
رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

---

المفتاح الكبير لمغاليق المشكلات فى السياسة الدولية والقومية هو التاريخ ، والتاريخ كذلك هو المدخل المأمون للقوانين على حل تلك المشكلات . ولذا فإنى من المتفائلين المؤمنين بمستقبل هذا الشرق الأوسط ، لأسباب أقرب إلىّ من البداته الرياضية ، وهى أسباب تنبىء بها الحقائق التاريخية النابعة من هذا الشرق ، ويدل عليها ما استطاع هذا الشرق أن ينبته من دول وديانات وحضارات وثقافات ، خلال العصور الماضية ، ولا سيما العصور الاسلامية الأولى ، حين كانت مصادر الثروة الاقتصادية أقل كثيرا مما يتملكه أقاليم هذا الشرق فى العصر الحاضر من ثروات جامدة وسائلة ، ومعادن دفينة وغير دفينة ، وأراض زراعية خضراء ويابسة ، وطاقات مَكِنية عاطلة أو أقل من عاطلة ، وتدل الحقائق التاريخية كذلك على أن بهذا الشرق الأوسط مقوّمات أخلاقية متينة ، وهى المقوّمات التى استندت إليها الديانات الكتابية الثلاث ، مع العلم بأن منبع هذه الديانات الكبرى هو هذا الشرق الذى لم يستجلب إليه منها واحدة ، كما استجلبت أوربا الديانة المسيحية ، والثقافة الاسلامية ، ونشاط الاسرائيليين .

ولست أريد أن أنسى هنا ـ أو أتناسى ـ ما يُلصق بأخلاق هذا الشرق الأوسط من أوصاف فى كتب الأوربيين ، وهى أوصاف قائمة لا تختلف ولا تنبو عن الواقع الماثل إلا من ناحية المبالغة والإطناب ، ولكنها على كل حال تبعد عن الحقيقة الكامنة كل البعد . ذلك أن ما بأخلاق هذا الشرق من مغامز وملامز

ليس إلا صدأً متراكما فوق معدن أخلاقه الحقيقية ، والأوربيون لذلك لا يرون ولا ينتقدون إلا صدأً كثيفا سوف يذهب جفاء أو هباء ، وسوف ينجلى ما تحته بفضل الثقافة والتعليم . ولا أظن أن ثمة أملا فى ظهور تلك الأخلاق الحقيقية لهذا الشرق إلا عن طريق الثقافة والتعليم . والمسئولية هنا مركزة تركيزا كليا فى أيدى المهيمنين على مستقبل الثقافة والتعليم والشئون التربوية فى أوسع معانيها . وإذا شبهتُ ما يرين على أخلاق هذا الشرق كأنه صدأ فوق معدن كريم سوف ينجلى ، فإنى أعتقد بوجوب دراسة المشبه به وطبيعته وطرق إزالته ، أى دراسة الطرق التى يستعملها المعدنيون لإزالة الصدأ عن المعادن ، وإستخدام ما يشبه هذه الطرق فى علاج ما يغشى أخلاق هذا الشرق من نقائص طارئة . وإخال أن هذه الطرق تتلخص فى السرعة المشربة بالأناة ، والصرامة الممتزجة باللين ، والحماسة المختلطة بالصبر ، والدقة المستندة إلى التسامح .

وإنى كذلك من المتفائلين المؤمنين بمستقبل الثقافة والتعليم والتربية فى هذا الشرق الأوسط ، ولست أرى كفيلا بذلك المستقبل إلا دراسة التاريخ . على أنى لا أعنى أن يصبح التاريخ سيد الدراسات فى المعاهد والمدارس والمنشآت العامة ، وأن يُهمل غير التاريخ من العلوم والفنون كالطب والهندسة والكهرباء والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا ، والأدب والجغرافيا والموسيقا والنحت والتصوير ، كما أنى لا أرمى إلى التقليل من أهمية أى علم أو فن من هذه العلوم والفنون ، بل إنى أهدف إلى بيان أهمية التاريخ بالقياس إلى هذه العلوم والفنون . ذلك أن التاريخ وإن كان يساوى هذه العلوم والفنون فى المنفعة ، فإنه يفوقها من ناحية القيمة التثقيفية والتربوية ، لأن الطب يخرّج الأطباء ، والهندسة تعدّ المهندسين ، والكيمياء تمدنا بالكيماويين ، ولكنها وغيرها من العلوم المادية لاتشتمل اشتمال التاريخ على قيم تثقيفية وتربوية ، وكلاهما لازم لتكميل المواطن المفيد ، بقطع النظر عما يقوم به ذلك المواطن من عمل مهنى نافع لا مشاحة فى منفعته . وأقول ذلك أيضا فى الفنون ، فالموسيقا تهذب الإحساس وترهفه عند الموسيقار وسامعيه ،

والتصوير يصقل الشعور وينيره عند المصور والمعجبين به ، والنحت يربى ملكة الدقة والرمزية والابتكار عند النحات والمختلفين إلى نماذجه ، ولكن التاريخ يفوق على هذه وتلك بما ينطوى عليه من قيم تثقيفية وتربوية فريدة .

غير أن التاريخ الذى ندرس فى المدارس والمعاهد ، ونقرأ فى الكتب القديمة والحديثة ، لا يدلُّ على ما أزعمه للتاريخ من قيم تثقيفية وتربوية . والعيب فى ذلك راجع إلى صناعة التاريخ فى الشرق الأوسط ، لا إلى التاريخ نفسه ، وهو عيب سبقنا إليه المؤرخون الأوربيون ، ثم تركونا نخب فيه خبَّ السائر فى دائرة . ذلك أن الأوربيين أخذوا يعملون بتأثير نظرية التدرّج ، وهى سنة من سنن الله الكونية ، فاعتبروا التاريخ سجلا للحياة الإنسانية وأطوارها المختلفة ، ودرسوا عصوره دراسة مقارنة على أنها مشكلات حاولها الإنسان ، فنجح أحيانا ، وفشل أحيانا أخرى ، وقالوا بأن الأحداث التاريخية ليست إلا ألوانا من الفلسفة المعروضة بطريق التمثيل ، كما قالوا بأن التاريخ صور للماضى غير متكررة ، وبأنه لا يعيد نفسه أبدا ، وبأنه لا يمكن فهمه والإفادة منه إلا عن طريق المقارنة الذى اتخذه القانونيون سبيلا لفهم أصول الشرائع والقوانين فى مختلف الأمم .

لكن المقام هنا لا يتسع للإفاضة فى كل هذه الدعاوى الكثيرة ، وربما اخترت منها اثنتين ، وهما أن التاريخ لا يعيد نفسه أبداً ، وأن التاريخ لا يمكن فهمه على وجه سليم إلا عن طريق المقارنة .

والواقع أن الناس يظلمون أنفسهم والتاريخ معا من حيث لا يعلمون حين يقولون إن التاريخ يعيد نفسه ، مع أن العكس هو الصحيح ، لأن معناها فى قولهم ، أنهم لم يتغيّروا على مر الدهور والعصور ، بل جمدوا ـ فيما عدا حركة الإعادة ـ على حال واحدة رتيبة ، ورضوا بتلك الحال وإعادتها جيلا بعد جيل . وذلك كله غير مطابق للحقيقة ، بل هو مخالف لسنن الله الكونية القائمة على النشء والتدرج والنموّ والارتقاء ، لا التكرار والإعادة . وطبيعى أن الناس ـــ وهم بعض مادة التاريخ ـــ لا يعيدون أنفسهم ، وطبيعى كذلك أنهم يكرهون أن يكونوا تكراراً لجيل سابق أو أسبق .

ومن الواضح أنه إذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فلا حاجة إلى العمل ، ولا معنى للإصلاح ، ولا للتفكير ، ولا للتعليم والتثقيف ، ولا إلى مقاومة الفقر والجهل والمرض ، إذ يكفى أن تقف الأمة من الأمم تنتظر عودة واحد أو اثنين أو ثلاثة من عصورها السالفة — إن كان لها من المجد التاريخى شيء سالف — وما عليها إلا أن تنتظر فى صبر وجمود ، كما ينتظر الميت عودة الروح . أما إذا كانت الأمة من ذوات الماضى المظلم ، فليس لها إلا أن تقنع بما هى فيه راضية أو غير راضية ، ما دام تاريخها سوف يعيد نفسه .

لكنى أخشى أن الضرب على هذه النغمة النظرية لا يقرّب دعواى ، ولا سيما أن القول بأن التاريخ يعيد نفسه قديم متواتر متأصل ، وليس يجدى فى معارضته جرس الألفاظ والنظريات ذوات الرنين والصليل ، بل يحتاج المتكلم فى ذلك الموضوع بالذات إلى البينة والبرهان عن طريق التاريخ نفسه ، وفى عصور التاريخ القريبة والبعيدة ما يكفى هذا وذاك فى يسر وسهولة .

وأقرب الأمثلة لنا التاريخ الإسلامى : هل تدل المقارنة بين العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام على أن التاريخ يعيد نفسه ، أم تدل المقارنة بينهما فى غير جهد أو عناء على أن العرب غيروا ما بأنفسهم ، وغيروا تاريخهم ، كما غيروا أفهامهم وأوضاعهم وأهدافهم ، بعد أن أصبحوا أمة واحدة ؟ وهل تدل المقارنة بين الخلافة الإسلامية فى بغداد وفى القاهرة على أن التاريخ يعيد نفسه ، أم تدل على عكس ذلك تماما ؟

وأضرب مثلا ثانياً من التاريخ الإسلامى بسؤال القارىء إذا كان العالم كله أنجب فى تاريخه الطويل غير محمد واحد ، ولو كان التاريخ يعيد نفسه لأعاد شخصياته ، ولتكرر ظهور أمثال محمد فى مختلف العصور الإسلامية مثلا ، وهو ما لم يحدث .

ويقال مثل ذلك فى التاريخ العام ، من أول قديمه إلى آخر حديثه . هل أتى على التاريخ إلا هانيبال واحد ، واسكندر واحد ، ويوليوس قيصر واحد ، وشارلمان واحد ، ونابليون واحد ، وهتلر واحد . ومن هؤلاء مَن ذاقت الدنيا ألوان الشقاء

وأصناف الخراب بسببه ، فكيف والحال هذه يقول أحد - أو يريد أن يقول - بأن التاريخ يعيد نفسه ؟

ثم إذا تركنا حوادث التاريخ وعصوره ، وتكلمنا بلغة الآثار الباقية ، وجدنا البرهان القاطع على أن التاريخ لا يعيد نفسه . ذلك أن الآثار على قلتها أصدق أنباء من الكتب على كثرتها ، لأن الآثار لا تتعرض للبلى والتحوير والتغيير فى سرعة ، على حين أن الكتب فضلا عن تعرضها لذلك كله لا تكون دائماً بنجوة من ميل مؤلفيها عن الحق . وإذا سلمنا بأن الآثار على أنواعها مرآة صدق صامتة ناطقة بأحوال الفرد والجماعة والقبيلة والعشيرة والأمة ، واستعرضنا الآثار بمصر من فرعونية ويونانية وبطلمية ورومانية وبيزنطية وقبطية وعربية وفاطمية وأيوبية ومملوكية وعثمانية ، فهل يؤدى بنا ذلك الاستعراض الصامت الناطق إلى القول بتكرار عصور التاريخ بعضها تلو بعض ، أو الاعتقاد بأن التاريخ يعيد نفسه ؟

وأما مبدأ المقارنة فى التاريخ فأساسه أن التاريخ ليس قصة خارقة مسلية ، أو درامة عنيفة محزنة ، أو قطعة رفيعة من الأدب الممتلىء بالمحسنات اللفظية والبديعية والمعانى مما يشبع خيال الأديب ، بل هو سجل صادق ما أمكن لنتائج الحوادث الإنسانية منذ دوّن الإنسان مايدل عليه . والمؤرخ لايستطيع أن يأخذ بمبدأ المقارنة فى الكتابة إلا إذا أخذ أولا بشيئين اثنين ، على نحو مايأخذ السارى فى الليل بهدى عقله ونور القمر معا ، وفى آن واحد ، وبذا يصل إلى مرتبة الكتابة التاريخية المقارنة ، فى يسر وبسهولة وقرب من الحق . وأول هذين الشيئين أن يدرك المؤرخ أن ذلك السجل الصادق الذى هو التاريخ لا يمكن أن يكون مخالفاً فى مراميه وأهدافه لما تسجله الأيام مما ندرج فيه نحن فى العصر الحاضر من سبل العيش والحياة الفكرية . فالحسنات والسيئات ومختلف الصفات التى نعيش فيها هى التى عاش فى أشباهها السابقون ، وسوف يعيش فى أشباهها اللاحقون ، وربما يكون وجود المحسن والمسىء فى مزيج واحد — أو بعبارة أدق فى مجتمع واحد — هو سر الحياة والعمل ، إذ يعمل المحسن فى مثل ذلك المجتمع على إصلاح المسىء ، كما

يعمل المسىء — أراد ذلك أم لم يرد — على مجاراة المحسن فى العمد الإرادى أحيانا ، وفى العقل الباطن أحيانا أخرى .

ومن هنا يتضح أول الشيئين اللازمين لتطبيق مبدأ المقارنة فى كتابة التاريخ وهو أن يذكر المؤرخ دائماً أن ما يتناوله من أحداث وأناسى ، لا يختلف كل الاختلاف عما يعاصره من أحداث وأناسى . ولست أريد بذلك أن أدخل إلى موضوع الإعادة ، واللا إعادة فى التاريخ مرة أخرى ، بل أريد التدليل على أن المادة الإنسانية التى يصنع منها التاريخ واحدة فى جميع الأمم .

أما الشىء الثانى مما يجب على المؤرخ أن يجعله نصب عينيه احتراما لمبدأ المقارنة ، فهو أن تاريخ أمة من الأمم - أو دولة من الدول - ليس إلا سجلا لحياة فرع من فروع شجرة كبيرة ذات جذور متلاصقة ، تستمد كلها الحياة من معين واحد وأرض واحدة . وأسوق تشبيها آخر بالقول بأن تاريخ بلد من البلاد ليس إلا تيارا دافقا - أو غير دافق - وسط تيارات مختلفة - وهذا التيار يتأثر طبعاً بما حوله من التيارات أشد التأثر ، برغم ما يبدو للناظر السطحى من استقلال اتجاهه ، وربما كان التدليل بتاريخ الدولة الإسلامية كما تعلمناه أوائل هذا القرن العشرين الميلادى ، خير تقريب لما أقول ، إذ كان التاريخ الاسلامى يُدرس كأن العرب وبلادهم كانوا بمعزل عن العالم الخارجى تمام العزلة حين ظهر الاسلام ، وكأن الرسول لم يعرف من ذلك العالم الخارجى سوى مكة والمدينة وما وراءهما من تهامة والطائف وأطراف فلسطين ، حتى إذ خرج المسلمون من بلادهم خيل للمتعلم كأنهم اندفعوا نحو بلاد سادت فيها الظلمات الروحية والمادية ، وكأن أهل البلاد المفتوحة وقفوا ينظرون إلى العرب وهم يشيدون مدنية جديدة بين عشية وضحاها . أما الحقيقة فهى غير ذلك ، إذ المعروف أن العرب لم يكونوا إلا عنصرا واحدا من العناصر التى حاطت الدولة الرومانية ، وتمنت أن تقتطع من بقاعها الباسمة موطنا أمينا ، ومن حضارتها الغنية نموذجا للحياة الرغيدة ، ثم أثرت فى كل من تلك العناصر مؤثرات متباينة فى الزمنية والقوة والغرض والطاقة الدافعة

والحركة الذاتية ، فبدت تلك العناصر كذلك متباينة فى النضج والقدرة الهجومية ، ولم يكن بينها من شبه سوى أن كلا منها كان حلقة من سلسلة محيطة بالدولة الرومانية من جميع الجهات الأصلية فى الجغرافيا . ولذا كان الجرمان مثلا أول هذه العناصر استطاعة للانثيال والزحف نحو الأقاليم الرومانية فى أوربا ، طواعية لمؤثر اقتصادى بحت . وبينما كان الجرمان يقتطعون من الدولة الرومانية ما هو انجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وإيطاليا فى العصر الحاضر ، كان العرب فى أوائل حركة مشابهة تَجد عليها عامل دينى هو الاسلام ، ولهذا اختلفت الحركة العربية الاسلامية عن الحركة الجرمانية الوثنية ، ولم تشبهها إلا من ناحية الهجوم المشترك على أقاليم الدولة الرومانية .

ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن هاتين الحركتين التقتا فى إسبانيا ، واصطدمتا أعنف اصطدام ، فكانت الغلبة للحركة العربية المصطبغة بصبغة الدين ، على حين كانت الهزيمة للجرمان الذين خلت حركتهم من ذلك الدافع البالغ . غير أن العرب لم يجاهدوا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فى بلاد سادت فيها الظلمات الروحية والمادية . بل كانت بلاد الدولتين الرومانية والساسانية التى غمرتها موجة الفتوح الاسلامية أحسن مكانا ورئيا من بلاد العرب ، وكان بكل من هاتين الدولتين ثقافات وحضارات ونظم استمد العرب منها أدوات الحكم والإدارة حسبما اقتضته الشريعة الاسلامية ، وبفضل ما استعمله العرب من هذه الأدوات التى وجدوها فى البلاد المفتوحة استطاعوا أن ينجحوا نجاحهم الخارق فى الحرب والسياسة .

وصفوة القول أن التاريخ فى الشرق الأوسط بحاجة إلى عرض جديد على قواعد جديدة ، وهذا لا يتأتى إلا بعد توفر المادة التى يستمد منها المؤرخون ، وهى إحياء التراث الشرقى فى جميع عصوره بإخراجه من ظلمة المخطوطات إلى نور المطبوعات ، ودراسة الآثار الباقية دراسة مقارنة لبيان الوحدة التاريخية لهذا الشرق ، على أن يكون تدريس ذلك كذلك فى أسلوب جديد بروح جديدة تساعد على تكوين المواطن الشرقى فى العصر الحديث ؟

# الشعر والشعراء

## بين الأمس واليوم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس فى كلية اللغة العربية

---

يقرر النقاد المعاصرون : أن الشعر العربى قد وقف بعد شوقى وحافظ وأضرابهما ، رحم الله الجميع ؛ ويعللون هذا الوقوف ، بعدم تزاوج الثقافتين : الغربية التى غزت الشرق ، واستجابت لها المدارس المدنية ؛ والشرقيه التى تستبد بآفاق المدرسة الدينية والعربية ؛ تزاوجاً يولّد أدباً فيه سمات الشرق ، وشمائل الغرب ؛ لما فى طبيعة الثقافة الغربية من النظر أبداً إلى الأمام ، وما فى طبيعة الثقافة الشرقية من النظر دائماً إلى الخلف ؛ ولعدم الوحدة المدرسية التى تقرب بين الثقافتين تقريباً يؤاخى بين المذهبين ، ويؤلف بين الذوقين ؛ ولعل اسقاط الشعر من المباراة الأدبيه لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى العام الفارط ، أثر من آثار هذا الرأى .

ولست أرى أن الشعر قد وقف ، فما يزال بين بنى العروبة ، فى مواطنهم ، وفى مهاجرهم ، شعراء لا يُدفعون عن حياض الشعر ، يجيدون أحيانا ، ويُسِفّون أحيانا ؛ ويتباعدون فى المذاهب والأساليب ويتقاربون ، والموهبة الشعرية لا تتقيد بزمان ولا بمكان ؛ ولعل الأدنى إلى الصواب أن الذى انقضى إنما هو عهد فحول الشعراء ؛ مضى الموت بكثرتهم الغامرة ، وأصْفَى أو أجبل من بقى منهم فى الحياة

إلى اليوم (١) لا فى مصر وحدها ، بل فى مختلف أوطان الشرق العربى جميعاً ؛ ومن ذا الذى ينسى أنه فى الوقت الذى كان "غَرَدُ" صبرى وشوقى وحافظ يملأ آفاق النيل ، كان غرد الكاظمى والرصافى ، والزهاوى ، يملأ آفاق الرافدين ؛ وغرد اليازجية وأرسلان والزركلى يملأ آفاق بَرَدَى ، وغرد الخطيب يملأ آفاق سلع والعقيق . الخ الخ .

وقديماً كانت الأندلس تزخر بالشعراء من كل صنف وجنس ، ويندر بينهم الفحول ، على حين كان الشرق العباسى تتصاول فحوله فى كل مضطرب وميدان .

فأما اختلاف الثقافتين ، فإنه لا يصلح وحده علة لوقوف الشعر ، إذ ليست الثقافة مصدراً للشاعرية ، وإن كان لها أثرها الذى لا يجحد ، فى اتجاهات الشعر ومذاهبه ، وفى أخيلته وأساليبه ، وإنما مصدر الشعر الموهبة ، تدفعها السلائق والملكات فى عهد السليقة والملكة ؛ وتربيها الثقافات فى عصور الحضارات والصناعة ؛ ولقد كان العرب شعراء فى بداوتهم وبداءتهم ، ولم يقل أحد إنهم كانوا على شىء يصح أن يسمى علما أو ثقافة فى عصور الحضارة ؛ وكان الإسلاميون شعراء ، وإنما كانت ثقافتهم تضطرب فيما يتصل بالقرآن الكريم من العلوم الأدبية البدائية التى لا تخرج عن الدين واللغة ، ولم يكن للعلوم الطبيعية والفلسفة التى تسمى : علوما ، على الحقيقة والاطلاق ، فى حياتهم ظل ؛ وأئمة النقاد مصفقون على أن أقوى الشعر وأقومه ، شعر البداوة والطبيعة ، عند العرب ، وعند غيرهم من الأمم .

ولعل من أقوى الأسباب التى وقفت بالشعر ؛ عجز الخيال الذى هو عماده ومعتصمه ، عن التحليق فى أفق أرفع من الآفاق التى اخترقتها الحقائق العلمية فى هذا العصر الصاخب المتمرد الجبار : عصر الذرية والأدروجينية والأطباق الطائرة ، التى أخملت شياطين الشعر وفاقت أفانين السحر !

ذلك إلى أن المادة التى طغت على كل قوة فى العالم الحاضر ، قد اجترفت

(١) أصفى الشاعر : انقطع شعره ، ولم يقل شعراً . وأجبل : صعب عليه القول كأنه انتهى إلى جبل منه .

أصحاب المواهب الشعرية ، فصرفتهم عن الرضا بالمعانى الأدبية ، إلى التماس المطالب المادية التى أصبح كمالها ضروريا ، من السبل التى قضت الأوضاع الاجتماعية بأنها الموصلة إليها . وعندنا : العقاد ، وبيرم التونسى ؛ هذان — فى مذهبي — أفحل شاعرين فى مصر ، لا يقفان دون شعرائنا الفحول الذين نذكرهم فيسمو بنا الفخر ، قوةَ موهبةٍ ؛ وطبقة شعر ! ولكن أولهما انصرف إلى الكتابة والتأليف ، فوهبهما صفو عنايته ، وفورة جهوده ، وأبقى للشعر فى نفسه ركناً مهجوراً ، يلجأ اليه إن عدا الموت على عزيز عنده ، وقلما يعدو فيما دون العام أو الأعوام . . . فأما الآخر ، فقد استبد به الزجل ، الذى يجيده ببراعة لا تجارى ، عن الشعر جملة حتى ليخيل إلىّ أنه لو انتقلت أمّه إلى رحمه الله . . لرثاها بحمل زجل ! .

هذا مثل أضربه ، ومن ورائه أمثال ، لا تمس إلى الإطالة بذكرها حاجة ، فى مصر ، وفى غير مصر ، من الأوطان الإسلامية والعربية والمهاجر .

ولقد أُلِّفَت فى العهود الأخيرة جماعات للشعر ؛ عرفنا منها : رابطة الأدب العربى أو رابطة الأدب الجديد ؛ وجماعة أبو لُّو ؛ ثم رابطة أدباء العروبة ، ويضعف أملى فى أن الروابط والجماعات المنظمة ذوات أثر فى النهوض بالشعر ، لأنها فى الأعم الأغلب تنتظم كل من استطاع أن ينظم كلاما ، ولو كان أبعد من النثر نسبا إلى الشعر ؛ وتسودها المجاملات والاعتبارات الثانوية ، فتسوّى بين الشاعر الموهوب ، وبين المفحم المتشاعر ، على أن الشعر من الآداب الرفيعة التى لا تعيش إلا فى جواء الحرية والانطلاق ؛ وإنما يهذبها ، ويسمو بها ، النقد الحر الصريح ، على سنة الشعراء فى العصور الذهبية للشعر العربى ، ولعل المباريات فى جملتها أجدى على الشعر ، وأبعد أثرا فيه من تنظيم الجماعات .

* * *

وأحدث دعاة التجديد على المذاهب الغربية ، لا يرون أن الشعر قد وقف ، بل يقولون : إن الشعراء المحدثين قد خطوا بفهمهم لأصول الفن الشعرى خطوات

جديدة ، ووثبوا بالأداء النفسى وثبات أقل ما يقال فيها إنها ردت للألفاظ قيمها التعبيرية حين ردتها إلى محاريبها النفسية ، فغدت وهى صلوات شعور ووجدان ، (كذا) وان النقد الحديث قد وجد ضالته فى هذا الشعر الذى قد وجد نفسه (كذا) ولئن مضت المرحلة الأولى من مراحل هذا التجديد بوفاة شوقى ، لقد بدأت مرحلته الثانية بمدرسة أخرى من بعض شعراء الشباب ، وعلى رأسهم : « إيليا أبو ماضى » الذى يعد شعره نموذجا كاملا للشعر الجديد ، يحوى عناصره الفنية جميعا ، وقد أورد بعضهم ـ تأييداً لرأيه ـ من شعر إيليا ، قصيدته « وطنى » التى يقول فيها :

وطن النجوم ، أنا هنا    حدِّقْ ، لتعرف من أنا ؟
أَلمحتَ فى الماضى البعيـ    ـد ، فتى غريرا أرعَنا ؟
جذلان ، يمرح فى حُقـو    لِكَ ، كالنسيم مُدَنْدِنا
ويخوض فى وحل الشتا    ء ، مهللا متيمنا
لا يتقى شر العيو    ن ، ولا يخاف الألسنا
ولكم تشيْطَنَ كى يدو    ر القول عنه : تشيطنا
أنا ذلك الولد الذى    دنياه كانت هاهنا
أنا فى مياهك قطرة    فاضت جداول من سنا
أنا من طيورك بلبل    غنى بمجدك فاغتنى

إلى أن قال :

عاش الجمال مشردا    فى الأرض ينشد مسكنا
حتى انكشفت له فألـ    ـقى رحله وتوطنا
واستعرض الفن الجبا    ل ، فكنت أنت الأحسنا

ويعدون من بدع التعبير : « حَدِّقْ لتعرف من أنا » و « أَرعنا » و « مدندنا » و « يخوض » و « أنا ذلك الولد » الخ الخ ، كما أنه من بدع الأداء النفسى ، وإذا

تلطفتُ ، فتملت : إن معانى هذا الشعر وأخيلته من المعانى العامة والحظ المشاع بين الناس ، أدبائهم وغير أدبائهم ، رجعييهم ومجدديهم ، فلا مفر لى من أن أقول إن أسلوبه يتصل نسبه بالأساليب العامية اتصالا قريبا .

بيد أنى ـ على كل أولئك ـ أوافقهم على أن إيليا أبو ماضى شاعر موهوب ، يمضى شعره بحظ عظيم من الرقة والعذوبة ، ولكن تعوزه الجزالة التى هى ملاك الشعر العربى ، وقوام روعته وصولته ، والتى هى ميزة القرآن الكريم وإحدى خصائصه ، فلئن كان شعر إيليا نموذجا للشعر العالى فى نظر المجددين ؛ إنه لمن النوع النازل عند جمهور المحافظين .

وليس هـــذا بالرأى الجديد فى عالم « النقد الأدبى » ولكنه رأى الشيخ عبد القاهر الجرجانى منذ القرن الخامس الهجرى ؛ فاسمع ما ذا قال :

« وإنك لا تجد شاعرا يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ، وردّ البعيد الغريب ، إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ؛ فانه ليروض لك المهُرَ الأرِنَ رياضة الماهر ، حتى يُعْنِقَ من تحتك إعناق القارح المذلل ؛ وينزع من شِماس الصعب الجامح ، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع ، ثم لا يمكن ادعاء أن جميع شعره فى قلة الحاجة إلى الفكر ؛ والغنى عن فضل النظر ، كقوله :

فؤادى منك ملآن  وسرى فيك إعلان

وقوله : عن أى ثغر تبتسم ؟

وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد ، حتى قل نشاطه لها ، واعتناؤه بها ، إلا لأنه لم يفهم معانيها ، كما فهم معانى النوع النازل الذى انحط له إليه ؟ أتراك تستجيز أن تقول : إن قوله : « مُـنَى النفس فى أسماء لو تستطيعها » من جنس المعقد الذى لا يحمد ، وأن هذه الضعيفة الأسْر الواصلة إلى القلوب من غير فكر أولى بالحمد ، وأحق بالفضل ؟ ! . » (١)

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١٥ طبعة المنار ؛ والأرن : البطر المرح ، وأعنق الفرس : أسرع وسار العنق ، وهو ـــ بالتحريك ـــ سير فسيح واسع للابل والدواب . والقارح : ما قرح نابه ، أى طلع ، والأسر : إحكام الخلقة .

وهل يعدو شعر إيليا على أسمى حالاته ، طبقة النوع النازل من شعر البحترى ؟! حدّق ... لتدلنى على الفرق إن كان ! أيها القارىء العزيز .

* * *

وأعوذ بالله أن أدّعى أن الشعر الجديد كله من هذا الطراز ، فاننى أقرأ لكثير من شعراء الأقطار الشقيقة ، ومن شعراء مصر ، شعرا يحوى الجمال الفنى من أطرافه ، ويتبحبح منه فى الذُّرا والمقدَّم ؛ وهذا مثل أختم به هذا الحديث ، من شعر الآنسة ، فدوى عبد الفتاح طوقان ، لا يحضرنى ـ الآن ـ غيره ، أقدمه شاهدا لما قلت ؛ وفيه غَناء أى غناء .

من قصيدة عنوانها : لن يقعد الأحرار عن ثأرهم .

ستنجلى الغمرة يا موطنى ويمسح الفجرُ غواشى الظُّلَمْ
والأمل الظامىء ، مهما ذَوَى لسوف يروى بلهيب ودم
فالجوهر الكامل فى أمتى ما يأتلى يحمل معنى الضرم
هو الشباب الحر ذخر الحمى اليقظ المستوفز المنتقم
غَلوُّا جناحيه ، وقالوا : انطلق وشارفِ الأفق ، وجُز بالقمم
واستنهضوه لاقتحام اللظى والقيد ، يا لَلْقَيْد ! يدمى القدم
لكنّ للثأر غداً هَبَّةً جارفة الهول ، عصوفاً عَمَمْ ! (١)

* * *

ومن قصيدة ، عنوانها : « تهويمة صوفية » :

أىّ لحن مسلسل رَقْراق راح ينساب فى مدى الآفاق (٢)
أيقظ الكونَ عند منبثق الفجر ، على غمرة من الأشواق

---

(١) مجلة الرسالة عدد ٨٤٤

(٢) تريد أذان الفجر : سبحان فالق الإصباح .

وإذا الحب ملء هذا الوجود الرحـ ب يسرى فى روعة وانطلاق
وإذا الكائنات يفرقها الوجـ د الإلهىُّ فى سنى الإشراق
السمواتُ من حنين ووجد مُخْبِتاتٌ خلف الغيوم الرقاق
والجبال الشماء تشخص نحو اللـه سَكرى ، فى لهفة المشتاق
وندى الفجر فى الرياض الخوالى أدْمُعُ الشوق رقرقت فى المآقى
كل ما فى الوجود من روعة اسم اللـه ، فى نشوة ، وفى استغراق !

* * *

كلما رنَّ فى السكون صدى تسبيحة الله رائع الترديد
وسرت فى الأثير أنغامها الطُّهْـ ر ، وأوْغَلْنَ فى الفضاء البعيد
أهطعت أنفسٌ ، وذابت قلوب يَزدَهيها الفناء فى المعبود
وتسامى الشعور يلهب فيها خَلجاتِ الإيمان والتمجيد
يا لهذا الصفاء ، يالتجلى اللـه ، يا روعة الجلال الفريد !
لكأنى بالكون يهتف : يا ر ب ! ويمضى مستغرقاً فى الشرود
لكأنى أحِسُّ وشك اتصالى لكأنى أشم عطر الخلود (١)

* * *

هذا شعر خِصب ، فيه جمال الجدّة ، وجلال القُدمة ، فيه الأخيلة الغربية ، والجزالة الشرقية ؛ ولو بشر المجددون بأمثال هذا الضرب من الشعر لقال المحافظون : آمين ..

أما بعد ، فما يزال الأدب العربى بعامة ، والشعر العربى بخاصة ، بخير ، ما بقى القرآن الكريم ؟

(١) مجلة الرسالة . عدد ممتاز ٨٦١ .

على هامش كتاب : ( ابن حنبل )

# شخصية الطوفى

## لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ توفيق الفكيكى

المحامى ببغداد

---

هل كان الطوفى شيعيا ؟ وهل فكرته بتقديم المصلحة على النص شيعية ؟ وهل يجوز عند الإمامية نسخ النصوص وتخصيصها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟ .

---

حضرة المفضال الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة المحترم :

تحية مباركة : أما بعد : فقد أسعدنى الحظ بقراءة كتابكم القيم (ابن حنبل) وهو من فرائدكم العلمية الجليلة الممتازة ، وقد وجدته والحق يقال من أهم ما ألف فى سيرة ذلك الإمام الجليل القدر ، والمجتهد العادل الفذ ، ذلك بما احتوته فصوله المهمة وبحوثه المفيدة الشائقة من الدراسات الفقهية العالية ، والمقارنات التشريعية النفيسة الغالية . وإن من المزايا الكثيرة التى امتازت بها مؤلفاتكم الثمينة عن غيرها من مؤلفات المعاصرين الأفاضل ما تعنون به من المقارنات الفقهية بين المذاهب الاسلامية ، ومن جملتها مذهب الإمامية من الشيعة الذى لم يكن مع الأسف لأقوال أئمته وآرائهم نصيب فى الدراسات الفقهية والقانونية الحديثة إلا الإهمال ، ولم يهتم بذخائر أصحابه إلا أمثالكم من أصحاب الأقلام الجريئة والأفكار الحرة . وهذه النزعة الشريفة التى اتصفتم بها هى التى بعثتنى إلى هذا التعليق على ما جاء فى كتابكم بشأن : ( نسخ وتخصيص النصوص فى مذهب الشيعة الإمامية ) فى باب المصالح المرسلة وما قصدت ـ يعلم الله ـ إلا خدمة الحقيقة العلمية التى هى الضالة المنشودة لكل باحث

محقق وعالم مدقق يروم وجه الصواب . لهذا أرجو أن تسمحوا لى بكشف اللثام عن وجه الحقيقة ، وعما ذهبتم إليه من جواز نسخ النصوص عند الشيعة الإماميه بعد انتقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كما نطق بذلك كتابكم فى باب المصالح المرسلة أثناء مناقشتكم آراء « الطوفى » فى الموضوع ، فقد ذكرتم بعد فراغكم من تلك المناقشة ما يأتى :

١ — « لم نجد من يجوز تخصيص النصوص بكثرة ، ونسخ بعضها بالاجتهاد إلا بعض الشيعة كالشيعة الامامية ، فانهم لم ينهوا النسخ وتخصيص النصوص بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، بل أجازوا لأئمتهم مخالفتها بعلوم تلقوها ، ولقد وجدنا « الطوفى » يقاربهم لأنه جعل المصلحة تنسخ النصوص وتخصها ، فأحل المصلحة محل الأئمة ، والتقى الرأيان فى أن النص بعد الرسول لا يزال قابلا للنسخ والإخراج من عمومه إن وجدت مصالح على مسلك الطوفى أو رأى الامام على مذهب الشيعة » وبعد أن استقر رأيكم على أن الطوفى كان شيعياً فى الفقه والأصول ، وأنه شرح الأحاديث على أنه فقيه حنبلى ، وكان يبث فى أثناء شرحها ما يؤيد به آراء الشيعة قلتم :

٢ — « وعلى ذلك نقرر أن مهاجمته للنصوص ونشر فكرة نسخها أو تخصيصها بالمصالح المرسلة ، هى أسلوب شيعى أريد به تهوين القدسية التى تعطيها الجماعة الإسلامية لنصوص الشارع ، والشعية الإمامية يرون أن باب النسخ والتخصيص لم يغلق ، لأن الشارع الحكيم جاء بشرعه لمصالح الناس فى الدنيا والآخرة . وأدرى الناس بذلك الإمام ., فله أن يخصص كما خصص النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه وصى أوصيائه ، وقد أتى الطوفى فى رسالته بالفكرة كلها ، وإن لم يذكر كلمة الإمام ليروج القول وتنتشر الفكرة » .

أقول : أما ما يتعلق بعقيدة الطوفى ونحلته فلا أريد الخوض فيه الآن وسأتناول ذلك فى خاتمة الكلام ، وسواء أكان الطوفى شيعياً أم حنبلياً أم أشعرياً كما قيل فيه ، فليس هو المقصود فى هذا التعليق الوجيز ، وإنما الحقيقة التى أريد

بيانها ورفع القناع عن وجهها لتسفر وضّاءة ناصعة ، هى : هل المصالح المرسلة من أدلة الفقه الجعفرى؟ وهل الشيعة الامامية يرون باب النسخ لم يغلق بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؟ وهل أريد بذلك عندهم تهوين القدسية التى تعطيها الجماعة الاسلامية لنصوص الشارع ؟ هذا هو الغرض من التعليق على كلام العلامة أبى زهرة ، أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول .

* * *

من المعلوم أن أدلة الأحكام عند الشيعة الإمامية هى : (١) الكتاب (٢) السنة (٣) الإجماع (٤) العقل . أما القياس والاستحسان والمصالح المرسلة والذرائع ، فلا معول على حجيتها عندهم ، ما لم ينص عليها الشرع ، أو يحكم بها العقل ، ودليل العقل لايدخل فيه القياس والاستحسان والمصالح المرسلة ، وكذلك (الاستصحاب) فليس من الأدلة العقلية عند المتأخرين منهم لأنهم اعتبروا حجيته بدلالة الاخبار بعكس المتقدمين ، فكانوا يعتبرونه من الأدلة العقلية المتوقفة على الخطاب ، وهو المسمى باستصحاب حال الشرع ، وقد تناولته كتب أصول الفقه بإسهاب .

وأما اعتقاد الشيعة الامامية فى « الكتاب » فهو القرآن العظيم كلام الله ووحيه وتنزيله ، وأنه ما بين الدفتين ، وهو ما فى أيدى النـاس لا أكثر من ذلك ولا أقل ، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرجى للقرآن نزول تتمة ، وأن فى القرآن النص الظاهر والمؤول والمجمل والناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد ، وأن الحجة منه عندهم النص الظاهر دون المؤول والمجمل والمنسوخ.

أما « السنة » وهى قول المعصوم أو فعله أو تقريره وما نقل منها ، فالحجة منه بحسب السند ما كان متواتراً أو محفوفاً بقرائن توجب العلم بصدوره ، وعلى هذا فخبر الواحد عندهم حجة متى روته العدول عن العدول ، أو كان محفوفاً بقرائن توجب الوثوق بصدوره، وإلا فليس بحجة . وأما « الاجماع » فليس حجة بنفسه ، وتعتبر حجيته عند دخول الامام فى المجمعين أو الكشف عن رأيه من باب استكشاف قول الرئيس بقول أتباعه ، أو عند قيام دليل معتبر ، فالاجماع فى

الحقيقة داخل فى السنة ، لاتفاق أهل الحل والعقد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أمر دينى ، وذلك لاعتقاد الامامية بعدم خلو عصر عن إمام ، وأنه رئيس أهل الحل والعقد ، وإجماع علماء الأمة حجة عندهم أيضا ، لكشفه عن رأى الامام كما يعلم قول الامام أحمد بن حنبل باتفاق الحنابلة ، وقول الامام الشافعى باتفاق الشافعية ، وقول الامام أبى حنيفة باتفاق الأحناف .

* * *

هذا وإذا ما علمنا أن الحجة من ( الكتاب) عندهم النص الظاهر دون المؤول والمجمل والمنسوخ فيكون الإمام بمنزلة المحدِّث ، والراوى الثقة العادل ، وليس بمشرع بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول هذا القول ، إذ كيف يجوز للإمام مخالفة النصوص أو نسخها ، وهو يعلم بأن حلال محمد صلى الله عليه وسلم حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة ؟ إليك ماقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام لأحد اصحابه ، فقد روى عن محمد بن سليمان بن الديلمى عن أبيه ، قال : سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد ، فقلت : جُعلت فداك ، سمعتك تقول غير مرة ( لولا أنا نزداد لأَنْفَدْنا ) (١) ، قال : ( أما الحلال والحرام فقد والله أنزله الله على نبيه بكماله وما يزداد الإمام فى حلال ولا حرام ) قال : فقلت له ما هذه الزيادة ؟ قال : ( فى سائر الأشياء سوى الحلال والحرام ) قلت : فتزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال منكِراً : ويحك أيجوز أن يعلم الامام شيئاً لم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هذا و من أصول الامامية عدم تغيير الأحكام إلا بتغيير الموضوعات ، أما بالزمان والمكان والأشخاص فلا يتغير الحكم ودين الله واحد فى حق الجميع « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فهل يصح القول ـ بعد قول الامام الصادق عليه السلام ـ بأن الشيعة الامامية

---

(١) أنفد القوم على صيغة البناء للفاعل : نفد ما عندهم .

لم ينهوا نسخ النصوص بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وأنهم أجازوا لأئمتهم مخالفتها بعلوم تلقوها أو نسخ بعضها بالاجتهاد لتهوين القدسية التى تعطيها الجماعة الاسلامية لنصوص الشارع ؟ اللهم إلا إذا كان الشيعة الإمامية ليسوا من الجماعة الاسلامية المتمسكة بنصوص الشارع وقدسيتها والعياذ بالله :

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بيِّنات أبناؤها أدعياء

* * *

ثم إن الناسخ كما لا يخفى على فضيلة الأستاذ ، هو كل من الكتاب والسنة ، فينسخ الكتاب بالكتاب ، والسنة بالسنة ، والسنة بالكتاب ، والكتاب بالسنة فالأنواع أربعة ، وقد انفرد الامام الشافعى ، وأهل الظاهر ، بقولهم : إن السنة لا تنسخ الكتاب ، ويمكن معرفة الناسخ عند الحنفية بتخصيص الصحابة أيضاً . وإن الشيعة الامامية لا يفترقون عن الجماعة الاسلامية فى جواز النسخ بالأنواع الأربعة ، غير أنهم يعتقدون أن الله تعالى بين بحسب الشريعة الإسلامية الغراء فى كل واقعة حكماً ، حتى أرش الخدش .

وقد بين ذلك الاستاذ الأكبر الحجة ، الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى كتابه « أصل الشيعة وأصولها » .

وقد ثبت أيضاً أن الأخبار المخالفة للقرآن والسنة ، أو التى لم يقل بها الامام كثيرة جداً ، ومن حق تلك الأخبار المخالفة طرحها وأن يضرب بها عرض الجدار ويجب غربلة الصحيح منها بطريق التعادل والترجيح عند تعارض الادلة والامارات .

ثم إن تخصيص النصوص لم ينفرد به الشيعة الامامية وحدهم ، وإلا لما وجد علم أصول الفقه ، ولكن الفرق بينهم وبين إخوانهم من الجمهور : كما قلنا آنفاً . وما عدا ذلك فالاماميه وسائر المسلمين فيه سواء ، لايختلفون إلا فى الفروع ، كاختلاف أئمة أهل السنة فيما بينهم أو بين علماء الامامية أنفسهم ، من حيث الفهم والاستنباط ، هذا وإذا مافهمنا أن المراد من الاجتهاد هو استنباط الحكم الشرعى من تلك الادلة

المتقدمة بعد مزاولتها واستفراغ وسع المجتهد فيها لحصول ملكة الاستنباط مع شرط العدالة ، فهل يبقى مجال للقول بأن الشيعة الامامية « أجازوا نسخ بعض النصوص بالاجتهاد لتهوين القدسية التي تعطيها الجماعة الإسلامية لنصوص الشارع ؟ » « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

* * *

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى حقيقة ( الطوفى ) نجم الدين الصرصرى البغدادى الحنبلى ، فهو على الرغم مما ذكره الأوائل الذين اعتمد على روايتهم فضيلة الأستاذ أبو زهرة والأستاذ عباس الغزاوى البغدادى فى كتابه : « تاريخ العراق بين احتلالين » فى تشيع الشيخ الطوفى باعتباره من المغالين فى القول بالمصالح المرسلة ، وأن أسلوبه فى ذلك أسلوب شيعى ، فالحقيقة التاريخية لا تعضد ما ذهب إليه الفاضلان ، وذلك :

١ — ان الشيعة الامامية كما علمت لم يقولوا بالمصالح المرسلة ، ولا بحجية الأدلة الأصولية الأخرى التى قررها الطوفى فى رسالته ، ومن جملتها : (١) إجماع أهل المدينة (٢) القياس (٣) قول الصحابى بلا قيد (٤) العادات (٥) الاستقراء (٦) الاستدلال (٧) الاستحسان (٨) الأخذ بالأخف (٩) إجماع أهل الكوفة . فكل ذلك لم يكن من أصولهم حتى يلتقى الرأيان أو يتقاربا .

٢ — ان كتب الرجال عندهم على كثرتها لم تذكره فى طبقات فقهائهم ومحدثيهم ، ولا فى طبقات شعرائهم وأدبائهم أو فى أى صنف من صنوف رجالهم وهم أشد الناس اهتماماً بتراجم أصحابهم ورواتهم .

٣ — أما كونه قد انفرد برأى عن أصحابه الحنابلة ، أو كان قد تلمذ على أحد علماء الامامية فى علم من العلوم - إن صح ذلك - فهذا الدليل على ضعفه ووهنه لا يستلزم القول بأن مهاجمته للنصوص وتقديمه المصالح المرسلة عليها فى بعض الحالات قد استفاده من أسلوب الامامية ، بعد أن علمنا أن ذلك لم يكن من مذهبهم .

ولو أردنا أن نذكر أسماء العلماء والأدباء من أهل السنة الذين تخرجوا على أساتذتهم من الشيعة أو بالعكس ، لاحتجنا إلى تحرير مجلد ضخم ، ومن هؤلاء : فخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير ، فقد كان من تلاميذ أحد مشاهير فقهاء الإمامية وهو « سديد الدين محمود بن على الحمصى الحلى » كما أن « محمد بن مكى العاملى » المشهور بالشهيد الأول ، وهو من أعاظم علماء الإمامية فى المنقول والمعقول ، قد تلقى بعض علومه على أربعين شيخاً من علماء السنة ، وكلٌّ من فخر الدين الرازى والشهيد الأول ، مشهور فى عقيدته ونحلته فى قومه ، ثم ممن وافق الإمامية فى عدم العمل بالقياس النَّظام ، وجماعة من المعتزلة ، كيحيى الاسكافى ، وجعفر بن مبشر ، وجعفر بن حرب ، وإمام أهل الظاهر ابن حزم الأندلسى ، وداود الظاهرى وكلهم من أهل السنة ، فهل استقى هؤلاء آراءهم فى إبطال القياس من أصلى شيعى يا ترى ؟

على أن أثار الطوفى الكثيرة فى الفقه الحنبلى وأصوله ، كافية لهدم أقوال المتطرفين من أصحابه فيه لرأى غالى به فى المصالح المرسلة كما يقولون ، ويقرب منه قول الحنفية بتخصيص النص العام بالعرف العام ، لدفع الحرج والمشقة والضرر ، وكذلك قول المالكية بجواز الاحتجاج بالاجماع وتقديمه على النص ، ومنهم من قال بجواز نسخ النصوص بالاجماع .

ونكتفى الآن بهذه العجالة ، وما قصدنا بها إلا تأليف القلوب ، وخدمة البحث العلمى ، والله تعالى من وراء القصد ، وهو الموفق للصواب ؟

بمناسبة رمضان :

# تحية إلى الروح العلوية

من الذكريات التاريخيــة التي يذكرنا بها شهر رمضان ؛ ذكرى مقتل الإمام الشهيد على بن أبي طالب عليه سلام الله ورضوانه ، فقد طعنه الشقى عبد الرحمن ابن ملجم طعنة مُصْمِيَة لا يزال يضطرب لها كل قلب يؤمن بالله واليوم الآخر، وينطوى على حب رسول الله وآله الكرام .

إن عليا كرم الله وجهه هو الإمام الذى التقت على حبه وإجلاله جميع الطوائف الإسلامية ، فلن تجد اليوم فى شعب من شعوب الاسلام إلا قلوبا على ذكراه حانية ، وبعلومه وآثاره الطيبة ومنزلته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُدلة فاخرة ، وقد كان عليه صلوات الله ورحمته مرموق المكانة بين جلة الأصحاب مقدماً فيهم ، مستشاراً ، ثاقب الرأى ، نافذ البصر ، صادق الفراسة ، ذرب اللسان ، قوى الجنان ، متمسكا بالحق ، زاهدا فى الدنيا ، كثير الخوف من الله ، أمينا على ما ائتمنه عليه ، لم يحاب فيه أحداً من الناس حتى أخاه .

إن من الولاة مَنْ يعملون لدولتهم ، ومنهم من يعملون لأمتهم ، فالعاملون للدولة هم الذين يجعلون همهم حفظ سلطانهم ، وتثبيت أقدامهم ، وتوجيه كل شىء إلى أنفسهم وأبنائهم وأهليهم ، أما العاملون لأمتهم فسواء عليهم أثَبَتَتْ فى الملك والسلطان أقدامهم أم تزلزلت ، فإنما يرجون الصلاح والخير لهذه الأمة ، ويرتادون لها الطيبات ، ويحرصون على أن يكونوا فيها خلفاء الله حقاً ، فهم خدامها المخلصون، وكلاؤها الناصحون، لا يذكرون أنفسهم، ولا يحفلون بأشخاصهم ولا يدورون مع أساليب السياسة حيث دارت ، ولا يلتوون مع أهوائها حيث التوت . أولئك مُثُل الحكم الصالح ، وألوية القيادة الرشيدة الموفقة ، ومنابع الخير واليمن يفيض الله بها على من يشاء .

وكذلك — لعمر الحق — كان أبو الحسن ، فإنه لمن الراشدين الموفقين الذين أدّوا الأمانة ، ونصحوا لله ورسوله وللمسلمين ، وعاشوا لله ، وماتوا فى سبيل الله ، ولم تأخذهم الدنيا ببريقها الخادع ، وسرابها اللامع ، وما كان ابن أبى طالب بِغِرّ يجهل أفانين السياسة ، ولا بِنِكْس يضعف عن تحمل التبعات ، ولو شاء لكان مَلِكا جباراً يبطش بأهل عداوته ، ويتلطف لأهله وخاصته ، ولكنه آثر الله ، وابتغى ما عنده ، فكان لدينه وأمته ، ولم يكن لمُلكه ودولته .

وهذا ضِرار الصُّدائى يصفه فى مجلس معاوية فيقول « كان والله بعيد المدَى ، شديد القُوى ، ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العَبرة ، طويل الفكرة ، يقلّب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييئس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثَلَ فى محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تملمُل السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا ، إليك عنى ، غُرِّى غيرى ، ألِى تعرضت ؟ أم إلىّ تشوقت ؟ هيهات .. هيهات ! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، وخطبك يسير ! آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق » .

وإن معاوية ليسمع هذا الوصف فيبكى ، حتى تبتل لحيته بدموعه ، ويقول : رحم الله أبا الحسين ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضِرار ؟ قال : حزن من ذُبح واحدها فى حجرها !

فسلام الله ورحمته وبركاته على هذه الروح الطاهرة ، سلام عليها فى عليين ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ؟

م . . .

# الوزير نظام الملك (١)
## ووحدة المسلمين

لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور يحي الخشاب

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

---

كان يلقب بقوام الدين ، كما كان يلقب بنظام الملك ، وذلك أنه لم يكن بارعا فى السياسة والوزارة والنهوض بأعباء الملك فحسب ، وإنما كان أيضاً عارفا بالدين، مشاركا أهله فى مجالسهم ومناظراتهم ، حريصاً على العلم وأهله ، مولعاً بما يولع به الزعماء المصلحون من تقويم الأفكار ، وغرس المبادىء الصالحة فى الشعوب ، ومحاربة عوامل الضعف والسقوط أينما ظهرت .

وبدأ نظام الملك حياته العملية مع الأمير « ألب أرسلان » ومضت الأيام مسرعة ، ورقى « ألب أرسلان » عرش السلاجقة ، وأصبح كاتبه وزيراً لأكبر دولة إسلامية فى القرن الخامس .

كان نظام الملك بعيد النظر ، واسع الأفق ، شديد الإحساس بما يدور ببلاده ومن حول بلاده : رأى الأمة الإسلامية مقسمة إلى خلافات ثلاث : خلافة بغداد ،

---

(١) هو الوزير الخطير ذو النظر الثاقب ، والرأى الصائب : أبو على الحسن بن اسحاق ابن العباس الطوسى ، نسبة إلى طوس بخراسان ، إحدى مقاطعات إيران ، واتصل بداود ابن ميكائيل السلجوقى ، فأخذه بيده وسلمه إلى ولده ألب أرسلان ، وقال له يا محمد ، هذا حسن الطوسى اتخذه والدا ولا تخالفه ، فلما وصل الملك إلى ألب أرسلان استوزره فدبر ملكه عشر سنين ، ومات ألب أرسلان فوزر من بعده لابنه ملكشاه نحو عشرين سنة ، وتوفى سنة ٤٨٥ هـ ، وعمره ست وسبعون سنة :

وخلافة مصر ، وخلافة الأندلس ، ورأى العالم المسيحى يتآمر على هذه الأمة المسلمة ، وتتربص بها الدوائر ، وكان ذلك عصر التمهيد للحروب الصليبية .

وكانت البلاد الإسلامية قد أصيبت يومئذ من التفرق والتعصب بداء عضال قد تغلغل فى صميمها ، وأصبح العلماء فيها مولعين بالجدال والمناظرات ، وأن يتحدى بعضهم بعضا فى المجالس والمدارس ، كانوا يختلفون فى الفقه والكلام خلافات حادة ، ويحتربون حرباً مضنية ، ويجرّون وراءهم العامة جرّاً ، حتى كثرت الفرق وتباينت ، وكل فرقة تبغى الغلب والظفر بخصومها ، وتحرض من تستطيع تحريضه من الأمراء والوزراء على مخالفيها ، وكان الوزراء والأمراء من جانبهم يؤرّثون هذه العداوات ، ويشجعون تلك الخصومات ، انتفاعا بما يجنون منها من شغل العامة ، والتحكم فى الخاصة .

وأدرك نظام الملك ما فى ذلك من الخطر ، وفهم ما ينطوى عليه هذا التفرق والاختلاف الحادّ من تصوير للإسلام فى نظر خصومه والمتربصين به ، بصورة تخالف حقيقته ، وتعين على هدمه ، إن دين الله واحد لا خلاف على أصوله ، وإن الفتن التى تفرق بين المسلم وأخيه . لا تتصل بركن من أركان هذا الدين ، ولا يبعثها فى كل حال حرصٌ عليه ، إنما هى النزوات والشهوات ، نزوات الجهل وشهوات التعصب ، فحرص على أن يصلح هذه الأحوال المضطربة ، وصمم على أن ينقذ الأمة من ويلات الخلاف والشقاق ، وعلى أن يبث فى أهل العلم روحاً من التسامح والهدوء فى البحث . والتخلص من شوائب التعصب ، وأن يرتفع بهم عن الحزازت واصطناع المكائد والفتن .

وإذ أردنا أن نعرف إلى أى مدى كان الخلاف قد استبد بالعلماء ، وشغلهم وعطل مواهبهم ، وأفسد العلائق بينهم ؛ فلنقرأ تاريخ العلماء والفقهاء والمتكلمين فى النصف الأول من القرن الخامس ، وفى ذلك يقول ابن السبكى فى ترجمته للقشيرى : « ومن جملة أحواله ما خص به من المحنة فى الدين والاعتقاد وظهور التعصب فى عشر سنة أربعين إلى خمس وخمسين واربعمائة ، وميل بعض الولاة

إلى الأهواء ، وسعى بعض الرؤساء والقضاة اليه بالتخليط ، حتى أدى ذلك إلى رفع المجالس ، وتفرق شمل الأصحاب . . . حتى طلع صبح النوبة المباركة ، دولة السلطان ألب أرسلان فى سنة خمس وخمسين واربعمائة ، فبقى عشر سنين فى آخر عمره مرفها محترما مطاعا معظما »(١) .

وقد ذكر مثل هذا فى ترجمة إمام الحرمين عبد الملك الجوينى ، كما ذكر مثله فى ترجمة أبى سهل بن الموفق .

وقد أعان نظامَ الملك على دعوته ما عرف عنه من الصلاح والتدين وحب العلماء ، فقد كان يقدمهم ويقف إجلالا لهم ، وربما تنازل عن مُسنده إكراماً لبعضهم ، كما كان يفعل إذا قدم عليه إمام الحرمين أو القشيرى أو الفارْقذى الواعظ ، وكان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه ، وكانت له فوق ذلك ميول صوفية ، ووقائع أحوال تدل على هذه النزعة .

وعرف العلماءُ والفقهاء رغبته فى التقريب ، وحبه لطرح الخلاف ، ونبذ التعصب ، فجروا فى مضماره ، وتقربوا إليه بما يحب ، وقد روى التاريخ لنا فى ذلك حكاية طريفة ، هى أن عبد السلام بن محمد بن يوسف القزوينى شيخ المعتزلة ، دخل عليه يوما ، وكان عنده أبو محمد التميمى ، ورجل آخر أشعرى ، فقال له القزوينى : أيها الصدر ، لقد اجتمع عندك رءوس أهل النار ، قال نظام الملك : وكيف ذلك ؟ قال : أنا معتزلى ، وهذا مشبِّه - يعنى التميمى - وذلك أشعرى ، وبعضنا يكفر بعضا ! فضحك النظام (٢) .

والمغزى من هذه الواقعة أن العلماء وصلوا إلى حد التفكه بأخبار الخلاف فى مجلسه ، وأخرجوا الأمر فيه مخرج المزح والدعابة ، وشتان بين هذا وما كان من قبل من عنف وحدة وقطيعة .

وقد استعان نظام الملك على دعوته أيضا بوسيلة نعتبرها حديثة فى خدمة

(١) ص ٢٥٤ ج ٣ من طبقات الشافعية الكبرى طبعة المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٤ هـ

(٢) النجوم الزاهرة ص ١٥٦ ج ٥ طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٣ هـ .

المبـــادىء والدعوة لها ، هى إنشاء المدارس ، وحشد العلماء لها ، كى تـكون مصدرا للإقناع والتعليم والدفاع ، وهذا ما فعله نظام الملك ، فقد أقام المدارس النظامية ، وافتتح نظاميـة بغداد بنفسه ، وأشرف على هذه المـدارس وأولاها رعايته ، وتوسع فى إنشائها ، ووقف عليهـا الأموال التى تضمن استمرارها من بعده .

ومع أنها كانت فى أول أمرها غير مرْضية من العامة وبعض العلماء ، فقد درس بها كثير من الأئمة وأفاضل الأمة ، كأبى بكر الشاسى ، وحجة الاسـلام الغزالى ، وأبى نصر بن الصباغ ، وأبى اسحق الشيرازى ، وغيرهم .

« وفى سنة ٤٧٩ ﻫ ، دخل السلطان ملـكشاه ووزيره نظام الملك بغداد ، ونزلا بدار المملـكة ، وزارا مشهد الإمام موسى الـكاظم بن جعفر الصـادق المتوفى ببغداد سنة ١٨٣ ﻫ ، وقبره هناك فى الجانب الغربى مشهور يزار ، وعليـه مشهد عظيم ، وزارا كذلك قبور جماعة من الأئمة والصالحين ، كمعروف الـكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ ﻫ . والامام احمد بن حنبل وأبى حنيفـة وغيرها من القبور المعروفة ، فقال ابن زكرويه الواسطى يهنىء نظام الملك بقصيدة منها :

زرتَ الممالك زَوْرةً مشهورة أرضت مضاجع من بها مدفون
فـكأنك الغيث استهل بتربهـا وكأنها بك روضــة ومعين
فازت قداحك بالثواب وأنجحت ولك الإله على النجاح ضمين

وخلع الخليفة على نظام الملك ، ودخل إلى المدرسة النظامية ، وجلس فى خزانة الـكتب ، وطالع بعض ما فيها ، وسمع الناس عليه فى المدرسة جزء حديث ، وأملى جزء آخر (١) » .

ولا شك أن هذا الصنيع من السلطان ووزيره نظام الملك ، فيه كثير من اللباقة والـكياسة والتوجيه .

وقد كانت المدارس النظامية منبثة فى العراق وإيران وأفغانستان ، وكان التعليم

(١) وفيات الأعيان هامش ص ٣٩٩ من الجزء الرابع طبعة دار المأمون بالقـاهرة سنة ١٣٥٥ ﻫ .

فيها يجرى كأحسن ما يكون التعليم فى عصرنا الحديث ، وكان الأساتذة هم الصفوة المختارة من العلماء ، وكان للطلبة بيوت يسكنونها ويرجعون إليها بعد الفراغ من الدرس ، وكانت لهم أرزاق تجرى عليهم ليفرغوا إلى العلم ، وكان لهم زى يميزهم وكان يباح للجمهور أن يستمع إلى بعض الدروس ، فأقبل الناس عليها ، واستنارت العقول ، ومن تعلم علّم غيره ، وهكذا وجد الشعب الإسلامى طريقاً إلى نور المعرفة ، وإدراك حقيقة الدين ، وهكذا ضربت الدولة فى صدر العصبيات والتفرق ويسرت للركب العلمى سبيلا سويا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

وأراد نظام الملك أن يوحّد الخلافتين ، العباسية والفاطمية ، فبذل فى ذلك جهده ، تارة بالدعوة السلمية وتاره بالجند . وهدفه الوحيد فى كل هذا أن يتحد أهل هذا الدين لتقوى أمتهم ، ويعود إليها ما لها من عزة واستقامة ومنعة .

واليوم نرى الدول الغربية تتحد لمقاومة النازية مثلا ، فتتخذ من المسيحية جامعاً يؤلف قلوب أممها ، ويوحد كلمتها وتصور النازية ، كما تصور ما لا تحب من المذاهب السياسية ، بصورة الخارج على المسيحية ، كى تزيد فى بغض الناس لها ، وكى تركز جهود المسيحيين ، وتؤلبهم عليها ، فهى تتخذ من دينها ذريعة لدنياها . ولا يقولن احد إنها تتخلف عن المدنية حين تنادى بالمسيحية ، فهى الأمم صاحبات المدنية ، وهى الأمم الداعيات وقت الحرج والخوف ، إلى المسيحية .

أفلا نتعظ بالغرب ، وندعو دعوة الحق ، ونتآخى ونتآزر ، ونعمل بمبادىء ديننا ، ونقيم قواعد الاجتماع والسياسة فى دنيانا على أساس مما أوصانا به الإسلام المجيد .

إنما ندعو إلى العمل بما فى الإسلام من مبادىء قويمة ، كل دولة فى حدودها ولمصالحها ، يشد بعضنا أزر بعض ، إذا عرض لنا أمر أمام جماعة الأمم . ويؤثر بعضنا البعض ، إذا وجب الإيثار ، ويشجع بعضنا البعض لتنمو مواردنا ، وتعمل الأيدى العاطلة فينا . وليكن الإسلام جامعاً بيننا ، وهدى لنا .

ورحم الله نظام الملك ، أول من نصر هذا الرأى ، وعمل له ؟

# عناصر وجود الأمة الإسلامية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين بالأزهر

— ٣ —

(٢) وأما جبر المسلمين غيرهم على معتقداتهم فهذا أمر لم يحدث إطلاقا ويشهد بذلك المؤرخون من غير المسلمين ، ومن شاء فليعطنا مثلا واحدا أرغم فيه شخص على اعتناق الإسلام !.

وما كان ذلك ليحدث من قوم يعلن كتابهم الحرية الفكرية وحرية الاعتقاد بشكل لم تعرفه الانسانية من قبله ؛ وقد جعل للدعوة إلى الله سبيلا واضحة لا لبس فيها « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » فدعا أرباب المعرفة والعلم إلى النظر فى سنن الكون ، وفرض لهم الفروض ، حتى إنه ليفرض تعدد الآلهة ليقرر الوحدانية « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . « أإله مع الله » ؟ ثم قرر قضية لا تحتمل الجدل « لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغى » . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » . فهل وراء ذلك قول لمتحامل على الاسلام ؟

ولقد كان منهج الداعين إلى الله فى فتوحاتهم منهجا عادلا غاية العدالة : « لسنا نطلب منكم إلا واحدة من ثلاث : الاسلام . ولكم مالنا وعليكم ما علينا ، أو الجزية وأنتم فى ذمتنا وحمايتنا ، أو الحرب حتى يحكم الله بيننا » .

ولم تكن الحروب الإسلامية مجرد عدوان أو رغبة فى التوسع والاستعمار ، فقد حدث أن قائد الفرس « رستم » سأل المسلمين . فإذا أعطيناكم هذه : « الإسلام » فماذا تفعلون ؟ قالوا : ندعكم وبلادكم ونجاوزكم إلى غيركم .

على أن المسلمين لو وجدوا سلاما لما حملوا سلاحا . أليس من حقهم أن يؤمنوا دعوتهم ويحموها ويدفعوا عنها خصومها ؟ أليس من العدالة - وقد قرروا الحرية المطلقة للناس أجمعين - أن تتاح لهم الظروف لاستعمال حريتهم ، وأن يمكنوا من الدعوة إلى الله فى سلام ؟ ثم إذا منعهم الناس من حقوقهم فحملوا السلاح لحماية أنفسهم ودعوتهم ، قيل إنهم أهل جبروت (١) !

والحق أن القرآن الكريم هو أول أستاذ للعقل البشرى . قرر الحرية والأخوة والمساواة للإنسانية كلها . وجعلها عناصر لا بد منها لوجود الأمة الاسلامية ، وربطها بالدين ربطا لا مجال للتخلص منه أو إهداره ، إلا بالتخلص من الدين وإهدار تعاليمه ، وجعل هذه الحقوق الإنسانية هبة إلـهية لا منحة بشرية ، وجعلها فطرية من مقتضيات وحدانية الخالق ووحدة الأصل . لا مكتسبة بالثورات الشعبية ، فاذا سولت للناس ظروفهم المدنية إلغاءها أو الحد منها لدوافع مدنية وجدوا أنفسهم ملزمين بالحفاظ عليها ، وفك عُقُلها لمقررات دينية ! وهذه أول مرة يُكرّم فيها الإنسان ، وتقرر فيها تلك المبادىء بشكل يضمن للمجتمع الذى تسود فيه حياة أمن وسلام ، وعدل ورخاء (٢) . وإذن فليس حقا ما يزعمه الزاعمون من أن ثورة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر الميلادى هى التى أعلنت « حقوق الانسان » ولا يبعد - بل هذا هو اعتقادى - أن هذه الثورة قد استمدت ما أعلنته من تعاليم الاسلام ! إذ أن « روسو » صاحب انجيل الثورة ممن تتلمذوا على مبادىء الاسلام ، وتوحى إلينا بذلك عباراته : « كان لمحمد آراء فى منتهى الحكمة . وقد أحكم أطراف مذهبه السياسى ، وكانت الحكومة فى عهد خلفائه موحدة متينة الدعائم ، ما احتفظت بالشكل الذى وضعه لها . . . » (٣) .

---

(١) راجع القرآن والقتال للاستاذ الشيخ محمود شلتوت .

(٢) راجع مقالنا الإسلام والحكم ، فى العددين الرابع والخامس من مجلة الشبان المسلمين « نوفبر سنه ١٩٤٦ »

(٢) العقد الاجتماعى . الكتاب الرابع . الفصل الثامن .

### ٣ – التضامن الجماعي والمسئولية المشتركة :

تقررت الحرية والأخوة والمساواة بين الناس كافة وبين المؤمنين خاصة ، فهل فى الإسلام ضمان من سوء استعمال هذه الحقوق ؟ .

لم يشأ الاسلام أن يدع لكل فرد تحديد مدى حريته ومساواته حتى لا يطغى على حريات الآخرين ، فيكون الفساد من حيث أريد الإصلاح ، والظلم عن طريق الرغبة فى تحقق العدالة ، ولكنه جعل لذلك شرعة ومنهاجا ، فربط بين المسلمين برباط جديد - لم تعرفه الانسانية من قبله ، ولم تصل إليه تماما بعد - هو التضامن الجماعي لخير الجميع ، والمسئولية المشتركة عن صالح الجميع ، تقرر هذا نظريا وطبق عمليا بنجاح عظيم منذ القرن السابع الميلادى ! وهاك حديثه .

يقصد بذلك المبدأ . تكليف الفرد بالنظر إلى نفسه على اعتبار أنه عضو فى أسرة يحتاج إليها وتحتاج إليه ، لا على اعتبار الفردية المطلقة ؛ وتكليفه بتوخى صالح المجموعة فى كافة أعماله ، وأن يرعى شئون غيره بالعدل ، وألا يدفعه بغضه لشخص أو جماعة إلى ظلمها ، وأن يدفع الضرر ما استطاع عن أخيه الفرد وعن المجموعة ، ووعد الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة حسن الجزاء فى دار البقاء : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » لأن الشح ربيب الأثرة الداعية إلى الفردية والظلم والعدوان ، وفى هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » . « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وجعل المسلمين فى تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا أصيب منه عضو ، لحق الأذى الجسم كله : وأصل ذلك ما ورد فى القرآن الكريم من حض على التعاون والبر والاحسان كقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، وقوله : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ، وقوله : « وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » إلى غير ذلك من آيات كثيرة فى هذا المعنى الذى يوجب على الفرد والجماعة ، ابتناء الأعمال على رعاية مصلحة الجميع ، ولا أكاد أعرف

حكما إسلاميا - إيجابيا أو سلبيا - لا يقوم على المصلحة ، أو لا يعلل بالمصلحة فى الفعل والترك ! وهدف ذلك كله ، جَعْل وحدة الأمة قوية متماسكة ، تسخر لمصلحتها جهود الفرد ، وتسخر جهودها لمصلحة الفرد ، الفرد يخدم الجماعة - الأمة - ويرعى صوالحها ، والأمة تخدمه وتحفظه وترعى صوالحه ، فاذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الأمة ، كان لمصلحة الأمة المحل الأول فى الاعتبار ، ولقد ضرب الرسول الكريم مثلا رائعاً يوضح لنا مبلغ اعتبار هذا التضامن الجماعى لمصلحة الجميع ، والحد من حرية الفرد أو تقييد مصلحته بمصلحة الجماعة بقوله : « إن قوما ركبوا فى سفينة ، فانقسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع . فجاء رجل منهم فنقر موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء ، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا . » وهكذا ربطت مصلحة الفرد بمصلحة الجماعة ، ووجب على الجماعة رعاية صالح كل فرد حتى لا يهلك فتهلك الجماعة ، كما أن عليها أن تستيقن من أن تصرف الفرد الخاص يحقق مصلحته ، ولا يؤدى إلى هلاكه ، ومن ثم صح الحجر على السفهاء الذين لا تضمن تصرفاتهم مصالحهم أو تضر بمصالحهم ومصلحة الجماعة .

وتبدو مظاهر هذا التضامن بين الفرد والأمة فى ثلاثة أمور قررها القرآن الكريم بعناية تامة ، ودعا إليها كثيراً فى أكثر من موضع ، وهى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وشئون الحكم ، والتنظيم الاقتصادى للإسلام ، وإنى محدثك عنها بإيجاز .

## الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . وتؤمنون بالله . . . » وهذا الأمر والنهى هو المعنىّ بقول الرسول الكريم « الدين النصيحة لله ورسوله ، ولأئمة المؤمنين وعامتهم » فهو النصح والإرشاد . والتواصى بالحق والصبر والمرحمة ، والأمر والنهى ، أو النصيحة ، سلطة عامة ، لا حدود لاختصاصاتها ، وإن كان لها آدابها ، وهى حق لكل مسلم يرى نفسه أهلا لها ، وصالحاً لمباشرتها ، بحيث يكون سلوكه قدوة فى الخير والبر ، ملتزماً لكل معروف

يأمر به ، بعيداً عن كل شرمنكر ينهى الناس عنه « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون » وهذه السلطة هي حجر الزاوية فى هذا التضامن ، وهي بحق — كما يقول المغفور له الإمام الشيخ محمد عبده (١) : إنها السلطة الوحيدة التى جعلها الإسلام لأدنى المسلمين ، يقرع بها أنف أعلاهم ، ولو باشرها مسلمو اليوم كما باشرها أسلافهم القدامى لتحقق لهم مايصبون إليه من وحدة وعزة وحب وسلام .

ولقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه وخلفاؤه مثلا عالياً فى الاستماع إلى الناصحين والمشيرين ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ينزل على نصح الحباب بن المنذر فى معركة بدر ، وعلى نصح سعد بن معاذ يوم الأحزاب ، وغير ذلك مما هو معروف فى مواطنه ، وعمر يقول : مرحباً بالناصح غدواً وعشياً أبد الدهر ، ويأمر المؤمنين ألا يتقيدوا بوقت ، وألا يتحرجوا من نصحه فى أى موطن وفى أى مكان فى المسجد أو المنزل فى الليل أو فى النهار ، فى مجلس أو فى طريق ، ولقد كان المسلمون يرون النصح واجباً شرعياً ، حتى إن أحدهم ليلتى عمر فى بعض شوارع المدينة ، فيناديه : والله إنك لمأخوذ بعمالك يا عمر ! فيقول : ويحك ما هذا ؟ فيقول الرجل ؛ إن عاملك عياض بن غنم يأكل الطيب ، ويلبس اللين ، ويركب الفاره ! فيقول عمر : ويلك ! أواشٍ أنت ؟ فيقول : بل ناصح مؤدٍ ماعليه ؛ ويقول عثمان بن عفان : والله لو ردّنى النصح عبداً لاسننت بسنة العبيد ، ومنهج على بن أبى طالب فى النصح والتناصح معروف لكل إنسان ، ولكبار علماء الصحابة والتابعين فى ذلك مواقف مشهورة مشكورة مع الأمراء فى كافة العصور . حيث كان للمسلمين أمة ودولة وعزة .

## الإسلام ونظرته إلى الحكم :

لعل الإسلام أول من قرر أن الحكم خدمة عامه للمحكومين ، وأول من ربط

---

(١) الإسلام والنصرانية ص ٦٠ — ٦٦ .

مسائل الاجتماع بشئون السياسة والاقتصاد . فالحكم فى الإسلام خدمة عامة للأمة وليس تحكماً فيها ولا سيادة عليها ، وهو يقوم فى نظر القرآن على العدل والإحسان ، ثم هو أمانة ، يجب أن تؤدى إلى صاحبها على أكمل الوجوه وأسلمها . ثم يكل هذا الحكم إلى الأمة نفسها ، ويكلفها أن تسير فيه على نهج مرسوم ، ليس لها أن تحيد عنه ، وهو نهج العدل الذى يضمن خير الفرد والمجتمع ، ويخاطبها فى شأنه بأسلوب يحمل على الاستجابة ورفض دواعى التحلل من العدالة . فيذكر العدل مرتين مقروناً بكلمة « إن الله يأمر » ليؤكد طلبه ، ويدفع القلوب المؤمنة إلى الاستجابة لداعيه ، بينما لم يستعمل هذا الأسلوب الأخّاذ فى غير طلب الحكم بالعدل من الأمة « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نِعِمّا يعظكم به » ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

ويجعل الإسلام للأمة حق اختيار حكامها ، اختياراً يقوم على الرضى لا على الضغط والقهر ، كما أن لها حق مراقبتهم ، ومحاسبتهم ، وعزلهم إن لزم الأمر ، وأعطاها من السلطان ما لم يعطها أى دستور بشرى ، وقرر فقهاء الإسلام أن الحاكم مجرد نائب عن الأمة (٢) ، ويقول عمر : إن منزلته من الأمة كمنزلة والى اليتيم منه ومن ماله ، ليس له عليه سيادة ، وليس له معه إلا حسن التربية ، وحسن الإرشاد والرعاية ؛ واعتبروا « الخليفة » واحداً من المسلمين تجرى عليه الأحكام فى كل ما يجترحه من إثم ، فيؤخذ بالقصاص إذا قتل ، ويلزم بما يتلفه من أموال غيره ، وتقام عليه الحدود إن سرق أو زنى . ويقول القفّال الشافعى صراحة : إن الأمة التى ولته هى التى تقيم عليه الحدود ، وحمّل الأمة من مسئولية الحكم ، مثل ما يحتمل الحاكم نفسه أو أكثر وتوعد النبى الكريم المؤمنين إذا هم

---

(٢) راجع فى ذلك البدائع للكاسانى ج ٧ ص ١٦ ، مغنى المحتاج على منهاج النووى للشربينى الخطيب ج ٤ ص ١٤٠ وتحفة المحتاج للتهثمى ج ٩ ص ١١٥ ، وشرح المقاصد ج ٢ ص ٢٧٢ والمواقف ج ٨ فصل الإمامة الكبرى ، وحاشية ابن عابدين ج ٣ كتاب الحدود ، والحدود والإمامة فى كتب الحديث ، وفقه القرآن والسنة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

وجدوا ظلماً فى أمته ـ وفيهم من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا ـ بعذاب يعمهم من عند الله ، كما قال تعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ، « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ولقد طبقت هذه المبادىء عمليا ونجحت أيما نجاح ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسلم ظهره أو صدره لرجل ضرب ظهره أو دفع صدره ليقتص لنفسه منه ، وهذا أعرابى يقول له : يا محمد ، أعطنى من مال الله الذى أعطاك . لا من مال أبيك ! وهذا آخر يقول له وهو يقسم مالا : اعدل يا محمد ! فيجيبه فى بساطة المؤمن المعلم : « ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » وقد اقتدى به أصحابه عليه الصلاة والسلام ممن حكمتهم الأمة فى أمورها ، فأبو بكر يقول : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم » وعمر يقول : من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه ، فيقال له : لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فيحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه . ثم يعطى درته لرجل خفق رأسه بها بلا جريرة ويقول اخفقنى بها أو خذ عوضها أو تصدق فإن الله يجزى المتصدقين ، وعثمان يعطى أذنه لعبد من عبيده عرك أذنه ويقول : أشدد لحبذا قصاص فى الدنيا لا قصاص فى الآخرة ، ويعبر عمر عن حقيقة مركز الحاكم من الأمة بقوله للأشعرى : « إنما أنت واحد من الناس ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا (١) » ونظرة الاسلام هذه لاتدع مجالا للشك فى أن الأمة التى خوطبت بالتكاليف العامة هى مصدر جميع السلطات لكل من يتولى شيئا من أمورها باسمها ، وفرق كبير بين الأسس التى بَنَى عليها الاسلام فكرته فى الحكم وسلطات الأمة ، وبين الأسس الفرضية التى قامت عليها مثل هذه النظرية عند العلمانيين .

## التنظيم الاقتصادى :

وليست الفلسفة السياسية الحديثة هى التى ربطت السياسة بالاقتصاد ، فتلك حقيقة إسلامية مقررة منذ ظهر الاسلام ، ولسنا نجد ربطا للاجتماع

(١) لزيادة الفائدة راجع كتابنا عصر الراشدين ص ٢٦ ـ ٤٧

بالسياسة والاقتصاد على هذا النمط الاسلامى الذى يلزم النـــاس به على أنه دين واجب التنفيذ ، لا كمال أو إسعاف يجوز الالتجاء إليه عند الحاجة ، وللإسلام فى ذلك طريقة فريدة ثابتة لا تتغير ولا تبدل ، بتغير الزمان والمكان ، فهو يفرض « الزكاة » قدرا محددا على أنصبة مقدرة محددة بنسب معقولة جدا « لا ترهق الغنى ولكنها تسعف الفقير » وتسد معظم حاجات الدولة ، ولا سبيل للتخلص من هذا الفرض إلا إذا وجد سبيل للتخلص من كل الفروض الجبرية كالصلاة والصوم والحج مثلا ، ولهذا اتفق صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم على محاربة مانعى الزكاة بعد موت الرسول الكريم ، لأن الله لم يجوز الإيمان ببعض الكتاب ، والكفر ببعض .

ومن ناحية أخرى أراد الاسلام أن يمرّن المسلمين على عمل الخير ويوجههم إلى التراحم وجهة عملية تكون مجالا للتنافس الإنسانى ، فأوجب على الأغنياء والموسرين مواساة إخوانهم الفقراء والمحرومين من فضول أموالهم ، وسمى ذلك صدقة ، أو قرضا حسنا لله ، أو الانفاق فى سبيل الله ، وجعل ذلك من صفات المؤمنين المخلصين ، ووعد عليه بحسن الجزاء ، وترك تقدير ذلك للمنفقين ، يقدر كل منهم ما يجب عليه حسب سعته وحاله ومبلغ صدقه فى إيمانه ؛ وتوعد الأغنياء الذين يبخلون بما أعطاهم الله من فضله بعذاب عظيم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ولقد لاحظ عمر بن الخطاب فى أواخر أيامه . أن تقدم الزمن بالمسلمين ، وابتعادهم شيئا فشيئا عن عصر الرسالة الهادية ، لم يجعل المواساة على حالها فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فجعلتها - أو قسمتها - فى الفقراء » ثم جاء أبو ذر الغفارى الصحابى الجليل ، فرأى أن الأغنياء لا يحل لهم الإبقاء على شيء من فضول أموالهم ، ودعاهم إلى الزهد ، بالتخلص

من هذه الفضول ، وهي مغالاة في الزهد من أبي ذر ، إلا أن الذي لا مرية فيه أن الله جعل في أموال الأغنياء حقا للمحرومين ، وترك للأغنياء كما قلنا أمر تقديره « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » فعليهم حق معلوم معروف مقرر في أموالهم غير أن تقديره لصاحب المال (١) .

والمتأمل في المصارف التي عينها القرآن الكريم لتنفق فيها أموال الزكاة والصدقات ، يؤمن إيماناً قويا بهذا التضامن الجماعي الذي نتحدث عنه « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل . فريضة من الله ، والله عليم حكيم » « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ؛ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ، ذوي القربى . واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب . . » فأنت تجد القرآن لم يدع جهةَ حاجة موجودة أو محتملة ، إلا عينها ، وأوجب على الأمة سد حاجتها ، عن طريق الفرض الجبري ، أو الفرض الاختياري ، الذي سماه براً ، صيانة للمجتمع من الثورات والقلاقل التي ينتجها شح الأغنياء ، واستبداد الحاجة بالمحرومين ، وكثيراً ما نبهت النصوص على أن أسباب الحرمان ، هي دائماً أسباب غير إرادية ، كما أن أسباب اليسر كثيراً ما تكون غير إرادية ، وأن الحرمان والغنى سواء في أنهما محنة ، لاختبار مدى إيمان المحرومين ، الذي يجب أن يعودهم إلى القناعة والصبر ، وامتحان مبلغ إيمان الموسرين ، الذي يجب أن يحملهم على الرحمة والعطف ، فعلى الغنى ألا يدع قلبه يتحجر ، وعلى الفقير ألا يدع صبره ينفجر أو يتهور « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » فما أحرى الغنى بالبذل والمرحمة ، وما أجدر المحتاج بالقناعة والصبر واللطف في الطلب ! « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به . لكان خيراً

(١) راجع بحث مكانة الزكاة من الشئون الاجتماعية للاستاذ الشيخ شلتوت في مجلة الأزهر عدد المحرم سنة ١٣٥٩ هـ ، وتجده أيضا في العدد السادس ( ١١ المحرم سنة ١٣٥٧ هـ ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ من مجلة الشبان المسلمين .

لهم وأشد تثبيتاً، وإذن لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما » وإذن لاستقام أمن المجتمع ، وتحقق فيه العدل والرخاء .

بهذا التضامن الجماعى ، يضمن الإسلام مجتمعاً سعيداً ، يقوم حقيقة على الحرية والأخوة والمساواة والعدالة ، وتوجه المصلحة العامة باسم الدين إلى خير الجميع ، ولم يدعه الإسلام هكذا مجرد رغبة ، بل قرروجوب قيامه بين أفراد الأمة ، وبينهم وبين ممثلى الجماعة « الحكومة » ورتب على ذلك مسئولية مشتركة يؤخذ بها الجميع أمام الله « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ، فلنقصن عليهم بعلم وما كنا بغائبين » « وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون » « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » « وقفوهم إنهم مسئولون » « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » « المسلمون يدٌ على من سواهم »

وإذا كانت هذه المسئولية « أخروية » فإن اتجاه القرآن فى خطابه إلى المؤمنين الذى أخرج لنا ـ كما قلت سابقاً ـ لأول مرة ، أمة مكلفة مسئولة . يعنى أن هذه المسئولية دنيوية أخروية ، ويعظم أمرها ويشتد ، يوم « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا » ، وبهذه المسئولية ألزم الفرد بضمان صلاح الأمة ، وألزمت الأمة بضمان صلاحية الفرد ، وتولى الفقه الإسلامى وضع الضوابط التى تضمن عدم طغيان الفرد على الأمة ، وعدم استبداد الأمة بالفرد ، حتى يتلاشى كيانه .

وبعد فهذه عناصر وجود الأمة الإسلامية ، التى تحقق وجودها إن وجدت فيها ، وتؤهلها للقيام بتكاليفها لتعلن أنها موجودة :

توحيد لله المالك المطلق لجميع عبيده الذين خلقهم من أصل واحد ، أحراراً متساوين فى الحقوق والتكاليف ، ووحدة للأمة تجمع شتاتها على بعد الدار ، وسعة الفواصل ، وأخوّة بين أفراد الأمة الأحرار المتساوين ، تحملهم على التعاطف والتراحم ، والتضامن فى جلب الخير ، ودفع الأذى بين المسلمين فى دار الإسلام ،

الوطن الأكبر الذى يضم بين جوانحه كل من يوحّد الله ، ويؤمن برسالة محمد ابن عبد الله ؛ ومسئولية عامة يؤخذ بها المسلمون جميعاً أخذاً لا هوادة فيه .

بهذه العناصر أخرج الإسلام خير أمة قويّة ، تقوم قوتها على الخير والعدل والسلام ، أمة تحكمت قرونا طويلة فى سياسة العالم وتصريف شئونه ، وأثبتت نجاح التجربة المحمدية نجاحاً منقطع النظير ، يعرفه كل من درس تاريخ الإسلام والمسلمين ، فهل آن للمسلمين أن يحققوا وجود أمتهم مرة أخرى ؟ !

سيقول الضعفاء ، والذين فى قلوبهم مرض : ما ولاهم شطر الماضى يبكونه أوينشدونه ، فهل لديهم اليوم منهج لمستقبل يرجونه ؟ ! ونقول لهم فى ثقة المؤمنين : لدينا منهج قويم ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » سنحارب به الضعف والمرض فى صفوف المسلمين ، وسنذكّر المؤمنين بما فيه ، وندعوهم إليه ، فآمنوا به أو لا تؤمنوا ، سواء علينا أجزعتم أم صبرتم ، فإن أمر هذه الأمة كما صار إلى التفرق والابتداع ، صائر باذن الله إلى الاجتماع والاتباع ، « ولتعلمن نبأه بعد حين » . « سيذّكر من يخشى . ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى » وليعودن الإسلام كما بدأ عجيباً يبهر القلوب والأنظار ، ولينصرن الله من ينصره ، وإن غداً لناظره قريب .

وإلى اللقاء فى فرصة أخرى لنتحدث عن منهج الدعوة للمستقبل المأمول « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » « إن هذه تذكِرَة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » .

والسلام على من اتبع الهدى وقال إننى من المسلمين .

في جماعة كبار العلماء :

# نهضة مباركة

كتب الينا فضيلة العلامة الجليل الشيخ مرتضى آل يس ، من كبار علماء النجف ، وشيوخها الأجلاء ، كتاباً مسهباً بمناسبة ما قررته حكومة الهند من تحريم الخمور فى بلادها ، واقترح أن يتبادل الرأى فى ذلك بين جماعة كبار العلماء فى الأزهر وكبار المجتهدين فى النجف وغيرهم من علماء الأقطار الإسلامية ، تمهيداً للقيام بحملة جهاد دينى إسلامى على الخمر وشتى الموبقات التى ترتكب فى الأمة ، وتسكت عنها الحكومات الإسلامية .

جاءنا هذا الكتاب من فضيلته فى أواخر شهر رجب ، وفيه يقول :

« إن لى أملا أيقظه فى نفسى هذا العمل الصالح ، الذى قامت به حكومة الهند ، حين حرمت الخمر على القسم الموبوء بها من بلادها ، ومردّ هذا الأمل إلى حسن ظنى بجماعة كبار العلماء فى الأزهر الشريف ، الذين نصبوا أنفسهم لمناصرة هذا الدين كلما وجدوا إليها سبيلا ، فهأنذا أدفع إلى حضراتهم باقتراحى عن طريق جماعة التقريب ، عسى أن يأخذ حظه من عنايتهم وتفكيرهم ، فيضعوه موضع العمل والتطبيق ، فى وقت غير بعيد إن شاء الله تعالى »

ولما كان من أهم ما تعمل له جماعة التقريب ، أن تقوم بالسعى المثمر فى كل أمر يعود على المسلمين فى شتى البلاد بالخير والصلاح ، وأن تسفر بين علماء الأقطار الإسلامية من كافة المذاهب ، فتنقل إلى كل ما عند الآخرين ؛ وتجمع قلوبهم ومساعيهم على ما فيه صلاح أمتهم . فقد اتصلت دار التقريب ، على الفور ،

بحضرتى صاحبى الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود شلتوت ، من أعضاء جماعة كبار العلماء ، وتحدثت إليهما فى هذا الشأن ، فرحبا باقتراح العلامة المرتضى ، وشكراه على حسن ظنه ، وكريم ثقته فى علماء الأزهر ، وبشّرانا بأن الجماعة قد اعتزمت القيام - على وجه حاسم - بواجب الجهاد الدينى فى محاربة المنكرات ، ودرء المفاسد الخلقية ، وما يوجه إلى الدين من مطاعن ، منشؤها الجهالات أو العداوات ، وأنها ستجتمع لذلك فى وقت قريب ، ولا شك أنها ستلتقى مع فكرة الأستاذ الجليل ، وتعمل من جانبها على تحقيق ما ترمى إليه من خير للمسلمين .

ولم تلبث الجماعة بعد ذلك ، أن عقدت جلسة تاريخية هامة بالإدارة العامة للجامع الأزهر ، شارك فيها كبار رجال الإدارة فى الأزهر الشريف ، واستعرض المجتمعون فى تلك الجلسة حالة الدين والخلق ، وما آل اليه أمرهما فى نفوس الناس وواجب الأزهر فى ذلك ، وانتهت إلى قرارات تمهيدية ، يراد بها تقرير أنجع الوسائل التى يتوسل بها إلى إصلاح حال الأمة من نواحيها المختلفة المتصلة بالدين والخلق ، على أن تتكرر الجلسات فى أوقات متقاربة للنظر فى ذلك ، وأصدرت فى نفس الجلسة قراراً عاجلا برفع كتاب خاص إلى حضرة صاحب الجلالة ملك مصر ، وتوجيه كتاب آخر إلى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس حكومتها ، وقد رفع الكتاب الأول إلى حضرة صاحب الجلالة ، وقدم الكتاب الثانى إلى رفعة الرئيس ، وأذيع بعد ذلك من دار الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية مرتين فى يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٣٦٩هـ .

وإن هذا لمن أكبر الدلائل على التقاء أفكار المسلمين ، وتقارب قلوبهم وإحساسهم بما فيه الخير لأمتهم ، فهذا صوت عالم كريم من النجف ، يلتقى مع أصوات علماء كرام من مصر ، وقد جاءتنا الأخبار بمثل هذا أيضا عن علماء سوريا ، ولا شك أن هذه نهضة مباركة نرجو أن تشمل سائر بلاد المسلمين ، وأن يكون لها ما بعدها من خير الأمة الإسلامية وصلاحها إن شاء الله تعالى .

ومما يذكر ، أن خمسة من حضرات أصحاب الفضيلة المشتركين فى هذا الاجتماع من أعضاء جماعة التقريب ، وهم حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة : الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ محمد عبد الفتاح العنانى ، والشيخ عيسى منون .

وقد قام بأعمال السكرتارية لهذا الاجتماع وللجنة الفرعية التى عهد إليها النظر فى شأن الاقتراحات ووسائل تنفيذها ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المـــدنى المفتش بالأزهر ، وهو السكرتير العام المساعد لدار التقريب ، ورئيس تحرير مجلتها ( رسالة الإسلام ) .

ونحن نسجل هنا كتاب الجماعة إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء ، راجين أن يكون ذلك أول الغيث ، وأن يوفق الله ولاة الأمور فى سائر البلاد الإسلامية ، للاستماع إلى كلمة الله ، والنزول على النصيحة فى دين الله .

وهذا هو نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. « أما بعد » .

فإن الله جل شأنه أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وأمر المؤمنين بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وحذر عباده فى كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم ، عواقب الفساد والفتن التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، وضرب لنا الأمثال بمن كان قبلنا من أمم استشرى فيها الفساد ، وفشا فيها المنكر فسكت خاصتها على عامتها حتى أخذوا جميعاً بعذاب الله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا

لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وكما أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب على البلاغ والبيان ، أخذ ميثاق أهل الحكم والسلطان أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يحكموا بين الناس بالعدل ، ويقيموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، ويكونوا فى شعوبهم قِوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، يرتادون لهم الطيبات ، ويذودونهم عن مواقع الهلكة ، ويحمونهم كل شر ، ويقودونهم إلى كل خير .

وإن الناظر فى حال أمتنا العزيزة ، وما آل إليه أمر الدين والخلق فيها ، ليهوله ما يرى ، ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذى صارت إليه ، ويخالجه كثير من الإشفاق على مستقبلها الذى هى مقبلة عليه ؛ فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيه ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الاسلام ، ودخل على كثير منهم مالم يكن يُعهد من أخلاق الإباحية والتحلل ، جرياً وراء المدنية الزائفة ، واغتراراً ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغراء فى البلاد ، ولا سيما أمام ناشئتها وفتيانها المرجُوِّين للنهوض بها والأخذ بيدها فى حاضرها ومستقبلها ، فمن حفلات ماجنة خليعة ، يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة ، تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافى المروءة والخلق الكريم . إلى أندية يباح فيها القمار ، ويسكب على موائدها الذهب النضار ، وتبتز فيها الأموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات ، إلى ملاعب للسباق والمراهنات تنطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال ، إلى مسابقات للجمال ، إنما هى معارض للفسوق والإثم ، يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ، إلى شواطىء فى الصيف يخلع فيها العذار ويطغى فيها الأشرار ، إلى أخبار ذلك تذكر وتنشر وتوصف وتصور وتستثار بها كوامن الشهوات والغرائز فى غير تورع ولا حياء ، إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات .

كل هذا يحدث فى البلاد ، ويعمل عمله المتواصل فى أخلاقنا وتقاليدنا حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح فى حاجة إلى علاج سريع .

ياصاحب المقام الرفيع :

لقد أورثتنا المدنية الأوربية ، وما وفد علينا من وافدات الرذيلة والإباحية ، وما غُزينا به فى أخلاقنا وتقاليدنا الكريمة ـ أورثنا كل ذلك ـ عرفاً فاسداً ، وذوقاً مريضاً ، ومجتمعاً صار ينظر إلى هذه المفاسد نظرته إلى شىء مألوف ، فلا يكاد ينكرها فضلا عن أن يغيرها ، بل أصبح يراها ـ إلا قليلا ممن عصم الله ـ آية من آيات التقدم وعلامة على النهوض والرقى ، ورضيت بها القوانين ، بل حمتها ونظمتها ، وجَبَت من كسبها الحرام الضرائب والرسوم ، كما تجبيها من الاعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الوقوع فى الفساد ، أن يُرى الغىّ فيه رشاداً ، والضلال هدى ، فإنه حينئذ دليل على تأصل جراثيمه وتمكنها من القلوب ، وصيرورة الأمة إلى الزمان الذى يُرى فيه المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والقبيح حسناً والحسن قبيحاً .

وإن لنا فى بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف ، وفتّ فى عضدها الانحلال ، فسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ، ولم تطق صبرا على ما أصابها من بأسهم وقوة شكيمتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن بعد فوات الاوان، وتلاوموا عليه ، ولكن بعد أن فاتتهم الفرصة فأصبحوا على مافعلوا نادمين .

وقد جعلكم الله ـ ياصاحب المقام الرفيع ـ على رأس حكومة الشعب الحريصة على تقويم أمره وبث دعائم الإصلاح فيه ؛ وفى تاريخكم الحافل مواقف مشهودة ، تدل على ما فطركم الله عليه من حب الدين والفضيلة ؛ والجالس على عرش مصر ملك عظيم يحمل بين جنبيه نفساً كريمة ويؤمن بالله وكلماته ، ويعمل على إنشاء أمته نشأة صالحة قوية ، عمادها الخلق ، وقوامها الصلاح والاستقامة ، ويرجو لها من صميم قلبه ، منزلة من العزة والسمو ، تعود بها إلى سالف مجدها ؛ وقد منح الله

مصر بين شقيقاتها الإسلامية والعربية — بفضل توجيهه السامى — مركز القدوة والقيادة ؛ فهى تنظر إليها ، وترقب أعمالها ، وتستن بسننها ، وتهتدى بهدى علمائها وزعمائها ، وفيها الأزهر الشريف ، حصن الدين ، ومثابة العلم ، ومشرق شمس الفضيلة والأخلاق الكريمة .

كل ذلك — ياصاحب المقام الرفيع — يجعلنا أقوى ما نكون فى الإصلاح رجاءً ، وأقرب ما نكون إلى النجاح سبيلا ، ويحملنا على أن نناشدكم أمانة الله ، أن تقوموا لله قومةً تَقَرّ بها عين الدين ، ويذل بها شيطان الفساد والمنكر ، ويحفظها التاريخ لكم صفحة بيضاء ، تنشر يوم القيامة فى صحائفكم ، وتوزن فى ميزان أعمالكم .

احفظوا ما ضيعه التهاون والتفريط ، وأشعروا أهل الفساد بوازع السلطان إذْ لم يرتدعوا بوازع القرآن ، وأعلنوها حرباً حامية الوطيس على كل منكر وفسوق ؛ وانتشلوا شباب الأمة من مهاوى العبث ، ومواطن الميوعة ، وأوكار الفجور . وخذوا على يد كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الفضيلة ، أو الترويج للرذيلة ، أو غرس بذور المجون والخلاعة فى الأمة ؛ إنكم إن فعلتم ذلك رضى الله عنكم ورسوله ، ورضى عنكم عقلاء الأمة ، وكرام العشيرة ، وإن ذلك لهو الفوز العظيم .

وفقكم الله إلى نصر الفضيلة ، ودحر الرذيلة ، وأعز بالفاروق دينه وأمته ، وأطال فى طاعة الله حياته ، وبارك فيها للإسلام والمسلمين ، آمين ؟

# من القانون الأساسى لجماعة التقريب

## المادة الثانية

أغراض الجماعة هى :ـــ

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

# فهـــرس


| | | |
|---|---|---|
| كلمة التحرير . . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير | ٢٢٧ |
| تفسير القرآن الكريم . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت | ٢٣١ |
| ديمقراطية الإسلام . . . . . . . . . . | لحضرة صاحب المعالى محمد على علوبة باشا | ٢٤٦ |
| الإسلام والمدنية الحديثة . . . . . . | لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك | ٢٥٧ |
| الشخصية المحمدية . . . . . . . . . . | لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد وجدى بك | ٢٦٢ |
| بيان للمسلمين . . . . . . . . . . . . | للعلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء | ٢٦٨ |
| نظم الحكم كما يراها الإسلام . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى | ٢٧٤ |
| أصول الفقه للشيعة الإمامية . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه | ٢٧٨ |
| التاريخ فى الشرق الأوسط . . . . . . | لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة | ٢٩٠ |
| الشعر والشعراء بين الأمس واليوم | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان | ٢٩٧ |
| شخصية الطوفى . . . . . . . . . . . | لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ توفيق الفكيكى | ٣٠٤ |
| تحية إلى الروح العلوية . . . . . . . . | . . . . . . . . . . . . . . . . | ٣١١ |
| الوزير نظام الملك ووحدة المسلمين | لحضرة الكاتب الفاضل الدكتور يحيى الخشاب | ٣١٣ |
| عناصر وجود الأمة الاسلامية . . . | لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض | ١٩٦ |
| نهضة مباركة . . . . . . . . . . . . | . . . . . . . . . . . . . . . . | ٣٢٩ |



## رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية
تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى     مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا
وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣




## مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الثانية
العدد الرابع

ذو الحجة ١٣٦٩ هـ
اكتوبر ١٩٥٠ م

إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

"قرآن كريم"

بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة التحرير

يتصفح المسلمون هذا العدد من مجلة « رسالة الإسلام » إن شاء الله تعالى ، وقد أخذت وفودهم إلى البلاد المقدسة تعود إلى أوطانها بعد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام ، حيث طهروا أرواحهم ، وغسلوا أدرانهم ، وعادوا أطهاراً بِراء كيوم ولدتهم أمهاتهم .

وقد جرت عادة الناس أن يجتمعوا لتحية القادمين بعد أداء الفريضة ، سلاما عليهم ، وابتهاجاً بهم ، والتماساً لدعائهم ، كما جرت عادتهم أن يستمعوا فى كثير من الإقبال والشغف ، لما يفيضون فيه من حديث عما لاقوْا فى رحلتهم ، وعما صادفهم فى سبيلها من صعوبة أو يسر ، وعما شهدوا من أحوال أهل البلاد المقدسة من رعاة ورعية ، وعما ارتسم فى أذهانهم من ذكريات عن الماضى والحاضر من شئون تلك البلاد التى تهوِى اليها أفئدة المسلمين ، وترتبط بها قلوبهم .

ولهذا يكاد المسلمون يعرفون كل شىء عن مكة والمدينة ، إما عيانا وإما سماعا ، ويعرفون كل ما اتصل بهما أو وقع فى طريقهما من قرى أو معالم أو مشاهد ، وناهيك برحلة محبوبة متواصفة لم ينقطع المسلمون عنها من لدن أشرقت على موطنها شمس الإسلام ، وتنزلت على ربوعه آيات القرآن ، وقد كتبها الله فريضة على كل من آمن به من أبيض وأسود وأحمر ما دام مستطيعا « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

ولهذا أيضاً كان أمر المشرفين على تلك البلاد ، المدبرين لشئونها ، من الولاة والأمراء والحكام طوال حقب التاريخ الإسلامى معروفاً مكشوفاً يتناقله الناس ، وتنعقد عليه وتنفض محافل الواردين والصادرين فى كل عام ، وتتناوله الألسنة والآذان مشافهة وسماعا ، قبل أن تخطه الأقلام فى الكتب والمدوّنات تسجيلا وحفظا ، فلو أن والياً من الولاة استطاع أن يخفى سياسته وأعماله على غير شعبه ، وأن يحسّن بالدعاوة ما ساء من فعله ، وأن يصوّر الشر خيراً ، والفساد صلاحا ؛ فإن حاكم « الحرمين » لا يستطيع ذلك ، ولا يقدر على إدخال الزيف والخديعة فيه على الإسلام والمسلمين ، ولو كان باقعة البواقع دهاء وحنكة وسعة حيلة ، ذلك بأن الشهود كثير ، وكلهم أو جلهم عدول مقبولون على تعدد المطالع ، واختلاف المنازع ، فويل ثم ويل لمن خاس بعهد المسلمين فى الحرمين ، أو ضيع أمانة الله فيهما « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

* * *

هذا وأمة الإسلام — وإن فرقتها السياسة دولا ، وقطعتها الأهواء فى الأرض أمما — هى فى واقع الأمر من حيث العاطفة والإحساس أمة واحدة ، متضامنة فى شعوبها تضامن المؤمنين « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وليسوا كغيرهم من الأمم المتقاطعة المتدابرة التى أغرى الله بين أهلها العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، فإذا قال الإنجليزى للألمانى : هذه بلادى فلا شأن لك بها ، ولا دخل لك فيها ، أو ضربت روسيا بنطاق من حديد على بلادها ، فلم تسمح لأحد أن يتطفل على شأن من شئونها ؛ فإنا — معشر المسلمين — لا نعرف ذلك ، ولا يقوله أحد منا لأخيه ، فكل مسلم يعد بلاد الإسلام كلها بلاده ، ويعتبر مصالحها مصالحه ، وآمالها آماله ، وآلامها

آلامه ، يستوى فى ذلك المصرى والفارسى والعراقى واليمنى والباكستانى والتركى والشامى وسائر من يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حيث طلعت الشمس أو غربت . ولا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يقولون غير ذلك ، ماداموا لأمرهم مالكين ، وفى حكمهم راشدين !

فإذا كان هذا حقَّ المسلمين على المسلمين أيّاً كانت بلادهم ومواطن شعوبهم ؛ فإن هذا الحق أثبت وأوضح لكل مسلم فى بلاد الحرمين ، عاصمةِ الإسلام الروحية ، ومهبط رسالته الإلهية ، وموطن البيت الحرام الذى جعله الله للناس سواءً العاكفُ فيه والباد ، ومثوى الجدث الطاهر الذى لم تعرف الأرض أزكى منه .

لهذا كله يهتم المسلمون برحلة الحج ، ويهتمون بموطن هذه الرحلة ، وبكل ما يسود هذا الموطن الكريم من نظام وسياسة وإدارة ، وبكل ما يتعرض له سكانه وجيران الله فيه من سعادة أو شقاء ، يرون ذلك حقا لهم ، بل حقا عليهم ، فهم به فى شغل دائم ، يشتد إذا أقبل الموسم ، ولا يفتر إذا انصرفوا منه إلى أهليهم وأموالهم وشئونهم ، وآية ذلك - إن كان الأمر فى حاجة إلى آية - ما تفيض به أنهار الصحف ، وأوراق المجلات والكتب ، من حديث عنه طول العام ، وفى كل بلد من بلاد الإسلام ، وإن لدينا فى « دار التقريب » وإدارة مجلة « رسالة الإسلام » لأضابير تحمل من ذلك ألوانا وأصنافا ، منها المطوّل ، ومنها المختصر ، ومنها الثائر ، ومنها الهادىء ، ما بين وصف ونقد وتحليل وتقرير واقتراح ، وكل ذلك جدير بالبحث والنظر ، وأن يتلقاه المسلمون بالعناية والتمحيص ، ونحسب أن « جماعة التقريب » وهى المؤسسة الإسلامية التى تضم جميع المذاهب والطوائف من مختلف الشعوب التى تولى وجهها أينما كانت شطر المسجد الحرام - نحسب أنها فى سبيلها إلى دراسة ذلك كله وتحقيقه وتكوين الرأى فيه ، لتقول للمسلمين كلمتها ، وتوجههم لما يحقق الصالح الدينى العام فى هذا الأمر الخطير .

ولذلك نرى لزاما علينا أن نستأنى فلا ننشر على صفحات « رسالة الإسلام » ما يريدنا قراؤنا وكتابنا من أهل العلم والرأى فى مختلف البلاد على نشره ، والتعليق

عليه بما نرى ، فان فى الأناة خيرا ، وإن مع اليوم غدا ، وإن غدا لناظره قريب .

بيد أننا لا نرى بأسا فى أن نعجل بكلمة عن موضوع التمس منا كثير من فضلاء أهل الحجاز حين كنا نؤدى الفريضة فى العام الماضى ، أن نُعنى به ، ونبين للناس حقيقته ، وقد سكتنا عليه كما سكتنا على غيره ، ارتساما لخطة التقريب ، ولكن إخواننا الحجازيين عتبوا علينا ، وظنوا السكات منا قصورا أو تقصيرا ، فعذرة أيها الإخوان ، وهذه كلمتنا باختصار :

إن رجال السياسة والحكم من النجديين يضيقون على أهل العلم والرأى فى الحجاز تضييقا ، ويلزمونهم - من طريق مباشر أو غير مباشر - أن يعتنقوا آراء معينة ، ولا يسمحون لدرس علمى يقام فى أحد المسجدين إلا إذا ألقاه نجدى أو « متنجد » ، وقد كان من نتائج ذلك أن عانى العلماء الأحرار - ومازالوا يعانون - كثيرا من ألوان الضغط فى دراساتهم ووظائفهم وأرزاقهم ، وقد شهدت بنفسى كثيرا منهم منطوين على أنفسهم ، متحفظين فى أعمالهم ، خائفين يترقبون ، وكانوا إذا أمنوا مجلسا أفاضوا بالشكاية فيه ، واستنصروا من يتوسمون فيه القدرة على نصرهم ، ولولا توجسنا أن يصيبهم شر لذكرناهم أو بعضهم ، ولبيّنّا ما يقاسون من الخوف والرهب فى بلاد جعلها الله حرما آمنا .

ألا وإنه ليس الخوف أن يخاف المرء على دمه فحسب ، ولكن الذى يخيفك فى رأيك ، أو يخيفك فى رزقك ، كالذى يخيفك على نفسك وروحك ، وما بهذا تنصر الآراء ، أو تنشر الأفكار ، فدعوا لأهل العلم حرياتهم التى كفلها الله ، واعلموا أن الرأى السليم هو الذى يصبر على التمحيص ، لا الذى تؤيده دولة إن قامت اليوم فإنها زائلة غدا ، وفى التاريخ الفكرى عبرة لمن أراد أن يذّكر .

« فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » ؟



# تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

---

## سورة آل عمران

---

أجملنا فى العدد السابق مقاصد سورة ( آل عمران ) ، وبينا وجه تسميتها بهذا الاسم ، وقلنا : إن السورة برزت فيها العناية بأمرين عظيمين ، لمراعاتهما فى حياة الأمم والأفراد أثر عظيم فى السعادة الدنيوية والأخروية ، وللإعراض عنهما — على العكس من ذلك — عواقب وخيمة ، تودى بالأمم ، وتوقعها فى الفساد والاضمحلال والدمار ، هذان الأمران هما : تقرير الحق فى مسألة الألوهية ، وإنزال الكتب وما يتعلق بهما من أمر الدين والوحى والرسالة ، وتقرير العلة التى من شأنها — إذا انحرفت إليها النفوس ، وتعلقت بها القلوب ، وصارت الهدف الذى لا يُعرف غيره فى الحياة — أنْ تصْرف الناس عن معرفة الحق ، والخضوع لسلطانه ، والعمل بمقتضاه ، وأن تملك عليهم حواسهم ومشاعرهم ، وتصرف قلوبهم عن التدبر والتفكر فى كنه هذا العالم وما يقوم عليه من أعمال وصلات ، وما يصير إليه من حساب وجزاء ، هذه العلة هى الحرص على زخارف هذه الحياة ، والوقوف عند ظاهرها الذى لا يمتّ إلى فضيلة ، ولا يوحى بخير أو صلاح :

تناولت السورة هذين الأمرين ، وركزت أولها على آيات جاءت فى أولها ،

فبدأت ببيان أن الكتب السماوية ، والعقل الذى منحه الله الانسان ليفرق به بين الحق والباطل ، ويستعين به على معرفة الهدى من الضلال ، أنزلها الله لغاية واحدة هى هداية الناس للحق « الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان » ثم قررت خاصة الألوهية الحقة من العلم المحيط ، والقدرة التامة ، والحكمة فى التدبير والتقدير « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وأردفت هذا وذاك بالإشارة إلى منشأ الشبهة التى تعلق بها النصارى فى ألوهية عيسى فأضلتهم عن الحق ، مع تزييف هذه الشبهة بما لا يدع لها أثرا فى النفوس التى خلص استعدادها لمعرفة الحق والإيمان به ، وكان ذلك فى قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

ويجدر بنا أن نبادر قراء « رسالة الإسلام » فى هذا المقام بأن ما تضمنته هذه الآية ليس خاصاً بقضية الألوهية وما يتصل بها من أمر عيسى والنصارى ، وإنما هو قاعدة كلية فى تعرف منشأ الشبهات التى تميل بالناس عن الحق فى أصول الدين وفروعه ، وتجعلهم شيعاً وأحزابا ، يكفر بعضهم بعضا ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ، فإذا قال الله : « ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » توسع بعضهم فى تحميل لفظ « لهم البشرى فى الحياة الدنيا » ما لا توحى به حقيقته التى يبينها ويوضحها محكم الكتاب فى كثير من الآيات الصريحة التى تجعل الأمر كله لله : يتوسعون بذكر أشياء لا محل لذكرها ، ويغفلون أو يعرضون عن مثل قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر » . « يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه » . « والله يحكم لا معقب لحكمه » . « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه » . « والذين يدعون

من دونه لايستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه »
« قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » .
وغير ذلك من الآيات المحكمات .

وإذا قال الله « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا »
ونحوها من الآيات التى يفهم ظاهرها أن أمر الهداية والضلال ليس مبنياً على
اختيار العبد ، وإنما هو منح وفيض من الله يعطى منهما ما شاء لمن شاء ؛ وجدنا
الفرق شهرت أسلحتها ، واشتبكت فى حرب مظلمة من الجدل العقيم ، الذى إن تصورنا
له غاية فليست سوى إخفاء الحق ، وتشويه معالمه ، ومحاولة كل أن يظهر على خصمه ،
ويعرضون عن بداهة القضية التى يبنى عليها التكليف من الحكيم العادل ، والآيات
التى لا تعد ولا تحصى فى تقرير أن الجزاء بالعمل والكسب وأن الله « لا يظلم
الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

وحسبنا فى التطبيق على هذا المبدأ — الذى استطردنا بذكره ، وبادرنا بلفت
نظر القراء اليه — ما ذكرنا من هاتين المسألتين اللتين تتصلان بخلاف كثيرا
ما شغل الناس ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء دون مبرر ، ومن السهل أن يتتبع
القارىء مواضع المحكم والمتشابه ، ويعرف ما كان ينبغى أن يسلك فيها بحمل
المتشابه على المحكم ، والإيمان بهما على أنهما جميعا حق جاءنا بهما الوحى ونزل
بهما الكتاب « آمنا به ، كلٌّ من عند ربنا » .

ونرجو أن تتاح لنا — إن شاء الله — فرصة إشباع هذا الموضوع بحثا
وتطبيقا فى الأصول والفروع ، وبيان أن الوقوف على الحقيقة فيه ، هو أساس
التصفية بين المسلمين ، وردهم إلى الحق الواضح ، الذى يلتقون عنده على كلمة سواء
كما التقى عنده أسلافهم من قبل .

* * *

نعود بعد هذا الاستطراد ونقول : إن ثانى الأمرين اللذين برزت بهما عناية
هذه السورة ، وهو السبب الحقيقى فى الانصراف عن الحق ، والإعراض عن دعوة

محمد صلى الله عليه وسلم قد ركزته السورة على بيان حقيقة ما أنعم الله به على الناس من النعم المادية، وأنه ليس إلا متاعا من متاع هذه الحياة، وأن الاعتماد عليه وحده، وتسخير الحياة فى سبيله، لا يغنى من الحق شيئا، وأن ما عند الله خير وأبقى، وذلك هو قوله تعالى: «إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وأولئك هم وقود النار» وقوله: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب».

بدأت السورة بهذا وذاك، وركزتهما على ما ذكرناه من الآيات، وأخذت تؤيدهما بالإرشادات والمثل الواقعية فيما يَروْن وفيما يُرْوى لهم من عبر الأولين، وكان من ذلك أن ضربت مثلين من حوادث المؤمنين فى عهد الرسالة، لمسوا فيهما أن النصر والسعادة ليسا منوطين فقط بكثرة الأموال، ولا بقوة العُدد، ولا بوفرة العَدد، وإنما هما منوطان بعد ذلك أو قبل ذلك، بالصدق فى الإيمان، والقيام بالحق، والاخلاص فى العمل، والاحتفاظ بالوحدة، والصبر على المكاره.

هذان المثلان هما ما كان من نصر المؤمنين ببدر مع قلة المال والرجال والعُدد، وما أصابهم فى غزوة أُحد بالتنازع والفشل والطمع فى مظاهر الحياة الدنيا: «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون». «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين».

وكان من ذلك أنها أجملت عبر الأولين فى قوله تعالى: «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب» وفى قوله: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين».

وفى هذا الجو الذى هيأته السورة، وبعثت به استعداد المؤمنين للسمع والطاعة، وسلوك سبيل الحياة الطيبة، والتلقى عن الله ورسوله، بثت عدة

« نداءات إلهية » قوية للمؤمنين بعنوان الإيمان الذى اتصفوا به ، كان من أبرزها خمسة تدور حول أساس واحد هو تركيز وحدتهم . وصيانة كتلتهم ، والاحتفاظ بشخصيتهم كأمة متماسكة لا تختلف ولا تتفرق ، ولا تسمح لعوامل الضعف والانحلال أن تتسرب إليها من داخلها أو خارجها .

هذه النداءات الإلهية الخمسة هى قوله تعالى :

(١) يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

(٢) « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

(٣) « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط » .

(٤) « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس

والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ، قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

(٥) « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

هذه النداءات الخمسة التى ذكرنا أنها ترمى إلى هدف واحد فى تركيز الأمة الإسلامية ، وصيانتها من عوامل الضعف الداخلية والخارجية ، جديربنا - وبخاصة فى هذا الوقت الذى انحلت فيه عرى الوحدة الإسلامية ، وتمكنت فيه عوامل الافساد داخلية وخارجية من قلوب المسلمين ، فقطعت أواصرهم ، وجعلتهم طعمة لأعدائهم ،ووقفت بهم عن بلوغ الغاية السامية التى رشحتهم لها العناية الإلهية بما أمدتهم به من دين صالح ، وهداية قويمة ، وأخلاق متينة ، وهى قيادة العالم إلى سواء السبيل ، والوصول به إلى الحياة الطيبة السعيدة - جدير بنا أن نقف عندها وقفة يتجلى لنا فيها ما انطوت عليه من أسرار ، وما أرشدت اليه من سنن ، وما هدت إليه من سبيل .

ولكننا بين يدى هذه الوقفة ، نقدم كلمة عن النداءات الإلهية الواردة فى القرآن الكريم ، نراها مفيدة فى استجلاء ناحية هامة من أسلوب ذلك الكتاب الحكيم فى التكاليف والارشادات .

* * *

لله سبحانه وتعالى نداءات كثيرة فى القرآن الكريم ، وللنداء عامة دلالته على كمال العناية ، وعظيم الاهتمام بالمطلوب وبالمنادى ، وأمرُ ذلك فى جميع اللغات معروف مشهور .

نداء من إله قوى قاهر حكيم مدبر ، يعلم سر العالم وباطنه ، إلى عباد مؤمنين

بربوبيته وألوهيته يتلاشى حولُهم وقوتهم ، أمام حوله وقوته ، ويتلاشى علمهم وتدبيرهم ، أمام علمه وتدبيره ، جدير بأن يهز القلوب ، ويصفى النفوس ، ويخلع الناس من التفكير فيما بين أيديهم وما خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، وأن يجذب قلوبهم ووعيهم وانتباههم إلى الاستماع اليه ، وتدبر ما يلقيه ، وحق لابن مسعود أن يقول تلك الكلمة التى تعبر عن شعور المؤمن حينما يسمع نداء الله بأحب الأوصاف التى يصف بها عباده ، وهو وصف الإيمان : « إذا سمعت الله يقول : « يأيها الذين آمنوا » فأرعها سمعك » .

وقد نادى الله الأشخاص والطوائف والشعوب ، ونادى الناس جميعاً . ونادى أشياء مما خلق .

ونداؤه للعقلاء أفراداً أو جماعات نداء تكليفى يتضمن أمراً يطلب فعلا ، أو نهياً يطلب تركاً . أما نداؤه لغير العقلاء مما خلق ، فهو نداء تكوينى تُصوِّر به مطاوعةُ الكائنات لخالقها ، وخضوعُها لسنته ، كما يخضع المنادَى حين ينادى من فوقه ، ومن هذا النوع الأخير « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » « يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » « يا جبالُ أوِّبى معه » .

وقد جاء نداؤه للعقلاء على أنواع :

(١) نداء لأشخاص بأسمائهم . وهذا النوع قد قصّه الله علينا فى كتابه بالنسبة لبعض الأنبياء السابقين ، ناداهم بأسمائهم استنهاضاً لهمتهم أو تنبيهاً إلى خطر ما كلفوا به واصطفوا لأجله ، أو تهدئة لروعهم ، وتسكيناً لأفئدتهم : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيل الله » « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » .

(٢) نداء بالوصف الذى يحدد المهمة ويبعث على القيام بها وعدم التأثر بشىء فى سبيل أدائها « يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهما خطابان لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجد فى القرآن خطابٌ له بوصف الرسالة سوى هذين .

وقد ناداه بوصف النبوة فى مواضع متعددة .

ناداه بهذا الوصف فى تنفيذ بعض ما كلف به من جزئيات الأحكام المشروعة « يأيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال » . « يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين » .

وناداه به فى بعض شئون خاصة به « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تردْن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكُن وأسرحكنَّ سراحاً جميلا . وإن كنتن تردْن الله ورسوله والدارَ الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ أجراً عظيما » « يأيها النبي لم تحرِّم ما أحلَّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك » .

وناداه به فى بعض تشريعات عامة للمؤمنين « يأيها النبي إذا طلَّقتم النساء فطلقوهن لعدَّتهن وأحصوا العِدّة » .

وناداه به فى أمره بتقواه وتحذيره إطاعة الأعداء أو التأثر بمقترحاتهم « يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما واتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

وكما نادى الله رسوله بوصفى الرسالة والنبوة ـ كما رأينا ـ ناداه بحالة صار اليها لمناسبة خاصة « يأيها المزمِّل » . « يأيها المدثِّر » . وفى الخطاب بهذين الوصفين تأنيسٌ له وملاطفة على عادة العرب فى اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التى هو عليها كقوله عليه الصلاة والسلام لعلى كرم الله وجهه حين رآه وهو نائم قد لصق بجنبه التراب : قُمْ يأبا تراب .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أمرين :

أولهما : أنه لم يقع نداء لمحمد صلى الله عليه وسلم باسمه الصريح كما وقع لغيره

من الأنبياء السابقين . وفى هـذا من التكريم ورفع الشأن ما لا يعرف لأحد من الأنبياء .

وقد قال العلماء إن فيه تعليما وتأديباً للؤمنين فى التحدث عنه أوندائه صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الأصحاب رضوان الله عليهم يتحدثون عنه وينادونه بوصف الرسالة أو النبوة ، وقد جهل جماعة من الأعراب هـذا الأدب لما نشئوا عليه من خشونة البادية ، فنادوه باسمه ، فأنزل الله عليهم « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون »

ولعل من محاكاة هذا الأدب ما درج عليه الناس من عدم نداء الملوك والعظماء ورجال الشرف بأسمائهم ، وإنما ينادوْن بألقابهم وأسماء مراكزهم ، وهو أدب معقول مقبول .

وثانى الأمرين : أن النداء بوصف النبوة كان موجهاً إلى جزئيات من تكاليف الرسالة ، وبخاصة ما كان يتصل بجهة التنفيذ ، وأن النداء بوصف الرسالة لم يكن إلا فى تحديد مهمة الرسالة العظمى وما يتصل بها من تقوية القلب على أدائها ، « بلّغ ما أنزل اليك من ربك » « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة لفظىْ (نبى) و (رسول) فى اللغة العربية واقتضاء أولهما معنى العرفان والعلم واقتضاء الثانى مجرد التبليغ .

(٣) وكما نادى الأشخاص على النحو الذى ذكرنا ، نادى الناس جميعا مرةً بوصف الإنسانية العام ، ومرةً بوصف البنوة للأب الأول ، والذى نلاحظه هنا أن النداء بوصف الإنسانية كان أكثره فيما يختص بالأصول العامة للدين ، من الإيمان بالله ، والوحى ، والرسالة ، والإيمان باليوم الآخر ، وما يرجع إلى شىء من هذين : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالا كثيراً ونساءا » .

« يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

« يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مُخلّقة وغير مخلّقة » .

« يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وأما نداؤهم بوصف البُنوّة لآدم ، فقد وُجّه إليهم تحذيراً من مكايد الشيطان التى وقع فيها أبوهم من قبل ، « يا بنى آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما » .

ووُجّه إليهم امتناناً على نوعهم بما ميزهم الله به عن سائر الحيوان من لباس يستر العورة ، وريش يتزيّنون به « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشاً » .

ويلاحظ هنا أن الإنزال كما يكون للأجسام تسقط من عُلو ، يكون فى معنى تهيئة الأسباب للحصول على الشيء بعد خَلق مادته « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : « أنزلنا عليكم لباسا » أى خلقنا مادته من القطن والصوف والحرير ، وهديناكم بالغرائز والقوى ، إلى صنع اللباس عن طريق الوسائل التى يتوقف عليها وألهمناكم بها ، كالزراعة والغزل والنسج والخياطة .

(٤) وكما نادى الله الناس على هذا النحو ، نادى الطوائف والشعوب .

نادى شعب بنى إسرائيل ، ولا نعرف شعباً آخر وُجّه إليه الخطاب فى القرآن كما وُجّه إلى هذا الشعب ، ولعل ذلك كان لكثرة ما عُولج به هذا الشعب من نوعى النعماء والضراء ، ثم لم تنفع معهم تلك المعالجة لا فى القديم ولا فى الحديث ،

مع ما كان لله عليهم فى شخص أبيهم « إسرائيل » من فضل عظيم يجب أن يذكروه وأن يقدروه ، فيخلعوا أنفسهم عن موقف العناد والمكابرة إلى موقف الطاعة والاستجابة ، وفى التذكير بمكانة الآباء إحياء للإحساس بالشرف والشعور بالكرامة عند الأبناء ، وفى هذا الإحياء إحياء للعزيمة الصادقة ، وتقوية لها على عوامل الهوى والشهوة .

« يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » .

« يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى » .

(٥) ونادى طوائف أهل الكتاب ، ناداهم بهذا العنوان تبكيتاً لهم على ما كانوا يرتكبون من أفانين التضليل ، وأنواع التشكيك التى كانوا يحاربون بها الدعوة المحمدية .

« يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » ، وكأنه يقول لهم : إن صنيعكم هذا لا يتفق مع ما نزلت به الكتب عليكم ، وإنّ صدقكم فى نسبتكم إلى الكتب يحتم عليكم تلبية الدعوة التى تصدِّق رسلكم ، والتى تضمنتها كتبكم وكنتم بها من قبل مؤمنين ، فلستم كالمشركين الذين لم تنزل عليهم كتب ، ولم يشرق فى آفاقهم شىء من نور الحق .

وقد يناديهم بهذا الوصف إغراءً لهم ، لتلبية الحق الذى يُدعوْن إليه ، والذى لم يكن شيئاً جديداً عليهم .

« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله » .

(٦) وكما نادى سبحانه وتعالى طائفتى اليهود والنصارى بوصف أهل الكتاب

نادى طائفة الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بوصف المؤمنين ، وإن المتتبع للنداءات الإلهية فى القرآن يجد أكثرها موجها إلى المؤمنين ، فقد بلغت نداءاتهم تسعة وثمانين نداءا ، وأنه لم يقع نداء واحد منها فى آية مكية ، وإنما وقعت كلها فى الآيات التى نزلت بعد أن تكوَّن المسلمون بالهجرة جماعة لها كيان خاص ، وقوة خاصة ، وسبيل خاص .

ناداهم بهذا الوصف الذى تركز فى نفوسهم تنبيها إلى أن الإيمان من شأنه أن يحملهم على الاستجابة لما طُلِبَ منهم وكلفوا به ، وتنبيها إلى أنهم بحكم اشتراكهم فى ذلك الإيمان مسئولون عن هذه التكاليف التى هى من أحكام الإيمان ؛ يُسأل الشخص المؤمن عن نفسه ، ويُسأل عن أخيه ، وهذا هو الأصل فيما يقرره الإسلام من تضامن أهله ، ومسئولية بعضهم عن بعض فى تنفيذ الأحكام والعمل بمقتضاها .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » .

نادى الله المؤمنين بهذا الوصف فى الأخلاق ، وفى الأحكام ؛ ففى الأخلاق :
« يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » .

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنْ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » .

« يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » .

« يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا » .

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا

على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم » .

وهكذا استنهض القرآن المؤمنين بالنداء بهذا الوصف المحبب للنفوس . المكرِّم للعقول ، إلى مكارم الأخلاق فى الأفراد والجماعات ، سمواً بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية .

وكما ناداهم فى الأخلاق حثاً على التحلى بها ؛ ناداهم فى الأحكام حثاً على امتثالها والعمل بمقتضاها .

ناداهم فى الأحكام التى يطالب بها كل فرد فرد :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » .

« يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » .

« يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وناداهم فى الأحكام التى طَلب وجودها فيما بين الجماعة ، وطلبها من الجماعة من جهة أنها جماعة ، والشأن فى هذا النوع أن يناط تنفيذه بمن يمثل الجماعة وينوب عنها مع مسئولية الجماعة عنه ، وهـذا هو أساس مسئولية الحاكم أمام الجماعة فى نظر الإسلام .

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » .

« يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » .

ويلاحظ هنا أنه كما أن الأمة مسئولة عن هذا النوع الذى نيط تنفيذه بالحاكم النائب عنها ، وكان الحاكم مسئولا أمامها عنه ، فإن الحاكم مسئول أيضاً عن النوع الآخر الذى طلب من الأفراد ونيط بهم تنفيذه ، ومن هنا وجدت فى الإسلام للحاكم سلطة إقامة الحدود ، وتوقيع العقوبات على من قصَّر فى واجب من الواجبات فعلا أو تركاً ؛ فملك عقوبة من ترك الصلاة ، أو أفطر فى رمضان أو منع

الزكاة ، أو اقتحم البيوت بغير إذن ، أوعرف بكثرة الأراجيف ، أو بالتجسس على الناس فى خواص شئونهم ، وما إلى ذلك من المخالفات الأخلاقية والأحكامية التى طلبها الله من عباده المؤمنين .

وقد يأتى النداء للمؤمنين بتكليف يكون مطلوباً من الأفراد من حيث هم أفراد ومن الجماعة من حيث هم جماعة ينوبُ الحاكم عنهم ، ومن ذلك :

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » .

« يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » .

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » .

فإن الحكم الذى تضمنته هـذه الآيات مطالب به الأفراد كل على سبيل الاستقلال ، ومطالب به الجماعة التى يمثلها الحاكم ، فكما لا يصح أن يتخذ فرد ما من الأمة بطانة من أعدائها يُمكّنها من أسرار دولته ، لا يصح للحاكم الذى يمثل الجماعة أن يتخذ من الأعداء بطانة يفضى اليها بهذه الأسرار ، أو يمكنها من الاطلاع عليها .

وهكذا نجد القرآن قد عالج بالنداءات الإلهية الناس جميعاً على وجه عام ، وعالج الطوائف على وجه خاص ، وكانت الأوصاف التى تقع بها هذه النداءات من شأنها أن تدفع بالمخاطبين إلى امتثال ما يخاطبون به وهو أسلوب قوى من أساليب الإرشاد واستنهاض الهمم . أسلوب طبيعى تأنس إليه النفوس وتُملك به القلوب .

وقد قرّ فى نفوس الناس أن يحثّ به بعضهم بعضا على فعل ما يريدون من خير وترك ما يخشون من شر ؛ فهو أسلوب له أثره فى توجيه القلوب وحفز الهمم وبخاصة لو صدر من أب لابن ، أو من رئيس لمرءوس ، أو من حاكم لرعيته . فما بالنا إذا صدر من الخالق العليم ذى السلطان والقهر وصاحب القوة والنعمة ، فى الأولى والآخرة ؟

# الأزهر ووزارة المعارف
## بين التجديد والجمود

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ محمـــد عبد اللطيف دراز
مدير الأزهر والمعاهد الدينية

---

كان الأزهر إلى عهد الأستاذ الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده ، عاكفا على علومه الخاصة ، بعيدا عن المشاركة فى علوم الحياة العامة ، بل كان يعتبر الاشتغال بها نوعا من العبث ، وتضييع الوقت فيما لا طائل تحته ، ولا فائدة فيه .

وكان فى عكوفه على علومه الخاصة شديد الحرص على التزام طريقة بعينها فى الدراسة ، ونوع بعينه من الكتب ، قلما يحاول الخروج عليهما ، أو التحرر منهما ، فإذا حاول ذلك أحد من علمائه أو طلابه ؛ عُـدّ ذلك حدثاً من الأحـداث ، التى تستدعى الاهتمام وتسترعى الانتباه من المسئولين عنه ، وتحفزهم إلى نوع غريب من التكاتف والتعاون يوحى به الاحساس بالخطر أو ما يشبه الخطر ، فلا يقر لهم قرار حتى يأخذوا على يد هذا المتطلع إلى أفق غير أفقهم المعهود .

ولقد حدثنا التاريخ أن الأستاذ الإمام رضى الله عنه ، رأى ـ قبل أخذه شهادة التدريس ـ أن يطالع مع بعض الطلاب كتبا منها شرح العقائد النسفية للتفتازانى مع حواشيه ، وسوّغ لنفسه فى أثناء ذلك أن يرجح مذهب المعتزلة فى بعض المسائل الكلامية على مذهب الأشعرية ، فقامت لذلك ضجة كبرى فى الأزهر ووصل الأمر إلى المرحوم الشيخ عليش الكبير ، وكان رجلا حديد المزاج ، سريع الغضب ، شديد الغيرة على ما يعتقد ، فهاج وماج وأرسل إلى الشيخ

محمد عبده وكلمه فى ذلك كلاما شديدا ، وتعصب للشيخ عليش فى ذلك طلاب من الأزهر وعلماء ، حتى كان الشيخ عبده يضطر إلى اصطحاب عصا معه وهو يقرأ الدرس خوفا على نفسه من اعتداء ذوى العصبية (١) .

إلى هذا الحد كان الأزهر متمسكا بعلومه وتقاليده الدراسية ، وقد احتاج الأمر فى تقرير بعض المواد الحديثة فيه إلى أخذ ورد ، ومشاورات ومحاورات ، حتى أمكن تقرير دراسة التاريخ الاسلامى وتقويم البلدان وعلم المحاضرات ، على أن يقرأ فى المادة الأولى كتاب « المواهب اللدنية فى تاريخ السيرة النبوية » وفى المادة الأخيرة كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، وأن يترك أمر المادة الوسطى لما يختاره مدرسوها على ألا يعبر عنها بالاسم المشهور : « الجغرافيا » .

ولهذا كله اشتهر الأزهر منذ ذلك العهد « بالمحافظة » أو بتعبير أصرح « بالجمود » مما دعا إلى التفكير فى إصلاحه ، وكان من أسباب إنشاء بعض المعاهد الأخرى ، كمعهد الاسكندرية الذى أنشىء فى سنة ١٩٠٤ م ، وأريد به إيجاد نوع من التعليم الأزهرى يستطيع مجاراة التطور الذى تقضى به الحاجة .

ثم وضع قانون سنة ١٩١١ م ، وأُخذ به الأزهر ، وفيه كثير من مظاهر التطور فى المناهج والكتب والمواد وطريقة التدريس والامتحان وغير ذلك ، وتلاحق على الأزهر بعد ذلك ، التعديلُ فى إثر التعديل ، حتى أصبحت معاهده الابتدائية جامعة لكثير من المواد التى كان يعتبر تدريسها فى الأزهر خروجا على تقاليده ، وذلك إلى جانب مواده الأصلية ، وحسبى أن أنقل من المنهاج الرسمى على سبيل السرد ما يُدرس فى هذا القسم الابتدائى من المواد ، وهو الفقه بمذاهبه الأربعة ، والتوحيد ، والسيرة النبوية ، وسيرة كبار الصحابة ، وتجويد القرآن الكريم ، والإنشاء ، والنحو ، والصرف ، والإملاء ، والمطالعة ، والمحفوظات ،

---

(١) ص ١٣١ — ١٣٢ من الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » تأليف السيد محمد رشيد رضا ، طبع مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ هـ .

والتاريخ ، والجغرافيا ، والحساب ، والهندسة ، والجبر ، وتدبير الصحة ، والرسم ، والخط .

وكذلك الأمر فى مناهج التعليم الثانوى والعالى والتخصص ، وطريقة الدراسة فيها .

وبهذا استطاع الأزهر أن يشارك بخريجيه فى كل ناحية من نواحى النشاط العملى ، وأن يقدم للدولة شبابا أقوياء مدركين للحياة ، قادرين على مسايرة غيرهم فى الأعمال والمصالح ، وذلك كله مع احتفاظه بشخصيته العلمية التى تقوم على التبريز فى أصول الدين والشريعة واللغة العربية ، وأصبح من مجافاة الواقع ، ومجانبة الانصاف أن يتهم الأزهر بالجمود أو عدم مسايرة ركب الحياة كما يزعمون .

* * *

وفى رأيى أن وزارة المعارف هى الجامدة ، فهى التى تحرص أشد الحرص على برنامج عتيق إذا ساغ لها أن تحرص عليه أيام عهد القس « دنلوب » وما التحق به ، فلا يسوغ لها أن تحرص عليه بعد الاستقلال والتطور السياسى والعقلى الذى صارت اليه الأمة .

ولست أرمى وزارة المعارف بهذه التهمة جزافاً ، ولا أقصد بها عهداً معيناً ، من عهود وزرائها فى الماضى أو الحاضر ، فان لدىَّ الدليل على ذلك من مسألة التعليم الدينى فى المدارس والدعوة إلى تغذية أبنائنا بمزيد من ثقافتنا الإسلامية على نحو مثمر ، وقد ناديتُ بفكرتى هذه فى البرلمان لأول مرة فى سنة ١٩٤١ على ما أظن ، وكان ذلك فى عهد وزارة سرى باشا الأولى .

إنه مما لا شك فيه أن « قومية الأمة » تقتضى منها رسم سياسة أساسها إبراز شخصيتها ، والعناية بالملامح التاريخية والفكرية لهذه الشخصية ، فإذا وجدنا أمة تتنكر لماضيها ، وتنسى تاريخها وتقاليدها ، وتغمر نفسها فى حياة ليست متفقة مع هذا التاريخ وهذه التقاليد ، فإنها تكون أمة مقلدة أو مسوقة ، سواء أشعرت بذلك أم لم تشعر ، وقد كانت سياسة المحتلين ـ كما هو الشأن فيهم دائما ـ أن يباعدوا

بيننا وبين تراثنا الفكرى ، وتاريخنا العلمى القومى ، من حيث كوننا أمة إسلامية ، فكانت مناهج التعليم توضع لتخريج موظفين ، وكانت الأمة محرومة من الدراسة العميقة المتصلة بهذه الناحية إلا قليلا ، بل كانت محرومة حتى من تعليم أبنائها أوليات الأحكام الشرعية والعقائد التى يقوم عليها الدين ، فما كان يدرس فيها إلا بعض ما يتصل بالآداب والأخلاق ومبادىء العبادات ، كان هذا منطقَ الاحتلال والمحتلين ومن يجرى فى دائرتهم من المشرفين على التعليم ، ولكن هذه السياسة مع الأسف الشديد بقيت فى مصر ، ولم تجد من القائمين بوزاره المعارف فى عهد ما تحمسا لتبديلها والتخلص منها ، وإهداء الأمة أسساً أخرى تبنى عليها تعليمها وتثقيفها باعتبارها أمة حرة لها تقاليد ، ولها ماض فى العلم والرأى ، ولها فكرة وشخصية

وكلما نادى مناد بهذا حسبوه متعصباً للدين أو اللغة ، أو حريصاً على إيجاد مُتنفَّس لخريجى الأزهر ، مع أن الأمر - وإن كان ذلك بعضَ بواعثه أحيانا - أجلُّ من أن تنظر إليه هذه النظرة .

نحن أمة تريد أن تكوِّن جيلا مؤمناً بنفسه ، قويا بدينه وخلقه ، متصل القلب بماضيه ، مشبوب العاطفة بمفاخره ، فإن ذلك هو الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه أمة من الأمم ، أو هو على الأقل ركن هام فى هذا الأساس ، وإننا لنشهد فى عصرنا الحاضر جميع الأمم الأوربية تتمسح فى التاريخ اللاتينى ، وتتشبث بثقافاتها القديمة ، فإذا لم يكن لأحدها حظ منها ، حاولت أن تزعمه منحدراً اليها عن عمومة أو خؤولة ، بل أقول : إننا نشهد الآن أفكاراً ومبادىء فى السياسة والحكم والنظام تحترب وتتجادل فى عنف وقوة لتفرض نفسها على العالم ، فما بالنا نحن وأفكارنا أصيلة عريقة نعرض عنها ، ونتخلى عن احتضانها ، ونذوب فى غيرها ؟

أنا لا أدعو وزارة المعارف إلى اقتباس المنهاج الأزهرى لمدارسها الابتدائية أو الثانوية ، ولكنى أدعوها إلى أن تقدم لأبناء هذه المدارس قسطا صالحا من

الثقافة الإسلامية ، يعرفهم بدينهم ولغتهم ، ويغرس فيهم نزعة الشعور بالقومية الإسلامية ، ويقرب ما بينهم وبين تاريخهم المجيد .

وقد طرقتْ هذه الدعوات آذانَ وزراء المعارف جميعا ، فآمنوا بها ، ولم ينكروا مزاياها ، ولكنهم مع ذلك لم يتحمسوا لها ، ولم يعملوا على إبرازها فى صورة عملية واقعية ، وكلما أوشك ذلك أن يكون ، عوّقته معوقات ، وحالت دونه حوائل ، أليس هذا هو « الجمود » .

* * *

وأحب فى هذا المقام أن ألفت إلى أمر كثيرا ما تحدث به الناس فى شأن التقريب بين تعليم الأزهر وتعليم الحكومة ، ذلك هو الدعوة إلى أن ينبذ الأزهر معاهده الابتدائية والثانوية ، وأن يستمد من مدارس الحكومة طلابا لكلياته بعد تزويد هذه المدارس بشىء من الثقافة الأزهرية .

إن هذه فكرة خاطئة ، ولا يقول بها إلا غافل أو متغافل عن البرنامج الأزهرى فى قسميه الابتدائى والثانوى ، وقد علمتنا التجارب أن الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية لا يمكن دراستها دراسة عالية إلا إذا زوّد طلابها بدراسة سابقة تجعلهم أصحاب ملكات قادرة على تلقيها وهضمها ، يعرف ذلك أهل الأزهر ويعرفه الذين اتصلوا بدار العلوم أو بقسم الدراسات الإسلامية فى كلية الحقوق ، فإن الطلاب الذين كانوا يلتحقون بدار العلوم من الأقسام الثانوية بالمعاهد الدينية كانوا أصبر وأقدر على منهاج دار العلوم من الطلاب الذين كانوا يلتحقون بها من القسم التجهيزى ، وما ذلك إلا لأن الأولين رُبُّوا تربية ملائمة لهذا النوع من التعليم العالى . وأَمْرُ طلاب الدراسة الإسلامية فى الحقوق من حيث شعورهم بثقل العبء فى هذه الدراسة كذلك مشهور معروف ، مع أنهم يعتمدون فيها على مذكرات وخلاصات ، لا على كتب قديمة هى المنابع الأولى لهذا النوع من الدراسة ، كما يفعل الأزهريون ، والسر فى هذا أنهم لم يتمرسوا بما تمرس به الطالب الأزهرى

فى دراسته الابتدائية والثانوية ، ولم يعوّدوا البحث والأخذ من المناجم العلمية الزاخرة بالأصول والقواعد ، وهى الكتب القديمة .

على أن المدارس الابتدائية والثانوية لا تستطيع من ناحية أخرى إعداد الطالب لكليات الأزهر فان تلاميذ المدارس الابتدائية يلتحقون بها فى سن مبكرة بين السابعة والعاشرة ، فهل يستطيع تلميذ فى هذه السن أن يهضم علوم الأزهر ؟! أما طالب الأزهر فلا يلتحق به إلا فى الثانية عشرة على الأقل - والحد الأعلى فى ذلك هو السادسة عشرة - ولذلك يقدر الطالب على داسة كتابين فى الفقه ، وأربعه كتب فى النحو هى الاجرومية وشرحها ، والازهرية ، وشرح القطر ، وشذور الذهب ، وعلى دراسة كتاب متوسط فى علم الصرف يقرأ فى سنتين ، وعلى دراسة التوحيد فى ثلاث سنوات . . الخ .

والمدارس الثانوية فى وزارة المعارف مكتظة بالمواد فى كل ناحية ، والشكوى عامة من كثرتها وطولها وشحن أذهان الطلبة بها ، حتى ضعف المستوى ، وبدت آثار هذا الضعف فى المعلومات العامة ، واللغات العربيـة والأجنبية ، كما نشاهد ذلك ، وكما تشهد به تقارير وزارة المعارف نفسها ، وقد جاء فى بعض هذه التقارير مانصه : « إن الشكوى عامة من أن الطلبة لا تتحقق فيهم الصفات المطلوبة للدراسة العالية من حيث روح التعقل وقوة الملاحظة والاعتماد على النفس وحب البحث ، حتى إنهم يضطرون أساتذتهم إلى إمـلاء الدروس عليهم إملاء ممـا يعوق سـير الدراسة العالية فى صورتها الكاملة » .

فاذا كان هذا رأى وزارة المعارف فى طلاب مدارسها الثانوية ؟ فكيف يُطلب إلى الأزهر أن يعتمد على هذه المدارس فى إمداد كلياته العالية ، وكيف يقول قائل بإمكان تقوية طلاب هذه المدارس وتزويدهم بزاد جديد من التعليم يجعلهم قادرين على تلقى الدراسة الأزهرية ؟ هل نعطى طلاب هذه المدارس - إلى ما عندهم من المواد التى ينوءون بأعبائها - علوما جديدة منها الفقه والتوحيد والصرف والمنطق والعروض مثلا ممـا لا بد منه فى الإعداد للتعليم العالى الأزهرى ؟

لا . إن هذه كلها آراء فجة ينقصها التأمل ، فضلا عن الدرس والبحث ، فليكف عنها دعاتها ، ولا سيما العارفين بثقافة الأزهر .

إن أحدا ممن يهمهم أمر الأمة الإسلامية ، لا ينازع فى وجوب العمل على تقريب الثقافة العامة بين أبنائها ، ولسنا ننكر أن التقارب فى الأفكار ، يحقق التقارب فى الغايات والآمال ، ويرفع من الأمة كثيرا من أسباب الخلاف ، وعوامل التفرق ، ويجعل منها وحدة قوية متماسكة ، تسير فى طريق واحدة ، وترمى إلى هدف واحد ، لسنا ننكر هذا ، ولكن لا ينبغى أن يكون ذلك التقريب أو التوحيد على حساب ديننا وتراثنا الاسلامى المجيد ، وإنما ينبغى أن يكون فى دائرتهما ، وتحت رعايتهما ، فان من سفه المشورة ، وخطل الرأى ، أن نتنادى بالخروج عن أنفسنا لكى نوجد أنفسنا ، وما انخلاع المسلمين عن دينهم وثقافتهم إلا انخلاع عن أنفسهم لو كانوا يعلمون .

ألا وإن الدعوة التى يجب أن ندعو لها ، ونتكاتف عليها ، لا فى مصر فحسب ، ولكن فى سائر الأقطار الاسلامية ، هى احترام هذا النظام الأزهرى الذى لا بد منه فى المحافظة على الدين والعلم واللغة ، والذى لا ينفرد الأزهر به ، وإنما يشاركه فيه كل شعب من الشعوب الاسلامية كالعراق وإيران والمغرب وغيرها ، وذلك مع العمل على أن تقرب الثقافة العامة فى التعليم الحكومى من الروح القومى الإسلامى ، الذى يبعث فى الأمة معنى الاعتداد بنفسها ، والشعور بشخصيتها ، والذى يربط بين ماضيها وحاضرها ، ويفتح لها آفاقا مترامية الاطراف فى مستقبلها ، وما أريد بالامة فى هذا المقام شعب مصر فحسب ، ولكن أريد الأمة الاسلامية بالمعنى الذى تفهمه « جماعة التقريب » من الأمة الاسلاميه ، والله المستعان ؟

# روحانية الشرق ومادية الغرب

لحضرة الكاتب الكبير

## الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك

من قديم والكتاب والفلاسفة قد تعارفوا على وصف الشرق بالروحانية ، والغرب بالمادية ! فما معنى هذا ؟

لقد سمعت كثيراً من المثقفين ثقافة واسعة ينكرون هذا ويقولون : إن الغرب غنى بماديته وروحانيته ، والشرق فقير فى ماديته وروحانيته . أما أن الغرب غنى بماديته ، فليس يحتاج إلى دليل ولا برهان ، فالصناعات والاختراعات والآلات ونحوها ، كلها من الغرب ، وليس الشرق إلا عالة عليه . أما روحانية الغرب ، فتتجلى فى سمو عواطفه وحبه للخير لأمته ، وأحياناً للإنسانية كلها ، وهو فى هذا يفوق الشرق أيضاً . إن شئت فانظر لتبرعات الأغنياء من الغربيين ببناء المستشفيات والمؤسسات العلمية والأعمال الخيرية ، مما لا يبلغ عشر معشاره الشرقيون ، فهؤلاء أغنياء الشرق ، لا يفكرون إلا فى لهوهم وملذاتهم ، فان ارتقوا قليلا ، ففى أسرتهم وأقاربهم ، ولذلك لا نرى منهم تبرعا لعمل خيرى ، إلا أن يكون ملقاً لوزير أو مدير ، أو رغبة فى رتبة أو نياشين ، وكثيراً ما نسمع عن غربى خرج عن ماله أو أكثره لعمل ينفع قومه ، وقلما نسمع ذلك عن شرقى ، ولكن نسمع الكثير عن شرقيين ابتزوا أموال غيرهم ، أو اغتصبوا عملاءهم الفقراء ، أو غشوا فى المعاملة أو ارتشوا لقضاء مصلحة أو نحو ذلك ، فأين هى روحانية الشرق ، ومادية الغرب ؟

وإن كانت روحانية الشرق عبادة وصلاة وصياما ونحو ذلك ، فما قيمتها إذا لم تؤثر فى عمل المؤمن ؟ ما قيمة صلاة يتبعها سلب ونهب ؟ وما قيمة صيام لا يمنع صاحبه من جشع وطمع ؟ إن العبادة إذا كانت على هذا النحو كانت حركات ميكانيكية ، أو ألعابا بهلوانية ، وكانت هى والعدم سواء .

ولكن يظهر لى رغم كل ذلك ، أن للشرق روحانية ليست للغرب ، وأن من الواجب إذا نظرنا للشرق ، ألا ننظر اليه فقط فى عصر تدهوره وانحطاطه ، وألا ننظر إليه فى شكله الأخير الذى ساء ، بل فى جوهره الحقيق ، وقيمته الذاتية ، ونعاليمه ومبادئه غير مقيدة بعصر ، ولا مرتبطة بزمن .

إن الغرب من غير شك يحيا حياة مادية بحتة ، بمعنى أن حياته حياة عمل فى مصنع أو شركة أو وظيفة يحسب حسابها المادى فقط من مرتب وأجر ، وكيف يناله على خير وجه ، وكيف ينفقه على خير وجه ، وكيف ينعم بهذه الحياة ، وكيف يكسب خير كسب ، وينفقه خير إنفاق ، وكيف يعيش فى أسرته ، وكيف يحظى بالنعيم المادى الخ . . وكل الأخلاق الحسنة المرسومة له أخلاق تجارية ، تعلمه كيف ينجح فى التجارة ، وكيف ينجح فى العمل ، وكيف يسعد فى الحياة ، ولذلك كان أهم قوائم الفضائل عنده المحافظة على المواعيد ، والنظام ، والترتيب ، والصدق فى القول والعمل الخ ، والذى يسيطر على هذه الحياة ، ويرسم خططها ، ويخترع آلاتها ، هو العلم ، والعلم نتيجة العقل والقضايا المنطقية ، وهى أمور كذلك مادية بالمعنى الواسع .

أما الشرق فعماده قديماً وحديثاً القلب لا العقل ، فان كان ولا بد فالقلب أولا والعقل ثانياً : هو يدخل فى حسابه دائماً الحياة الآخرة بعد الموت ، ويضمها دائما إلى حساب الدنيا ، وهو دائماً يتساءل هل هذه الأعمال يكافىء الله عليها فى الآخرة بالثواب أو العقاب .

وأخلاقه التى يسير عليها مبنية على حساب هذه الآخرة أيضا ، وهو كثير السؤال عن غاية هذا العالم ومصيره ، وأنه مسير بقوة عظيمة هى قوة خالقه ،

وأنه سيحاسب الإنسان فى الآخرة على ما قدمت يداه فى دنياه . وهـذه الصورة مركزة فى ذهن الشرق ، وموروثة له أباً عن جد ، فهو فى أشـد أوقات النعيم فى الدنيا يشعر بحافز يحفزه إلى أن يَسأل ما عاقبةً هذه اللذة بعد الموت ؟ وهل أثاب عليها أو أعاقب ؟ وماذا سيكون موقفى أمام الله إذا سألنى عنهـا ؟ وهكذا وهو يبنى أخلاقه على أساس الدين ، ويبنى أعماله على أساس القلب ، ولهذه الطبيعة الشرقية والاستعداد الفطرى الخاص كان الشرق منبع النبوات والفلسفة الإشراقية ومذاهب المتصوفة ، وإطالة التأمل ، ونحو ذلك من مظاهر الحياة الروحية ، فإن ظهرت نفحات من ذلك فى الغرب فمصدرها غالباً الشرق ، واليهودية والنصرانيـة والاسلام والتصوف فى الغرب ليس إلا موجة من موجات الشرق .

يكاد يكون للشرقيين عنصر خاص ينقص غـيرهم ، وهو الإحساس الدينى العميق الذى يلازمهم حتى فى أوقات خروجهم عن الدين ، ولذلك كثيراً مايعقب المعصية تنبه الضميرالدينى ، والمبالغة فى التوبة والندم ، إنهم يؤمنون فى كل حركاتهم وسكناتهم وتصرفاتهم بإله يسيرهم وقـدَر يتحكم فيهم .

قد يأتى على الشرق زمن تفسد فيه عقيدته ويسوء تصرفه ، وتنحط مشاعره ، فتصدر عنه أعمال خسيسة لا تصدر عن الغرب المـادى ، ولـكن هل يصح أن نعدّ هذا العارض إفسادا للذاتية وفقداً للخاصية ، أو نعده حاسة أصيبت بآفة مع الرجاء فى شفائها ، أو جسما أصابه المرض وفيه حصانة تبشر بالشفاء ، لو حكمنا بالظاهر لقلنا إن مادية سليمة تخضع للعقل وتنجح فى الحياة ، وتسيطر على العالم خير من روحانية فسدت ، ومبادىء قويمـة تعفنت ، ولـكن ليس هذا إنصافا فى الحكم ، فما نتيجة هذه المـادية الناجحة ؟ إنها مـدنية روّعت العالم ، وجعلته على بركان يوشك أن ينفجر ، وهو كل يوم فى اختراع جديد يهدد العالم بالفناء ، فما قيمة القوة إذا كانت محـطّمة ، وما قيمة القصر المزوّق إذا ساد سكانه الفزع ، ولو أنك سألت أسرة أوروبية هـل تفضل أن تعيش عيشة بذخ وترف وتفقد أبناءها فى الحروب ، أو تعيش عيشة وسطا ولا يهلك أحـد منها فى حرب ، فما الذى كانت

تفضل ؟ إنى لفى شك من قيمة المدنيـة الغربية إذا نحن قسنا ما أنتجته للعالم من شرور بمـا انتجته للعالم من خيرات . فمـا قيمة آلات وأدوات ومخترعات بجانب أرواح تحصد ، وطمأنينة تفقد ، واستغلالِ قليل من الناس للكثرة الغالبة من العالم يرهقونهم ويسومونهم سوء العذاب ، ذلك لأنهم قالوا : « إن هى إلا حياتنـا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

ولو آمنوا بالبعث وضموا إلى دنياهم آخرتهم ، وقدروا أنهم سيقفون أمام الله يسألهم عن أعمالهم ، لـكانت المدنية غير المدنية ، ولـكانت مدنية مادية روحانية معاً ، وهذا ما ينقصها ولا يصلح العـالم إلا بهـا . وإذ ذاك يكمل الغرب نقصه فيزيد فى روحانيته ، ويكمل الشرق نقصه فيزيد فى ماديته ، ويسير الركبان جنباً إلى جنب لخير العالم وإسعاده .

ما الغاية لهذا العالم ؟ ما سر الحياة ؟ لمـاذا نعيش ، ولمـاذا نموت ؟ ما موقفنا بعد الموت ؟

كل هذه ونحوها من عشرات الأسئلة لا يستطيع العلم أن يجيب فيها إذ ليست من الأمور المـادية ، وأشباهها التى تدخل فى اختصاص العلم ، إنما هى من الروحانيات التى لا يستطيع الإجابة عنها إلا الدين .

لقد بلغ العلم ذروته فى المدنية الغربية ، ولـكنه لم يفعل أكثر من تحسين وسائل الحياة ، أما صبغ الحياة لتتفق مع الغاية التى يجب أن تنشد ، فوظيفة الدين ، فلما اقتصرت المدنية الحديثة على الوسـائل دون الغايات ، ضلت السبيل ، ووقعت فى الحيرة والاضطراب ، وسببت هذا الشقاء المفضض بالنعيم .

وخالق العالم خلقه مادة وروحا ، فـكان من الطبيعى ألا يسعد إلا إذا غُذى العنصران ، واكتمل المنهجان ؟

## الشخصية المحمدية
### تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة

# بناء المجتمع الإسلامى

لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير

الأستاذ محمد فريد وجدى بك

مدير مجلة الأزهر

---

الذى تقرر فى علم الاجتماع الإنسانى أن أول ما يولد الاجتماع يظهر على حالة أسر تعتزى لجد بعيد العهد أو قريبه ، فيعيش الشعب الكبير على هذه الشاكلة مئات من السنين فى حالة تناحر بين هذه الأسر ، فاذا بلغت بعض هذه الأسر درجة أرقى مما كانت عليه فى الحياة ، واضطرتها الحالة المعاشية إلى التعاون ، نشأ فيها ميل للتضام والتساند ؛ ميل طبيعى لا أثر للاختيار فيه ؛ فتصبح هذه الأسر الكثيرة أمة تجاورها أمم ، فتعيش جميعها تحت سلطان النواميس الاجتماعية العامة على النحو الذى رأينا عليه الأمم التاريخية ، وكما نرى عليه الأمم اليوم من العلاقات المتبادلة ، التى تقتضيها الحياة الانسانية العامة .

ومما يجب ذكره أن الأمم التى تتألف حديثا ، لا تولد حاصلة على جميع مميزات الاجتماع طفرة ، بل تحدث فيها قلاقل واضطرابات لامناص منها ، وقد تطول مدة هذه الاضطرابات ، وتمنى الجماعة منها بعنت شديد ، ثم تنتهى هذه الاضطرابات بعد أن تزول جميع أسبابها ، ويعيش الآحاد فى ظلال الاجتماع آمنين مطمئنين

حتى تعصف بأمتهم عوامل الانحلال ، فتفنى فى مجتمعات أخرى ، وفى التاريخ العام عبرة للتأملين .

فلما تألفت أكثر القبائل إلى أمم ، وأمكن اتصال بعضها ببعض ، وتعددت الأديان وكان أكثرها قد أُدخل عليه ما ليس منه حتى التحق بالوثنية ، واستعدت العقول لقبول دين عام يوحد وجهتها ، ويُسَنّي (١) ألفتها ، ويصحح عقائدها ؛ اقتضت الحكمة أن يكون ذلك على يد أمة لا عهد لها بدين سماوى ، ولا كتاب إلهى ، ولا مطمع سياسى أو مطمح عالمى ، تُنشأ إنشاء ، وتحلى بجميع الصفات التى تؤهلها لمهمتها العالمية طفرة لا على سنة ناموس الترقى، تأثيراً فى النفوس بالاعجاز .

بعث الله خاتم رسله محمدا لإحداث هذا الحدث العالمى الفذ ، فأنزل عليه الدين فى نقائه الأول خالصا من جميع الشوائب البشرية ، وأتم على يديه تأليف أمة مثالية فى عشر سنين ، وهى الأمة التى أعدها الحق لنشر الدين الحق ، وإيقاظ العقول من سباتها التقليدى إلى النظر فى الوجود ، والاستفادة من خصائصها الفطرية للوصول إلى الحقائق الإلهية نقية من كل ما يلابسها من وساوس الظنون ، وأوهام النفوس ، لتحدث فى العالم ما أراده الخالق له من نقاء العقائد ، وصحة الإيمان ، وسلامة الصدور .

قلنا فيما تقدم : ( وأتم على يديه تأليف أمة مثالية ) وأردنا بذلك أنها بنيت على أكمل الأصول وأرقاها ، فقد جرت العادة أن الأمم يحدث تأليفها تحت تأثير الحاجات الحيوية ، والضرورات المعيشية ، ولكن الأمة الإسلامية لم يحصل تأليفها على هذه السنة الطبيعية ، فلم يحدث فى قبائل العرب من ضرورات الحياة الاجتماعية ما يدفعها للتألف ، ولكنها تألفت بدوافع من حاجات العقول والأرواح كشفها القرآن للنفوس ، وبثتها حكمته فى العقول ، فأجمعت منقادة بسموها على الأخذ بها ، والذياد عنها ، ونشرها فى الآفاق لتخليص البشرية من أوهام علقت بعقولها فى أدوار قصورها ، فصرفتها عن سعادتها أحقاباً طويلة .

(١) سنى الأمر تسنية : سهله ويسره .

فالأمة الإسلامية كما ترى تألفت بتأثير المبادىء العالية على عقول آحادها ، وبفعل الأصول القويمة فى نفوسهم ، فكانوا قلة ممتازة لم يتفق وجود ما يشبهها فى زمن من الأزمان ؛ فان قلت يفضل الواحد منهم ألفاً ممن تألفوا تحت تأثير الحاجات المعاشية ، والضرورات المادية ، لم تك مبالغا ، فقد ثبت أنهم بعددهم المحدود تغلبوا على الأمة العربية برمتها فى عشر سنين ، ثم لما وجهوا وجوههم لنشر دعوتهم فى الآفاق سحقوا ـ فى أيام معدودة ـ جيوش الأكاسرة والقياصرة التى وُجهت لردهم ، وأسسوا ـ فى عقود من السنين تعد على الأصابع ـ مملكة لا تغرب عنها الشمس ، وهذا ما لم يحدث له شبيه فى العالم الانسانى فى مدى تاريخه كله .

فهذا الاجتماع الذى قام على المبادىء العالية ، والأصول القويمة ، وكلَ الله أمره إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليحفظ تماسكه ، ويصون تلاحمه ، وهو لم يعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى رجل لم يبلغ كماله الروحى والعقلى ، فيقصر فى فهم الحكمة الإلهية من إيحائه الدين العام على الأمة العربية ، فيخرجها عن حدود مهمتها ، أو يعجز عن حملها على العمل به ؛ ولكنه أوحاها إلى روح علوية حاصلة على أكمل ما يمكن أن يتحلى به عامل للوصول إلى هذه الغاية البعيدة . فكان فى جميع أوامره ونواهيه يحاول أن يحفظ على الأمة وجودها المادى كأمة عالمية ، ووجودها المعنوى كأمة مثالية ، حتى أدت هذه الأمانة إلى العالم كله فى رقعة من الأرض يختلف اليها جميع سكان الكرة الأرضية ، فتعم الدعوة جميعهم على هذا الوجه .

فلم يترك محمد صلى الله عليه وسلم مجالا من مجالات النشاط الروحى والعقلى والعملى إلا خصه من توجيهاته بما يناسبه من لفت النظر اليه ، وبيان الحكمة منه ، ووضْع الحدود له ، وذود الآراء المضللة عنه ، مما اختصت كتب السنة باستيعابه ، وفيها من وجوه حكمته ، وأساليب تربيته ، ووسائل تقويمه ما يشهد بأن عبقريته قد فاقت أكمل ما عرف عنها عند عظماء رجال العلم والفلسفة .

قلنا قد وكل الخالق جل شأنه إلى رسوله محمد أن يَرُبَّ الاجتماع الذى أوجده

الإسلام بما يحفظ تماسكه ، ويصون تلاحمه ، حتى يؤدى مهمته العالمية ، فقام بما عهد اليه على أكمل وجه ، ونحن فى هذه العجالة نأتى على بعض ما كان يسنه لأمته بما يحفظ مجتمعهم من التصدع ، وما يجعله يقاوم الأحداث المحللة لأقوى الروابط الاجتماعية ، وأحكم الوشائج القومية . وقد أثبت التاريخ أنه نجح فى ذلك نجاحاً باهرا ، فقد مرت على جماعة المسلمين أحداث تعتبر غاية فى الخطورة وإثارة النفوس ، كوفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وضرورة تعيين من يخلفه على زعامة الأمة ، وارتداد كثير من قبائل العرب ، والثورة على عثمان بن عفان ، واستبداد معاوية بالشام ، وتصميم على بن أبى طالب على إسقاطه ، وقتل أمير المؤمنين على ، وتفرد معاوية بالسلطان المطلق ، وخلافة ابنه يزيد من بعده ؛ وكلها أحداث من الخطورة بمكان بعيد ، فقد كان بعضها يكفى لأن يقسم أمة عريقة فى الاجتماع إلى أحزاب وشيع يقاتل بعضها بعضا ، ويريق بعضها دماء بعض ، فما ظنك بأمة قريبة العهد بالاجتماع ، كانت لاتزال نعرة الجاهلية تطن فى آذانها ؟ أفلا ترى أن تمسكها بالوحدة الاجتماعية مع توالى هذه المحللات عليها ، وعملها المتواتر على عدم التصدع والانهيار ، يدلان دلالة قاطعة على أن هذا الاجتماع الفذ الذى أوجده الإسلام ، كان أقوى اجتماع شهده العالم منذ تألفت المجتمعات إلى ذلك العهد ، بل إلى عهدنا هذا ؟ فإن اختلاف الجماعات المتمدنة فى المذاهب السياسية والاقتصادية جعل من بعضها أعداء لبعض حتى قاتل بعضها بعضاً وسقطت دولهم إلى الأبد .

قلنا قد وكل الحق جل وعز إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرب هذا الاجتماع ويقيه التصدع ، فكان فى أداء مهمته من الحكمة وبعد النظر والحيطة من أدواء المجتمعات ، اجتماعياً حكيما بزّ جميع أراكين هذا العلم ، وتفوق عليهم تفوقاً لا وجه للتردد فيه .

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم أن الإصلاح الذى أراده الله للعالم لا يقوم إلا بواسطة أمة تصدق فى القيام به ، وتنشره فى آفاق الأرض ، ولو كانت تبقى منزوية فى حيزها فلا يمكن أن تؤدى مهمتها العالمية ، فصرح بذلك فى قوله :

« الإسلام أحوج إلى الجماعة من الجماعة إلى الإسلام » . وهو قول يدل على نظرة عميقة فى فلسفة الاجتماع ، وكانت هذه الفلسفة لم توجد بعد ، فوجه كل همته لبناء المجتمع الإسلامى بحيث لا يعتريه الانحلال أجيالا متعاقبة ، حتى يُتم ما نُدب إليه من إذاعة كلمة الله الفاصلة ، للعالم كافة ، فجاء من أقواله صلى الله عليه وسلم فى المؤاخاة بين آحاد المسلمين ، وفى وجوب تضامّهم وتضافرهم حتى يصبحوا كرجل واحد تحركه ارادة واحدة ، قوله :

« مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عصو منه تداعى سائره بالحمى والسهر » .

« من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« من فارق الجماعة شبراً فمات ، فميتته جاهلية » .

ولما كانت همة المسلمين الأولين منصرفة ، بعد استقامة عقيدتهم ، إلى العبادة والتقرب إلى الله ، بيّـن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن السهر على صيانة الاجتماع الإسلامى أفضل من سائر العبادات التى كانوا يتدسونها ، ويعتقدون سموها ، فقال فى هذا الباب :

« نظرُ الرجل لأخيه على شوق ، خير من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا » .

« إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والصوم » .

« من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكأنما خدم الله عمره » .

« من مشى فى حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار ، قضاها أو لم يقضها ، كان خيراً له من اعتكاف شهرين » .

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا بلى . قال إصلاح ذات البين . وفساد ذات البين هى الحالقة » .

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، فقرر لهم أن العمل على تقوية الاجتماع يقى من عذاب يوم القيامة ، وعذابها تقشعر من سماعه الأبدان. فقال :

« من زحزح عن طريق المسلمين شيأ يؤذيهم ، كتب الله له به حسنة ، ومن كتب له حسنة أوجب له بها الجنة » :

« من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » .

« إذا التقى المؤمنان فتصافحا ، قسمت بينهما سبعون مغفرة ، تسع وستون لأحسنهما بشرا » .

كل هذه الأحاديث وكثير من أمثالها ، مما ليس له نظير فى دين من الأديان ، ولا جاء على لسان واحد من المصلحين الاجتماعيين . جعلت من جماعة المسلمين أمة كرجل واحد ، وإذا بلغت أمة هذا الحد من التضام والتعاون ، فلا يمكن أن تنحل أو تختل بتأثير الحوادث العادية ، ويكون لابد لحدوث ذلك الانحلال من عوامل أقوى منها تتنزل من ضعف إيمانها بمصدر الوصايا التى ذكرت بعضها فى هذه العجالة ، وطروء الضعف على هذا المصدر يصعب فى قرن أو قرنين ، وعوامله أكثرها علمية أو فلسفية تطرأ على شكل شبهات ، وهى لا تحدث فى الأمم إلا بعد أن يبلغ العلم فيها أشده بعد عدة أجيال ، أى بعد أن يكون الغرض المقصود من التبليغ العام قد تم وأحدث فى العالم ثمراته المرجوة . وهذا هو الذى حدث فعلا ، فبعد أن أتم الاسلام تأليف أمته المثالية فى مدة من الزمن لا تكفى لتأليف قبيلة ، وبعد أن قامت هذه الأمة المثالية بإحداث الانقلابات الاجتماعية والتطورات الفكرية ، والتوجيهات الأدبية ، فى الأمم كافة ، وبعد أن أصبحت حجة الله قوية ، بل بدهية استوى العالم كله إزاءها ، فمن استهدى بنورها ، وسار على سمتها ، بلغ الغاية مما خلق له ، ومن تنكبها وسلك غير سبيلها فقد حقت عليه كلمة الله وأصبح من النادمين « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » ؟

# حياة كلها هجرة

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الكبير الشيخ محمد تقى القمى

السكرتير العام لجماعة التقريب

---

يذكرنى شهر الحج بالهجرة ، لأن المسلمين يهاجرون فيه إلى مكة ، ولأن مكة — فى نظرى — هى رمز الهجرة ، فأول من نزل بقعتها مهاجر ، وأول من تفجر له الماء فى أرضها مهاجر ، وأول من رفع قواعد البيت فيها مهاجر ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » .

والرابطة قوية بين هجرة المسلمين إلى مكة ، وهجرة الرسول منها ، فمكة التى تتسع اليوم لمئات الآلاف من الحجيج ، لم تتسع بالأمس لرسول الله وصحبه — على قلة عددهم — وضاقت بهم ذرعا .

والنفس تألف الحديث عن الهجرة لما فيه من لذة وسمو ، ولأن الإنسان يألف الهجرة من طول ما تلازمه ، فحياته سلسلة من الهجرات الطبيعية ، ففى بطن أمه يهاجر من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ، إلى نهاية أطوار تكوينه السبعة المعروفة . ثم يخرج إلى الدنيا ، فيتنقل من منزل إلى منزل ، ويهاجر من طور إلى طور .

ويتفق الفلاسفة والعرفاء والطبيعيون على حدوث هذه الهجرة ، وإن اختلفت نظرتهم إليها ، وتسميتهم إياها .

فالحكماء يعبرون عنها بالعقل الهيولانى ، والعقل بالفعل ، والعقل بالملكة ، والعقل المستفاد ، ومقام القلب ، ومقام الروح ، ومقام النفس .

والعرفاء يسمونها بالمقامات ، وهى : الطبع والصدر والقلب والروح والسِّر والخفىّ والأخفى .

والطبيعيون يعرفونها بالأطوار، وهى تبدأ بالطفولة العاجزة ، وتمر بالنضوج ، والرُّقيِّة ، والحرِّية ، واستكمال العقل ( الاستكمال الروحانى والجسمانى ) ، ثم تنتهى بالكمال .

وهؤلاء وأولئك يتفقون فى تقسيمها كذلك إلى سبعة منازل ، وهو أشبه ما يكون بتقسيمنا اليوم إلى ليل ونهار ، لأن الظلمة تفرقهما ، والحال أن كل دقيقة وثانية وثالثة ، فيها تغير وتبدل .

وهكذا الإنسان يتنقل من طفولة عاجزة ، إلى صبا وثاب ، إلى كهولة وشيخوخة ، وكلها هجرة إجبارية ، لا تحكم له فيها ولا خيرة ، بل هى سنة من سنن الله فى عباده « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

أما الهجرة المعنوية ، فهى هجرة النفس من صفة إلى صفة ، ومن خصلة إلى إلى خصلة ، ومن خُلق إلى خلق ، ومن درجة أدنى إلى درجات أعلى ، ومن عادات ضارة إلى أخرى مفيدة ، ومن تقاليد فاسدة ، إلى غيرها صالحة ، ومن تعصب للسخافات ، إلى تعشق للتسامح ، وتطلع للكمال .

وهذه الهجرة المعنوية طبيعية بالنسبة لمن جعل الدين مرشده ، واتخذ من تعاليمه دليله . وضرورية بالنسبة لأصحاب الدعوات والمجاهدين فى سبيل الفكرة ، الذين لا يهاجرون بأنفسهم فحسب ، بل يهاجرون بالناس من السىء إلى الحسن ، ومن الحسن إلى الأحسن ، ومن الأخلاق الذميمة إلى الكريمة ، ومن مواطن السوء والرذيلة إلى مواطن الخير والفضيلة ، ويدفعون الناس إلى الكمال ، وإلى ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم .

وحياة الرسول الكريم ، تجمع الهجرات كلها طبيعية ومعنوية ، وتزيد عليها تلك الهجرة المعروفة التى لولاها لقضى — بغير شك — على الإسلام ورسوله والمسلمين ، تلك الهجرة التى هى درس عملى فى التضحية والجهاد ، والتى اتخذها المسلمون مبدأ لتاريخهم ، والتى جمعت كل المعانى والمحسوسات التى تفهم من هذه اللفظة .

كان صلى الله عليه وآله نموذجا فريداً فى هجرته الطبيعية ، فلم تشعر أمه إبان حمله بما تشعر به الحوامل من تعب وألم ، ولم تجد فى وضعه ما يجده النسوة عادة من الإجهاد . وكذلك كانت هجرته من الطفولة إلى الصبا والشباب ، ثم إلى نهاية الأجل ، فذة فى كل أطوارها .

أما الهجرة المعنوية ، فقد اكتمل له أمرها فى مستهل حياته ، ففى صباه لم يله كما يلهو الصبية ، ولم يعبث كما يعبثون ، بل كان يجلس مع جده فى مجالس الحكم ، ومواطن الحكمة ، وفى شبابه كان ينتزع نفسه من مجالس اللهو ، ويؤثر الخلوة ، ويجنح إلى السكون ليجتلى معانى العظمة فى الكون ، حتى بلغ به الأمر أن يتحنث فى غار حراء ، كذلك هجر عادات قومه وتقاليدهم ، وتميز عليهم بسمو خلقه وسمو طبعه ، وسُمّى عندهم بالصادق الأمين .

وأما هجرته المشهورة ، التى جمعت كل أسباب الخير ، وحوت كل معانى العظمة ، وغمرت الدنيا بأسمى التعاليم ؛ فقد كانت بدعاً لا مثيل لها فى تاريخ قومه الذين عرفوا الهجرة الجماعية ، أى هجرة القبيلة كلها فى سبيل العيش ، أما الهجرة الفردية ، الهجرة من أجل العقيدة والمبدأ ؛ فشىء جديد لا سابقة له ، اضطر إليه الرسول بعد إيذاء قومه إياه ، ومحاولتهم القضاء على دعوته .

استخلف عنه فى مكة من استخلف ، وأخذ معه من أخذ ، وهاجر إلى المدينة ، وفيها وضع أساس الأخوة الإسلامية ، ومبدأ « وطن العقيدة » ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، وقضى على العصبية الجنسية ، والنعرة القبلية ، وأعلن أن وطن المسلم هو كل موطن فيه للإسلام صحبة ، وأن وطن صاحب الدعوة

كل رقعة فيها للدعوة مصلحة ؛ وبعد أن انتزع من النفوس كل معانى التعصب والخلاف ، غرس فيها مبدأ العمل للإسلام فى كل مكان ، وعلى نهجه سار المخلصون من المسلمين .

كان يستطيع أن يبقى بمكة عزيزاً موفور الثراء ، ألم يعرضوا عليه المال فأبى ؟ ألم يعرضوا عليه الجاه فرفض ؟ إنه رجل الدعوة ، إنه رسول الله ، إنه لن يترك دعوته أو يقصر فى أداء رسالته ، ولو وضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره ، ذلك فناء الذات فى الفكرة ، وذلك أسمى مراتب الكمال .

لقد رأى أن البقاء بمكة لا قيمة له ولا وزن ، ما دامت كلمة التوحيد ليست هى العليا ، فهاجر ، وبهجرته امتدت الدعوة الإسلامية ، واتسع نطاقها ، وتخلص وطن المسلم من النطاق الضيق المحدود .

ومن المؤسف أننا اليوم فى نظرتنا الوطنية ، نقف عند الحدود الضيقة التى فرضتها علينا الحروب الداخلية أو الخارجية ، أو الثورات أو الاستعمار الأجنبى ، فحين ننادى بالوطنية ، إنما نعنى البقعة التى نعيش فيها أو ننتسب إليها ، ونسينا أن صاحب الهجرة حدد وطن المسلم يوم هجرته بأنه كل بلد تسمع فيه كلمة التوحيد ويوجد فيه من يتخذ الإسلام دينا .

كذلك نحن نهاجر اليوم ، ولكن لا من الكمال إلى الأكمل كما كانت هجرة الرسول ، وكما ينبغى أن تكون هجرة المسلم العارف لدينه ، وإنما نهاجر من الحسن إلى السيء ، ومن السيء إلى الأسوأ ، نهاجر عن عاداتنا وتقاليد ديننا ، إلى عادات وتقاليد منافية ، بل جاهلية وبربرية بأصح تعبير ، ونحسب أننا نسير إلى تقدم ومدنية ، مع أننا نتدهور ، ونهوى إلى الحضيض .

ليست هجرة الرسول قصة تقرأ ، ويردد أمرها ، ويرجع حديثها فحسب ، وإنما هى نموذج عملى خالد للهجرة إلى المبادىء السامية والمثل العليا ، التى تضمن للفرد العزة والرقى ، وتضمن للدولة النهوض والسؤدد .

وما أشد حاجتنا إلى التحصن بتلك المبادىء ، لنمكن أن نعيش فى هذا العالم المضطرب الذى يريد كل ظالم فيه أن يحملنا على مبادئه زاعماً أنها مثالية ، تضمن السعادة والهناء للبشرية .

نحن نكتب هذا ومئات الآلاف من المسلمين يطوفون حول البيت العتيق ، يهللون ويكبرون ، ويسبحون الله الواحد الأحد ، فهل يذكرون أن مكة التى تفتح صدرها لهم ، ويتردد فى أرجائها تكبيرهم وتسبيحهم ، قد ضاقت بالرسول وصحابته ، وحالت بينه وبين عرض عقيدة التوحيد على الناس فيها ، فهاجر تلك الهجرة المباركة ، التى أوجدت الملة الإسلامية ، ومهدت للمسلمين سبيل الحج وطهرت كعبتهم من الأوثان والرجس ؟

* * *

وبعد . فلماذا لانتخذ من حياة الرسول المليئة بالهجرة الصالحة مثالا نحتذيه ، وطريقاً نسلكه لنتخلص مما نحن فيه ، فقد لزمنا الذل ، وركبنا العار ، وهان أمرنا على الناس حتى ان شذاذ اليهود أقاموا لهم دولة فى قلب أرضنا الاسلامية تهدد وجودنا بأشد من تهديد يهود يثرب لمسلمى صدر الاسلام .

ولئن كان الأولون تخلصوا من كل خطر حاق بهم ، بفضل تحصنهم بمبادىء الدين ، والتزامهم محجة الرسول ونهجه ؛ إن على القادة فى أيامنا هذه ـ إن أرادوا النجاة والخلاص من كل خطر داهم ، وذل جاثم ، وعبودية مهينة ـ أن يبدءوا من أول الطريق ، فينظروا بعين الاعتبار إلى الهجرة ، ويتفهموا حقيقة معناها . وما هى إلا التضحية ، ونسيان الذات ، وعدم الخضوع لمؤثرات البيئة والمجتمع واتخاذ خطوات إيجابية حاسمة ، تساعدهم على الهجرة بأنفسهم وبالناس معهم .

فإلى الهجـــرة ؟

# نظم الحكم كما يراها الإسلام

لحضرة صاحب الفضيلة

## الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز المراغى بك

عضو جماعة كبار العلماء والإمام الخاص للحضرة الملكية

---

وعدت فى حديثى الماضى بالكلام على معنى الحكومة الثيوقراطية أو الحكم الإلهى - كما يسمونه - ، لأن كثيراً من الكاتبين فى نظم الحكم الدستورية وصفوا حكومة الاسلام بأنها حكومة ثيوقراطية دينية ، وخلصوا من ذلك إلى أن النظم الديمقراطية العصرية لا تلائم الإسلام ، وهو بدوره لا يقرها ، وعلى ذلك لا يمكن أن يحقق الاسلام للناس نظاما متطورا يرضى حاجاتهم ، ويساير الزمن ورقيه وتقدمه .

فما هى الثيوقراطية ؟ وهل حكومة الإسلام ثيوقراطية حقا ؟ وهل وضع الاسلام نظاما جامدا لا حياة فيه ، ولا يرضى الناس عندما يتقدم الزمن ؟ .

الثيوقراطية نظام حكومة دينية ينفذ القائم على رأسها تعاليم إلهية محددة لا يحاسب عليها إلا أمام الله ، فلا سلطان لأحد فى حسابه ، يفعل ما يجب أن يخضع له الشعب ، لأن مايفعله مستمد من أمر الله ، أو بوجه أدق من أمر إله .

هذا النظام قد عرف فى العالم منذ أقدم العصور : عرفته مصر الفرعونية ، وعرفته اليهودية فى عهد أنبيائها وقضاتها وملوكها ، وعرفته المسيحية فى القرون الوسطى .

وما نظرية التفويض الإلهى التى عرفها الناس على أنها أحدث النظريات فى وجود الدولة إلا صورة من صور هذا النظام .

وخلاصة هذه النظرية أن الدولة أصلها الدين على معنى أن سلطانها يرتكز على سناد سماوى ، ويرجع إلى إرادة علويه فوق إرادة البشر .

تلك الإرادة الإلهية هى التى اصطفت من بين الناس مباشرة ملوكا عليهم يختصون دونهم بالسيادة والسلطان مؤيدين بروح من عند الله الذى اصطفاهم وعهد إليهم بمصالح البشر المكلفين بطاعتهم والائتمار بأمرهم ، وأساس الدولة على هذا هو التفويض الإلهى الخارج عن إرادة البشر ، ورئيس الدولة على هذا غير محاسب على عمله إلا أمام الله الذى اصطفاه وفضله على عباده ، وفى ذلك يقول لويس الرابع عشر : ( إن سلطة الملوك إنما تستمد من تفويض الخالق ، فالله هو مصدر هذه السلطة وبين يديه وحده يؤدى الملوك حساباً عن استعمالها ، كما قال لويس الخامس عشر فى مرسوم صدر منه فى عام ١٧٧٠ م ( إننا لم نتلق التاج إلا من الله ، فسلطة عمل القوانين هى من اختصاصنا وحدنا دون تبعية ولا توزيع ) .

لا بل إن هذه النظرية سادت حتى مستهل هذا القرن ، فقد قال غليوم الثانى امبراطور الألمان فى عام ١٩١٦ ( إن الملك يستمد سلطته من الله ، ولا يقدم حسابه إلا إليه ، وإننى على هذا المبدأ أضع سياستى وأعمالى ) .

وقريب من هذه النظرية أيضاً نظرية العناية الإلهية ، وهى لا تختلف فى جوهرها عن النظرية السابقة ، والفرق بينهما أن إرادة الله على النظرية الأولى تعمل مباشرة فتختار الحاكم ، بينما هى — على النظرية الثانية — تعمل بطريق غير مباشر ، وبواسطة إرادات الأفراد ، تلك الإرادات التى تختار الحاكم مباشرة مسيرة فى هذا الاختيار بالعناية الإلهية .

تلك هى نظرية التيوقراطية وما لفَّ لفَّها من نظريات حديثة ، فهل كانت

نظرية الحكم فى الإسلام شيئاً من هذا، وهل كانت الدولة فى الإسلام سفينة يقف على دفتها إله يختار شخصاً معينا ينفذ أوامره الإلهية وهو غير مسئول ـ كما جاء فى عبارة لويس وغليوم ـ إلا أمامه ؟ الجواب على ذلك ، لا .. لا ؛ ولكن قضية النفى يحتاج الجزم فيها إلى شىء من التوضيح المتعلق بمركز الرسول عليه الصلاة والسلام كنبى وكإمام ، ومركز الخلفاء من بعده ، وموقع التشريع الإسلامى من سلطة الخليفة ، ومن صلات الشعب بالحاكم ، والحاكم بالشعب ، ومدى سلطان ذلك الحاكم على الشعب ، وإلى أى حد يمكن أن ينفذ الإمام سلطانه على المحكومين ، وكيف يكون مسئولا ، وأمام مَن يكون مسئولا .

والإجابة على هذه الأسئلة توضح تماماً نظرية الحكم الإسلامى على أساس متين بعد ما لغط فيها الناس جاهلين أومتجاهلين ، وبعد ما أكثر الناس من التشدق بنظريات حديثة لا نقرهم عليها ، بل نلومهم على عدم التثبت فى قضايا الشريعة الإسلامية جملتها وتفصيلها ، وإن كانوا لم يتمرسوا بدقائقها ، فليكفونا ويكفوا أنفسهم المئونة بالسكوت ، أو فليحاولوا ـ ولو مرة ـ سؤال أهل الذكر .

أظن أنه أصبح من المعاد الكلام عن تاريخ دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام فى مكة ، ثم جهاده بالمدينة ، حتى استقر أمرها ، وبدأ الرسول عليه السلام يرسى قواعد الدولة الجديدة ، ويبرز مظاهرها الداخلية والخارجية من مكاتبة الملوك والأمراء ، وعقد المعاهدات ، كما أنه أصبح من الواضح الحديث عن مسألة الدولة ، ومكيفات كيانها من وطن وقوة وسيادة .

والإسلام يعتبر ـ ولو من الوجهة النظرية ـ وطنه العالم أجمع ، فالأصل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وهى التى تسود ـ كقانون ـ شتى بقاع الأرض ، وهى التى توحد الناس وتجمع شتاتهم ، وهى المؤهل الوحيد للدخول فى الجنسية الإسلامية بمعناها الدقيق ، فالإسلام كدين وكنظام عام لا يعرف الحدود الجغرافية الضيقة ويوجب تناصر المسلمين فى مختلف أرجاء العالم ، ويجعلهم ـ أية سلكوا ـ مخاطبين

بتكاليفه ، ولو أن فقهاء المسلمين فى العصور المتأخرة قد أذعنوا للأمر الواقع وبينوا كثيراً من الفروع الفقهية متأثرين فيها بالناحية العملية ، فإن ذلك لا يمنع من تقرير المبادىء العامة التى أسلفناها .

ولست الآن بصدد الحديث عن نظام الحكم فى الإسلام ، وهل هو من أمر الدين أم من أمر الدنيا ، فإنى أعتقد أنه جدل لفظى ، أوخلاف فى حال ، كما يقول سادتنا العلماء فى اصطلاحاتهم .

فالمهم الآن ـ ولو تاريخيا ـ أن ثمت نظاماً للحكم أقره المشرع الإسلامى على نمط أو آخر من طرق التشريع ، وكان الأساس فيه هو الشورى ، حتى فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

والذى شدا طرفاً من أصول الفقه يعرف البحث المشهور فى جواز اجتهاد الرسول عليه السلام ومداه ، وفى أى الأشياء يحصل ، ومهما يكن من شىء ، فقد ثبت أن الرسول عليه السلام استشار أصحابه فى كثير مما يسمى الآن من أمور الدولة ، كأمر الأسارى فى بدر ، وقصة الخندق ، وصلح الحديبية ، وغير ذلك ، وهذا أول مظهر ينفى الثيوقراطية عن نظام الحكم الإسلامى وعن القائم على أمر الدولة والتشريع فى الإسلام .

وأمر آخر وراء هذا قد يكون أكثر أهمية فى إثبات ما ذهبنا اليه فى هذا الحديث وسابقه ، ذلك أن الرسول عليه السلام لحق بالرفيق الأعلى ولم يترك نظاما معيناً لهذه الحكومة ، ولم يدع وصية محدودة بشأنها ، بل شاء ـ بعد مشيئة الله ـ أن يدع هذا الأمر للمسلمين يقلبون فيه وجوه الرأى ، ويحلون معضله كما يلائم طبيعة الجو الذى يعيشون فيه ، ليبين لهم أن ملاك هذا الأمر الشورى ، واختيار أهل الحل والعقد ، وأن للمسلمين أن يبينوا تفاصيله فى دستور مكتوب أو محفوظ ، وأن يضعوا ما يرونه كفيلا باسعادهم وتقرير حكمهم على النمط الذى يرضى مزاجهم وعرفهم وتقاليدهم ، من نظام دستورى وإدارى وغير ذلك ، مادام ملتئما مع المبادىء

العامة التى جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقد رسما لهم الخطوط العامة لمعادهم ومعاشهم ، وما على المسلمين إلا أن يفصلوا بمجمل هذه الخطوط ، ويبينوا فى ذلك الفراغ ما يظنونه ملتئماً وحاجتهم ومصلحتهم ، وأى نظام اختاره المسلمون على وفق الفكرة العامة التى رسمها المشرع فهو نظام مقبول ، ودستور مرض ، فإن وضع المسلمون دستوراً على أحدث النظم ، لا يعارض شيئا مما نص المشرع عليه نصاً صريحاً لا تأويل فيه ، فهو دستور محترم مقبول ، ما دام يراه أهل الشورى ، ويختار تفاصيله أهل الحل والعقد الذين يعرفون حكم الله فى تحليله وتحريمه ، ويعرفون أن ذلك الذى وضعوه يحقق المبادىء الطبيعية ، وحرية الفرد والجماعة التى يستمتع بها الإنسان كإنسان ، والتى قررها الشارع الإسلامى فى ألف موضع وموضع من تشريعه .

وتلك نقطة جديرة بالعناية أحب أن ألفت لها نظر الذين يقولون عن الحكومة الاسلامية إنها حكومة ثيوقراطية ، فليس ثمت ـ عند التدقيق ـ فرق بينهم وبيننا ، فواضعو الدساتير على النظم الحديثة يضعونها متأثرين بما يقبسون من نظم ودساتير يرونها أرقى الدساتير ، وهى لذلك جديرة بالاقتداء والتقليد ، لأنها تحقق المثل العليا للديمقراطية ، وهى عرضة للتغير على الطريق المرسوم متى جد ما يستدعى تغيرها ، ونحن نقول مثلهم : إن أى دستور يحقق مصلحة البلد على نظام شورى ، فنحن نقبله إذا لم يكن فيه ما يصادم النص ( المجمع عليه ) ولا بد من التنبه لهذا القيد الذى وضعناه بين القوسين ، وها هى ذى حكومة الباكستان ، وهى من نعلم فتاء وقوة تريد ـ وقد أعلنت صراحة ـ أنها ستضع دستورها على أساس إسلامى خالص ، وتريد أن تضع نظاماً مالياً إسلامياً خالصاً ، وقد بدأت تستشير أهل العلم فيما انتوت ، والنصوص التى أوجبنا مراعاتها نصوص قامت الأدلة على أنها جديرة بالتقدير لمصلحة الجماعة ومصلحة الفرد ، وفوق ماعندنا من نصوص ؛ عندنا سوابق من التاريخ متى رجعنا إليها ساعدتنا وأسعفتنا ، فما الفرق بيننا وبينهم ؟ هم يقولون لا بد أن يحقق الدستور حقوق الإنسان والحريات الطبيعية ، ونحن نقول

مثلهم على شرط أن تكون على وفق مايراه المسلمون ملتئماً مع نصوص الشارع على أى وجه من وجوه الاعتبار الشرعية التى لا أريد أن أدخل فى تفاصيلها ، فلم يكون نظامنا ثيوقراطيا، ونظامهم ديمقراطيا ؟ « إن هى إلا أسماء سميتموها »

ثم تأتى بعد هذا مسألة المسئولية : لم يقل أحد من المسلمين إن الخليفة أو أحداً من وزرائه غير مسئول إلا أمام الله ، ولم يقل أحد من الخلفاء مثل ما قال لويس الخامس عشر (إن الخليفة وحده ـ دون الأمة ـ له حق إقرار التشريع والتقنين) فلابد من رأى الجماعة ، والخليفة فرد ـ من بين افراد ـ اختير ليقوم بينهم مقام الوكيل فى تنفيذ أغراض الموكل ، وللموكل فى كل وقت محاسبته متى خالف شرطا من شروط الوكالة المنصوص عليها ، أو المعروف بداهة أنها شروط للوكالة ، وله عزله من الوكالة على نحو من الأنحاء التى نص عليها الفقهاء ومن كتبوا فى الأحكام السلطانية التى بينوا فيها مواطن عزل الخليفة وما يستحق به العزل ، وما ينعزل به من تلقاء نفسه ، وكيف يحاسب وكيف يقاضى ، إلى غير ذلك مما لسنا بسبيل الحديث عنه الآن ، وقد نعرض له عند الكلام على تفاصيل هذه المسائل ودقائقها .

وإنك لو نظرت إلى آيات القرآن الكريم لوجدت الخطاب فى أغلب الآيات المتصلة بنظام الحياة موجها للأمة « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » . « فإن خفتم أن لايقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » إلى غير ذلك من مئات الآيات والأحاديث الشريفة ، والخليفة مسئول كأى فرد أمام الله من ناحية وجوب العمل على وفق الحدود العامة للتشريع ، ولكن ذلك أمر آخر غير ما نحن فيه ، فلم يترك الخليفة لجزاء الضمير أو العقاب الأخروى فحسب ، ولكنه كان ولا يزال — على ضوء القانون الإسلامى — معرضاً لأدق أنواع الحساب ، وهو غير معنى من المسئولية التى أسلفت الحديث عنها .

والتاريخ الإسلامى من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام شاهد على الحوادث التى وقف فيها المسلمون ليبرئوا عهدتهم ، ويريحوا ضمائرهم ، ويحاسبوا المسئولين

عما يرونه لايتفق وما يعتقدون ، وإنك لتعجب إذ تسمع أن بعض الصحابة حاوروا الرسول فى عبارات وردت فى صلح الحديبية لأنهم لا يرونها متفقة مع ما قدموا من جهاد ، وبذلوا من أرواح ، حتى أرجعهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجادة ، مبينا أن الموقف يقتضى من ناحية الحكمة ما فعل .

كذلك كان شأن الخلفاء والأمراء من بعده حتى عمر - وهو من تعلم شدته - كان يقبل أن تحاسبه العجوز ، وقد رجع إلى الحق على يد مرتكب حين اطلع على عورة منه من ظهر البيت لا من بابه ، إلى غير ذلك من شواهد لا نريد الاطالة بذكرها .

فمبدأ مسئولية رئيس الدولة أمام الأمة مبدأ مجمع عليه ، أو فى حكم المجمع عليه وبذلك كان الاسلام متفقاً مع المبادىء التى يسمونها ديمقراطية ، وهى من بدائه الاسلام .

وإن كان ثمت عيب فى طور أو آخر من أطوار التاريخ الاسلامى ، فليس العيب عيب الاسلام ، وإنما هو عيب الذين ينتسبون للإسلام دون فهم له ، ويحاولون أن يسبغوا على تصرفاتهم ثوب التشريع الإسلامى ، فيُعرِّضوا الإسلام لكلام هو أبعد ما يكون عنه .

فليطمئن الباحثون إلى أن الإسلام دين ديمقراطية كما يلهجون ، وأن مبادئه صالحة لمسايرة أرقى العصور على شرط أن يكون على وفق المبادىء العامة الإسلامية .

الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البناء

والمبادىء العامة التى هى — كما يرى العقلاء — لصالح البشرية عامة ، متفقة مع الإسلام .

وصلة الخليفة بالشعب ، صلة الوكيل بالموكل ، أو الأجير بالمؤجر ، وقد عبر عن ذلك أبو العلاء المعرى فى قوله :

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

ولا شك أن المؤجر من حقه أن يحاسب أجيره على كل ما يبدو منه ، وقد جاء فى قول عمر وهو يخطب : «لو وجدتم فىَّ اعوجاجا فقوموه» فيرد عليه واحد من عامة المسلمين «لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» فيقول عمر : «الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم أعوجاج عمر بسيفه» .

فالمسئولية موجودة ، وتقويم الشعب للخليفة جائز ولو بحد السيف .

فهل فى الدنيا مسئولية كتلك ، وهل فى الدنيا محاسبة أكثر من هذا ، ومن أراد الاستقصاء أكثر من هذا فليرجع إليه فى مكانه ، فالخليفة مسئول أمام الأمة ، وهى تحاسبه ، ولها أن تعزله متى رأت فى ذلك مصلحة ، وهو مختار منها ، والأمر لها أولا وآخراً ، وحقها غير قابل للتنازل أو التحويل .

ويكاد رأى المسلمين فى نظرتها السياسية فى هذه الناحية يشبه نظرية روسو فى العقد الاجتماعى ، وحق الأمة ، وعدم قابليته للتحويل .

وإن كان علماء المسلمين الذين كتبوا فى الأحكام السلطانية لم يبينوا طريق المسئولية ، فقد أثبتوها جميعاً ، وإذا رأت الأمة أن تنظم طريق المسئولية وتضع لها قواعد ونظما ، فليس الاسلام بمانع من شىء من ذلك بعد ما أعلن أن كل فرد من المسلمين من أى جنس أو لون أو لغة بعرض أن يكون خليفة متى رأى ذلك أهل الحل والعقد . والفكرة العامة فى ذلك أن أى تقصير من الخليفة يقوم عوجه رأى الأمة وسلطانها ، وأن المصير إليها ؛ فلا ضير فى أن يكون الخليفة أى شخص كائنا من كان .

أظننا قد أوفينا على الغاية فى هذا الموضوع الذى نراه جديراً بالتقديم بين يدى البحث الموضوعى فى نظام الحكم ، وإلى اللقاء فى مقال آخر ، والسلام ؟

# ضرورات الدين والمذهب
# عند الشيعة الإمامية

لحضرة صاحب الفضيلة

الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه

المستشار بالمحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

---

المسلم من صدّق مقتنعاً بكل ما اعتبره الإسلام من الأصول والفروع ، والأصول ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، فمن شك فى أصل منها ، أو ذهل عنه قاصرا أو مقصرا فليس بمسلم ، ومن آمن بها جميعاً جازما فهو مسلم ، سواء كان إيمانه عن نظر واجتهاد ، أم عن التقليد والعدوى ، على شريطة أن يكون وفق الحق والواقع .

أما ماذكره العلامة الحلى ، والشهيد الثانى ، وغيرهما ، من وجوب الاستدلال والنظر فى الأمور والعقائد ، وعدم كفاية التقليد فيهما ، فإن المقصود منه التقليد الذى لايوصل إلى الواقع ، أما إذا كان سبيلا للتصديق بالحق ، فلاريب فى إجزائه وكفايته ، وإلا لم يبق من المسلمين سوى واحد من كل مائة ، ولذا قال العلامة الأنصارى فى كتاب الفرائد : ( والأقوى كفاية الجزم الحاصل من التقليد ) .

ويكفى من التوحيد الايمان بوحدة الله تعالى ، وقدرته وعلمه وحكمته ، ولا تجب معرفة صفاته الثبوتية والسلبية بالتفصيل ، ولا أنها عين ذاته أو غيرها ، ويكفى من النبوة الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، رسول من الله صادق فيما أخبر به معصوم فى تبليغ الأحكام ، فإن الرسول قد يخبر عن الشىء بصفته الدينية المحضة أى كونه رسولا مبلغاً عن الله تعالى ، وقد يخبر عنه بصفته الشخصية ، أى كونه إنساناً من البشر ، فما كان من النوع الأول ، يجب التعبد به ، وما كان من النوع الثانى فلا يجب .

أما التصديق والإيمان بأن النبي كان يسمع ويرى وهو نائم ، كما يسمع ويرى وهو مستيقظ ، وأنه يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، وأنه عالم بجميع اللغات، وأنه أول من تنشق عنه الأرض ، فليس من ضرورات الدين ولا المذهب .

ويكفى من المعاد الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت على ما اكتسبه فى حياته ، وأنه ملاق جزاء عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، أما أنه كيف يحاسب العبد ؟ وعلى أية صورة بالتحديد يكون ثواب المحسن ، وبأى لون يعاقب المسيء ؟ فلا يجب التدين بشيء من ذلك ، فالتوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، دعائم ضرورية لدين الإسلام ، فمن أنكر واحداً منها ، أو جهله فلا يعد مسلما شيعيا ، ولا سنيا .

أما الفروع التى هى من ضرورات الدين ، فهى كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة من غير فرق بين مذهب ومذهب ، كوجوب الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، وحرمة زواج الأم والأخت ، وما إلى ذلك مما لا يختلف فيه رجلان من المسلمين ، فضلا عن طائفتين منهم ، فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة ، وتكذيب لما ثبت فى دين الإسلام بالضرورة .

والفرق بين الأصول والفروع الضرورية ، أن الذى لايدين بأحد الأصول يكون خارجا عن الإسلام ، جاهلا كان أم غير جاهل ، أما الذى لا يدين بفرع ضرورى ، كالصلاة والزكاة ، فإن كان ذلك مع العلم بصدوره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو غير مسلم ، لأنه إنكار للنبوة نفسها ، وإن كان جاهلا بصدوره عن الرسالة ، كما لو نشأ فى بيئة بعيدة عن الإسلام والمسلمين ، فلا يضر ذلك باسلاميته إذا كان ملتزماً بكل ماجاء به الرسول ، ولو على سبيل الإجمال ، فالتدين بالأصول أمر لا بد منه للمسلم ، ولا يعذر فيها الجاهل ، أما إنكار الأحكام الفرعية الضرورية فضلا عن الجهل بها ، فلا يضر بإسلامية المسلم إلا مع العلم بأنها من الدين ، فالإمامة ليست أصلا من أصول دين الإسلام ، وإنما هى أصل لمذهب التشيع ، فمنكرها مسلم إذا اعتقد بالتوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، ولكنه ليس شيعيا .

## ضرورات المذهب :

ضرورات المذهب عند الشيعة على نوعين : النوع الأول يعود إلى الاصول ، وهي الامامة ، فيجب على كل شيعي إمامي أن يعتقد بإمامة الاثنى عشر إماما ، ومن ترك التدين بإمامتهم عالما كان أم جاهلا، واعتقد بالأصول الثلاثة ، فهو عند الشيعة مسلم غير شيعي ، له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، فالإمامة أصل لمذهب التشيع الذى يرجع معناه ودليله إلى حديث الثقلين ( مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ) .

النوع الثانى من ضرورات مذهب الشيعة يرجع إلى الفروع ، كنفى العول ، والتعصيب ، ووجوب الاشهاد على الطلاق ، وفتح باب الاجتهاد ، وما إلى ذلك مما اختصوا به دون سائر المذاهب الإسلامية ، فمن أنكر فرعا منها مع علمه بثبوته فى مذهب التشيع لم يكن شيعياً .

وأغتنمُ هذه المناسبة لألفت نظر من يحتج على الشيعة ببعض الأحاديث الموجودة فى كتب بعض علمائهم ، ألفت نظره إلى أن الشيعة تعتقد أن كتب الحديث الموجودة فى مكتباتهم ـ ومنها الكافى ، والاستبصار ، والتهذيب ، ومن لا يحضره الفقيه ـ فيها الصحيح والضعيف ، وأن كتب الفقه التى ألفها علماؤهم فيها الخطأ والصواب ، فليس عند الشيعة كتاب يؤمنون بأن كل مافيه حق وصواب من أوله إلى آخره غير القرآن الكريم ، فالأحاديث الموجودة فى كتب الشيعة لا تكون حجة على مذهبهم ، ولا على أى شيعى بصفته المذهبية الشيعية ، وإنما يكون الحديث حجة على الشيعى الذى ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية .

وهذه نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد لكل من له الأهلية ، فإن الاجتهاد يكون فى صحة السند وضعفه ، كما يكون فى استخراج الحكم من آية أو رواية .

ولا أغالى إذا قلت : إن الاعتقاد بوجود الكذب والدس بين الأحاديث ضرورة من ضرورات دين الإسلام من غير فرق بين مذهب ومذهب ، حيث اتفقت على ذلك كلمة جميع المذاهب الإسلامية ؟

# أربعة رجال

## لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

---

من خلال السحب التى أثارتها أقوال المعاصرين وآراؤهم ، يبدو أربعة من رجال القرن الثالث عشر الميلادى فى عين الباحث الحديث نماذج إنسانية فريدة ، لا تتمخض الأجيال عنها إلا نزرا . وأولئك ـ حسب ترتيبهم هنا ـ هم السلطان الكامل محمد الأيوبى ، والقديس فرنسيس الأسيسى ، والإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، والفيلسوف ابن سبعين الأشبيلى . وفى حياة كل من أولئك الرجال مايدل على فردية ظاهرة وباطنة ـ كل فى ميدانه ـ ، غير أن اتصال بعضهم ببعض فى ميادين الدين والسياسة والدبلوماسية والحرب والجدل الفلسفى هو موضوع هذا المقال .

أما الكامل محمد فهو خامس سلاطين الأيوبيين فى مصر ، وهو ابن السلطان العادل محمد بن أيوب الذى حوّل الدولة الأيوبية عن سلالة أخيه صلاح الدين إلى سلالته الفرعية ، والكامل محمد لهذا شبيه شبهاً عابراً بالخليفة الأموى عبد الملك أواخر القرن السابع الميلادى ، لأن عبد الملك ابنُ مرْوان الذى حوّل الدولة الأموية كذلك من سلالة مؤسسها معاوية إلى سلالته المتفرعة من العاص ـ لا أبى سفيان ـ ابن أمية . على أن وجه الشبه بين السلطان الكامل محمد الأيوبى والخليفة عبد الملك الأموى يقف عند هذا ، وليس فى حياة الرجلين أو صفاتهما أو بيئاتهما ما يبرر أو يفسر الوقوف للمقارنة التى لا محل لها فى البحث التاريخى ، وليست بذات موضوع فى الدراسات التاريخية ، لأن شخصيات التاريخ لا تتكرر ولا تعيد نفسها ألبتة . وهيهات ما بين الخليفة الأموى ومنبته وحاله ووضعه الزمنى والجغرافى

وبين السلطان الأيوبى وأصله ونشأته ومقتضيات الحال السياسية فى عصره ، وكفى مايتصدع به القارىء فى كتب المحدثين أحيانا أسيفة من مقارنات ومفاضلات لا طائل تحتها ، ولا معنى لها ، ولا هدف منها ، إلا إشباع حب الحبر المطبوع ، وإكثار السطور المرصوصة نثرا ونظما . ولو رأى الكامل محمد نفسه موضوع مقارنة أو مفاضلة ملقا أو زلفى لامتعض أشد الامتعاض ، لا استحياءً ولا استعلاءً ، بل قنوعا واعتقادا بأن كل امرىء ميسرٌ لما خلق له . ثم إن الكامل محمداً عاش متواضعاً فى غير صلف باطن أو ظاهر ، طويل الروح فى غير بلادة ، يضع الشىء فى موضعه من غير إسراف ولا إقتار، منطويا على نفسه فى غير كبرياء ، هادىء المزاج فى غير غطرسة خافية ، مع ليونة سياسية فى غير رخاوة أو تهاون أو هوان . ولست أريد أن ألقى فى روع القارىء بهذه السلسلة الباهرة من الصفات أن الكامل كان من أصحاب العصمة الأخلاقية الذين لا يعصون الفضيلة ما تأمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، بل هو — وغيره من الشخصيات التاريخية الممتازة — مزيج من الصفات الإنسانية العامة ، مع غلبة نواحى الخير فيه على نواحى الشر فى أكثر الأحيان ، فضلا عن قدرة على التمييز بين الحقيقى والزائف من المصالح .

أما قبل ، فليس قليلا أن ينشأ الكامل محمد ابنا للسلطان العادل ، وأن يرى الابن أباه يعمل دائباً بمختلف الوسائل الطويلة والقصيرة على تحقيق غاية واحدة ، وهى إبقاء الدولة الأيوبية وحدة متماسكة فى قبضة سلطان واحد ، هو العادل نفسه . ومن وسائل العادل لتحقيق هذه الغاية إلقاء العداوة والبغضاء بين أبناء أخيه صلاح الدين ، وإثارة الحروب بينهم ، مع مهادنة الصليبيين ، وتسوية ما بينهم وبين المسلمين بالمفاوضات السلمية ، والصداقات الشخصية ، التى يرجع بعضها إلى أيام صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، حين بلغ الود بين الملك العادل والملك الإنجليزى ، أن رتشارد أفرس الكامل - أى جعله فارسا - بمدينة عكا سنة ١١٩٢ م ، حسب الطقوس الأوربية الغربية ، والكامل وقتذاك فى الثانية عشرة من عمره . ومنذ صارت الدولة الأيوبية كلها فى قبضة العادل - سنة ١٢٠٠م -

غدا الكامل شخصية بارزة فى الحرب والسياسة ، وشئون الحكم فى الولايات ؛ ثم ولاّه أبوه نيابة السلطنة فى مصر ، فظل على هذه الولاية التى جعلته سلطاناً بالفعل — لا بالاسم — حتى وفاة العادل سنة ١٢١٨ م ، والصليبيون وقتذاك راسون بمراكبهم الكثيرة عند الشمال الغربى من دمياط ، وفى عزمهم الاستيلاء على هذا الثغر المصرى الهام ، والإهواء منه عاجلا أو آجلا على البلاد المصرية ، ابتغاء القضاء على مركز المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين بالشرق .

تلك حال مصر من الناحية الحربية ، حين خلف الكامل محمد أباه فى السلطنة ؛ ولم تكن الحال السياسية أقل حرجا فى معسكر الأيوبيين عند المنزلة العادلية - قبالة بلدة بورة - حيث علم السلطان الكامل أن جماعة من كبار الدولة وقادة الجيش يريدون خلعه ، وإقامة أخ صغيرله فى السلطنة مكانه . ولئن استطاع الكامل أن يتغلب آخر الأمر على هذه المؤامرة ، فإن الشكوك والمخاوف والريب التى ملأت صفوف المسلمين حوّلت السلطان جنوباً إلى بلدة أشموم طناح ، وبذا أضعفت الجهود التى بذلت لإبعاد الصليبيين عن دمياط ، بل أدّت إلى استيلائهم عليها أواخر سنة ١٢١٩ م بعد حصار طويل ، امتلأت بأخباره كتب المعاصرين الشرقيين والغربيين من المنثور والمنظوم . ومن هذه - نقلا عن المراجع الأوربية - أن الصليبيين فزعوا أشد الفزع من كثرة قتلى المسلمين ، وأنهم فرحوا أكبر الفرح بما استولوا عليه من الغنيمة والعتاد . وتمعن المراجع الإسلامية فى وصف ما حدث منذ أوائل الحصار ، فتقول إن حامية دمياط صامدت الحصار وقاومته مقاومة مجيدة ، وأنها رضيت ويلات الحرب وقلة الأقوات ، وغلاء الأسعار وانتشار الأمراض ، ولم تقبل التسليم إلا بعد أن امتلأت الطرقات والمساكن بالموتى والطرحى من الجوع ، حتى إذا سلّمت وضع الصليبيون السيف فى الناس ، وأسرفوا فى قتلهم . ومع هذا كله لم يلبث السلطان الشاب ، الذى تمرّس بأخلاق أبيه وسياسته وتجارب الحكم معاً ، أن عمد إلى معالجة المشكلة الصليبية الرابضة بجيوشها فى دمياط عن طريق المفاوضة

والمصالحة ، بشرط جلاء الصليبيين عن الشواطىء المصرية ، مقابل أن يعيد إليهم الكامل مدينة بيت المقدس ، ومعظم البلاد التى أخذها منهم صلاح الدين ، أى مملكة بيت المقدس الصليبية كلها إلا قليلا . غير أن الصليبيين لم يرضوا بهذا العرض السخى ، لعدة أسباب اقتصادية عسكرية دينية ، وأصروا على رفضه رغم تكراره من جانب الكامل الذى خشى أن تنصرف قوته إلى الصليبيين ، فيفترص أقاربه من أبناء صلاح الدين الفرصة لهدم سلطنته فى مصر .

وفى أثناء هذه المفاوضات جاء إلى المعسكر الصليبى رجل يناهز الخامسة والعشرين من العمر ، بالى الثياب ، خالى الوفاض ، بادى الأنفاض ، لا يملك بلغة ، ولا يجد فى جرابه مضغة ، وليس فى مظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل . كان هذا الرجل هو القديس فرنسيس ، وهو إيطالى من بلدة أسيسى بأقليم أمبريا بأواسط إيطاليا ، حيث كان أبوه تاجراً من مياسير تجار الأقمشة . ونشأ فرنسيس فتى عارما معطاء بما يغدق عليه أبوه من مال ، عاشقاً للفروسية وحياة الجندية وما فيهما من مرح وصخب واستهتار . ثم طرأ على حياته ما غيّره تغييراً كليا ، إذ اشترك ذات يوم فى معركة بين بلدته أسيسى وبلدة پيروچيا المجاورة ، فوقع أسيراً فى أيدى الپيروچيين ، وبقى فى أسره مدة مرض فى أثنائها مرضاً برّح به ، وأراه الحياة على حقيقتها الغرارة ، كما كشف له عن صفات العبقرية فى نفسه ، وهى الصفات التى وضحت نزواتها فى فتوّته ، ثم وضحت فى رجولته فى صورٍ أخرى ، من حب خالص ، وبساطة متناهية ، مع سرعة الاستجابة لآلام الغير . وألفى فرنسيس أن العالم الإيطالى المسيحى بحاجة إلى التطهر والتوبة ، بعد أن شهد الكنيسة البابوية - وهى رأس العالم الأوربى المسيحى كله - تجرى وراء مشاريع دنيوية ضخمة ، فانطلق على وجهه فى إيطاليا عارى القدمين يدعو إلى بساطة المسيحية الأولى ، واتخذ الفقر والطاعة والطهر شعائر معدودة ، وألف من أتباعه ومريديه جماعة الإخوان الفرنسسكانيين ، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء ، أو الفقراء الرماديين إشارة إلى لون طيالسهم ، أو الفقراء من غير صفة ما .

ثم لم يلبث أولئك الإخوان أن انتشروا فى أنحاء إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا ، بل أوغلوا فى البلاد الإسلامية للتبشير ، فتنقلوا بين مراكش وتونس ، ووعظوا أخلاط العامة فى موانى مصر والشام ، ولقوا من بعض الجاليات والطوائف المسيحية بتلك البلاد أسوأ مما لقوا من المسلمين . وأراد القديس فرنسيس أن يسهم فى هذه الحركة التبشيرية المبكرة ، وأن يستعين بوجود الصليبيين فى بعض تلك البلاد ، أو أن يعينهم هو بلسانه وبيانه وإيمانه ، ظنا منه أن المعسكرات الصليبية مجامع للتقوى والورع وخدمة الدين . ووصل فرنسيس إلى دمياط ، فوجد طوائف الصليبيين بها على غير ما خالهم من الصلاة والحماسة الدينية ، كما وجدهم مختلفين حول قبول عروض السلطان الكامل للجلاء عن دمياط أو قبول مشروع الزحف من دمياط إلى القاهرة ، تحقيقاً لفكرة القضاء على مركز المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين فى الشرق . ونصح فرنسيس بقبول عروض السلطان الكامل والمسالمة حقنا للدماء ، فلم تلق نصيحته مجيبا ، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين . حيث قبض عليه الحرسية دون أن يبدى مقاومة ، وهو يتكلم كلاما لم يفهم أحد منهم عنه شيئا سوى لفظ « السلطان » يريد بذلك أنه يرغب فى المثول بين يدى الكامل محمد . وأخيراً وجد فرنسيس نفسه فى حضرة الكامل وحاشية قليلة من قادته وتراجمته ، فشرح سبب قدومه إليه ، واستأذنه أن يعظه ويصف له المسيحية ويدعوه إليها ، فإذن له واستمع فى دماثة المتمكن من عقيدته المحترم لعقيدة غيره . ولم ينل فرنسيس فى موعظته من النبي عليه الصلاة والسلام ، مثلما ينال أغلب المحدثين من المبشرين المسيحيين حتى العصر الحاضر ، بل اقتصر على وصف المسيحية وفضائلها عنده ، لامكراً ولا مجاملة ولا استدراجا للسلطان الكامل كما ظن بعض المعاصرين ، بل اعتقاداً منه — فيما يبدو — أن للأنبياء والرسل حق الاحترام من الناس جميعا على اختلاف دياناتهم ، وأن الفضيلة ليست احتكاراً لدين دون غيره من الأديان .

وليس فى هذا تحميل للقديس فرنسيس ما ليس من مستوى العصور الوسطى ، فإنه لم يكن فى هذه الناحية من نتاج تلك العصور وعقليتها الحرفية الجامدة ، بدليل

دعوته الصليبيين للسلم دون الحرب ، وهو ما لم يدعُ إليه وقتذاك إلا الأقلون من الجانبين ، وبدليل قصده السلطان الكامل ، ووعظه وإشادته بفضائل المسيحية فى حضرته .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات هنا أن السلطان الكامل لم يجادل القديس فرنسيس فيما قال ، ولم يستدع أحدا من علمائه لمجادلته ، بل اكتفى بالمبالغة فى إكرامه . واكتفى القديس فرنسيس بدوره بالإمعان فى إطراء السلطان ، بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين ، وبعد أن طلب إليه إعطاء الإخوان الفرنسسكانيين سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس . ثم استأذن فرنسيس السلطان فى الاتصال بعسكره والحديث إليهم ، فأذن له ، وهو أمر لا تستطيعه الحروب الحديثة وأسلحتها السرية الفتاكة . وظل فرنسيس يتقلب فى معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل ، فرده الكامل محروساً إلى أطراف معسكر الصليبيين . ورجع فرنسيس إلى أصحابه ليخبرهم بما شهد وسمع من أحوال المسلمين وسلطانهم ولينذرهم بما عساه يتطوّر إليه مشروع الزحف من دمياط إلى القاهرة ، وليكرر عليهم فوائد عروض السلطان الكامل لكنه وجد النية منعقدة على الحرب ، وهى عكس ما أراد أن يسهم به ، فاقتنع بألا مصلحة فى مقامه ، ونفض تراب المعسكر الصليبى عن قدميه - على قول التعبير المجازى الأوربى - ويمم نحو الشام وفلسطين بإذن من السلطان الكامل ، حيث أقام بضع سنوات ليؤسس للإخوان الفرنسسكانيين نواة أعمالهم فى سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس .

وفى أواسط سنة ١٢٢١م ، والنيل على وشك الامتلاء بمياه الفيضان السنوى المبارك ، تحرك الصليبيون من دمياط ، حسبما انعقدت عليه نياتهم البليدة ، لأنهم لم يصلوا إلى قرارهم هذا إلا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم فيه . وقبالة بلدة طلخا الحالية ، وشمالى المعسكر الإسلامى عند بحر أشموم طناح ، توقفت القوات الصليبية فى البر والبحر تمهيداً لدفع المسلمين إلى الوراء ، وإزالتهم عن الطريق نحو القاهرة ، ولم يكن يفصل بينهم وبين المسلمين سوى هذا البحر الذى سمى

« البحر الصغير » فيما بعد . وبدا جيش السلطان الكامل أحسن مكانا وإمكانا وجمعاً واستعداداً من ذى قبل عنـد المنزلة العادلية قبالة بورة ، فإن الأرض التى سوف يلتحم عليها الفريقان ذات قنوات وترع كثيرة يعرفها المسلمون ولا يعرفها الصليبيون ، والجيش الأيوبى خلو من المؤامرات والدسائس التى أقلقت الـكامل قبلا وأضعفت محاولاته لإنقاذ دمياط ، وأبناء البيت الأيوبى من إخوة الـكامل وأقاربه صاروا إلى جانبه بنجداتهم . ثم التحم الفريقان واشـتد القتال بينهما ، وقامت البحرية الأيوبية النيلية بدور هام ، إذ استولت على بضع سفن صليبية كبيرة آتية بالمؤونة وأدوات القتال من دمياط ، وأسرت معظم رجالها . وأبحر عدد من السفن الأيوبية فى بحر المحلة ، وهو فرع قديم كان يخرج وقتذاك من النيل قرب بنها ، ويلتقى به شمالى طلخا الحالية ، أى قبالة ميـدان القتال بين الصليبيين والمسلمين ، لحالت هذه السفن بين الصليبيين وما سوف يهبط إليهم من النجدات عن طريق النيـل من دمياط . ثم أمر الـكامل بقطع جسر النيل شمالى طلخا ، فضلا عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء وركب مساحة شاسعة من الارض شمالى مواضع الصليبيين ، فصارت هذه المساحة المائية على جانبى النيل حائلا بينهم وبين دمياط ، ماعدا طريق ضيق عند أشموم طناح سدّه الـكامل كذلك بعدد من عساكره . هـكذا انحصر الصليبيون ، وذهبت آمالهم فى الزحف جنوباً نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً شمالا نحو قاعدتهم فى دمياط ، فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وسائر أثقالهم ، واهتبلوا فرصة المستميت للانسحاب فى جنح الظلام ، لعلهم واجدون لأنفسهم مخرجا فى سواد الليل ، لحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا يأس موقفهم .

عند ذلك ـ وليس قبله ـ انقلب الصليبيون إلى عروض السلطان الـكامل يرجون السماح لهم بالعودة إلى دمياط للجلاء عنها فى غير قيد أو شرط أو مساومة ، وذلك بعد أن طلبوا الأمان . وعقد السلطان مَشُوَراً لتقليب الرأى فيما تنبغى الإجابة به على الصليبيين ، فأشار عليه بعض قادته وأهله من البيت الأيوبى أن يخلّى بين الصليبيين ومأزقهم حتى تنفد أقواتهم وقواتهم ، فتتفشى بينهم المجاعة ويأكل بعضهم

بعضا ، أو يأكلهم الطاعون . وأشار بعض آخر بإعطاء الصليبيين الأمان ، من باب العفو عند المقدرة ، وإن كان هذا من غير المألوف فى أبواب السلوك عند قادة الحروب فى كل العصور . وبرهن الكامل على أنه منطق مع نفسه ـ وتلك صفة من الصفات التى لم تذكرها كتب التراجم ، حين مال كل الميل إلى الرأى الثانى ، وهو على أية حال رأيه الأصيل منذ مجىء الصليبيين إلى الشواطى المصرية . ثم إنه رأى أن اكتساب معركة ديبلوماسية أجدى عليه من ظفر بمعركة حربية ، ربما أعقبتها هزيمة على يد نجدات أوربية علم الكامل باحتمال وصولها ، قبل أن ينتهى موسم القتال . ولذا بعث إلى الصليبيين يخبرهم بأمانه واستعداده لجلائهم آخر الأمر عن دمياط ، ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط أواسط سنة ١٢٢١ م ، بعد أن جلا الصليبيون عن الأراضى المصرية وسواحلها جلاء ناجزاً لاعوج فيه ولا تسويف أو تزييف ، دون استهتار بكرامة الصليبيين ، أو إهدار لحقوق أمانهم العام . واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مدتها ثمانية أعوام ، وعلى أن يطلق كل منهما طوائف الأسرى عنده . هكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة فى تاريخ تلك الحروب .

وتسامع الشرق والغرب بأخبار هذه الحملة التى هدفت إلى إصابة المسلمين فى مقتلهم بمحاولتها الاستيلاء على مصر ، وهال المعاصرين أن تستولى الحملة على ثغر دمياط ، كما هالهم أن يرفض الصليبيون عروض السلطان الكامل للجلاء عن مدينة واحدة بالغة ما تبلغ فى الأهمية مقابل تسليمهم معظم مملكة بيت المقدس ؛ ثم هالهم أن تنتهى الحملة إلى ما انتهت إليه ، وأن ترجع بخفى حنين ، لا أقل ولا أكثر .

وسمع القديس فرنسيس وهو لا يزال بالشام بتلك النتيجة الخائبة التى أراد أن ينقذ الصليبيين منها ، بعد ما رأى من أحوال المسلمين وسلطانهم . وتندر المتندرون بغفلة زعماء هذه الحملة ، وعكف الدعاة للفكرة الصليبية على إثارة الناس لحملة صليبية فى المستقبل القريب ، تحقيقاً لفكرة الاستيلاء على مصر . ولم يركن لسياسة السلطان الكامل القائمة على قاعدة الاتفاق والحسنى بين الصليبيين والمسلمين سوى رجل واحد ، هو فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، إمبراطور الدولة الغربية ؟

[ للبحث بقية ]

# الزيدية باليمن

لحضرة الأستاذ الفاضل محمد بن اسماعيل العمرانى

مدرس الحديث بدار العلوم بصنعاء اليمن

---

لقد جهل كثير من المسلمين عقيدة إخوانهم ( الزُّيود ) الذين يقطنون الشمال الشرقى من بلاد اليمن جهلا عظيما ، كان من نتائجه السيئة أن رموهم بالابتداع فى الدين ، والشذوذ فى الرأى ، والمخالفة فى المأخذ للأحكام الشرعية ، حيث تركوا دراسة كتب الحديث الشريف المشهورة ، ورغبوا عن الاحتجاج والعمل بما فيها مستبدلين بها غيرها من الكتب المجهولة التى لا يعرفها علماء الحديث ولا يعترفون بها ، هكذا رموا من بعض إخوانهم جهلا ، كما رموا من بعض آخر بالجمود والتعصب المذهبى ، والبغض للسلف الصالح من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

والحق أن الزيدية لم يشذوا فى آرائهم عن آراء إخوانهم المسلمين ، كما أنهم لم يشذوا فى طريق الأخذ والاحتجاج ، بل هم أقرب المذاهب إلى مذاهب أهل السنة والجماعة ، لا سيما مذهب الإمام أبى حنيفة رضوان الله عليه ، والبرهان الصحيح على هذا هو مجموع الإمام زيد بن على نفسه ، فإن من اطلع عليه منفرداً أو مع مراجعة شرحه ( الروض النضير ) عرف حق المعرفة صدق ما قلته ، من أنهم لا يخرجون فى الغالب عن مذاهب الأئمة الأربعة عموماً ، ومذهب الحنفية خصوصاً ، كما اعترف بذلك بعض محققيهم ممن اطلع على المجموع وشرحه ، وهكذا القول فى فروعه كالمذهب الهادوى والقاسمى والناصرى والهارونى وغيرها من المذاهب

الفقهية اللاتى تفرعت من مذهب الإمام الأعظم زيد بن على عليه السلام ، فإنها مهما اختلفت عن أصلها فى بعض من المسائل الفقهية اليسيرة ، أو خالف بعضها بعضاً فى شىء من ذلك ، نراها تتفق كثيراً مع أصلها فى عدة مسائل كثيرة كبرى وتوافق غيرها من المذاهب الإسلامية الأخرى ، كما وافقها أصلها ، لأنها فرق متفرعة عنه ، ومتولدة منه ، ولا تخرج عنه إلا نادراً ، لا سيما المذهب الهادوى ، الذى أسسه إمام اليمن الإمام الهادى يحيى بن الحسين رضوان الله عليه ، وتمذهب به زيدية اليمن ، وظل المذهب الرسمى للحكومة اليمنية أكثر من ألف عام ، وهو أيضاً كأصله فى الموافقة غالبا لما عليه المذاهب الإسلامية الأخرى وعلى الخصوص مذهب الحنفية الذى يتمذهب به كثير من المسلمين ، وتمذهب به كثير من دول الاسلام وحكوماته قديماً وحديثاً ، وظل المذهب الرسمى للحكومة المصرية حتى الآن ، وكتب الهادوية شاهدة على ما قلته من الموافقة ، حتى كان بعض أئمة الهادوية يرى الأخذ من أقوال أبى حنيفة - إذا لم يجد للهادى نصاً فى أية مسألة فقهية - مذهباً للإمام الهادى وهذا أكبر دليل على أن المذهب الحنفى والمذهب الهادوى أخوان. بل يمكن أن أصرح للقارىء بأن المذهب الحنفى أقرب إلى المذهب الزيدى أو الهادوى منه إلى المذهب الحنبلى ، نعم ربما تفردوا بأقوال قد لا يوافقهم عليها أحد من أئمة المسلمين ، ولكن فى مسائل جزئية محصورة ، تعد بالأصابع ، لا تخرجهم إلى البدعة ، ولا توجب نبزهم بالشذوذ والابتداع .

وكم من عالم شذّ فى بعض أقواله العلمية ، وآرائه الفقهية ، واغتفروا له ذلك الشذوذ ، ولم يخرجوه من دائرة السنة إلى البدعة ، ولم ينبزوه بالشذوذ والابتداع .

وهم أيضا أبرياء مما اتهمهم البعض به ، من عدم دراستهم لكتب الحديث الشريف ، وعدم العمل والاحتجاج بما فيها ، كيف لا وهذه كتبهم أكبر برهان على رد هذه التهمة التى ليس لها مستند سوى توهم أن تفردهم برواية كتب حديثية رويت لهم من طريق أهل البيت مما يدل على جهلهم بكتب الحديث المشهورة المتداولة لدى جماهير المسلمين ، والواقع أنهم جمعوا بين الدراسة لكتب أهل البيت النبوى

كالمجموع الفقهى والتجريد والأماليات ، وبين الدراسة لكتب المحدثين كالأمهات الست وما يتبعها من المسانيد والمجاميع والمعاجيم ، وأعظم البراهين على قراءتهم لها وعملهم بأدلتها ، ونقلهم عنها ، واحتجاجاتهم بها فى مؤلفاتهم الفقهية ، لاسيا مؤلفات متأخريهم كالإمام القاسم بن محمد فى ( الاعتصام ) والسيد أحمد بن يوسف زباره فى ( أنوار التمام ) والسيد حسن الجلال فى (ضوء النهار) والقاضى حسين السباعى فى ( الروض النضير ) وهكذا غيرهم كمن اعتنى بالتخريج لكتبهم من كتب المحدثين كالضَّمدى فى تخريجه أحاديث الشفاء ، وابن بَهران فى تخريجه أحاديث البحر الزخار . ويؤيد برهاننا هذا ما نراه فى تراجم علمائهم عموما والمتأخرين منهم خصوصا ، من أخذِهم عن مشايخ مذهبهم كتب أهل البيت أولا ، وكتب أهل الحديث ثانيا ، بل ربما أخذوا فى كتب الحديث عن غير مشايخ مذهبهم من شافعية وأحناف ، وحسب القارىء أن يتصفح ماقد طبع بالقاهرة من تراجم علمائهم ( كالبدر الطالع ) و ( الملحق التابع ) و ( نيل الوطر ) و ( نشر العرف ) وغيرها .

وهكذا مما يؤيد ما ذكرته مايراه القارىء فى مؤلفات متأخريهم التى جمعوها فى الأسانيد والأجايز والاثبات ، ويكفيه ماقد طبع منها فى الهند ومصر كإتحاف الأكابر و( العقد النضيد ) وكلها مؤيدة لما ذكرته من غزارة معين علومهم الدينية ، وسعة دائرة معارفهم الفقهية حيث جمعوا بين علوم أهل البيت النبوى وعلوم أهل الأثر والحديث أخذاً وتدريساً وعملا واحتجاجا ، وهذا إن دل على شىء فهو براءتهم مما اتهموا به من قصورهم فى معرفة كتب المحدثين ، ورغبتهم عن العمل بما فيها ، كما يدل فى نفس الوقت على نهمهم العلمى وتحررهم الفكرى تحرراً مقرونا بالتسامح والانصاف ، ولو عرف الذين يتهمونهم بهذه التهمة حقيقة أمرهم لجعلوا تفردهم برواية هذه الكتب حسنة من حسناتهم لا سيئة من سيئاتهم ، على أنه قد يوجد منهم من لا يأخذ ولا يدرس كتب الحديث الشريف ، ولا يرى العمل بما فيها ، ولكنه قليل نادر يتضاءل أمام الكثير الغالب تضاؤلاً يمنع من الحكم على جميعهم بذلك .

وهم لا يتعصبون على غيرهم ممن يخالفهم فى الفقه الاسلامى من إخوانهم المسلمين ممن يتعبد بأى مذهب إسلامى إذا كان خلافه فى المسائل الفقهية اللاتى لايخل الخلاف فيها بجوهر الدين أى إخلال ، وكتبهم الأصولية والفروعية دالة أكبر دلالة على براءتهم من التعصب المذهبي ، وعلى إحسانهم الظن بكل من يخالفهم خلافا فقهياً ما دام لا يمس الدين ، ولا يخل بأصل من أصول الاسلام الكبرى .

وهاك بعضاً من قواعدهم الأصولية والفروعية المنصوص عليها فى أكبر مؤلفاتهم وأشهرها ، مثل قولهم :

« الاجتهاد جائز لمن حقق علوم الاجتهاد الخمسة المذكورة فى علم الأصول » .

« لكل مجتهد نصيب » .

« إذا اختلف مذهب إمام الصلاة ومذهب المؤتم به فالامام حاكم » .

« لا إنكار فى حكم مختلف فيه » .

« لا يكون التكفير والتفسيق إلا بدليل قاطع » .

« حكم الحاكم بين الخصمين يقطع النزاع مهما كان مذهب الحاكم ، وكيفما كان مذهب الخصمين » .

« الجاهل الصرف الذى لايعرف عن المذاهب شيئا مذهبه مذهب من وافق » .

« كل مسألة خلافية خرج وقتها فلا يجب على المكلف قضاؤها ولو أداها مخالفة لمذهبه مهما كان الخلاف قد وقع فيها لمصادفة فعله قول قائل من علماء المسلمين » .

وغير ذلك من القواعد الكلية الكبرى الدالة على ما ذكرته آنفا من أنهم على قدر كبير من التسامح المذهبي .

على أنه قد يوجد فى بعضهم شىء من التعصب المذهبي ، ولكنه فى الغالب

يكون فى العامة الذين لا يعرفون عن أصل مذهبهم شيئا ، وربما وجد فى بعض الخاصة ، ولكنه وجود نادر قد يكون لأسباب خارجية لاعلاقة لها بأصل المذهب ، كما يوجد مثل ذلك فى جميع المذاهب الاسلامية من بعض الأفراد الذين قل أن يخلو عنهم مذهب من المذاهب كما نطقت بذلك كتب التاريخ .

وهم أيضاً لا يجمدون على مانصه إمام مذهبهم ، بل طريقتهم أنهم إذا رأوا فى أية مسألة أن غير إمامهم أرجح دليلا منه أخذوا بقوله غير مستنكفين ولا آنفين فى الميل عن إمامهم إلى إمام آخر من أئمة المسلمين ما دام هذا الامام قد تمسك بدليل أرجح من دليل إمامهم ، بل إن البعض منهم يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، ويتخذ هذه الأحكام المستنبطة مذهباً له غير عالم بمن قد سبقه إلى هذا المذهب ، و بمن قد وافقه على هذا الرأى ، وذلك كله نتيجة لفتحهم باب الاجتهاد المطلق الذى كان قد أوصده الجمهور على أنفسهم بلا دليل ، ولذلك نرى كثيراً منهم يذهبون إلى آراء قد توافق إمام مذهبهم ، وقد لا توافق ، وقد يكون فيها مرجحاً لمذهب عالم سنى ، وقد يكون رآه ابتداء ، وذلك كالإمام يحيى بن حمزة مؤلف ( الانتصار ) وغيره ، والامام عبد الله بن حمزة مؤلف ( الشافى ) وغيره ، والامام المهدى أحمد بن يحيى مؤلف ( البحر الزخار ) وغيره ، بل جاء بعدهم من فتحوا باب الاجتهاد المطلق على مصراعيه غير هيابين ولا خائفين ولا وجلين ، ودخلوا منه غير هيابين ولا مبالين بمخالفة أى عالم مهما كان علمه مادام لم يكن قد تمسكوا بالكتاب والسنة ، فتركوا المذاهب الفقهية والأصولية والكلامية أجمع ، ورجعوا إلى أصول الدين الاسلامى وأدلته الشرعية الصحيحة ، وأعلنوا اجتهادهم المطلق أصولا وفروعا وكلاما وتفسيراً وحديثاً وفقهاً فى عصور عز الاجتهاد فى واحد منها ، أولئك أمثال السيد محمد بن إبراهيم الوزير مؤلف (العواصم والقواصم) و ( إيثار الحق على الخلق ) و ( والروض الباسم ) و ( ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ) و ( البرهان القاطع ) و ( تنقيح الأنظار ) وغيرها من المؤلفات القيمة ، والشيخ صالح المقبلى مؤلف (العلم الشامخ فى إيثار الحق على الآباء

والمشايخ ) و(الأرواح النوافح ) و (المنار على البحر الزخار ) و ( الاتحاف لطلبة الكشاف ) وغير ذلك . والسيد حسن الجلال مؤلف ( نظام الفصول ) و ( ضوء النهار ) و ( العصمة عن الضلال ) ، وغيرها . والسيد محمد بن اسماعيل الأمير الصنعاني، مؤلف ( سبل السلام ) و ( منحه الغفار ) و ( العدة ) و ( التحبير ) و ( الروضة ) وغيرها ، والقاضي محمد الشوكاني صاحب المؤلفات القيمة ، التي لو لم يكن منها إلا ما قد طبع لكفته فخراً ، فكيف والكثير منها لم يطبع ، فمن مؤلفاته المطبوعة ( نيل الأوطار ) و ( الدرارى المضيَّة )و ( تحفة الذاكرين ) و ( القول المفيد) و( فتح القدير ) و( إرشاد الفحول ) وغيرها ، فلله دره من مذهب أنجب أمثال هؤلاء العلماء فى عصور ساد فيها التقليد والجمود وعز فيها التحرر الفكرى ، وسد باب الاجتهاد .

ومهما يكن من الأمر فإن زيدية اليمن ليسوا كما يتوهم الكثير ممن يجهل حالهم وفقههم ، بل هم إن قلدوا فإنما يقلدون أئمة مذهبهم الذى لا يخرجهم عن مذاهب إخوانهم أهل السنة ، لا سيما الأحناف ، وإن اجتهدوا وتحرروا ، فاجتهادَ الوزير والمقبلى والأمير والجلال والشوكانى ، هؤلاء العلماء الذين لا يعرف أحد قدرهم إلا بعد أن يحيط علماً بجميع مؤلفاتهم القيمة ، وهم كغيرهم من أهل المذاهب الإسلامية الأخرى فى التولى للخلفاء الراشدين ، والتعظيم لهم بصفتهم وزراء النبى صلى الله عليه وسلم وأعظم مناصريه ، ومن انتقصهم منهم ، فهو إما من العوام الجهال ، أو من الخاصة المتعصبين .

والدليل الصحيح على هذا هو ما نراه فى كتبهم الكثيرة اللاتى ألفها أكبر علمائهم ، من النقل عن جماهير أئمتهم وعلى رأسهم إمام مذهبهم الأكبر الإمام زيد بن على رضوان الله عليه ، من وجوب التولى والحب والتعظيم ، لجميع الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ، وحسب القارىء أن يتصفح منها ما قد طبع بمصر من المؤلفات القيمة اللاتى تبين لهم صدق ماقلته من براءتهم من كل ما اتهموا به من رفض وابتداع ، أذكر منها على سبيل المثال : ( الرسالة الوازعة للمعتدين ) المطبوعة

بالقاهرة ، ومجموعة ضمن الرسائل اليمنيـة اللاتى طبعت منذ عشرين عاما تقريبا ، وهى للإمام يحي بن حمزة اليمنى الزيدى .

وحاصل هذا المقال ، هو أن من تجرد من أثواب التعصب المذهبي ونظر فى مؤلفات زيدية اليمن عموما ، وفيما قد طبع منها خصوصا ، لا يخرج منها إلا مؤمنا أعظم إيمـان بأن إخوانه ( الشيعة الزيدية ) ليسوا كما أشيع عنهم جهلا من الشذوذ والابتداع فى الرأى والعقيدة والرواية والمأخذ ، كما أنهم أيضا بريئون من الجمود والتعصب المذهبي الذى طالمـا رموا به ، بل إنهم كغيرهم من إخوانهم المسلمين رواية وأخذا للشريعة الإسلامية من دواوينها المشهورة التى دونهـا أئمة الحديث وحفاظه المشهورون ، كما أنهم أيضا كغيرهم من المسلمين انصافا وتسامحا وحرية وحبا للسلف الصالح من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وتوليا لخلفائه الراشدين ، وفى الوقت نفسه يؤمن أكمل إيمـان بأنهم من أبعد المسلمين عن البدعة ، وأقربهم إلى السنة ، وأن المذهب الزيدى ، والمذهب الحنفى أخوان ، ومهما تخالفا فلن يخرج المذهب الزيدى عن أى مذهب من المذاهب الإسلامية الأخرى ، وهكذا ما تفرع عنه من فرق ومذاهب ، حكمها حكمه خصوصا المذهب الهادوى منها ، وقد يشذ هذا الأخير وينفرد بأقوال لا يوافقه عليها غيره مطلقا ، ولـكنه انفراد يسير فى مسائل جزئية محصورة .

وهكذا صار واضحا أن ما أشيع عنهم ، هم منه برآء ، ومهما وجد بعض من ذلك ، فلن يتجاوز عدداً مخصوصا من متطر فى فقهائهم يتضاءل أمام الجم الغفير من علمائهم الذين ترى أقوالهم العلمية مسجلة على صفحات الـكتب بروح عظيمة من التسامح والانصاف والتحرر الفـكرى ؟

# صدق العاطفة
## في الشعر الشيعي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
المدرس فى كلية اللغة العربية

---

كل مسلم شيعى ؛ وكأن الشاعر الذى يقول :

حُبُّ آل النبي خالط قلبي   كاختلاط الضيا بماء العيون

إنما يترجم عن عاطفة كل مسلم ؛ وهل التشيّع إلا حب آل محمد ؟ ومن هذا الذى لا يحب آل بيت رسول الله الألى أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ؟

مَلامَك فى أهل النبي فإنهم   أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
تخيرتهم رُشْداً لأمرى فإنهم   على كل حال خيرةُ الخيَرَات
فيارب زدنى من يقينى بصيرة   وزد حبهم يارب فى حسناتى (١)

هذا الحب الذى هو شعبة من شعب الاسلام ، ظاهَرَهُ عواطفُ أسى عميقة على ما أصاب أهل هذا البيت من كوارث ، وما اصطلح عليهم من محن ، وما اعتورهم من نكبات ، فى مختلف الأوطان والعصور الإسلامية ، مما جعل حديثه شجَى كل نفس ، ولوعة كل قلب ؛ ولم يلطف من طغيان هذه العواطف ، أنّ آل البيت أنفسهم كانوا هم المغامرين دائما ، بطلبهم للخلافة ، واستبسالهم فى سبيل الوصول إليها ، ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر ؛ وإذا كانت النفوس كبارا ، تعبت

---

(١) دعبل الخزاعى .

الأجسام فى مرادها ؛ بل زادها اشتعالا وتأججاً ، أن المبالغة فى التنكيل بهم أظهرتهم فى مظهر المظلومين المعتدى عليهم ، فكان العطف عليهم أعم ، والتأثر لمصابهم أوجع .

هذه العواطف غير المشوبة ، ولا المصطنعة ، أضفت على الشعر الشيعى كله لوناً حزيناً باكياً ، تحته جَيَشَانٌ نفسى ثائر ؛ ذلك لدمهم المطلول ، وهذا لحقهم الممطول ، وبين هذا وذاك ، فخر يَفرع السماء بِرَوْقيه ، ومجد يطاول الأجيال ، فكن ناصِبِياً ، أو أمويا ، أو خارجيا ؛ قحطانيا أو عدنانيا ؛ واقرأ شعر الشيعة ، فإنك — بلا ريب — واجد فيه مصداق ما أجملت .

ولئن قيل إن مصرع الحسين بن على رضى الله عنهما ، على مبلغ فجيعته ، لم يُؤْثر فيه شعر يستحق أن يُرْوَى ، وهذا حق ، لقد كان ذلك لتهيب الشعراء جانب بنى أمية ، وخشية قوارعهم .

* * *

هؤلاء ثلاثة من فحول الشعراء العباسيين ، أحدهم عباسى ، والآخران شيعيان يتناولون معنى واحدا ، فيختلفون فى أدائه اختلافا واضحا ، ويختلف أثره فى النفوس كذلك اختلافا واضحا ، ولكن الذى لا يشتبه ولا يختلف هو أصالة العاطفة فى بعض ، واصطناعها فى بعض .

يقول الكميت بن زيد ، محتجا لبنى هاشم على بنى أمية فى إحدى هاشمياته :

بخاتِمكم غصبا تجوز أمورهم  فلم أر غصبا مثله يُتَغَصَّب

ويقول مروان بن أبى حفصة ، محتجا لبنى العباس على الطالبيين ، فى لاميته التى مطلعها :

طرقَتْك زائرةٌ فحى خيالها  بيضاءُ تخلط بالدلال جمالها

والتى يقول يونس بن حبيب لمروان : إنها أجود من لامية الأعشى ، التى مطلعها :

رَحلَتْ سُمَيةُ غدوةً أجمالها  غضْبى عليك ، فما تقول بدالها ؟

فيقول مروان : إنك تهزأ بى ، فيقول يونس : لا . إنه يقول فيها : فأصبْتُ حبةَ قلبها وطِحالها ، و « طحالها » لا يقولها شاعر . يقول مروان :

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم ، أم تحجبون هلالها ؟
أم تجحدون مقالة من ربكم ... جبريل بَلَّغها النبى فقالها ؟
شهدت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتمو إبطالها !(١)

ويقول مروان محتجا أيضا فى قصيدة أخرى :

الوحىُ بين بنى البنات وبينكم ... قَطعَ الخصامَ ، فلات حين خصامِ
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
أنّ يكون ، وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام
ألغى سِهامَهمُ الكتاب فحاولوا ... أن يشرعوا فيها بغير سهامِ

ويقول دعبل الخزاعى :

ألم تر أنى مذ ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فَيْئَهُمْ فى غيرهم متقسّما ... وأيديَهم من فيئهم صَفِرَاتِ

* * *

أنظر كيف سما الكميت بالمعنى ، فجعل أمور بنى أمية ، إنما تنفذ بالخاتم الهاشمى الذى غصبوه غصبا لم يعهد فى الغصب له نظير ، وما هذا الخاتم غير الخلافة ! فهو ينعى على الأمويين أنهم يحكمون باسم الهاشميين ظلماً وعدوانا ، لا أنه يريد أن يثبت حق الهاشميين فى الخلافة ، فذلك مقرر مفروغ منه ، لا ينتطح فى الخلاف فيه عنزان ! .

وكذلك يفعل دعبل ، فهو يكنى بالفىء عن الخلافة ، ويضيفها اليهم مرتين ؛ وكما عجب الكميت لذلك الغصب الغريب ، تحسر دعبل على تقسم الفىء فى غيرهم

(١) يريد قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

من زبيريين وأمويين ؛ سفيانيين ومروانيين ، ثم عباسيين ؛ وخلوّ أيديهم من ذلك الفيء !

وكلا النسقين فى أسلوب الكميت ودعبل ، نسق شعرى بالغ الجودة ، رائع الأداء ، ينبض حركة ، ويسمو روحا .

فأما مروان ، فقد مضى بلاميته مُدَوِّيَة رائعة ، ساحرة ، حتى إذا انتهى إلى الاحتجاج ، خرج بها إلى الفقه ! فأسفَّ وسَفْسَفَ ، معنى وأسلوبا ، وفقد كل أثر شعرى كانت تزخر به قصيدته قبل ذلك . ولكى تلمس اختلاف النسق واضحا ، أروى لك ما سبق الاحتجاج ، فليس بعد العِيان بيان ، قال :

أحيا أميرُ المؤمنين محمدٌ سُنَنَ النبى : حرامَها وحلالَها
ملك تفرّع من ذؤابة هاشم مدَّ الإلهُ على الأنام ظلالَهَا
ثَبت على زَلَلِ الحوادث راكب من صَرْفِهن لكل حال حالهَا
كلتا يديك جعلْتَ فضلَ نوالها للسلمين ، وللعدوّ وبالها
هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أم تسترون هلالها ؟
أم تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبىَّ فقالها ؟
شهدت من الأنفال آخر آية بتراثهم ، فاردتمو إبطالها

أنظر كيف هبط الشعر هبوطاً واضحا فى البيتين الأخيرين : هبط فى المعنى ، إذ هو معنى على جاف ، وهبط فى اللفظ ، فأسلوبه أسلوب مفكك مضطرب الضمائر، قافيته « إبطالها » وهى كلمة فقيه ، لا كلمة شاعر! ثم أىّ آية لم يبلغها جبريلُ النبيَّ فيقولها ، حتى يحتاج الناس إلى أن يعرفوا أن جبريل بلغها النبى ، وأن النبى قالها ، إننا نعرف أن جبريل بلغ النبى كل آية ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد بلغها ! وقالها !

أما أبياته فى القصيدة الأخرى ، فهى مسألة من « مسائل علم الميراث » . وما أهون الخلافة إذا دخلت فى « علم الميراث » . وصلى الله وسلم على من قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .

وعلى الجملة : إن شعراء الشيعة يدلون بطابع النبوة الذى يميز الطالبيين ، وهذا من صنع السماء ؛ أما غيرهم فيطبق أحكام الفقه ، وهى من صنع الأرض . وأين الأرض من السماء ؟!

* * *

ومن أروع المثل على ذلك ، ما رواه أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمة يحيى ابن عمر بن الحسين بن على رضى الله عنهم ، الخارج فى أيام المستعين العباسى ، قال:

وكان رضى الله عنه رجلا فارسا شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب ، بعيداً عن رهق الشباب ، وما يعاب به مثله ؛ وكان مقيما ببغداد ... وكان له عمود حديد ثقيل ، فربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه ، فيلوى العمود فى عنقه ، فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضى الله عنه ... قال : وما بلغنى أن كثيراً ممن قتل فى الدولة العباسية من آل أبى طالب رثى بأكثر مما رثى به يحيى بن عمر ، ولا قيل فيه كبعض مما قيل فيه . واتفق فى وقت مقتله عدة شعراء مجيدون للقول فى هذا المذهب ، إلا أنى ذكرت بعض ذلك كراهية الإطالة . فمنه قول على بن العباس الرومى يرثيه ، وهى من مختار ما رثى به بل ، إن قلت أنها عين ذلك ، والمنظور إليه لم تكن مبعدا ، لولا أنه أفسدها بأن جاوز الحد ، وأغرق فى القذع ، وتعدى المقدار ، بسب مواليه من بنى العباس ، وقوله فيهم من الباطل ما لا يجوز لأحد أن يقوله ، وهى :

أمامَك فانظر أى نهجيك تنهجُ ؟ ... طريقان شتى : مستقيم وأعوجُ
ألا أيُّهذا الناس طال ضراركم ... بآل رسول الله فاخشَوا أو ارتجُوا
أفى كل يوم للنبى محمـد ... قتيل زكى بالدماء مضرج ؟!(١)

ومنها :

أيعد المكنىّ بالحسين شهيدكم . ... تضى مصابيح السماء فتُسْرَجِ

(١) مقاتل الطالبيين ٦٣٩ وما بعدها ( مطبعة عيسى الحلبى ) .

لنا وعلينا ، لا عليه ولا له    تسحسح أسرابُ الدموع وتنشج

ومنها :

أيحيي العلا ، لهفي لذكراك لهفة    تباشر مكْواها الفؤادَ فينضج
لمن تستجدّ الأرض بعدك زينة    فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام ، وريحان ، ورَوح ، ورحمة    عليك وممدود من الظل سجسج (١)
ولا برح القاع الذى أنت جاره    يرفّ عليه الأقحوان المفلجُ
ويا أسفا ألاّ ترد تحية    سوى أرَج من طيِّب المسك يأرَج
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما    ثويت ، وكانت قبل ذلك تهْزَج

وختمها بقوله :

نظارِ ، فان الله طالب وتره    بنى مصعب ، لن يسبق الله مُدْلج
لعل قلوبا قد أطلتم غليلها    ستظفر منكم بالشفاء فتَثْلَجُ ! (٢)

* * *

والقصيدة فى عشرة ومائة بيت ، كلها على هذا النسق من الجودة والسمو معنى وأسلوبا ؛ لولا هجاؤها « الفاحش » كما قال أبو الفرج ؛ وقد سيقت على وجهها فى الكتاب ، وفى ديوان ابن الرومى ، لمن طلب المزيد .

* * *

وقلما عرض الشعر للحقائق العلمية ، واحتفظ بروحه ؛ ولكن فتى الأزد محمد بن هانىء الأندلسى ، شاعر العبيديين « الفاطميين » وهم من الشيعة الإسماعيلية ،

---

(١) فى الحديث : نهار الجنة سجسج أى معتدل لا حر فيه ولا قر ، وفى رواية : ظل الجنة سجسج ، أى لا ظلمة فيه ولا شمس « لسان العرب »

(٢) ثلجت نفسى بالشىء ، بكسر اللام وفتحها ، تثلج وتثلج ، بفتح اللام وضمها . اشتفت به واطمأنت إليه .

يعرض فى شعره لمصطلحاتهم وعقائدهم فتطوّعها مَرَانتُه وقوة روحه للانسياب فى جـداوله الرقراقة ، حتى تُزاوج الخيالَ وتساميه ، وتسابقه إلى القلوب فى تعاشق وانسجام . فاسمع ما يقول فى إحدى قصائده :

ووراء حق ابن الرسول ضراغم أُسد ، وشهباء السـلاح متون
الطالبان : المشرفية ، والقنـا والمدركان : النصر والتمكين
وصواهلٌ ، لاالهضب يوم مُغارها هضبٌ ، ولا البيدالحزُون حزُون
عُرفت بساعة سَبْقها ، لا أنها علقت بها يوم الرهان عيـون
وأجل عـلم البرق فيها أنهـا مرت بجانحتيه وهى ظنون

* * *

ما ذا تريد من الكتاب نواصب وله ظهور دونها وبطون
هى بغية أضللتموها فارجعوا فى آل ياسينٍ ثوتْ ياسين
ردّوا عليهم حكمهم ، فعليهمُ نزل البيان ، وفيهم التبيين
البيت بيت الله ، وهـو معظم والنور نور الله ، وهو مبين
والستر ستر الغيب وهو محجب والسر سر الوحى وهو مصون
النور أنت ، وكل نور ظلمة والفوق أنت ، وكل فوق دون
فرضان من صوم ، وشكر خليفة هـذا بهذا عندنا مقرون

فهو يشير بقوله : « ما ذا تريد من الكتاب نواصب » إلى أحد مصطلحاتهم وهو « التأويل » فعندهم « لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن ، ولكل تنزيل تأويل ، فالتأويل هو الباطن ، والتأويل لا يعلمه أحد إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصوبون بالنص والتوقيف منه ، ويناله الناس منهم على قدر استعدادهم وتهيئهم .

ويشير بقوله : « فرضان من صوم وشكر خليفة » إلى إحدى عقائدهم ، وهى أن معرفة الإمام واجبة على كل الناس ، وكذلك ولايته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية » .

ويقول فى قصيدة أخرى :

غدوا ناكسى أبصارهم عن خليفة ... عليم بسر الله غير معلم
وروح هدى فى جسم نور يمده ... شعاع من الأعلى الذى لم يجسم
على كل خط من أسرة وجهه ... دليل لعين الناظر المتوسم
إمام هدى ، ما التف ثوب نبوة ... على ابن نبى منه بالله أعلم
ولا بسطت أيدى العفاة بنانها ... إلى أريحىّ منه أندى وأكرم
ولا التمع التاج المفصل نظمه ... على ملك منه أجل وأعظم
ففيه لنفس ـ ما استدلت ـ دلالة ... وعلم لأخرى لم تدبر فتعلم

* * *

بكم عزّ ما بين البقيع ويثرب ... ونُسّك ما بين الحطيم وزمزم
فلا برحت تترى عليكم من الورى ... صلاة مُصلٍّ ، أو سلام مسلم

وهو فيها يقرر عقيدة أخرى من عقائدهم ، وهى أن الإمام من أكمل مخلوقات العالم جسدا وروحا ، وهو جامع لجميع الفضائل والخيرات ومنبعها ، فجسده برىء من كل عيب ، وروحه سالم من كل نقصان .

وهكذا ينتظم شعر ابن هانىء ، جميع مصطلحات الاسماعيلية وعقائدهم ، ويجلوها فى أسلوبه الأخاذ ، وسحره النفاذ ؛ مع الاحتفاظ بروحه الشعرى القوى وهذه ميزة يمضى بها الشعر الشيعى متفردا مستبدا بين جمهرة الشعراء الذين عالجوا نظم العلوم ، فخرجوا بها إلى منطقة « النظم » الذى ينكره الشعر كما هو مشهور متعالم ، وما كان هذا الفرق ، إلا لأن الشعر الشيعى أصدق عاطفة ، وأقوى روحا ؟

# التقريب واجب إسلامي

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين بالأزهر

---

تحدثت إلى القارىء الكريم في الأعداد الماضية ، عن عناصر وجود الأمة الإسلامية ، وقد كان هذا البحث صدى لقول الله جل شأنه : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .

ولعل القارىء الكريم قد لمس الحقائق الرائعة التي عبر عنها القرآن العظيم ، بدعوته إلى الوحدة ، وحدة المعبود ، ووحدة الأصل ، ووحدة الأمة ، ووحدة الأهداف ، وقد رأى القارىء كيف ينطق القرآن — صريحا — بتكليف الأمة الإسلامية بمختلف التكاليف ، ويقرر مسئوليتها عما كلفت به ، مسئولية حقيقية ، تشمل الفرد بوصفه فردا ، وبوصفه عضوا في الأمة ، وأن أفراد الأمة متضامنون في تحمل هذه المسئولية ، واحتمال تبعاتها .

ورأى القارىء أن أولياء الأمر في هذه الأمة هم علماؤها وقادة الفكر فيها ، وأنهم أول من تقع عليه المسئولية ، وأنهم محاسبون أمام الله ، وأمام ضمائرهم ، وأمام الأمة ، عن سعادة المجموعة التي من شأنهم أن يوجهوها إلى الخير بوصفهم عنوان الأمة ، وأهل القدرة على الاستتباع ، والقدوة الحسنة للمؤمنين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأهل القيادة الرشيدة ، الذين يتوخون صالح الأمة ،

ويعملون على توجيهها إلى ما فيه صلاح الجميع ، فهم هداة يجلسون على أرفع مكان فوق القمة ، يقولون الحق لايسألون الناس عليه أجرا ، ويأمرون بالعرف ، وينهون عن النكر ، ليس عليهم سلطان إلا لرب العالمين فى الأمر والنهى ؛ فان قصر هؤلاء القادة ، أو أهملوا واجبهم فهم آثمون أو غاوون « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » .

على أن تقصير القادة — إن أعذر بعض أفراد الأمة — لا ينجى الأمة نفسها من المسئولية العامة التضامنية التى تجمع أفرادها فيما يشبه سلسلة متساوية الحلقات لايدرى أين طرفاها ، لأن الإسلام يسر لا غموض فى مبادئه ، وليس فيه أسرار يختص بها العلماء والقادة دون العامة « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

ولقد أهمل قادة الفكر الإسلامى واجبهم ، ولم يؤدوا للأمة ولا لله ماعليهم ، فى عصور مضت ـ معذورة أو غير معذورة ـ طبعت بطابع الجمود ، وخيم عليها الهوى ، وتحكمت فيها الشهوات السياسية ، فاستخدم العلم فيها لتركيز الدول ، وتأييد مذاهب الحكام فى إسراف بعيد عن حقائق الدين ، وروح الإسلام ، فتفرقت الأمة شيعا وأحزابا « كل حزب بما لديهم فرحون » ، فاحتربت فى سبيل سيادة بعض عناصرها لافى سبيل الله ، ونقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وقطعت الأرحام ، وسادت فيها العصبيات الجنسية وحلت محل الأخوة الإسلامية ، كما ساد التعصب المذهبي وحل محل الحرية الفكرية التى قررها القرآن العظيم ، وأطلت السياسة من ثغرات الأهواء على أهل العلم فرسمت لهم مناهج البحث لتأييد ما يريدونه ، بدل أن يوجه العلماء بأبحاثهم أهل السياسة إلى وسائل الخير وسبل الاصلاح ، فحجروا على العقول وقيدوها بما يشبه العقيدة ، وزعموا أن للاجتهاد بابا فأغلقوه ، حتى لا ينظر أحرار الفكر من خلاله فى صوالح الأمة ، فجعلوا الدين إرثا وتقليدا ، لا عقيدة يؤمن بها المسلم عن طريق الفكر والاقتناع وبذلك يصدق قول القائل : « إن المسلمين غير مؤمنين » ، وصح وصف الإمام الشيخ محمد عبده للتعلمين بـ « أنهم يتعلمون كتبا لا علما » ، ووقف رجال المذاهب الاسلامية جامدين على مذاهبهم حتى خيل جمودهم لبعض الغربيين أن هذه المذاهب

فى الاسلام تشبه الأناجيل فى المسيحية ، أى أنه خلاف فى جوهر الدين وحقائقه الأصلية ، لا فى الأعراض والفروع .

ولعل القارىء الكريم يشاركنى فى القول : بأن صلاح هذه الأمة الإسلامية اليوم منوط بصلاح علمائها ، وقادة الفكر فيها ، فهم منها بمثابة القلب . إن صلح صلح الجسم كله ، وإن فسد فسد الجسم كله ، وإنه لفرض على علماء الإسلام وقادة الفكر فيه ، أن يعملوا على جمع شتات أمتهم ولمّ شعثها فى هذه الأيام العصيبة ، التى تحيطهم فيها الأخطار من كل جانب ، ليتعارف المتناكرون ، ويتواصل المتقاطعون ، وليعودوا يداً على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، متعاونين على رفع لواء الإسلام وإعزاز مكانة بنيه بين الأمم ، وإن أيسر وسيلة لجمع الكلمة هو التقريب بين المذاهب الاسلامية .

وقد سأل سائل : وكيف يمكن هذا التقريب مع اختلاف المـــذاهب فى الأصول والفروع . لا فى الفروع فقط ؟

ولعله قد خيل للبعض أن المراد بالتقريب هو مزج الآراء ، وإدماج المذاهب حتى تكون مذهباً واحدا ، وما كان لعالم ، أو جماعة من العلماء ـ أن يحجروا على عقول دعاها الله إلى النظر فى ملكوته ، أو يقصروا الناس على إحدى طرائق الفهم ، أو بعض وسائل النظر ! وإذن فما هو التقريب ؟ إنه دعوة إلى التعاون على البر والتقوى وإصلاح أحوال المسلمين ، بتوجيه طاقتهم العامة وجهة واحدة ، تحقق سعادة الجميع ، أو تؤمنه من أخطار خارجية ، وجزى الله عنا خيراً الإمام الشيعى الجليل الشيخ آل كاشف الغطاء ، فقد وضع ـ فى بيانه القيم للمسلمين فى العدد الماضى ـ الأمور فى نصابها ، وجلى معنى التقريب تجلية تدفع كل لبس فى الفهم ، فأغنانى عن كل ما أعددته فى معنى التقريب ، شكر الله للعلامة الكبير غيرته المحمودة على الملة والأمة ، فما أروع كلمات الحق التى أرسلها لتبسيط دواعى الخلف بين المسلمين ! إذ يقرر أن الخلاف بين المذاهب ليس خلافا على جوهر الدين وأصوله ، وإذن فهو خلاف فى الفروع لا يستوجب القطيعة ، ولا يحل معه التنابز ، هو خلاف

معتاد يقع دائماً بين الإخوة على الوسائل الموصلة للهدف الذى ينشدونه ، وهو واقع بين المذاهب الشيعية المختلفة . كما هو واقع بين المذاهب السنية المختلفة، فهناك خلاف بين الإمامية ، وغيرهم ، وخلاف بين الإمامية « الاثنى عشرية » والزيدية ، كما أن هناك خلافا بين أرباب هذه المذاهب كلٌ فى دائرته ، وكذلك يوجد هذا الخلاف بين المذاهب السنية - القائم منها اليوم والمندثر - على أساليب تعقل الأوامر والنواهى ، ودلالاتها ومفهوماتها وإيحائها ، لا على صدق الأوامر والنواهى أو كذبها . ولهذا وجدنا الشىء الواحد يأخذ صفة الوجوب فى مذهب ، بينما يأخذ فى غيره صفة الجواز أو الندب ، أو الاستحسان ، فكما أننا لم نسمع أن مذاهب السنة تختلف على الأصول ، فنحن نعتقد أن الخلاف بين مذاهب الشيعة فى جملتها كذلك ليس على الأصول .

ومن هذا الطراز - اختلاف الفهم وتعقل النصوص - الخلاف بين الشيعة وأهل السنة حول الإمامة ! ويجب أن يكون كذلك - ما دام الجميع يؤمنون بالأصول الكبرى التى تؤلف حقيقة الدين كما ينطق به القرآن صراحة ، وهو عند الجميع واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا كان هذا الخلاف بين الطائفتين الكبيرتين ، يماثل الخلاف بين مذاهب كل منهما . فكيف يسمح المسلمون من الطرفين لخلاف طبعى على غير الأصول وجوهر الدين ، أن يقطع بينهم أرحاما أمر الله أن توصل ؟ وكيف يجعلون من مذاهب علمائهم فى النظر أدياناً تفرق وحدة الأمة ، وتلقى بها قطعاً ممزقة بين أيدى أعدائهم ، أعداء الله ورسوله وكتابه الكريم ؟؟

ثم ما ذنبنا اليوم . حتى نحمل أوزار قطيعة دفع إليها جمود الفكر ، والبعد عن روح الإسلام . بتحكيم الدنيا فى الدين ، وتفسير نصوصه الصحيحة - أو وضع نصوص باطلة مجاراة لأهواء رجال السياسة أو تقربا إلى الحاكمين ، « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ؟ لقد آن لنا أن نقوم بتصفية هذه التركة المثقلة بالمغارم ، عن طريق التواصل والتراحم والتعاون على البر والتقوى ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

ولعل مهمتنا تسهل إذا عرفنا اليوم . أن الإمامة لم تعد فارقا جوهريا بين الشيعة والسنة ، بل ولا فارقاً ثانويا ، فى ظلال القوميات الحديثة ، التى يستحيل علينا أن نلغى عدها عند الحساب ، وكل ما نرجوه أن نوفق فى الدعوة إلى تآخيها لا إلى تلاشيها ، ونقولها صريحة ، إن الامامة كانت فارقا جوهرياً فيما مضى بين المتنازعين على سيادة الأمة الإسلامية ، وقد ذهبوا جميعاً إلى ربهم ، وعنده وحده حسابهم ، وإنا لنرجو أن يكونوا كما قال الخليفة الرابع فى أخيه الخليفة الثالث : « أرجو ان أكون أنا وعثمان يوم القيامة ممن قال الله فيهم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ ، إخوانا على سرر متقابلين » وكل ما يمكننا أن نقوله بعد ذلك : أن الخلافة فارق تاريخى بين حزبين من أحزاب المسلمين تنازعوا الحكم فيما بينهم . نخرج الحكم منهم إلى غيرهم ؛ أما اليوم فليؤمن الشيعة بإمامهم ، ما حلا لهم الإيمان به ، فهم مسلمون ، ولا ينقض إيمانهم بإمامهم هذا أصلا من الأصول الخمسة التى يتفق عليها كافة المسلمين ، وليؤمن السنيون بحرية الامامة ، وجعلها وكالة عن الأمة ونيابة عنها فى تدبير أمورها ، تكلها إلى أهل الدين والعلم والكفاية والقدرة على سياستها بالدين ، وإيمانهم هذا لا ينقض أصلا من الأصول الخمسة التى يتفق عليها المسلمون كافة ، ولا شك أن ما يتفق عليه الجميع من أصول للدين تلزم الجميع ، وأن ما يختلفون فيه لا يلزم إلا من يراه ويؤمن بصحته ، والحكم لله الواحد القهار .

فحق على المسلمين الذين ينشدون عزتهم اليوم ، أن يلبوا داعى « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » لإعلاء كلمة الله ، والتعاون فيما بينهم على قمع الفساد والإلحاد والاستعمار ، فان الخلاف بينهم لا يخدم الاسلام بل يهدمه ، ولا يحقق فيهم سوى ما اكتووا بناره من ذل وعبودية لغير الله رب العالمين « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات » . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

ألا وإن من يلبى نداء « جماعة التقريب » فقد لبى داعى الله ، ومن حاربها فقد حارب داعى الله ، والله غالب على أمره .

ومما لا شك فيه أن كل دعوة للتفريق بين المسلمين ، وإثارة أسباب الخلاف من جديد بين الطوائف الاسلامية ، خيانة لله ولرسوله وآله ، وللقرآن العظيم ، وللأمة الاسلامية ، فكل مثير للخلاف ، داع للفرقة ، حتم علينا أن نتشكك فى نواياه ، وأن نعمل على ردعه سيا فى هذا الزمان الذى تهدد أرض المسلمين فيه من كل جانب بالجيوش والمبادىء ، وإلا كنا مفرطين تحق علينا كلمة العذاب .

بمناسبة ما قرأته حديثاً من المؤلفات الصادرة عن بعض علماء الطائفتين السنة والشيعة ، أحب أن ألفت النظر إلى الحقائق الآتية :

أولا : ذكر الامام الشيعى أبو الحسين محمد بن نوبخت فى كتابه فرق الشيعة عشرات من الفرق الشيعية التى بادت وانقرضت ، وحكم عليها الامام النوبختى بالمروق من الدين ، ومع ذلك تنوقلت آراء هذه الفرق المتباينة ، ونسبها كثير من الكتاب إلى الشيعة مطلقة من غير تقييد وهذا ظلم كبير ، لأن آراء هذه الفرق تناقض تماما المعتقدات الامامية ، كذلك ينسب البعض بعض آراء الاسماعيلية الخالية إلى « الشيعة » وهو ظلم بلا شك ، ويؤسفنا أن يقع بعض أهل العلم فى هذا الخطأ ، ولا يتحرى الدقة فى إضافة الآراء إلى أصحابها ، مع أنه من السهل الآن تمييز آراء كل فرقة عن آراء غيرها ، فليس عسيرا إذن التعرف إلى آراء الامامية فى كافة المسائل المتفق عليها أو المختلف فيها .

ثانياً : أن عهد التاليف الحقيق عند المسلمين كان فى ظلال حكم العباسيين ، وقد كان حكمهم دنيويا أكثر منه دينيا ، وكان ملكاً لا خلافة ، وكانت أسباب تدعيم الملك العباسى أهم بكثير من توخى حقائق العلم ، وأحكام الدين ، وكان الخلاف بين العباسيين وبنى عمومتهم العلويين قد بلغ مداه ، وتفنن كل فريق فى تجريح الآخر ، فروى مايسقط منزلته بين المسلمين ، وقد وجد الفريقان من العلماء من فسد دينــــه وضميره ، فروى كذبا لكل فريق ما يشتهى ، حتى ان الإمام

ابن تيميـة (١) ليقول عن يوسف بن قزاوغلى ، المعروف بسبط بن الجوزى ، صاحب مرآة الزمان . إنه كان يروى لـكل من الشيعة وأهـل السنة ما يناسب مـذهبه ، حسب الحاجة ووفرة الأجر . وتحت يدى (قائمة) تحوى أسماء أكثر من ألفى رجل ، من الطرفين ، حدثوا وكذبوا وفجروا ، لوجه الشيطان . ورجاء المـال ، والتقرب من السلطان ، وإلى جانب هؤلاء الرواة الـكذابين كان جمـاعة النساخ ، الذين ينسخون الـكتب بالأجر لمن يرومها ، وكان جل هذه الطائفة من غير ذوى الدين ، وكثيراً ما دسوا فى الـكتب ما ليس منهـا ، حسب حاجة من يدفع الأجر .

فإذا كان ذلك كذلك وجب على أهـل العلم الذين يبحثون عن تاريخ الفرق وأصول مذاهبها ، أن يكونوا شديدى الحذر ، وأن يتوخوا الدقة التامـة ، وأن يحتاطوا أشد الحيطة فى نسبة الآراء والحـكم عليها ، وأن يقارنوا بين المرويات ويبحثوا أسانيدها ، فإنه لذلك وضع السلف الصالح قواعد علم الجرح والتعديل .

ثالثـاً : إذا جرينا على طريقة التنابز ، وتزييف ما عند أهل السنة من مرويات وما عند الشيعة من مرويات ، خرجنا فى النهاية ، وليس معنا أهل سنة ولا شيعة ، وتعذر علينا أن نتفق على صحـة شىء ، سوى القرآن الـكريم ، الذى حفظه الله ، فسلم للمسلمين من الدس والـكيد والتزوير ، فليـكن هو قبلتنا ، وداعينا إلى الوحدة ، ولنعبد الله على ضوء ما فيه ، ولنجعله أساساً لمعاملاتنا ، ولنحكمه فى كل أمورنا ، وهو هادينا إلى أمثل سبل العزة إن شاء الله ، أما فيما يتعلق بالفروع والجزئيات ، فليقتنع كل فريق بمـا صح عنده ـ إن شاء ـ من حديث الرسول صـلى الله عليه وسلم ، غير متعرض لمـا صح عند أخيه ، بمـا يثير الفرقة والقطيعة ، فالمسيحيون يختلفون فى جوهر دينهم اختلافاً كبيرا ، ومع ذلك يسارع الـكاثوليك إلى نجدة البروتستانت ، ويسارع الأنجلـكان إلى حماية المسيحية عامة ، وما منعهم خلافهم

---

(١) منهاج السنة ج ٢ ص ١٣٣ .

الجوهرى على ذات الإله وحقيقة الدين من أن يكونوا إلبا على الإسلام والشرق منذ القرن الحادى عشر الميلادى إلى الآن ، فهل نعتبر ؟ فإن هذه ذكرى لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا !

رابعاً : إن دراسة التاريخ فى هذا العصر تلعب دوراً خطيراً فى تربية الشعوب، وبعثها وتوجيهها إلى المثل العليا ، وقد عنى الغربيون بذلك عناية كبرى ، فربوا شعوبهم تربية تاريخية جعلتهم قوامين على البشريه آماداً طويلة ، فهل فكر قادة الفكر الإسلامى فيما يحققه « التاريخ » من « التقريب » ؟ أرجو مخلصاً أن يتاح التعاون بين العلماء على كتابة التاريخ الإسلامى من جديد ، وأرجو أن يهتم المسئولون عن التعليم فى بلاد الإسلام ، بتعديل دراسة منهج التاريخ بعيداً عن العصبية المفرقة ، ومن الخير أن أذكر القارىء بما اقترحته فى العدد الثالث من السنة الأولى عن دراسة التاريخ ومدى أثره فى جمع كلمة الأمة ، وإزالة أسباب التفرق ، « والذكرى تنفع المؤمنين » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وهب الله لنا من أمرنا رشدا ، وهدانا سواء السبيل ؟

---

# لماذا نؤرخ المجلة

## بالتاريخ الميلادى مع الهجرى

يلاحظ بعض قرائنا أننا نجمع بين التاريخين : الهجرى والميلادى ؛ ويستحسن أن نقتصر على الأول اعتداداً بالتاريخ الإسلامى واعتزازاً بإفراده دون غيره ، ويهمنا أن يعلم القراء أن المجلة تصل إلى بلاد إسلامية كثيرة ترتبط أمورها ارتباطاً عملياً بالشهور الميلادية ، مضافاً إلى ذلك أنها تصل إلى بعض البلاد الأوربية والأمريكية ، وهى تعتمد على التاريخ الميلادى وحده ، فما أردنا بهذا إلا التيسير عليهم بما لا يضر ، وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ؟

# بعض المنشآت الاجتماعية المصرية
## فى العصور الوسطى

لحضرة الأستاذ أحمد محمـــد عيسى
أمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

---

حُبِّبَ إلىّ — فيمن أحببتهم من المؤرخين — المقريزىّ مؤرخ مصر فى العصور الوسطى ، وحبب إلىّ ، بصفة خاصة ، كتابه « الخطط » فهو كتاب حفظ لنا من أخبار مصر والقاهرة ، ما لم نظفر به من كتاب آخر ، وكانت ملاحظات المقريزى من الدقة والبراعة ، بحيث جعلت مؤلَّفه هذا كنزاً فياض المعين لكل باحث فى التاريخ المصرى فى تلك الفترة . ويبدو لى أن المقريزى لم يترك شاردة ولا واردة من حياة العامة والخاصة إلا انتبه لها ، ولاحظ عليها ودونها فى كتابه .

والمقريزى مؤرخ قوى الملاحظة ، واسع المعرفة ، متأمل أكثر منه راوية ، أكسبته وظائف الدولة ورحلاته للشام والحجاز ، أنواعاً من الدراية ، جعلت لكتاباته أهمية كبيرة . على أنه وهو خارج مصر ظل يذكرها ، ويحبها ، ويحب القاهرة ، التى ولد بها ، فشغل نفسه بالكتابة عنها وبدا فيما كتب أنه قاهرى قح .

وفى اعتقادى أن المقريزى ، فيما كتب من ملاحظات على أحوال الناس بمصر ، لا يبعد كثيراً عما كان يلاحظه على أحوال الناس فى الشرق الإسلامى عامة ، لأن حياة الناس فى تلك العصور تكاد تكون متشابهة سواء فى القاهرة أم فى دمشق أم فى بغداد ، أم فى غيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وذلك لأنه لم تكن بين تلك البلاد حواجز ، ولأن تحركات الجيوش ، وهجرات العلماء ، واستقدام الفنانين والصناع ، جعل العالم الإسلامى وحدة متشابهة فى نظمها ، ووسائل معيشتها . وأنا حين أقرر ذلك لا أستطيع أن أنكر الأثر الخطير للبيئة والعنصر القومى فى ذلك التشابه .

وإن نشأة المدارس فى وقت متقارب فى أنحاء العالم الإسلامى ، وارتحال أمثال الشهاب الطوسى، وابن سعدون القرطبي، والحافظ السلفى، والآمدى الأصولى والسخاوى النحوى ، وتنقلهم بين العواصم الكبرى ، وقصدهم أشياخ العلم أو جلوسهم للتدريس ، كل ذلك ساعد على أن تصطبغ الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى بلون واحد تقريبا .

وعلى قدر ما كان المقريزى صادقاً فى تصوير محاسن عصره ، ونقلها إلينا واضحة جلية ؛ كان مخلصا فى إعطائنا فكرة عن شرور ذلك العصر ومخازيه . لا تقل وضوحاً عن هذه ، ولعله مؤمن ـ ولا إخاله إلا كذلك ـ بأن خير المؤرخين من نقل إليك صورة عصره ، بخيرها وشرها ، صادقاً فى ذلك النقل ، لأن فيه العبرة كل العبرة للخالفين ، وأن خير كتب التاريخ ، كتاب صور لك حياة الناس فى حبهم وسخطهم ، فى صدقهم وكذبهم ، فى جدهم وهزلهم ، فى فرحهم وحزنهم ، ولا غرو فالناس هم مادة التاريخ الأولى الجديرة بكل اهتمام .

وسوف أستعرض هنا بعض المنشآت الاجتماعية التى ذكرها المقريزى فى كتابه الخطط ، وملاحظاته عليها .

قامت المساجد منذ نشأتها فى مصر وغيرها بمهمة المدارس ، وشهدت أروقة جامع عمرو وجامع ابن طولون حلقات الدرس من أمثال الشافعى والبويطى والمزنى ، ومحمد بن عبد الحكم ، والربيع الجيزى ، والقاضى بكّار . وغيرهم وغيرهم من أعلام الإسلام ؛ فلما انتهى أمر مصر إلى الفاطميين ، احتل الجامع الأزهر تلك المكانة ، غير أن عناية الأساتذة اتجهت نحو تدريس الفقه الشيعى ، إذ أصبح المذهب الذى تدين به الدولة . ثم تغيرت الحال من بعد ذلك أيام الأيوبيين والمماليك بإنشاء المدارس ، وقيامها مقام المساجد فى تعليم الناس وتثقيفهم . وشهدت مصر أولى مدارسها على يد صلاح الدين الأيوبى ، الذى اقتبس هذا النظام مما شاهده بالعراق والشام ، . وكانت العلوم الشرعية هى كل شىء فى برنامج الدراسة ، وكان الفقه فى طليعة تلك العلوم . وجرى صلاح الدين على عادة إعطاء مشيخة مدارسه

إلى معتنق مذهب الأشاعرة من أهل السنة ، واستمر الاهتمام بالمدارس منذ ذلك الحين . وسار أفراد البيت الأيوبى والمماليك من بعدهم سيرة صلاح الدين فى إنشاء المدارس حتى زاد عدد مدارس القاهرة على السبعين .

والجدير بالملاحظة فيما رواه المقريزى عن تلك المدارس اهتمام غير الحكوميين بها وإنشاؤهم لها ابتغاء وجه الله وخدمة للعلم ، كالمدرسة المسلمية التى أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد أبو مسلم المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، ووقف عليها دوراً وأرضاً ومالا وفيراً ، والمدرسة المهذبية التى أنشأها الطبيب مهـــذب الدين أبو سعيد ابن أبى حليقة طبيب الملك الكامل ، والمدرسة القطبية التى أنشأتها ابنة الملك العادل أبى بكر ، والمدرسة العاشورية التى أنشأتها زوجة الأمير أياز كوج الأسدى ومدرسة زوجة الأمير سيف الدين يكجا الناصرى سنة ٧٥١ هـ ، ومدرسة ام السلطان شعبان سنة ٧٧١ هـ . ويبدو أن القاهرة أصابت من أهلها فى ذلك الزمان خيراً مما تصيبه من أهلها الآن ، إذ لم يعد لكبار التجار أو مشاهير الأطباء أو فضليات النساء أو أهل الكسب الوفير فى عصرنا الحاضر ، غرام بما أغرم به أمثالهم من معاصرى المقريزى وسابقيهم .

على أن الأوقاف الكثيرة كفلت رزقا جاريا لطلاب العلم ، من أشياخ وتلاميذ ، وأنفق منها على ما يلزم المدارس من فرش وكتب وحاجيات أخرى ، وعاش الناس فى ظل تلك النعمة الوارفة للعلم وحده ، وكانت الثمرة الطيبة لكل ذلك ، ماوصلنا من تراث حضارى ضخم لا يزال جيلنا يستفيد بما ظهر منه ، ويكشف الغطاء عما بقى دفينا فى دور الكتب العالمية .

وكثيراً ما حدث أن حالت الظروف دون وصول معاليم الوقف إلى أصحابها إما بسبب القحط أو الأوبئة ، وإما لأن المشرفين على حصيلة تلك الحبوس اعتقدوا ـ ولو خطأ ـ أنها تذهب أحيانا لمن لايستحقها ، وأن هذا يبرر فى نظرهم المقاسمة فيها أو الاغارة عليها ، وظفر شيوخ تلك المدارس بأكثر من نصيب من خيرات الأوقاف ، فمنها ما حصلوا عليه لقيامهم بمهمة التدريس ، ومنها ما أعطى

لهم من أجل النظر على المدرسة وأوقافها ، ذلك عدا ما يصرف لهم من خبز وماء وغيره . أما صرف تلك الأرزاق فكان شهرياً فى العادة .

وحياة العلم وطلابه حافلة بكل طريف ، مليئة بما يدل على النشاط العلمى الجم الذى حملت مصر أعباءه فى تلك الفترة من تاريخها .

وإذا تركنا حياة العلم وطلابه جانباً واتجهنا نحو المؤسسات الاجتماعية الأخرى لنرى حياة الناس كيف كانت وكيف سارت وكيف تنوعت واختلطت وتأثرت بالآخرين ، وجدنا فى مقدمة تلك المؤسسات « الحمامات » ، وهى وإن لم تكن من مستحدثات المسلمين لكنها ذات طابع خاص عندهم ، فقد شهدت تلك الحمامات ألوانا من النقاش والجدل حول المسائل التى تهم الناس حينذاك ، وقصدها التجار والمغتربون وأصحاب الرحلة وأهل العلم ، واتخذوا من ردهاتها الدافئة أندية لهم ، واقتصرت بعض الحمامات على الرجال فقط وبعضها على النساء ، وخصص جانب منها لاستقبال الرجال فى أول النهار والنساء فى آخره .

ويروى المقريزى عن بعض مصادره أن عدد حمامات مصر بلغ قبيل القرن الرابع عشر الميلادى ما يقرب من مائة حمام ، ويدل هذا العدد على مدى اعتماد الناس على حمامات السوق بسبب عدم صلاحية كثير من البيوت لإقامة حمامات بها ، وعدت الحمامات مورداً هاماً من موارد الرزق ، ومصدراً من مصادر الربح الوفير لمؤسسيها ، ومنهم الأمراء والأعيان ووجوه الدولة والعلماء وغيرهم ، وكثيراً ما وقفت الحمامات للانفاق من دخلها على المدارس والكتاتيب والمساجد والأسبلة والأربطة وغيرها .

ومن المنشآت الاجتماعية التى نعمت بها مصر خلال العصور الوسطى « المارستانات » وهى المستشفيات التى ظفرت من عناية السلاطين بما كفل لجميع الناس حسن الافادة منها والانتفاع بها على اختلاف طبقاتهم وألوانهم ، ويتضح ذلك مما أورده المقريزى فى الخطط عن أخبار مارستان قلاوون ، وهو أن السلطان الملك المنصور قلاوون وقف على مارستانه أوقافا كثيرة وأموالا وفيرة ،

واستدعى فى يوم افتتاحه قدحا من شرابه فشربه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث » ثم يقول المقريزى إنه رتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض ، وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم المعاليم ، ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا : فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء ، ومكاناً للمبرودين ينقسم قسمين : قسما للرجال وقسما للنساء ، وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن ، وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها .. وجعل مكاناً تفرق فيه الأشربة والأدوية ، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ، ولم يخصص عدة المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير ، ولا حدد مدة لإقامة المريض ، ورتب منه لمن هو مريض فى داره سائر ما يحتاج إليه » .

ويتضح من هذه العبارات أن الخدمات الاجتماعية فى مصر فى العصور الوسطى ظفرت بتقدم كبير يرفع من شأن مصر فى نظر المؤرخ الحديث ، وأن الدستور الذى وضعه السلطان قلاوون لمارستانه يعطينا فكرة طيبة عن المساواة فى الحقوق الاجتماعية بين مختلف الطبقات ، ويظهر لنا بجلاء مدى فهم الدولة لواجبها نحو رعاياها عامة والمرضى خاصة ، كما يدل على مبلغ التنظيم الإدارى الدقيق الذى امتازت به تلك الفترة من التاريخ المصرى .

ومن المنشآت الغريبة على الإسلام وأهله : الخوانك والأربطة ، فلم يكن مألوفاً لدى المسلمين الأول إنشاء بيوت خاصة للعُبَّاد والمتزهدين ، يحبسون فيها أنفسهم للصلاة والصيام فحسب . ويبدو أن تلك التنظيمات الحديثة على أهل الإسلام إنما هى أثر من آثار المسيحية بالشرق لأنها قريبة شبهٍ بالأديرة ، وإن كان ما أفاده العالم المسيحى من الأديرة أعظم بكثير مما أفاده العالم الإسلامى من الخوانك

والأربطة ، بل يمكن القول بأن المسلمين لم يفيدوا شيئاً البتة من تلك المنشآت .

وأول الخوانك بمصر - على قول المقريزى - خانكاه سعيد السعداء ، التى وقفها صلاح الدين الأيوبى للوافدين على مصر من فقراء الصوفية ورتب لهم فيها الطعام واللحم والخبز . وبلغ عدة من بها فى بعض الأوقات قرابة ثلثمائة صوفى . أما احتفالهم التقليدى بصلاة الجمعة وخروج موكبهم الرسمى من الخانكاه إلى جامع الحاكم وعودتهم منه ، فيقول المقريزى عنه : إنه من أجمل عوايد القاهرة . ثم أنشأ الظاهر بيبرس خانكاه أخرى نزل بها حوالى أربعمائة صوفى ، ثم تتابع إنشاء الخوانك حتى زاد ما ذكره المقريزى فى خططه عن العشرين ، منها واحدة أنشأتها الخاتون طوغاى زوج السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنزلت بها بعض جواريها ، وقررت لهن المعاليم والأرزاق . وقامت تلك الخوانك بوظيفة المدارس فى بعض الأحيان ، وعمرت قاعاتها بدراسة الفقه والحديث وقراءة القرآن طالما كانت أوقافها بعيدة عن أيدى الناهبين من الأمراء والسلاطين ومن اليهم .

أما الأربطة فيُعرفها المقريزى بأنها الدور التى يسكنها أهل الطريق ويقول : « وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصله الليل بالنهار بالعبادة ، متعوضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات ، وملازمة الأوراد ، وانتظار الصلوات ، واجتناب الغفلات ، ليكون بذلك مرابطا مجاهداً » .

ولا شك أن حياة الزهاد بتلك المؤسسات ، هى رهبانية لا يقرها الإسلام الذى يأمر بالسعى والجد ، وينهى عن القعود والتواكل . ولكن من يستطيع أن ينكر تأثر المسلمين بما حولهم مما ابتدعته الأديان السابقة ! وفى اعتقادى أن الخوانك والأربطة ، تطورٌ عن الأديرة المسيحية ، ولعل كثرة إنشائها فى العصور الوسطى ، راجعة إلى ماخلفه الصليبيون بالشرق أثناء كفاحهم الطويل للاستيلاء على بيت المقدس وما حوله . على أنه لاحيلة لنا فى دفع هذا التأثر ، لأن سنة الحياة أن يتأثر الكائن بغيره ، ويؤثر فى غيره .

ويذكر المقريزى فى خططه اثنى عشر رباطا ، أشهرها رباط الست البغدادية أنشأته ابنة الظاهر بيبرس للنساء اللاتى طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن ، لما كان فيه من شدة الضبط ، والمواظبة على وظائف العبادات وغاية الاحتراز ، « حتى ان خادمة الفقيرات به ، كانت لاتمكن أحداً من استعمال إبريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه » .

ومن منشآت ذلك العهد كذلك الخانات ، وهى فنادق ينزل بها الغرباء والمسافرون ومن لا مأوى لهم من الفقراء وأبناء السبيل ، ومن أمثلة ذلك خان السبيل الذى أنشأه بهاء الدين قراقوش ، وجعله نزلا بغير أجرة لأبناء السبيل والمسافرين ، وجهزه بما يكفل لهم وسائل الراحة .

والدارس للتاريخ المصرى أو التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى بوجه عام يجد نفسه أمام تطورات اجتماعية ناضجة لم يشهدها ذلك الركن من العالم من قبل . ولا شك أن وقوع هذه المنطقة فى قلب العالم النابض ، جعلها شديدة التأثر بغيرها ، كما جعلها فى نفس الوقت شديدة التأثير فى غيرها ، وأن ما مر بها من أزمات وحروب متكررة وإغارات مفاجئة أكسبها سرعة التكييف للظروف الطارئة ، والاستجابة لحاجاتها الجديدة ، وإذا كانت إغارات المغول من الشرق ، وحملات الصليبيين من الغرب قد أفقدتا الشرق الاسلامى أشياء كثيرة ، فقد أخرجته تلك الهزة العنيفة من عزلته ، وأزاحت عن جفونه النوم الذى غط فيه فترة طويلة .

أما حظ مصر من تلك الهزة فكان أحسن من حظ غيرها لأسباب أهمها أن تلك الأحداث حدثت وبها دولة قوية لايتمتع بمثلها أحد من جيرانها من الدول الإسلامية . هذا فضلا عن أنها لم تصب بشىء من تخريب المغول ، ولم تتعرض لشر يذكر من حملات الصليبيين . وقد أتاح ذلك لمصر أن تخرج من عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك دولة منظمة مرتبة فى أحوالها الاجتماعية والإدارية والتعليمية ، وأن تخلف تراثاً ضخما صالحاً لأن يكون غذاء طيبا لأجيال خالفة إذا ما رعاه القوامون عليه بالدرس والبحث والنشر ؟

# الاجتهاد في الشريعة

لحضرة صاحب السماحة

السيد محمــــد على القاضى الطبـــاطبائى

النجف الأشرف بالعراق

---

تسلمت الأجزاء الأربعة من المجلة الشريفة « رسالة الإسلام » لسنتها الأولى ، الصادرة عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة ، وطالعتها فى إمعان وتعمق وإعجاب بمـا فيها من البحوث العلمية والآراء العميقة التى قلما يوجد لهـا نظير فى الصحف والمجلات .

وإنى أقدم الشكر والتقدير لجماعة التقريب على القيام بهذا الواجب ، فإن المسلمين اليوم فى أشد الحاجة إلى الاتحاد والتعاضد والتعاون واتفاق الكلمة وجمع شتات آراء الأمة ، وإحكام عرى الوحدة الإسلامية ، والاعتصام بحبل الإخاء الدينى والاتحاد الصحيح .

ولعل الله تعـالى قيض لهم جماعة التقريب لتبعث فيهم روح المودة والمحبة ، وترسل حبلها بينهم كافة ، فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لتحمل أعباء هـذه المهمة .

* * *

وقفت فى العدد الأول صحيفة (٨٧) على مقال بعنوان : « صوت التقريب » (١) حافل بالمزايا التاريخية ، وجامع شامل للاشارات إلى كثير من حقائق القضايا الواقعة فى القرون المـاضية ، وقد تضمن الإشارة إلى الخلافات والآراء الفكرية

---

(١) يريد البيان الأول لجماعة التقريب .

الـكلامية بين الأمة الإسلامية ، وأن هذه الخلافات لم تقف عندها ، بل شملت الفقه والأحكام التشريعية ، وأنها لم تـكن فى هـذه الناحية عنيفة ، وإنمـا كانت تجرى فى هدوء وسكينة ووقار لا يسيطر عليها إلا العلم والحجة والبرهان ، وهكذا كانت ريح الفقه تجرى رخاء حتى نمـا وزكا وأينعت ثمراته ، ولذلك استطاع الفقه الإسلامى أن يقف عالى الرأس عزيزاً كريماً .

ثم جاءت بعد ذلك طبقات من المقلدين والمتعصبين للمذاهب ، كانت هممهم عن حمـل ما كان يحمله سلفهم من العـلم والنظر ، وصادف ذلك عهود الضعف السياسى ، وحكم أكثر المشتغلين بالفقه على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم فى زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط ، ولا لفهم كتاب الله وسـنة رسوله ، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد ، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد ، وأن تعصب كل منهم لرأى إمام وزعم أنه الحق وأن ما سواه باطل وأسرفوا فى ذلك إسرافاً بعيـــداً ، ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا اتباعهم فى عدد معين ، وهكذا ضاق أفق الأتباع والأشياع عما اتسع له أفق المتبوعين ، وضاقت بهم دائرة الفقه الإسلامى ، وركدت ريحه وصوح نباته .

ولـكن إخواننا قد استطاعوا فى العهد الحاضر أن يتخلصوا إلى حد بعيد من آثار هذه العصبيات التى تنـكرها الشريعة حتى جاء صريحاً فى صحيفة (٩١) :

ولعلهم يشهدون فى القريب العاجل إن شاء الله مذاهب إسلامية أخرى يدرس فقهها فى الأزهر كما يدرس فقه المذاهب الأربعة ، ويومئذ يحق لهم أن يستوفوا جهات الفخر برجوع الفقه الإسلامى إلى مجده الأول يوم كانت الآراء المحتكة ، والحجج المتقابلة ، والأدلة ووجهات النظر ، هى مادته وغذاءه وعمدته فى التنوير الفـكرى والوصول إلى الحق ، لا قول فلان ولا رأى فلان .

ونتيجة هذا المقال لزوم انفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه قولا وعملا لحاجة الأمة إلى رعاية مصالحها الدينية والدنيوية فى كل عصر وزمان .

وطالعت فى العدد الثالث صحيفة ( ٢٣٩ ) المقال الذى جادت به يراعة المجتهد الأكبر سماحة شيخنا الإمام آية الله كاشف الغطاء - متع الله المسلمين بوجوده ونفعنا بعلومه - عن الاجتهاد فى الشريعة بين السنة والشيعة .

وقد صدع الإمام فى هذا المقال بالقول الصراح ، وأتى بالحقائق الراهنة والأسس العلمية المنطقية ، وأشاد أطال الله بقاه بالمذهب الأسدّ الأقوى فى هذه المسألة ، وهو لزوم انفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه قولا وعملا ، وأن ليس الاجتهاد لحاجة الناس إليه فحسب ، وإنما هو أمر تقضى به الغريزة البشرية وطبيعة الشريعة نفسها ، وأن الاجتهاد لا بد منه فى الشريعة فى كل عصر وزمان ، ولا بد لكل من لم يصل إلى تلك المرتبة الشامخة ولم تحصل له هذه الملكة القدسية أن يقلد فى الأحكام الفرعية مجتهداً حياً جامعاً لشرائط الفتوى ، وهذا معنى الاجتهاد عند الشيعه الاماميه ، ويعد اليوم من مفاخرهم بين الامه الإسلاميه .

وكم لأستاذنا الإمام من نظائر هذه المقالات والبحوث القيمة والتآليف والتصانيف الثمينة المنتشرة فى المدن والبلاد الفسيحة الأرجاء .

ثم طالعت مقالا قيماً فى العدد الرابع من بحوث الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الأسبق - رحمه الله - حول الموضوع ، وقد جاء فيه فى صحيفة ( ٣٥١ ) .

(وانى مع احترامى لرأى القائلين باستحالة الاجتهاد أخالفهم فى رأيهم ، وأقول أن بين علماء المعاهد الدينية فى مصر من توفرت فيهم شروط الاجتهاد ، ويحرم عليهم التقليد ) .

وفى صحيفة ( ٣٥٢ ) عند الكلام فى تجزؤ الاجتهاد وعدمه ( المكلف إذا حصلت له أهلية الاجتهاد بتمامها فى مسألة من المسائل، فان اجتهد فيها وأداه اجتهاده إلى حكم فيها ، فقد اتفق الكل على أنه لايجوز له تقليد غيره من المجتهدين فى خلاف ما أوجبه ظنه ، وإن لم يكن قد اجتهد ، فقد اختلفوا فيه ، والمعتمد أن يقال أن

القول بجواز التقليد حكم شرعى لا بد له من دليل والأصل عدم ذلك الدليل فمن ادعاه ، فعليه البيان ) .

وفى صحيفة ( ٣٥٢ ) ( ولو التزم مذهباً معيناً ، فقيل يلزم ، وقيل لا ، وهو الأصح ، لأن التزامه غير ملزم ، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة فيقلده فى دينه فى كل ما يأتى ويذر دون غيره ، وقد انطوت القرون الفاضلة على عدم القول بذلك ) .

وفى آخر هذا المقال صحيفة ( ٣٥٧ ) ( والخلاصة أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صحّ النقل عنهم ، وفهم مرادهم ، وسنثبت فى فصل آخر امكان صحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ) .

وقرأت فى العدد الثالث صحيفة (٣١٧) كلاماً يفصح عن غرض جماعة التقريب ( أنها ترحب بالخلاف الفقهى المبنى على النظر فى الأدلة ، ورعاية المصالح العامة للمسلمين التى اعترفت الشريعة بها ، ولا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها)

والظاهر أن المقصد الأسنى من نشر المقال من بحوث الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، هو الاعتراف بأن علماء السنة أيضاً ، يعترفون اليوم بانفتاح باب الاجتهاد عندهم كانفتاحه عند الشيعة الإمامية ، ولكن من ينعم النظر فى هذا البحث القيم ، يرى أن نتيجته هو انفتاح باب الاجتهاد بمصراع واحد ، وهو القول بانفتاحه قولا لا عملا ، وأن المرجع فى مقام العمل ، هو التقليد عن أحد المذاهب الأربعة أو غيرهم ، إذا صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ، كما جاء فى آخر هذا البحث ( أنه يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة ، متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ) .

ليت شعرى إذا اعترفوا بانفتاح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وصحة تقليد المكلف عن المجتهد الحى فى كل زمان ، ولزومه فى كل أوان ، فأى قيمة لصحة النقل عن غير الأئمة الأربعة ، أو عنهم ، وعدمها ، وما معنى هذا الكلام ، وكيف يجوز تقليد المجتهد الذى مات فى الزمن الغابر ؟ سواء أصح النقل عنه ، أم لا ، وليس

فائدة النقل سوى الاطلاع على أقوال الفقهاء الماضين فى المسائل الفرعية ، فإنه لا دليل على جواز تقليد المجتهد الميّت أصلا ، خصوصاً ابتداءً ، كالبالغ يريد التقليد وقد نقلوا (أن القول بجواز التقليد حكم شرعى ، لا بد له من دليل ، والأصل عدم ذلك الدليل ) وأما الاجماع فهو قائم على جواز تقليد المجتهد ، والقدر المتيقّن منه ، هو المجتهد الحى الجامع لشرائط الفتوى لأن الاجماع دليل لبّى يؤخذ بالمتيقن منه ، وأما المجتهد الميّت ، فلا دليل على جواز تقليده ، فعلى مدعى الجواز البيان .

ونرى بوناً شاسعاً بين هذا المقال ، وقول بيان التقريب فى العدد الأول ( ولعلنا نشهد فى القريب العاجل إن شاء الله ، مذاهب إسلامية أخرى ، يدرس فقهها فى الأزهر ، كما يدرس فقه المذاهب الأربعة ، ويومئذ يحق لنا أن نستوفى جهات الفخر — إلى أن يقول — والوصول إلى الحق ، لا قول فلان ، ولا رأى فلان ) ؟ .

فإنا نرى فى العدد الذى أوعزنا إلى محله ، ونقلنا عبارته ، اعترافاً بجواز الأخذ بقول فلان ، ورأى فلان ، متى صح النقل عنهم ، وفهم مرادهم ، فكيف التوفيق بين الكلامين . ؟

ورأينا أن المجلة فى العدد الثالث ، اعترفت بأنها ترحب بالخلاف الفقهى ، المبنى على النظر فى الأدلة ، ورعاية المصالح العامة للسلمين ، التى اعترفت الشريعة بها ، وقد تستفيد الأفكار والأنظار من هذه الجمل الاعتراف بانفتاح باب الاجتهاد ، فإن من الواضح ، أن الاجتهاد هو النظر إلى الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ، واستخراج حكم الله ، وفهمه منها على حسب القواعد المسلمة ، مع رعاية المصالح العامة للسلمين دون رعاية الأقوال والآراء الصادرة عن الأفواه الدائرة سواء وافق ما استنبطه من الحكم لأحد المذاهب الفقهية ، أو خالفها ، وهذا هو الترحيب بالخلاف الفقهى ، والتوسع فى دائرة الاستنباط ، ولكن ينافى ، بل يناقض هذا المقال ما يذكر متصلا به ( ولا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها ) لا أدرى كيف أنها بعد الترحيب بالخلاف الفقهى ، والتوسع فى الاستنباط

والاستدلال ، والاعتراف بانفتاح باب الاجتهاد - كيف أنها لا تبغى إلغاء المذاهب ، فإن الاجتهاد ، وفهم حكم الله تعالى عن الأدله الشرعيه يوجب إلغاء المجتهد ، أى مذهب فرض من المذاهب الفقهية ، إن لم يوافق ما استنبطه مع أحدها وله أن يفتى لمقلديه على حسب ما فهمه ، فإن المجتهد إذا نطر بحسب ملكته العلية الاجتهادية ، وعقله المستقيم ، وذوقه السليم ، مراعياً القواعد المسلمة الشرعية ، وبذل وسعه فى تحصيل الأحكام الواقعية الثابتة فى كل واقعة ، واستنبطها من مظانها من الكتاب والسنة ، فكل مايخالفه من المذاهب الفقهية باطل عنده ، وله التمسك والاتباع بالأدلة والبراهين الدينية ، فإن الدليل هو المتبع ، دون أى مذهب فقهى حتى أن المتبع عند المجتهد فى صورة موافقة ما استنبطه من الحكم مع أحد المذاهب الفقهية ، هو مافهمه من الدليل ، وأدى ظنه منه دون قول فلان ، ولارأى فلان .

وفى صورة المخالفة يسيتحيل فى حقه القطع والاذعان ، أو الظن والاطمئنان لقول من يخالفه ، والعمل على رأيه ، فإن الإنسان إذا فهم شيئاً ، وقطع به ، أو ظن أنه حكم الله تعالى فى حقه وحق مقلديه ، واعتقد كونه صواباً بينه وبين الله تعالى ، وأنه حكم الله الواقعى ، الذى بذل الوسع فى تحصيله ، يستحيل أن يذعن ويقطع ، أو يظن على خلافه ويذهب على ضد ما فهمه أصلا ، فان سد باب الفهم محال بالضرورة من العقل ، اللهم إلا أن يتبدل رأى المجتهد فى فهم حكم الله تعالى بحسب اجتهاده ، واستنباط نفسه .

## رسالة الإسلام

يرجع ما لاحظه سماحة الأستاذ إلى أن فيما نشرته « رسالة الإسلام » تناقضا فى موضعين :

أولها : الجمع بين القول بانفتاح باب الاجتهاد ، والقول بجواز الأخذ بقول فلان ، ورأى فلان ، متى صح النقل .

الثانى : ترحيب « جماعة التقريب » بالخلاف الفقهى المبنى على النظر والاستدلال مع تصريحها بأنها لا تبغى إلغاء المذاهب الفقهية ولا توحيدها .

وجوابنا عن الموضع الأول أن فضيلة المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى بصدد مقامين أحدهما : بيان انفتاح باب الاجتهاد ، وقد جادل عنه وأيده بالبرهان الصحيح ، والثانى : مناقشة معارضيه فيما زعموه من أن النقل عن غير الأئمة الأربعة لم يصح ، وأن ذلك من أسباب حصر التقليد فيهم لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد ، فالأستاذ الأكبر يبطل زعمهم فى هذا ، ويقرر أنه قد صح النقل عن غير الاربعة كما صح عن الأربعة ، وأنه متى صح النقل فلا خصوصية للأربعة فى جواز تقليدهم - أى لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد - وبهذا يتبين أنه لا تناقض بين انفتاح باب الاجتهاد ، فى حق من كمل استعداده ، وجواز تقليد أى إمام وراء الأربعة فى حق غير المجتهد متى صح النقل عن هذا الإمام .

وجوابنا عن الموضع الثانى أن فتح باب الاجتهاد ، والترحيب بالخلاف الفقهى المبنى على النظر والاستنباط ليس معناه هدم ما لدينا من تراث فقهى جادت لنا به عقول أئمتنا .

والأستاذ لا يزعم أن المجتهد فى أى عصر من العصور مستغن عن معرفة ما قيل فى المسائل التى يجتهد فيها ، وعن النظر فى أدلة المجتهدين قبله . وليس من شرط الاجتهاد أن يغلق المجتهد نفسه على نفسه ، فلا يسمح لفكره أن ينظر فيما رآه غيره كلا ، إنما الذى يجب عليه - كما يوافقنا الأستاذ - أن يعمل فكره ، ويفرغ وسعه ليصل إلى الحق ، دون تقصير ، أو تأثر إلا بالدليل ، فإذا صادفه دليل استدل به غيره وانقدح فى نفسه فقد قرب الله عليه الشقة ، ويسر له السبيل .

ولو كان الاجتهاد يقتضى التخلص من آراء المجتهدين والغاء مذاهبهم لما بقى لنا فقه ، ولا امتد حبل النظر فى اتصال بين الأولين والآخرين .

أما اشتراط الحياة فيمن يقلده العامة أو عدم اشتراطها ، فهذا موضوع آخر لم يتطرق إليه الكلام ، ولم يقصد بالبحث فيما نشرته « رسالة الإسلام » .

م . . .

# معجم ألفاظ القرآن الكريم

يوشك « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » أن ينتهى من تحضير المعجم القرآنى الذى يتكفل ببيان معانى الألفاظ الواردة فى القرآن الكريم .

والطريقة التى رسمها المجمع الموقر لوضع هذا المعجم تتلخص فيما يلى :

أولا : يُتتبع اللفظ فى القرآن الكريم ، ويُنظر فى معانيه اللغوية فى شتى مواضع وروده ، فإذا كان قد ورد فيها كلها بمعنى واحد بُيّن هذا المعنى مع التمثيل له ببعض الآيات التى ورد فيها ، على أن يُكتب فى نهاية الآية اسم السورة ورقم الآية فى المصحف ، وإذا كانت المعانى مختلفة ، أو بعضها حقيقى وبعضها مجازى ، بين ذلك أيضاً بالطريقة نفسها .

ثانياً : يُعتمد فى بيان معانى الألفاظ على اللغة العربية المأخوذة من مصادرها المعتد بها ، وعلى ماذكر فى التفاسير المختلفة ، دون تقيد بما قد يكون فى بعضها ، عما لا يلائم اللغة ، ولا يتفق وأسلوب القرآن الكريم ، وعرفه الخاص فى التعبير والبيان .

ثالثاً : يُلتزم فى هذا المعجم طريقة وسطى بين الإطناب والإيجاز ، ولا يتعرض فيه لما تدل عليه الألفاظ أو الآيات من الأحكام أو المعانى الإشارية إلا بمقدار ما تدعو اليه الحال من بيان المعنى وتوضيحه .

رابعاً : يُسار فى ترتيب كلمات هذا المعجم على نسق المعجمات اللغوية الحديثة التى أساسها اعتماد الحرف الأول من الكلمة ، ثم الذى يليه ، ثم ما يثلثهما ، فيبدأ بمادة « أ ب ب » ، ثم « أ ب د » ، ثم « أ ب ق » ، وهكذا حتى ينتهى حرف الألف ، ثم ينتقل إلى حرف الباء : « ب أ ر » و« ب أ س » و« ب ت ر » الخ .. وهكذا .

خامساً : توزع مواد المعجم على أربع لجان ، تؤلف كل منها من أحد حضرات الأعضاء الأصليين بالمجمع ، ومساعد له من غير الأعضاء الأصليين .

ويناط بهذه اللجان إعداد المواد على النحو الذى تقـدم ذكره من حصر الألفاظ ، ومراجعة معانيها اللغوية ، وما قاله المفسرون فيها ، واختيار ما يقبل منها وصياغته .. الخ .

سادساً : يعرض ما عملته هذه اللجان على لجنة موحـدة تتألف من الأعضاء الأصليين للجان الأربع ، ومن ستة غيرهم من أعضاء المجمع ، وعلى هذه اللجنة أن تراجع كل مادة ، وتنظر فيما كتبته اللجنـة الأولى عنها ، وتنقح ما تراه فى حاجة إلى التنقيح ، ويكون هدفها توحيد الأسلوب والبيان بقدر الاستطاعة ، على أن يحضر العضو المساعد جلساتها التى يُنظر فيها ما اشترك فيه من المواد .

سابعاً : تعرض المواد بعد ذلك على المؤتمر العام للمجمع للنظر فيها وإقرارها .

* * *

هذه خلاصة المراحل التى يمر بها هذا المعجم ، وقد رأت مجلة « رسالة الإسلام » أن توفد فضيلة رئيس تحريرها لمقابلة حضرة صاحب المعالى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد باشا رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، كى يستأذنه فى نشر بعض ما عملته اللجان الأولى من مواد هذا المعجم على صفحاتها ، ليطلع عليه قراؤها الكُثْر فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويروا صورة تَقْرب من الصورة التى سيكون عليها إن شاء الله تعالى ، فلعل لأحد منهم رأياً مفيدا ، أو توجيهاً صالحا أو تعديلا مصيبا ، فإن القرآن الكريم هو أساس الإسلام ، وقبلة المسلمين ، وموضع العناية والتقديس من جميع شعوبهم وطوائفهم ، وإنما يعمل المجمع ما يعمل ، مبتغياً وجه الله والعلم ، وفائدة الأمة .

وقد رحب معاليه بفضيلته ، وأثنى على ما تقوم به جماعة التقريب من جهود مشكورة ، ورجا لها ولمجلتها التوفيق والنجاح ، وأمر إدارة المجمع بإعطاء مجلة رسالة الإسلام كل ما تطلب من أصول فى المعجم القرآنى وغيره ، قائلا : إننا نعد

نشر ذلك فى مثل هذه المجلة التى تقرأ فى شتى البلاد الإسلامية خدمة لأغراضنا ، ومعاونة لنا .

ونحن نشكر لمعاليه ذلك كله أعمق الشكر، ونسأل الله أن يطيل فى حياته ، وأن يبارك فيها للعالمين .

* * *

وهذه مادة « ب ى ن » من عمل لجنة فرعية من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت عضو المجمع ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى مساعده :

## ب ى ن

بان الشىءُ يبين من باب ضرب . بيانا : ظهر ووضح فهو بين .

ومثله فى المعنى : بـيَّن ، وأبان ، وتبـيَّن ، واستبان ـ غير أن هذه الأربعة تتعدى وتلزم .

بـيَّن وبين

(١) تقول بـيَّن الشىءُ أى اتضح ، ومنه المثل المشهور : « قد بـيَّن الصبحُ لذى عينين » أى وضح .

وبينته أنا : أى أوضحته وأظهرته .

وقد جاء هذا الفعل فى الكتاب الكريم ماضيـــا ومضارعا ، وكلاهما من المتعدى .

فأما الماضى فقد جاء فى خمسة مواضع منها قوله تعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » ١١٨ / البقرة .

أى أوضحناها لقوم فيهم استعداد لأن يوقنوا وأولئك هم المنصفون .

وكذلك سائر المواضع .

وأما المضارع فقد جاء فى ثلاثين موضعا ، وكلها بمعنى يُظهر ويُوضح .

فمن ذلك قوله تعالى :

١ ـــ « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » ١٥ / المائدة .

كان من شأنهم إخفاء بعض مافى كتبهم بكتمانه تارة، وإغماضه بالتأويل تارة أخرى، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بإظهار كثير مما كانوا يكتمون، وإيضاح كثير مما كانوا يُغمضون.

٢ — « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ٤ / إبراهيم.

أى ليفهمهم ما أمر بتبليغه بيّناً واضحاً.

٣ — « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ٤٤ / النحل.

أى لتظهره وتوضحه توضيحا ييسر لهم الانتفاع به.

* * *

يَبِين

(ب) وتقول: أبان الشيءُ أى وضح، وأبنت الشيءَ أى أوضحته، ومن المتعدى أبان الرجل بمعنى أفصح، أصله: أبان كلامه، فقطع عن المفعول.

وقد جاء المضارع من هذا الفعل فى الكتاب الكريم بهذا المعنى، وذلك قوله تعالى حكاية لما افتراه فرعون على موسى:

« أم أنا خير من هذا الذى هو مَهين ولا يكاد يبين » ٥٢ / الزخرف.

لمزه بما كان فى لسانه من عقدة تمنعه بعض الإيضاح، ولم يدر أن الله حلها إجابة لسؤله، وليفقهوا قوله.

* * *

تبَيّن

(ج) وتقول: تبين الشيء أى اتضح وظهر، وتبينته: إذا تأملته فوضح لك، ومنه تبيّن فلانٌ فى أمره بمعنى تثبت وتأنى، وذلك لأن تدبر الأمر لتعرّفه واضحا يقتضى التثبت والتمهل، والفعل فى هذا مقطوع عن المفعول ليفيد العموم بتبيُّن جميع الأحوال المتعلقة بالأمر.

وقد جاءت الصيغ الثلاث من هذا الفعل فى الكتاب الكريم:

فأما الماضى فقد جاء فى اثنى عشر موضعا، منها موضع واحد تعدى فيه الفعل إلى المفعول، وذلك قوله تعالى فى شأن سليمان لما قضى عليه الموت ولم تعلم الجن بموته فى حينه:

« فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »
١٤ / سبأ

أى علموا ذلك علماً واضحا .

أما سائر المواضع فالفعل فيها لازم بمعنى ظهر ووضح ، ومنها قوله تعالى :

١ — « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ٢٥٦ / البقرة .

أى اتضح سبيل الإيمان وتميز عن سبيل الغى والضلال .

٢ — « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم » ٣٨ / العنكبوت .

أى تبين لكم هلاكهم من مساكنهم التى تمرون عليها .

ويصح أن تكون « مِن » زائدة والفاعل « مساكنهم » ويؤيده قراءة الأعمش « مساكنهم » بالرفع دون « من » .

* * *

يتبين

وجاء المضارع من هذا الفعل وهو « يتبين » لازماً فقط فى ثلاثة مواضع ، كلها بمعنى يظهر ويتضح ، ومنها قوله تعالى :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ٥٣ / فصلت .

* * *

وجاء منه الأمر وهو « تبينْ » فى ثلاثة مواضع ، منها قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ٦ / الحجرات .

أى : فتدبروا الأمر متثبتين غير متعجلين ليظهر لكم بَيِّناً واضحاً ، وكذلك المعنى فى سائر المواضع ، وقد قرىء فيها كلها « فتثبتوا » .

يستبين

(د) وتقول : استبان الشىءُ أى وضح ، واستبنته أنا أى تأملتُه حتى تبين لى .

وقد جاء من ذلك فى الكتاب الكريم « يستبين » فى موضع واحد هو قوله تعالى :

« وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » ٥٥ / الأنعام .

قرأ الأكثر : سبيلُ المجرمين بالرفع ، والفعل حينئذ لازم بمعنى تظهر وتتضح وإذا بانت سبيلُ المجرمين فقد بانت سبيل المؤمنين .

وقرىء سبيلَ المجرمين بالنصب ، والفعل حينئذ متعد ، أى ولتستبين أنت سبيل المجرمين وتعرفها واضحة بيّنة .

* * *

بيّن

« البيّن » هو الواضح الظاهر ، اسم فاعل من بان يبين ، وقد جاء هذا اللفظ فى موضع واحد هو قوله تعالى حكاية لما قاله أصحاب الكهف :

« هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين » ١٥ / الكهف

أى هلا يأتون عليهم ببرهان واضح ظاهر الدلالة ، وذلك تحضيض فيه معنى الإنكار والتعجيز .

* * *

بينة و بينات

و « البيّنة » : مؤنث البيّن أى الظاهرة ، وتستعمل بمعنى الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية .

وقد جاءت هذه الكلمة مجموعة ومفردة ، مُعَرَّفة ومنكرة . فى مواضع كثيرة :

١ — تارة صفة لآية أو آيات حسية ، كما فى قوله تعالى :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ١٠١ / الإسراء .

المراد المعجزات الواضحة التى جاء بها موسى .

٢ — وتارة صفة لآيات منزلة كما فى قوله تعالى :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر » ٧٢ / الحج .

٣ — وتارة غير جارية على موصوف وهو الأكثر فى الكتاب العزيز ، بمعنى الدلالة الواضحة كما فى قوله تعالى :

« ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » ٤٢ / الأنفال .

مبينة

وجاءت لفظة « مبينة » بالإفراد فى ثلاثة مواضع ، أجريت فيها وصفا للفظة « فاحشة » .

منها قوله تعالى نهيا للأزواج عن عَضْل أزواجهن طمعا فى الافتداء بالخلع :

« ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . ١٩ / النساء

قرىء : مبيِّنة ومبِينة ، على صيغة اسم الفاعل مشددا ومخففا من بيّن وأبان ، وقرىء مبيَّنة بالفتح والتشديد على صيغة اسم المفعول من بيَّن .

والمعنى : لا يحل لكم عضلهن فى حال من الأحوال طمعا فى الخلع إلا أن يأتين بفاحشة واضحة أو موضحة لأمرهن يبدينها ، والمراد بها ما يكون من النشوز أو فساد الخلق أو إيذاء الزوج أو أهله بالبَذاء ونحو ذلك .

وكذلك المعنى فى الموضعين الباقيين .

* * *

مبينات

وجاءت لفظة « مبينات » جمعا مؤنثا فى ثلاثة مواضع ، أجريت فيها وصفا للآيات المنزلة .

منها قوله تعالى :

« لقد أنزلنا اليكم آيات مبينات » ٤٦ / النور .

قرىء بالفتح من بَيَّن المتعدى أى وضحناها وبيناها ، وقرىء بالكسر من بيَّن اللازم بمعنى واضحات ، أو المتعدى بمعنى موضِّحات .

وكذلك المعنى فى الموضعين الباقيين .

* * *

وجاءت كلمة « مبين » بصيغة اسم الفاعل فى الكتاب الكريم وصفا لأشياء كثيرة ، فجاء :

كتاب مبين ـ وقرآن مبين ـ ونور مبين ـ وحق مبين ـ وإمام مبين ـ وبلاغ مبين ـ ولسان عربى مبين ـ ورسول مبين ـ ونذير مبين ـ وفوز مبين ـ وفضل مبين ـ وسلطان مبين ـ وفتح مبين ـ وسحر مبين ـ وإفك مبين ـ وضلال مبين ـ

وإثم مبين - وخسران مبين - وبلاء مبين - وساحر مبين - وخصيم مبين - وعدو مبين - وغوى مبين - وكفور مبين - وظالم لنفسه مبين - وشهاب مبين - وثعبان مبين - وأفق مبين - ودخان مبين - وشيء مبين .

وهى :

١ — تارة من أبان اللازم بمعنى وضح ، وهذا هو الأقرب فى كل ما هو صالح لأن يوصف بالظهور والوضوح فى نفسه ، كما فى قوله تعالى :

« إن هذا لهو الفضل المبين » ١٦ / النحل .

أى الظاهر الواضح .

٢ — وتارة من إبان المتعدى بمعنى مظهر وموضح ، والمفعول فيه محذوف ، وهذا هو الأقرب فى كل ما يصلح أن يوصف بأنه مظهر لغيره وموضح ، كما فى قوله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ١٥ / المائدة .

أى مُبِينٌ لكم سبيل الحق ، ومحجة الهدى والرشاد .

٣ — وتارة من أبان بمعنى أفصح فى كلامه ، كما فى قوله تعالى :

« أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » ١٨ / الزخرف .

المراد النساء ، لأن الشأن فى الانثى ألا تستوفى الحجة ، ولا تفصح عن مرادها إفصاحا لما يغلب عليها من الحياء .

٤ — وبعض هذه المواضع يصح فيها أكثر من معنى ، مثل قوله تعالى :

« قل يأيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » ٤٩ / الحج .

يصح أن يكون من اللازم ، والمعنى نذير واضح النذارة ، والعرب تصف النذير بما يدل على الوضوح ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلى ومثلكم كرجل أنذر قومه جيشا فقال أنا النذير العريان » إنما خص العريان لأنه أبين للعين وأوضح فى التحذير لغرابته ولفته الأنظار .

ويصح أن يكون من المتعدى ، والمعنى نذير مظهر للانذار ، وذلك أبلغ فى الإعذار .

وعلى الجملة كلما وردت كلمة « مبين » صلحت لأن تكون بمعنى أن الشيء واضح في نفسه أو موضح لغيره ، ويترجح أحد هذين المعنيين بالسياق وباختلاف الموصوف .

* * *

المستبين

« المستبين » اسم فاعل من استبان ، أي الواضح ، وقد جاء ذلك في موضع واحد من القرآن الكريم وهو قوله تعالى وصفا لكتاب موسى وهرون :

« وآتيناهما الكتاب المستبين » ١١٧ / الصافات .

* * *

بيان

و « البيان » الكشف عن الشيء - أعم من النطق - وسمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره ، ولذلك يسمى ما يوضح به المجمل والمبهم من الكلام بيانا.

وقد جاءت هذه الكلمة في ثلاثة مواضع هي قوله تعالى :

١ — « هـذا بيان للناس وهـدى وموعظة للمتقين » ١٣٨ آل عمران .

أي هذا كشف وإيضاح .

٢ — « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » ١ - ٤ / الرحمن .

أي علمه الإبانة عما في نفسه بشتى الوسائل التي ميزه بها عن الحيوان .

٣ — « ثم إن علينا بيانه » ١٩ / القيامة .

الحديث عن القرآن ، والمراد إيضاحه إذا أشكل شيء من معانيه .

* * *

تبيان

« التبيان » مصدر بمعنى التبين ، وفي صيغته تأكيد لمعناه ، وقد جاء بكسر التاء على خلاف المعهود في ( التَّفعال ) بالفتح كالتذكار .

وقد جاء هذا اللفظ في موضع واحد من الكتاب الكريم منصوبا على المصدرية وذلك قوله تعالى :

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ٨٩ / النحل .

أي بيانا بليغا وشرحا لكل شيء مما جاء لأجله .

بَيْن

و « بين » ظرف مبهم لا يتبين معناه إلا بإضافته إلى متعدد لفظا أو معنى .
ومن ذلك قوله تعالى :

١ — « والسحاب المسخر بين السماء والأرض » ١٦٤ / البقرة .

٢ — « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ١١٤ / النساء .

٣ — « إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » ٦٨ / البقرة .
أى بين الفارض والبكر .

* * *

بين يدى

ويقال : « بين يديه » لمعان تفهم من القرائن ، منها :

(ا) جاء بين يديه أى سابقا له ، ومن ذلك قوله تعالى :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب » ٤٨ / المائدة .
أى لما تقدمه من الكتب .

(ب) ووقف بين يديه أو جاءه من بين يديه بمعنى جهة الأمام .
ومن ذلك قوله تعالى :

١ — « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »
٤٢ / فصلت

أى منيع لا يتطرق إليه الباطل من أية ناحية من النواحى التى أمامه أو خلفه وذلك على التمثيل بشخص قوى مستعصم لا يصل إليه أعداؤه .

٢ — « يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » ١ / الحجرات .

أى لا تجعلوا رأيكم مقدما على حكم الله ورسوله ، على تمثيل من يفعل ذلك بمن يجلس بين يدى متبوعه وقد ولاه ظهره .

(ج) وهو يعمل بين يدى فلان أى فى خضوع له وتحت سلطانه ، ومنه قوله تعالى :

« ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » ١٢ / سبأ .
أى من يعمل خاضعاً لسلطانه .

( د ) وعصفت الريح بين يدى مطر شديد أى قرب هطوله .

ومن ذلك قوله تعالى :

١ — « وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » ٤٨ / الفرقان .

٢ — « إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ٤٦ / سبأ .

* * *

من بين

وجاءت لفظة « بين » مجرورة بمن :

١ — تارة لإفادة معنى الخصوص .

وذلك فى ثلاثة مواضع .

منها قوله تعالى :

« أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا » ٥٣ / الأنعام .

أى خاصة من دوننا .

والموضعان الباقيان هما : ٨ / ص ، ٢٥ / القمر

٢ — وتارة بمعنى الظرفية على الأصل ، وهو كل ما عدا المواضع الثلاثة السابقة ، ومن ذلك قوله تعالى :

« يخرج من بين الصلب والترائب » ٧ / الطارق .

* * *

ومما يصلح للاسمية بهذا المعنى وللظرفية قوله تعالى :

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » ٣٥/ النساء .

أى إن خفتم الشقاق المسبب لفرقتهما ، أو شقاقاً بينهما .

وكذلك يقال فى ٧٨ / الكهف و ٢٥ / العنكبوت .

# رجاء من التقريب

## إلى الكتاب والباحثين

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء ، وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ — ونرجو من الباحث المحقق ـ إن شاء الكتابة عن أية طائفة أو طوائف إسلامية ـ أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها وأن يعتمد على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وأن لا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية ، واستغلتها فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين وتثبيتا لأقدامهم ، وقد سخّروا ـ مع الأسف ـ بعض الكتاب والأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها ، فعلينا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة .

هذا ما نريد أن نلفت إليه أنظار بعض المؤلفين أو المعلّقين على الآثار فى عصرنا هذا ،

ونرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، بل مصلحة الإسلام والمسلمين قبل كل اعتبار .

# من القانون الأساسى لجماعة التقريب

## المادة الثانية

أغراض الجماعة هى :ـ

ا ـ العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب ـ نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ ـ السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

## فهـــرس


| | | |
|---|---|---|
| كلمة التحرير . . . . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير | ٣٣٩ |
| تفسير القرآن الكريم . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت | ٣٤٣ |
| الأزهر ووزارة المعارف . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز | ٣٥٧ |
| روحانية الشرق ومادية الغرب . . . | لحضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك | ٣٦٤ |
| الشخصية المحمدية . . . . . . . . . . | لصاحب العزة الأستاذ محمد فريد وجدى بك | ٣٦٨ |
| حياة كلها هجرة . . . . . . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد تقى القمى | ٣٧٤ |
| نظم الحكم كما يراها الإسلام . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز المراغى | ٣٧٩ |
| ضرورات الدين والمذهب . . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنيه | ٣٨٧ |
| أربعة رجال . . . . . . . . . . . . . . . | لحضرة الأستاذ الفاضل الدكتور محمد مصطفى زيادة | ٣٩٠ |
| الزيدية باليمن . . . . . . . . . . . . . | لحضرة الأستاذ الفاضل محمد بن إسماعيل العمرانى | ٣٩٨ |
| صدق العاطفة فى الشعر الشيعى . . . | لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان | ٤٠٥ |
| التقريب واجب إسلامى . . . . . . . | لفضيلة الأستاذ الدكتور محمود فياض | ٤١٣ |
| بعض المنشآت الاجتماعية المصرية | لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى | ٤٢١ |
| الاجتهاد فى الشريعة . . . . . . . . . | لحضرة السيد محمد على الطباطبائى | ٤٢٨ |
| معجم ألفاظ القرآن الكريم . . . . | . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ٤٣٥ |
| رجاء من التقريب . . . . . . . . . | . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . | ٤٤٦ |


---


# رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٥٨٩٨٤

قيمة الاشتراك عن سنة فى البلاد العربية خمسون قرشا مصريا

وفى أمريكا أربعة دولارات وفى البلاد الأخرى ليرة إنجليزية

---

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣